الإمام محمد أبو زهرة

دراسات في الأديان

مُقارنات الأديان (الدّيانات القديمة)

محاضرات في النّصرانيّة

الدّعوة إلى الإسلام



الإمام محمد أبو زهرة

دراسات في الأديان

مقارنات الأديان (الديانات القديمة)
محاضرات في النصرانية
الدعوة إلى الإسلام

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد- مدينة نصر- القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

مُقَارَنَاتُ الأَدْيَانِ

الدِّيَانَاتُ القَدِيمَةُ

تعريف بالشيخ الإمام

محمد أبو زهرة

الإمام محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، إذ لا يختلف اثنان على أنه كان إمام عصره بلا منازع، ولكن من حقه علينا، ومن حق قارئه، أن نسطر عنه كلمات ولو فى أسطر قليلة تشير إلى نشأة ذلك الإمام، والجو الذى ولد وعاش فيه، والمواقف الشجاعة فى الإصلاح الاجتماعى والإسلامى، ولو أدى الأمر إلى الوقوف ضد اتجاهات السلطان.

هذا الإمام هو : محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد بن عبد الله، المولود فى عام ١٣١٦هـ، فى التاسع والعشرين من شهر مارس عام ١٨٩٨م. فى المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

وأسرة أبو زهرة ينتهى نسبها إلى الأشراف، ولكنها لا تدعى ذلك كما يفعل الكثيرون، ممن يرفعون بذلك النسب خسيستهم، وإن كانوا فى واقع حالهم لا يستحقون الرفعة.

– بدأ الشيخ حياته التعليمية فى الكتاب. شأن كل أزهرى فى ذلك الوقت، ثم المدرسة الأولية حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم انصرف إلى المدارس الراقية، وبها أتم حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضة والجغرافيا، بالإضافة إلى العلوم العربية، وفى سنة ١٩١٣م التحق بالجامع الأحمدى بطنطا حيث ظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه مما أثار إعجاب المحيطين به من زملاء ومربين. وفى عام ١٩١٦م دخل الإمام محمد أبو زهرة مدرسة القضاء الشرعى بعد أن اجتاز امتحان مسابقة كان أول المتقدمين فيه، ورغم فارق السن، وعدد سنوات الدراسة بينه وبينهم.

– وقد تنقل رحمه الله فى عدة مناصب بين كلية أصول الدين، وكلية الحقوق، وتدرج فى مراتب التدريس، من مدرس إلى أستاذ مساعد، إلى أستاذ ذى كرسى، إلى رئيس قسم الشريعة، إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٨م، واختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى فبراير عام ١٩٦٢، وهو المجمع الذى يعتبر بديلا لما كان يسمى فى الماضى هيئة كبار العلماء.

يتحدث عن نفسه، يقول:

- اختلطت حياتى بالحلو والمر، وابتدأت حياتى العلمية بدخول المكتب لحفظ القرآن الكريم، وإذا كان النبات قبل أن يستغلظ سوقه يعيش على الحب المتراكب، وقد يرى بالمجهر سورة النبات فى ذلك الحب، فكذلك ينشأ الناشئ منا، وفى حبته الأولى فى الصبا تكمن كل خصائصه فى الكبر، وكنت أشعر وأنا فى المكتب بأمرين ظهرا فى حياتى فيما بعد.

الأمر الأول : اعتزازى بفكرى ونفسى، حتى كان يقال عنى أنى طفل عنيد.

والأمر الثانى : أن نفسى كانت تضيق من السيطرة بغير حق.

وبسبب هذين الأمرين كانت حياة الشيخ أبو زهرة سلسلة من المواقف الشجاعة، يناضل فى سبيل الحق ضد الباطل، ولم يرحل عن دنيانا إلا وقد ترك ثروة* من العلوم الشرعية الإسلامية التى تحيط بكثير من الموضوعات من كل جوانبها. فهو الكنز الذى لاينفد، والنبع الذى لا يزال ينهل منه الظامئون، ولا يضيق بكثرة الناهلين.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير ما يجزى عالما عاملا لم يرد إلا العزة والرفعة للإسلام والمسلمين.

الناشر

محمد محمود الخضرى

* المؤلفات الكاملة للإمام محمد أبو زهرة موضحة فى آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فقد نشأت مسلما فى قوم مسلمين، وآمنت مذ نشأت بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، ولكنى كنت مشغوفا منذ نعومة أظافرى أن أعرف العقائد التى تسود الفكر الإنسانى، فى شرق الأرض وغربها؛ لأعرف مكان العقيدة الإسلامية بينها مع إيمانى بأن القرآن هو الحق الذى لاريب فيه، وماجاء به محمد ﷺ هو الصلاح الذى لا يرنقه فساد.

ولقد درست ماوسعنى الوقت، والتمكن من الاطلاع، فقرأت ماجاء فى الديانات القديمة، وما عليه الديانات السماوية بعد أن حالت وتغيرت، لأعرف مافيها من قضايا، وما يتفق مع حكم العقل، وتستسيغه الأفكار، ومالا يقبله العقل، بل يلفظه، كما يلفظ اللسان مسيخ الطعام، وماتمجه الأذواق.

ولقد انتهيت كما ابتدأت مؤمنا بالقرآن وعقيدته، والنبى وشريعته، لأن العقيدة الإسلامية فيها تنزيه العقول من الأوهام، وتطهيرها من الأرجاس، والشريعة الإسلامية فيها صلاح الإنسانية.

ولقد ألقيت هذا الذى وجدته فى الديانات القديمة دروسا فى كلية أصول الدين، ورأى معهد الدراسات الإسلامية أن ألقيه دروسا فيه، وهذه خلاصة الدروس التى ألقيتها على طلبة ذلك المعهد المبارك إن شاء الله تعالى.

وقد قسمت الدراسة إلى قسمين، قسم الديانات القديمة الباقى بعضها إلى اليوم، وقد درست فيه المصرية القديمة، والبرهمية، والبوذية، والكونفشيوسية، وفى القسم الثانى النصرانية بوصفها الحاضر، وقولها، ومجامعها وفرقها، والله سبحانه وتعالى هو الموفق، والهادى إلى سواء السبيل، ولولا توفيقه ما أنجزنا عملا.

محمد أبو زهرة

الديانة المصرية القديمة

١ – أول مايلاحظه الدارس لديانات العالم القديم أن أشد الأمم تدينا هم المصريون القدماء، حتى لقد قال شيخ المؤرخين هيرودوت : «إن المصريين أشد البشر تدينا، ولايعرف شعب بلغ فى التدين درجتهم فيه، فإن صورهم بجملتها، تمثل أناسا يصلون أمام إله، وكتبهم فى الجملة أسفار عبادة ونسك».

وذلك كلام حق – فتلك الآثار الباقية التى تحكى لنا حياة المصريين جلها – قام على أساس من التدين والاعتقاد، ولولا انبعاث هذا الاعتقاد فى النفس ما قامت تلك الأهرام، ولانصبت تلك الأحجار، ولاشيدت هاتيك التماثيل التى لاتزال تسترعى الأنظار بجمالها وزخرفها وروعتها، وقوة بنيانها، ومغالبتها الزمان، وهى قائمة الأركان ثابتة العمد، ينحدر عنها الزمان، ولايزيدها القدم إلا روعة وبهاء، لولا الاعتقاد المستكن فى النفس بحياة الأرواح ووجودها فى غلاف من الجسم لايبلى، ما اخترعوا تحنيط الأجسام الذى أبقى طائفة من الأجسام البشرية غبرت عليها السنون وهى لاتزال متماسكة لم تتحلل، ولم تتأثر أشلاؤها.

٢ – ولقد كانت شدة تدينهم سببا فى أن دخل الدين عنصرا عاملا قويا فى كل أعمالهم الخاصة والعامة، فالدين مسيطر حتى فى الكتابة فى الحاجات الخاصة وفى الإرشادات الصحية، وفى أوامر الشرطة، وسلطان الحكم، ولقد تعددت بسبب ذلك الكائنات المقدسة، والأشياء التى يعتبر احترامها من احترامهم آلهتهم، أو هى بذاتها تبلغ رتبة الآلهة، وتصل إلى مكانتها فى التقديس والعبادة، وأن فلسفة المصريين نفسها ليست إلا صورا للعقيدة وإعمالا للفكر لكى يصل إلى ما يؤيدها ويجعلها منسجمة مع قضايا العقل، أو على الأقل لكى يجعل القضايا الدينية متناسبة، يتماسك بعضها مع بعض، ولاتنافر بين أجزائها، ويضعها فى وحدة منطقية تجمعها، وتضم متفرقها فى إطار فكرى واحد.

٣ – ولقد شده بعض العلماء بحال التدين هذه التى شملت المصريين وتغلغلت فى كل شئ عندهم إلى درجة تعاظم لديه أن يكونوا غير موحدين مع تلك القوة فى التدين والتشدد فيه، فزعم لهذا أنهم كانوا فى الجملة موحدين وممن وقع فى هذا العلاَّمة ماسبيرو، فقد قال: «وكان إله المصريين واحدا فردا، كاملا، عالما بصيرا لايدرك بالحس، قائما بنفسه،

حيا، له الملك فى السموات والأرض، لا يحتويه شئ، فهو أبو الآباء، وأم الأمهات، لايفنى، ولايغيب، يملأ الدنيا، ليس كمثله شئ، ويوجد فى كل مكان».

وهذا كلام ليس من الحق فى شئ، لأن المصريين لم يكونوا موحدين، ولذا أدرك هذا المؤلف خطاه، فكتب فى طبعة ثانية مانصه : «تدلنا الآثار على أنه كان لكل من الرهبان منذ أزمان الأسرة الأولى آلهته الخاصة، وهذه الآلهة مقسمة إلى ثلاثة فرق متباينة الأصول : آلهة الموتى، وآلهة العناصر، والآلهة الشمسية» فهذا الكلام يدل على أنه رجع عن رأيه القديم، أو على الأقل هو تقييد لرأيه القديم، ومنع له من الإطلاق.

٤ - وفى الحق أن الدارس الذى يريد أن يجافى الشطط يجب عليه ألا يحكم بأن مدنية مكثت خمسة آلاف سنة، وكان أهلها على ديانة واحدة غير سماوية، لم تسر عليها قوانين التحول والتدرج، والانتقال من حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ومن غاية إلى غاية، لذلك لانستطيع أن نقول أن ديانة المصريين مكثت أكثر من أربعين قرنا لم يعرها التغيير والتبديل، وأنهم كانوا على عقيدة واحدة طوال تلك السنين، إن ذلك ضد طبائع الأمم، وضد قانون التحول والانتقال.

فلابد إذن من أن نقول أن المصريين كانت ديانتهم تتغيير، وعقائدهم تتبدل تبعا لسنة الله فى الأمم والكون مادامت لم تعتمد على أصل سماوى، بل إن الديانات السماوية نفسها قبل الإسلام كان يعروها التحريف والتغيير والتبديل، وتفهم على غير وجهها عندما يكون الناس على فترة من الرسل.

٥ - والواقع أن عقائد المصريين كانت تتخالف بتخالف الأقاليم نفسها، وكانت آلهتهم محلية، فكل مدينة كانت لها آلهتها . فكان موطن أوزيريس فى أبيدوس، وفتاح فى ممفيس، وآمون فى طيبة، وهوروس فى إدفو، وهاتور فى دندرة، إلخ .. ومكانة الإله تتبع مكانة المدينة التى يعبد فيها . وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض، فكانت بمثابة سلسلة مراتب إلهية تتبع مراتب المقاطعات السياسية.

ومن هذا يفهم أنه لم يعرف المصريون حتى التوحيد الإقليمى بأن يجتمعوا على آلهة واحدة فى كل إقليم ويتفقوا عليهم مهما تتباين جهات إقامتهم، بل كانت آلهتهم محلية، كل إقليم له آلهة خاصة به.

٦ – بيد أنه يجب علينا أن نعتقد أن دعوات إلى التوحيد الخالص بعبادة إله واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد – قد تواردت على العقل المصرى، وبعيد أن ننفى نفيا تاما عن المصريين فى مدى خمسة آلاف سنة ازدهرت فيها حضارتهم ونمت – أن تكون قد وردت عليهم عقيدة التوحيد بدعوة من رسول مبين.

ولقد ورد فى القرآن الكريم مايفيد أن يوسف عليه السلام، وهو نبى كريم من أنبياء الله دعاهم إلى عبادة الواحد القهار، فلقد ورد فى سورة يوسف ما حكاه الله عنه من كلام لصاحبى السجن فقد قال حاكيا عنه : «إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لايشكرون * يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لايعلمون[1]».

من هذا الخبر الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نحكم مستيقنين أن دعوة إلى التوحيد قد وردت للمصريين، فهذا يوسف وهو فى السجن يدعو صاحبيه إلى الدين القيم، وهجر عبادة ما سموه آلهة، وإن هى إلا أسماء سموها وأن مايزعم لها من ألوهية ما هو إلا نحلة ينحلونها إياها، وأوصاف يصفونها من غير أن تنطبق على الموصوف فى شئ، فألوهيتها وصف يذكر وليست حقيقة تعرف.

ولقد مكن الله ليوسف فى أرض مصر، واستولى على خزائن الدولة وصار ذا سلطان مبين فيها، وهو رسول من رب العالمين، فلابد أن يكون قد دعاهم جهرة إلى الدين القيم، ولابد أن يكون قد أجابه منهم أناس، ونكص عن الإجابة غيرهم.

ومهما يكن من شئ فقد كانت دعوة يوسف إلى التوحيد لها أثرها، ولكن المصريين ألفوا عبادة ما أنتجه خيالهم من ألوهية زعموها لبعض الأشياء والحيوان، فلما جاءتهم دعوة إلى التوحيد صريحة قوية بما تستمده من بينات فعلية، وأدلة منطقية، تستقيم مع قضايا الفكر، آمن من آمن، ومن لم يكن نافذ البصيرة، قوى المدارك، وقع فى حيرة بين قديم قد ألفه وتغلغل فى مكنون قلبه واستولى على أهوائه ومشاعره، وجديد قد عرفه ورأى فيه استقامة فى الفكرة، وقوة فى الاستدلال، فكان فى شك ومرية.

---

(١) يوسف : ٣٧ – ٤٠

ويظهر أن صدى دعوة يوسف استمر أجيالا يعمل فى النفس المصرية، ترى نور الحق منبعثا فيما أثر عن يوسف. والنفس قد استهواها ما أثر عن الآباء والأجداد . ولذا قال تعالى حاكيا عن لسان مؤمن من آل فرعون عندما حثهم على عدم قتل موسى : «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب[1]» فذلك الاضطراب بين القديم المألوف، والجديد الحق المعروف، هو الشك الذى استمروا فيه بعد يوسف عليه السلام، وجاءت حكايته على لسان مؤمن آل فرعون.

٧ – لم يكن المصريون إذن قد خلوا فى كل عصورهم من دعوات إلى التوحيد نعلم منها يقينا دعوة يوسف عليه السلام ، ودعوة موسى عليه السلام ، ثم إن الهكسوس الذين جاءوا إلى مصر، وحكموها أمدا غير قصير لايمكن أن يكون مجيئهم قد خلا من دعوات دينية، وخصوصا أنه ورد فى بعض الآثار أن إبراهيم عليه السلام قد زار مصر، فلابد أن يكون التوحيد قد كان موضع دعاية له، وإن لم يكن موضع إجابة منهم.

وإن احتكاك المصريين بالأسيويين فى الحروب الدائبة المستمرة لابد أن يكون هو أيضا قد أطلع الغزاة والفاتحين على ما فى أسيا من ديانات وآثار النبيين من شرائع وعقائد وأحكام، وكل ذلك لابد أن ينال شيئا من النفس المصرية، وإن لم ينل القلوب، ويستولى عليها استيلاء تاما .

ولكن تلك الأغذية الدينية، وتلك الدعوات التوحيدية التى كانت تجئ إليهم الحقبة بعد الحقبة لم ترفع المصريين إلى مرتبة الموحدين، بل يسود عقائدهم التعدد فى جملة تاريخهم، بل إنهم لم يصلوا إلى التوحيد المحلى بأن يجمع المصريون على آلهة واحدة، بل تعددت الآلهة بتعدد الأقاليم كما بينّا .

٨ – ولكن يظهر أن الكهنة – وهم الفلاسفة أيضا – كانوا يجتهدون فى أن يجمعوا المصريين على آلهة واحدة، ولذلك كانوا ينشرون عقيدة هى العقيدة الرسمية للدولة، وإن انحراف الشعب عنها كان انحرافا يختلف فى قلته وكثرته باختلاف الأقاليم المصرية، ولم تكن تلك العقيدة متحدة فى كل أدوار مصر القديمة بل حالت واعتراها قانون التحول، فتغيرت من دور إلى دور، ولنذكر خلاصتها، وماعراها من تغير .

---

(١) غافر : ٣٤ .

تعتمد العقيدة الرسمية عند قدماء المصريين على أسطورة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ فى نسبتها، وهى أن إله الإنبات والخصوبة أو إله النيل واسمه أوزيريس قد عمل على تكوين مملكة إلهية مكونة من أخته وزوجته آلهة الحكمة والتشريع والسحر واسمها إيزيس، ووزيره إله التدبير والعلم واسمه توت وغيرهم من الآلهة، ولكن أخا أوزيريس واسمه سيت وهو إله الشر والقحط نفس على أخيه ما ناله من مكانة وإجلال ودفعه الحقد إلى إيذائه، فغدر به، واحتال عليه حتى وضعه فى تابوت ثم أقفله عليه وألقى به فى اليم، فلما تفقدته زوجته ولم تجده أخذت تنقب عنه حتى عثرت عليه، ولكن قبل أن تتمكن من فتح التابوت هاجمها سيت وأخذ التابوت منها عنوة، ومزق أخاه اثنين وسبعين شلوا بعدد مقاطعات مصر إذ ذاك، ونثر هذه الأجزاء فى المقاطعات، فى كل مقاطعة شلوا، ولكن مع ذلك لم تستيئس زوجته، بل ألقى الوفاء فى قلبها شجاعة لا يأس معها، وبجد ودأب جمعت الأشلاء من كل مكان وألقت كل جزء فى موضعه من الجسم وقرأت عليه بعضا من التعاويذ والرقى السحرية، فعاد إلى الحياة، ولكنها حياة قصيرة، كانت بقدر ما أنسل ابنه (هوروس) ثم غادر هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ليقوم بالحساب والميزان لأهل الدنيا.

وهنا تكون المعركة بين هوروس وعمه سيت، إذ ينكر نسب ابن أخيه ويدعى أنه الوريث الوحيد لعرش أخيه فى المملكة الإلهية، ويرفع فى سبيل ذلك دعوى إلى محكمة الآلهة، فتهب إيزيس مدافعة عن ابنها وشرفها فتقضى المحكمة بثبوت النسب بشهادة توت، ولكن النزاع لاينتهى بذلك، بل يأخذ كل يعمل على إفساد أعمال الآخر فى الكون، وتكون دائرة هوروس فى الإنتاج والعمارة، ودائرة سيت فى الإفساد والتدمير.

وصار من آثار ذلك التناحر ما كان بين الوجه القبلى والوجه البحرى من حروب مستمرة، بل قد صار كل رئيس من رئيسى الوجه القبلى والوجه البحرى أحد هذين الإلهين.

واستمرت الحال على ذلك حتى جاء مينا الأول، فجمع فى سلطانه حكم مصر العليا والسفلى، وأعلن أن الإلهين قد حلا فى جسده، ومن ثم ابتدأت عقيدة تأليه الملك، أو حلول روح الإله فيه.

ولقد أخذت الفلسفة الدينية من ذلك الحين تعمل على التوفيق بين خلود الألوهية، وفناء الجثمانية، لأن فرعون يموت كما يموت سائر الناس، والله باق، فكيف يحل الباقى فى الفانى! ! ثم كيف يموت من ارتفع إلى مرتبة الألوهية! ! إن الحس يؤكد الموت، وعقائدهم تنافيه.

لقد دفعتهم الرغبة الملحة فى التوفيق بين ما يحسون ومايعتقدون إلى أن قالوا : إن روح الله هوروس ذات ثلاث شعب أولاها الروح الدنيا، وهى التى تحل فى فرعون الزمان، ثم تنتقل إلى من يليه، وتفيض عليه بقدسيتها، والثانية الروح العليا الحاكمة فى السموات والأرضين، والثالثة روح تبقى فى جسد فرعون الميت، وتقوم بالنصح لفرعون الحى، ولاتبقى هذه الروح إلا إذا بقى الجسم متماسكا، ولذا أعملوا الحيلة لذلك، وبنوا الأهرام وشيدوها لتكون حفاظا للجسم.

٩ – ولم يستمر فرعون موضع القداسة لحلول هوروس خليفة أوزيريس فى الألوهية، بل ارتقى وصار يحل فيه رع كبير الآلهة، وعلا عن سلطان أوزيريس عندما حالت العقيدة من ثالوث إلى تاسوع، وذلك لأن العقيدة المصرية كانت قائمة على تقديس ثالوث مكون من أوزيريس، الأب، وهوروس الابن، وإيزيس الأم، والجميع يرجع إلى واحد، ولكن لم تستمر العقيدة على هذا التثليث، بل انتقلت إلى تقديس تاسوع بدل ثالوث، وذلك التاسوع يرجع إلى قوى الطبيعة الظاهرة المؤثرة فى تحولات الأشياء ظاهرا، فقد فرضوا أن العنصر الأول الذى تكونت منه الأشياء هو الماء، وأول ما ظهر من الماء هو رع (الشمس) ومنه ظهر الهواء(سرا) والفراغ (تيفينه) ومن اجتماعهما كانت الأرض (جيب) والسماء (توت) ومن اجتماع الأخيرين نشأ النيل(أوزيريس) والأرض الخصبة (إيزيس) والصحراء (سيت) والأرض القاحلة (نيفتيس).

وقد أعطى المصريون هذه الأشياء صفة الألوهية وأضفوا عليها صفات التقديس، ولم تكن هذه هى الآلهة وحدها، بل هناك رب الأرباب، وأطلقوا عليه اسم (توم) وهناك آلهة أخرى منها «مآت» ابنة رع (وهى آلهة الحقيقة والعدل).

ولقد قال بعض العلماء : إن هذا التاسوع أفكار فلسفية علمية أراد الفلاسفة أن يبينوها للعامة فلم يجدوا طريقا لتثبيتها فى قلوبهم إلا أن يرفعوها إلى مرتبة الآلهة. على أية حال قد وصلت تلك الأشياء إلى درجة الآلهة فى نظرهم سواء كان ذلك بتقديس المصريين من تلقاء أنفسهم أم بتلقين الفلاسفة والعلماء. والحق أن الفلسفة المصرية قد امتزجت بالدين امتزاجا شديداً، فكان الكاهن هو الفيلسوف والعالم، وإذا كان الفلاسفة هم الكهان، فكل ما يقولون دين لا فلسفة ماداموا يدعون العامة إليه، وربما كانوا يضيفون معلومات فلسفية إلى الدين ويدعون الناس إليها على أنها دين، فإذا اعتنقها الناس، فهى جزء من عقائدهم على هذا الأصل.

كل ما بيناه كان هو المذهب الرسمى، أما عقائد العامة فكانت مختلفة باختلاف الأقاليم على النحو الذى بيناه.

١٠ - تقديس الحيوان عند قدماء المصريين:

اتفق المؤرخون على أن المصريين كانوا يعبدون الحيوان وتضافرت على ذلك الأخبار، وبلغت حدا استفاضت معه، فلايستطيع أحد أن ينكرها، ولقد كانوا يتحمسون فى عبادتهم للحيوان إلى حد لا يحفلون معه بقوىٍ مهما تكن رهبته أن يمس ذلك الحيوان بسوء.

يروى أنه فى سلطان الرومان على مصر قتل أحدهم قطا، وقد كان موضع عبادة فى ذلك الوقت، فهاجم القاتل جمهور من الشعب وفتكوا به ولم ينجه من صاب نقمتهم أن أرسل الملك إليهم شفاعته فيه على لسان أحد قضاته فما قبلوا شفاعته، وهم الذين اشتهروا أمام الرومان بالضراعة.

ويحكى بعض المؤرخين أنه رأى فى أثناء زيارته لمصر فى خوالى عصورها تمساحا مقدسا فى طيبة فيقول : «كان هذا الحيوان رابضا على سِيف غدير فاقترب منه الكهنة، وتقدم اثنان ففتحا فاه وحشاه ثالث حلوى وسمكا مشويا وعسلا مصفى».

ولقد قال أحد الكتاب فى هذه العبادة :«على هياكل المعابد سجف منسوجة بالحرير فإذا ماتقدمت إلى نهاية المعبد لترى التمثال تقدم إليك كاهن فى سكينة ووقار، وهو يرتل مزاميره، فيزيح قليلا من الستار ليريك الإله، فلاترى إلا قطا، أوتمساحا، أوثعبانا، أو حيوانا مؤذيا، فكأن إله المصريين دابة ملونة على بساط أرجوانى» ويحكى هيرودوت أنه شاهد نيرانا قد شبت فى مصر، فوجد السكان جميعا قد اتجهوا إلى إنقاذ القطط قبل أن يتجهوا إلى إطفاء النيران، وذلك لكى لايمس معبودهم بأى أذى.

١١ - وقد اختلفت عبارات المؤرخين فى الأمر الذى حفز المصريين إلى عبادة الحيوان.

(أ) فيجئ فى عبارات بعضهم أن السبب هو أن المصريين الأقدمين قبل أن تتوحد كلمتهم، ويخضعوا لسلطان واحد كانت قبائلهم تتنازع وتتناحر فينتصرون، وينهزمون، فيرمز المنتصرون لقراهم ببعض الحيوانات القوية ولقرى خصومهم ببعض الحيوانات الضعيفة، وقد

استمرت تلك الرموز على ماتشير إليه ردحا طويلا من الزمان، ثم نسى الناس المعنى وبقى الرمز، وصارت أسماء تلك الحيوانات باقية فى الأذهان مقرونة بالتقديس محاطة بهالة من التأليه، فقدست بلا فرق بين قوى وضعيف، ومن غير نظر إلى المعنى الذى كانت ترمز إليه، والفكرة التى كانت مقصودة منها، وصارت عبادتها على أنها آلهة، لا أنها رموز لانتصار أو انهزام.

(ب) ويجئ فى عبارات بعض المؤرخين أن الحيوانات ما كانت تعبد لأنها آلهة ولكن لأنها رمز للآلهة، فكان لكل إله من آلهتهم رمز خاص به، فيرمز لتوت برأس أبى قردان، ويرمز لآمون إله طيبة برأس كبش، وفتاح برأس عجل «ولما كان لكل مكان آلهة فله أيضاً حيوانه المقدس، وقد يكون الحيوان مقدسا فى مكان بينما هو غير مقدس فى غيره. فالتمساح الذى كان يعبد فى طيبة مثلا كان يطارد ويقتل فى غيرها».

ولما سرت فكرة تقديس الحيوان إلى العامة لم يعبدوه على أنه رمز للآلهة بل عبدوه على أنه من الآلهة نفسها، وبذلك صار عندهم فى صف الآلهة، وليس رمزا لها.

(جـ) ويرجح بعض المؤرخين أن علماء الدين من المصريين الأقدمين كانوا يعتقدون حلول الآلهة فى الأجسام، بل إنهم ما كانوا يتصورون عالما روحانيا ومجردا من الجثمانية، فالروح لابد لها من جثمان تحل فيه، حتى أنها عند الموت لا تفارق الجسم إلا على عودة سريعة إليه، وإذا كان ذلك شأن الأرواح فهو أيضا شأن الآلهة، لابد من مأوى تأوى إليه فى الحياة، وجسم تحل فيه. وقد أعملوا فكرهم فى الأحياء التى عساها تكون موضع حلول الآلهة، فزعموها فى الأحياء التى تتصل بالخصب والإنتاج، والبذر والإثمار، وأحلوها فى غيرها لميزة لاحظوها أو توهموها. فأحلوا آلهتهم أحيانا فى ثور، وأحيانا فى قط، وأحيانا فى غيرهما. وصاروا يعبدون هذه الحيوانات على أنها أوعية قد حلت فيها الآلهة. فقوام عبادة الحيوان على هذا الرأى الراجح، هو اعتقاد الحلول عند قدماء المصريين.

والعبادة كانت مقصورة على واحد من آحاد الحيوان المقدس يختار لصفات تلاحظ فيه. فمثلا فى عبادة الثور ما كانت كل آحاده تعبد، بل يختار واحد منها لعلامات فى جسمه كان يعرفها الكهنة بملاحظات مهمة تتناول وضع الشعرات وضعا يمثل الأشكال المطلوبة ولو بتمثيل بعيد على نحو ما تمثل النجوم فى السماء الدب أو القيثارة.

ويقول هيرودوت في وصف العجل الذي قد وافقت أوصافه العلامات عند الكهنة: «أبيس هذا عجل شاب لا تستطيع أمه أن تلد غيره، ويقول المصريون أن بريقا يهبط من السماء عليها، وأن هذا البريق ينبئها بأنه الإله أبيس. ويعرف هذا العجل ببعض علامات، وشعره أسود، وفي جبهته غرة مثلثة بيضاء، وعلى ظهره صورة نسر، وتحت لسانه صورة عجل وشعر ذيله مضاعف».

وإذا مات الحيوان المختار للحلول عم الحزن مصر، على أن الكهنة لا يتركونه يعيش أكثر من خمس وعشرين سنة لأنه إذا بلغها أغرقوه في عين مخصصة للشمس.

ولقد انتقلت بعد ذلك عقيدة المصريين من اختصاص حيوان من بين آحاد نوعه بحلول الآلهة فيه إلى اعتقادهم أن الآلهة تحل في النوع كله فكل البقر مقدس، وكل القطط مقدسة، وهكذا جنس كل حيوان نال مرتبة التقديس بحلول الآلهة فيه، ولقد دفعتهم عقيدة الحلول هذه إلى اعتقاد أن الحيوانات المقدسة أوتيت علم الغيب، والتعريف بالمستقبل، ولهم في ذلك أساطير وقصص جاد ببعضها الخيال الخصب وألبس بعضها لبوس الحقيقة والصدق والوهم الذي يرين على النفس، فلا يجعلها ترى الأشياء على حقيقتها.

ومهما يكن من شيء فالمصريون كانوا يعبدون الحيوان، ولا يمكن أن يكون سبب منطقي قد دفعهم إلى ذلك، بل لابد أن يكون الدافع وهما باطلا وخيالا فاسدا، لأن ذلك الاعتقاد باطل فلا يمكن أن يوصل إليه إلا نظر منحرف وفكر غير قويم، ومقدمات لا تمت إلى المنطق بنسب، ولا يربطها به سبب.

١٢- الحياة الآخرة والنفس:

لعل أروع ما في العقيدة المصرية القديمة، اعتقادهم الحياة الآخرة، وأنها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية. فقد كانت هذه الدنيا في نظرهم فترة قصيرة، بعدها حياة لها أمد غير محدود، بل إن دنيانا ليست إلا ممرا إلى ذلك الخلود. وقد قام اعتقادهم بالحياة الآجلة بعد هذه العاجلة على أساسين:

أحدهما : أن هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشر والخير والبر والفاجر، وكثيرا ما نرى في هذا المعترك الشر ينتصر على الخير، والفساق على الأبرار. فلو لم يكن هناك يوم كله للخير، وكله على الشر، يحاسب المسيء على إساءته ويكافأ المحسن بإحسانه ما استقام العدل الإلهي، فمن العدالة الإلهية إذن أن يكون يوم آخر يكون للأبرار على الفجار، وللأطهار لا للأشرار. وأن تكون الحياة الباقية لينتصر فيها الخير، وينتصف فيها من الشر.

ثانيهما : اعتقادهم في النفس الإنسانية فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم، وإن كانت تحل فيه، وأن تلك النفس ذات أربع شعب إحداها الروح، وهي أساس القوى في الإنسان، والثانية العقل والإرادة، والثالثة صورة من الأثير أو مادة أدق منه على هيئة الجسم تماما، والرابعة الجوهر الخالد السامي الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة، وهو سر الوجود والعلو، وهذه الشعبة من شعب النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة، فإذا مات اتصلت به اتصالا وثيقا. فأما الروح فهي التي تظل تتردد على الإنسان في قبره إلى أن يجتاز الحساب، ويصل إلى مرتبة الثواب، وعندئذ تعود إليه فيشعر بما يشعر به الأحياء.

ولقد كانوا يعتقدون أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليما، وسلامته هي التي تجعله صالحا لعودة الروح إليه بعد أن فارقته بالموت، ولذا بذلوا أقصى الجهد في المحافظة على الجسم، وجعله صالحا لحلول النفس فيه بعد الموت، وقد بعث ذلك فيهم الحيلة لأن يخترعوا تحنيط الموتى، وبقاء المومياء على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكي تعود النفس إلى غلافها. ولقد اجتهدوا مع ذلك في إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم تمام الشبه، لكي تحل فيها النفس إن كان الجسم غير صالح، وقد عددوا التماثيل للميت الواحد، لأنه عسى أن يكون أحدها غير صالح فيكون الآخر صالحا، ولكي تكون الروح في فسحة من الأماكن، فتنتقل من هذا إلى ذلك.

وكانوا يعتقدون أيضا أن الميت أو روحه في العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء في الدنيا من طعام وشراب، وأن ما يقدم من ذلك في الدنيا قربانا على أرواح الأموات يفيدهم في الآخرة، ولذلك تكون روح الميت في أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من طعام وشراب، وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء في الدنيا.

١٣- لهذه لمعاني والخواص التي وصفوا النفس الإنسانية بها، والعدالة الإلهية التي تسود الأكوان، اعتقد قدماء المصريين أنه لابد من حياة أخرى فيها النعيم المقيم للأخيار، والعذاب الأليم للأشرار، ثم إنه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لابد من الحساب، والحساب يكون أمام محكمة تتألف من اثنين وأربعين قاضيا يرأسها أوزريس نفسه، وتسأل المحكمة الشخص عما قدم من خير، وما قدمت يداه من شر. وقد خاض المؤرخون في بيان

الفضائل التى كانت تعد فضائل فى نظر المصريين فى هذا المقام، وقوام هذه الفضائل سلبى، دعامته عدم إلحاق الأذى والضرر بغيره من الناس، وإيجابى دعامته نفع الناس وإطعام القانع والمعتر، وإذا انتهى الحساب أمر المحاسب أن يمر على الصراط، وهو طريق ممدود فوق الجحيم، فإذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى مرتبة الآلهة، وإذا سقط من فوقه انتهى إلى واد فيه الأفاعى والحيات تتولى عقابه بقسوة، حتى ينال الجزاء الأوفى على ما قدمت يداه.

ونرى من هذا أن الأبرار من الأموات يرتفعون إلى مرتبة الآلهة، ولهذا سرى عندهم عبادة الموتى، وأضافوا إليهم صفات الألوهية وخواصها فى نظرهم، بل إنهم كانوا يعتقدون أن أرواح موتاهم تتصل بعالم الأحياء وتنبئهم بأسرار المستقبل، فتحذرهم مما عساه يكون فى سبيلهم من أخطار، وتبشرهم بما عساه ينالهم من خير، وقد ملئت أساطيرهم بشئ كثير مما يؤيد اعتقادهم فيما يزعمون.

كتاب الموتى:

١٤- هو كتاب مشتمل على آداب وفضائل، وعلى ما تلقته الروح لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب، وهو يعد الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين، يتعبدون بتلاوته وهم أحياء، ويوضع معهم فى قبورهم وهم أموات، يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده، وقد جاء عن منزلة الكتاب فى أحد أبوابه «إن الكتاب يعلى شأن الميت فى أحضان رع، ويحبوه السبق لدى توم، ويجعله عظيما لدى أوزيرس، ومرهوب الجانب لدى الآلهة. وكل ميت وضع له هذا الكتاب تخرج روحه نهارا مع الأحياء، وتصعد إلى الآلهة، ولا يعترضها عارض من أحد، تدنيه الآلهة منها، وتلمسه لأنه شبهها، ويقفه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء. هذا الكتاب خفى، وهو حق لم يعلم به أحد. إنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. إنه لا يراه أحد سواك، ومن علمك إياه فلا تزد عليه شيئا من خواطرك وخيالك، بل قم بكل ما يدعوك إليه وسط بهو التحنيط، إنه سر لا يصل إليه عامى. إنه غذاء الميت فى عالم الدنيا، وقوت روحه فى الأرض، يجعله حيا دائما، فلا يعلو عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء».

والكتاب مشتمل على جميع الكلمات السحرية التى تستعمل لعلاج الأمراض، ومشتمل على الصلوات والأدعية، وعلى ما يجب للميت من تحنيط، وطقوس دينية، ويحكى ما يقوله

الميت الذى أقيمت له الطقوس التى يدعو إليها الكتاب، فيقول: «عندئذ يقول: تحية لك يا أبى أوزيريس لقد حنطت لحومى هذه، ولن يتحلل جسمى، فأنا غير محسوس، مقتديا بك يا أبى أوزيريس، حبذا الإله فى صورة رجل لا يتحلل جسمه».

وفى الكتاب فصل قيم بما ينبغى أن تقوله الروح أمام المحكمة الإلهية فى اليوم الآخر، وقد سماه شامبليون اعترافا سلبيا، وإليك بعضه: «يا سادة، الحقيقة أننى حامل الحقيقة، إننى لم أخن أحدا، ولم أغدر بأحد، ولم أجعل أحدا من ذوى قرابتى فى ضنك، ولم أقم بدنية فى موئل الحقيقة، ولم أمازج عملى بشر قط، وجافيت الضر والأذى، ولم أعمل باعتبارى رئيس أسرة ما ليس من كمالها، ولم أكن سببا فى خوف خائف، ولا إعواز معوز، ولا ألم متألم، ولا بؤس بائس، لم أقدم على ما لا يليق بالآلهة فلم أجع أحدا، ولم أبك أحدا، ولم أقتل نفسا، وما حرضت أحدا على قتل أو خيانة، ولم أكذب. ولم أسلب المعابد ذخائرها، ولا المومياء طعامها، ولم أرتكب أمرا لا يليق مع كاهن فى كهنوته. ولم أغل فى الأسعار، ولم أطفف الكيل والميزان. ولم أسرق الماشية من مرعاها، ولم أصد طير الآلهة، ولم أدفع الماء فى عهد الفيضانات، ولم أحول مجرى ترعة، ولم أطفئ شمعة فى ساعتها، ولم أخدع الآلهة فى قرابينها المختارة. فأنا نقى، أنا نقى، أنا نقى».

وجاء فى الكتاب أيضا ما تقوله المحكمة عن الميت الذى تزكيه أعماله: «ليس فيه شر ولا خطيئة ولا فساد ولا دنس. وليس عليه اتهام، ولا فى أعماله ما يثير الاعتراض، فقد عاش من الحق وتغذى بالحق، وأن فعاله لتشرح الصدور، وهى مما يطلبه الرجال، ويسر الآلهة، وقد أخلص للآلهة محبته، وأعطى الخبز من كان خاويا، والماء من كان صاديا، واللباس من كان عاريا، وأعار الزورق لمن ليس عنده...»

ويقول جوستاف لوبون فى التعليق على هذا الكلام: «ألا يظن من يقرأ هذا الكلام أنه يسمع صوت قرون سحيقة تتكلم من قبل بوذا والمسيح، معلنة قانونها اللطيف للإحسان والنفع العام».

وفى الحق أنه مهما يكن فى الديانة المصرية القديمة من أوهام وعقائد فاسدة، لا تستمد من المنطق قوتها، فإن الآداب التى اشتملت عليها، والفضائل التى تدعو إليها، وخصوصا الجانب السلبى منها، كانت معينا خصبا، قبست منه الديانات غير المنزلة وحكمة الحكماء شيئا كثيرا، لأنها لم تخل من خير يقتبس، وحكمة تقتنص، ولله فى خلقه شئون.

البرهمية

١- الهند من الأمم ذات التاريخ المجيد، لها مدنية قديمة، وحضارة توغل فى القدم إلى أبعد أغوار التاريخ، غير أن تلك الحضارة قد أنبتت الصلة بيننا وبين جزء كبير منها، ولذا صار كنزا مدفونا فى بطون القدم، لم يكشف عنه التاريخ بعد، والأثارة الباقية التى اتصل تاريخها هى الجزء من تاريخهم الذى ابتدأ بالغزو الآرى. غير أن الكشف والبحث والنقوش، وما تنطق به الأحجار التى لم يؤثر فيها كر الغداة ومر العشى. كل ذلك يشير إلى أن فى طيات ذلك الدفين الذى ينشر من قبره بعد حضارة زاهية، ومدنية سامية لسكان الأصقاع المترامية الأطراف الخصبة الجناب، الكثيرة الخيرات، بيد أن تلك الأثارة لا تزال مبهمة، تشير إلى وجود حضارة سامية. ولم تبين كنهها وحقيقتها وكل مناحيها، وحال السكان من غنى أو فقير، ونظم الحكم ومقدار العلوم، وفروعها، وغير ذلك من مقومات الحضارة، وعناصر تكوينها، فمثل هذه الأمور لا يزال البحث جاريا فى كشفها وإعلانها، وقد أخذت الأسباب تتوافر، ومادة الاستقراء والتتبع تتكون.

أما مع الغزو الآرى فقد تكونت حضارة اتصلت سلسلتها وأحاط بها التاريخ، وهى متماسكة الأجزاء، متصلة الحلقات، فإن التاريخ يروى أن قبيلة آرية غزت الهند حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفرضت على الهنود مدنيتها وحضارتها وديانتها، وجاءوا إلى حضارة الهند التى كانت لهم قبل الغزو، فطمسوا معالمها، وقوضوا دعائمها، ولم يتركوهم أحرارا فى ديانتهم القديمة، بل فرضوا عليهم ديانتهم هم ونسخوا آلهتهم، واستبدلوا بها آلهتهم التى يعبدونها هم.

٢- وهنا تختلف كلمة المؤرخين، وتتباين مناحى آرائهم فى جزئية نشير إليها، ولا نلم بتفاصيلها، تلك هى مقام العنصر الآرى الأول، وهو أوربا، ورحل فريق منها إلى ربوع آسيا، فكان منه فى فارس والهند قبائل وأفخاذ وبطون بتلك الرحلة، وعلى هذا الرأى أكثر العلماء والباحثين، يقولون أن الهند كانت قبل الغزو الآرى مسكونة بقوم ساميين، ثم جاء الآريون غزاة فاتحين.

ولكن يرى بجوار هذا الرأى آخرون أن الآريين كان مقامهم الأول فى التركستان، ومن التركستان انسابوا فى بعض بلاد آسيا كفارس والهند واستغرقوا كل أوربا، وقد كان هذا هو الرأى القديم إلى أن غلب عليه الرأى الثانى بما جد من بحوث كما يزعم العلماء الأوربيون.

ومهما يكن من شئ فإن للهند مدنية تضرب فى القدم إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولكن قد طمست آثارهم بحضارة أخرى أتى بها غزاة فاتحون آريون، سواء أكانوا موافقين على العنصر للسكان الأصليين أم غير موافقين.

ويهمنا نحن فى دراسة تاريخ ديانتهم أن نقول: إن أولئك الغزاة كانوا يحملون معهم ديانة أخرى غير ديانة الهند القديمة. والديانة البرهمية التى سندرسها فى بحثنا هذا ليست هى الديانة القديمة، بل أصولها من ديانة هؤلاء الفاتحين، وسنبينها بعد ذلك فضل بيان.

٣- **الديانة القديمة**: أما الديانة القديمة فإن التاريخ لا يشير إليها إشارة واضحة كما قلنا، ولكن جملة ما يقال فيها وتشير إليه الآثار أن قوام هذه الديانة عبادة النيران، فإنها كانت المعبود المقدس الذى تقدم إليه القرابين من خبز وأعشاب وخمر، ويتولى الكهنة، وهم سدنة معابد النيران، القيام بما يقتضيه التقديس من طقوس ورسوم فى تلك الديانة، ولم تكن النار الإآله المتفرد بالألوهية، بل كان يشاركها فى التقديس آلهة أخرى منها الشمس، لما تفيض به على الكون من أشعة مضيئة، وحرارة منعشة للأجسام، ومنها حيوانات مخيفة كتنين مفزع أو وحش هائل، وكانوا يعتقدون أن هناك عالما آخر هو عالم الأموات، وأن الأخيار إذا ماتوا وقد رضيت عنهم آلهتهم تمنح أرواحهم معرفة الغيب، وقدرة على التأثير فى الكون، والمشاركة فى تصريفه وتدبيره بمجرد مغادرتها الأجسام، وقد استمرت تلك الديانة هى السائدة فى الهند، حتى جاءت ديانة الفاتحين.

٤ - **الديانة الجديدة وهى البرهمية** : نسخت تلك الديانة القديمة وحلت محلها، ولكن هل لنا أن نعتقد أنها محتها محوا، وقامت على أنقاضها، وشادت عليها دعائم بنائها !! إن التاريخ يثبت لنا أن العقائد لاتنتزع من النفوس انتزاعا، وتستل من القلوب كما يستل دقيق الشعر مما يعلق به، ويدخل فى نسجه، إن العقائد التى تستمكن فى القلوب، وتستقر فى ثنايا النفس، لاتنتزع منها بفعل قاهر، مهما تكن سطوته، ولابطغيان جبار مهما تكن قوته، لأن العقائد تتصل بالنفوس والأرواح، والقهر والغلبة سلطانهما على الأبدان، لا على القلوب، ولئن فعلت الدعاية والإقناع فعلهما ليكونن أقصى غاياتهما أن يغذيا النفس المتدينة بعقائد قديمة مألوفة لها، بغذاء جديد يتفاعل مع ما فى أغوارها من عقائد، ويتمازج معه ويتمثل منهما عنصر جديد قد نال من كلا المتمازجين أشطرا، وأخذ من كل واحد نصيبا، يتفاوت بتفاوت قوته، ومقدار استمكانه فى النفس، وقوة اقتناعها به.

وإذا طبقنا تلك النظرية التى تصل إلى مرتبة البدهيات المقررة عند مؤرخى الأديان، فلابد أن نقول أن الديانة الجديدة لم تمح الديانة القديمة محوا، ولم تزل كل آثارها، بل إن الناس قد مازجوا بين قديمهم وما عرض عليهم، ولا بد أن نقول مع ذلك أن أولئك الفاتحين لم يسلكوا مسلك القهر والغلب فقط في حمل الناس على الدين الجديد، بل أضافوا إلى ذلك الإقناع والتأثير بالحجة، واجتمع لدى الهنود من تفاعل القديم فى نفوسهم مزيج لعله أقرب إلى الجديد فى صورته، ولا ينافى القديم فى معناه.

٥ – **العقيدة البرهمية** : يقسم أبو الريحان البيرونى الهنود بالنسبة لاعتقادهم في البرهمية إلى خاصة وعامة، ويفرض أن الخاصة موحدون وغيرهم وثنيون، وهو يقول في هذا المقام : «إنما اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة بسبب أن طباع الخاصة تنازع المعقول، وتقصد التحقيق في الأصول، وطباع العامة تقف عند المحسوس، وتقتنع بالفروع، ولا تروم التدقيق وخاصة فيما افتنت فيه الآراء، ولم تتفق عليه الأهواء».

وبعد ذلك يبين اعتقاد الخاصة بأن معبودهم واحد أزلي، فيقول:«واعتقاد الهند في الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي، من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم المحيي المدبر. المنفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد، لا يشبهه شئ، ولنورد لك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشئ المسموع فقط.

«قال السائل في كتاب باتنجل: من هذا المعبود الذي ينال التوفيق بعبادته؟».

قال المجيب: هو المستغني بأزليته ووحدانيته عن فعل، لمكافأة عليه براحة تؤمل وترجى، أو شدة تخاف وتتقى، والبرئ عن الأفكار، لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة، والعالم بذاته سرمدا، إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم، وليس الجهل بمتجه عليه في وقت ما أو حال. ثم يقول السائل بعد ذلك: فهل له من الصفات غير ما ذكرت؟ فيقول المجيب: العلو التام فى القدر لا المكان، فإنه يجل عن التمكن، وهو الخير المحض التام يشتاقه كل موجود، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل. قال السائل : أفتصفه بالكلام، أم لا؟ قال المجيب: إذا كان عالما فهو لا محالة متكلم.

قال السائل: فإن كان متكلما لأجل علمه، فما الفرق بينه وبين العلماء الحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم؟ قال المجيب: الفرق بينهم هو الزمان فإنهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين، ونقلوا بالكلام علومهم إلى غيرهم، فكلامهم وإفادتهم في زمان، إذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم في الأزل، وهو الذى كلم براهم وغيره من الأوائل على أنحاء شتى، فمنهم من ألقى إليه كتابا، ومنهم من فتح الواسطة بابا، ومنهم من أوحى إليه فنال بالفكر ما أفاض عليه. قال السائل: فمن أين له هذا العلم؟ قال المجيب: علمه على حاله في الأزل، وإذ لم يجهل قط فذاته عالمة، لم تكتسب علما لم يكن له، كما قال في بيذ الذى أنزل على براهم: احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ، وكان قبل بيذ.

قال السائل: كيف تعبد من لم يلحقه الإحساس؟ قال المجيب: تسميته تثبت آنيته فالخبر لا يكون إلا عن شئ، والاسم لا يكون إلا لمسمى، وهو إن غاب عن الحواس فلم تدركه، فقد عقلته النفس، وأحاطت بصفاته الفكرة.

وهذه هى عبادته الخالصة، وبالمواظبة عليها تنال السعادة».

ويعتبر هذا الكلام الذي جاء فى كتبهم عقيدة الخواص. أما العوام فيرى أنهم انحرفوا عن تعاليم تلك الكتب، وزادوا أقاويل من عندهم.

ويقول حينئذ : «ثم إن تجاوزنا الخواص إلى عوامهم اختلفت الأقاويل عندهم . وربما سمجت، كما يوجد مثله فى سائر الملل. بل فى الإسلام من التشبيه والإجبار ».

وعند الكلام على عبادة الأصنام يتكلم بما يفيد أن عبادة الأصنام نحلة العوام لا الخواص، فيقول : «معلوم أن الطباع العامية نازعة إلى المحسوس، نافرة من المعقول الذى لايعقله إلا العالمون، الموصوفون فى كل زمان ومكان بالقلة، ولسكونه إلى المثال عدل كثير من أهل الملل إلى التصوير فى الكتب والهياكل كاليهود، والنصارى، والمانية».

ويسترسل فى ذكر الأشياء والأمثال، ثم يبين الخرافات التى اتخذت أساسا لعبادة الأوثان، مسندا أساس ذلك إلى ملك من ملوكهم.

٦ – هذا كلام البيرونى، كله ناطق بأن خواص الهنود موحدون، وعوامهم وثنيون، ولنا

نظرة فى كلامه، وذلك أنه فى الاستدلال لدعواه نقل نصوصاً من كتبهم، وأن هذه لاتمنع أنه يوجد فى الكتب ما يناقضها، ففيها ما يشير إلى الأقانيم الثلاثة التى سنبينها، ففى هذه الكتب عبارات تفيد وحدة الإله المسيطر بينما فيها ما يفيد التثليث أيضا، ويجب أن يفهم هذا محمولا على ذلك ليتكون منهما وحدة مؤتلفة الأجزاء، مترابطة الأفكار، فإذا فسرنا الوحدة إذن بما يتفق مع عقيدة التثليث والحلول التى سنبينها، لاتكون فكرة التوحيد التى نقل عبارتها مفيدة لمعنى التوحيد الذى يفهمه المسلمون.

ولو سلمنا أن الكتب التى نقل عنها لايفسر فيها التوحيد إلا بالمعنى الذى نفهمه معاشر المسلمين، وماتدل عليه ظواهر عبارتها، فمن أين جاء لنا أن الخواص لم ينحرفوا عن مسلك تلك الكتب ؟ وإنك لتجد فى التوراة التى يقرؤها اليهود اليوم عبارات وأحكاما دينية قد تجانف عنها اليهود جميعا اليوم، خواصهم وعوامهم فى ذلك سواء، ولو كان قد حكى لنا أخبارا عن موحدى الخواص الذين لقيهم وشاهدهم وتحدث إليهم، وحاورهم وعرف حقيقة نحلتهم لتلقينا كلامه بالقبول، ولصدقناه فى كل ما يدعى من توحيد الخواص، أما نقل نص الكتب فليس بكاف لإثبات أن الانحراف لم يقع، فإن الانحراف عن المبادئ الدينية إذا وقع شمل الخواص والعوام، بل فى بعض الأحيان يبدأ بالانحراف من يكون فى مرتبة الخواص. وأن الفرق التى ضربها فى الإسلام مثلا – وهم المشبهه، والجبرية – حجة عليه، وليسوا حجة له، فإن أولئك لانستطيع أن نقول أنهم من العوام، بل هم فى مرتبة الخواص، لأن منهم من كان ذا فلسفة وذا علم، لهذا كله لانستطيع أن نسلم للبيرونى دعواه لأن ما ساقه من الأدلة لا ينتجها، وليس بطلان الدليل مستلزما بطلان المدلول، فيجوز أن يكون فيهم موحدون يعتقدون التوحيد كما يعتقد المسلمون، ولكن ما ساقه من دليل لايصلح أن يكون حجة فى هذا المقام، ويظهر على أية حال أن موحديهم (إن كانوا) من الندرة بحيث لايمنعون تعميم الحكم بالوثنية على البرهميين، لأن الحكم يتبع الغالب الشائع، ولايتبع القليل النادر .

٧ – **ومنشأ الوثنية فى الديانة البرهمية** أنهم كانوا يعبدون القوى المؤثرة فى الكون وتقلباته فى زعمهم، ثم لم يلبثوا أن جسدوا تلك القوى، بأن اعتقدوا حلولها فى بعض الأجسام، فعبدوا الأصنام لحلولها فيها، وتعددت آلهتهم حتى وصلت إلى ثلاثة وثلاثين إلها، ثم عرا عقائدهم التغيير والتبديل، حتى انحصر الآلهة فى ثلاثة أقانيم، وذلك أنهم توهموا أن للعالم ثلاثة آلهة، وهى :

١ – براهما وهو الإله الخالق مانح الحياة، القوى الذى صدرت عنه جميع الأشياء، والذى يرجو لطفه وكرمه جميع الأحياء، وينسبون إليه الشمس التى بها يكون الدفء وانتعاش الأجسام، وتجرى الحياة فى الحيوان والنبات فى زعمهم.

(٢) سيفا أو سيوا، وهو الإله المخرب المفنى الذى تصفر به الأوراق الخضراء ويأتى الهرم بعد الشباب، وتفنى مياه الأنهار فى لجج البحار، وينسبون إليه النار، لأنها عنصر مدمر مخرب، إن تأجج لايبقى ولايذر.

(٣) ويشنو أو بشن على حد تعبير البيرونى، ويعتقدون أن ويشنو هذا حل فى المخلوقات ليقى العالم من الفناء التام، ولقد جاء فى كتاب البيرونى : «إن باسيديو يقول فى الكتاب المعروف بكيتا : أما عند التحقيق فجميع الأشياء إلهية، لأن بشن جعل نفسه أرضا ليستقر الحيوان عليها، وجعلها ماء ليغذيهم، وجعلها نارا وريحا لينميهم وينشئهم، وجعلها قلبا لكل واحد منهم، ومنح الذكر والعلم وضديهما، وإن كل معانى الخير والسمو من فيض ويشنو، وكل الحكماء والصالحين، يقومون بالعدل والصلاح والفضيلة، وينصرون الأخيار على الأشرار بفيض من ويشنو».

وهذه الآلهة الثلاثة أقانيم لإله واحد فى زعمهم، والإله الواحد هو الروح الأعظم واسمه بلغتهم (آتما).

ودون هذه الآلهة الثلاثة آلهة أخرى دون هذه الآلهة سلطانا وقوة وعبادة، وهم من هؤلاء فى الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ولكن براهمتهم وهم علماء الدين يرجعون كل شئ إلى الآلهة الثلاثة، ويرجعون كل شئ إلى إله واحد، ولايصح أن نفهم من هذا أن البراهمة يعتقدون التوحيد المطلق الذى نفهمه من كلمة التوحيد، وإلا كان العرب موحدين، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله خالق كل شئ، ولكنهم كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وهذا ليس من التوحيد فى شئ، لأن التوحيد الكامل هو التوحيد فى العبادة والخلق والاعتقاد، وليس توحيد البراهمة ولا جاهليى العرب شيئا منه.

٨ – والهنود يعتقدون أن بعض آلهتهم حلت فى إنسان اسمه كرشنة، والتقى فيه الإله بالإنسان، أو حل اللاهوت فى الناسوت فى كرشنة، كما يعبر المسيحيون عن المسيح، ويصفونه بأنه البطل الوديع المملوء ألوهية، لأنه قدم شخصه فداء للخليقة عن ذنبها الأول، ويقولون أن عمله لايقدر عليه أحد سواه.

ويعتقدون أن الإله وشنو الابن وثانى الأقانيم قد حل فيه، ومن الغريب أنهم يذكرون حول «كرشنة» من الأساطير والعجائب مايشبه ما جاء بالأناجيل عن المسيح، فكرشنة ولدمين عذراء مخطوبة، اسمها ديفاكي، ويصفونه بأنه الإله وأن ولادته أحيطت بعجائب، فالأرض سبحت، وظهر نجمه فى السماء، وترنمت الأرواح فرحا وطربا، ورتل السحاب بأنغام مطربة، وقد ولدته أمه فى غار فأضاء عند ولادته بنور عظيم، وصار وجه أمه يرسل أشعة نور ومجد، ويزعمون أنه كان لأمه قبيل ولادته خطيب قد خطبها لتكون زوجا له، كما اعتقد النصارى أن مريم أم المسيح كان لها خطيب اسمه يوسف النجار. والقول الجملى أن الهنود يعتقدون فى كرشنة ما يعتقده المسيحيون فى المسيح، وقد عقد صاحب كتاب «العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية» موازنة بين أقوال الهنود فى كرشنة، وأقوال المسيحيين فى المسيح، فتقارب الاعتقادان حتى أوشكا أن يتطابقا، وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرفة، فقد علم إذن المشتق والمشتق منه، والأصل وما تفرغ عنه، وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم.

ولننقل لك بعضا من هذه الموازنة على سبيل المثال، وغيره يقاس عليه.

أقوال الهنود الوثنيين فى كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين فى يسوع المسيح ابن الله
كرشنة : «هو المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن وروح القدس»	يسوع المسيح :«هو المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن وروح القدس»
١ – قد مجد الملائكة ديفاكى والدة كرشنة ابن الله، وقالوا: يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة.	١ – دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح قال لها سلام لك أيها المنعم عليها، الرب معك
٢ – عرف الناس ولادة كرشنة من نجمه الذى ظهر فى السماء	٢ – لما ولد يسوع المسيح علا نجمه فى المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته
٣ – لما ولد كرشنة سبحت الأرض وأنارها القمر بنوره وترنمت الأرواح وهامت ملائكة السماء فرحا وطربا، ورتل السحاب بأنغام مطربة	٣ – لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا وظهر من السحاب أنغام مطربة
(١) كتاب تاريخ الهند المجلد الثانى ص٣٢٩ (٢) كتاب تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٧، ٣٦٧ (٣) كتاب فشنوبورانا ص ٥٠٢	(١) إنجيل لوقا الإصحاح الثالث ص٢٨ . ٢٩ وإنجيل مريم الإصحاح السابع (٢) إنجيل متى الإصحاح الثانى العدد ٣ (٣) إنجيل لوقا الإصحاح الثانى العدد ١٣.

٤ – كان كرشنة من سلالة ملوكانية ولكنه ولد فى غار بحال الذل والفقر	٤ – كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه «ملك اليهود» ولكنه ولد فى حالة الذل والفقر بغار
٥ – لما ولد كرشنة أضئ الغار بنور عظيم وصار وجه أمه ديفاكى يرسل أشعة نور ومجد	٥ – لما ولد يسوع المسيح أضئ الغار بنور عظيم أعمى بلمعانه عينى القابلة وعينى خطيب أمه يوسف النجار
٦ – ومن بعد ماوضعته صارت تبكى وتندب سوء عاقبة رسالته فكلمها وعزاها	٦ – وقال يسوع المسيح لأمه وهو طفل : يا مريم أنا يسوع ابن الله وجئت كما أخبرك جبرائيل الذى أرسله أبى إليك وقد أتيت لأخلص العالم
٧ – وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له	٧ – وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له
٨ – وآمن الناس بكرشنة واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب	٨ – وآمن الناس بيسوع وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر

---

(٤) كتاب دوان ص ٢٩٧	(٤) دوان ص ٢٧٩
(٥) دوان ص ٢٩٧	(٥) إنجيل ولادة يسوع المسيح الإصحاح ١٢ والعدد ١٣
(٦) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١١	(٦) إنجيل الطفولية الإصحاح الأول العدد الثانى والثالث
(٧) دوان ص ٢٧٩	(٧) إنجيل لوقا الإصحاح الثانى من عدد ٨–١٠
(٨) كتاب الديانات الشرقية ص ٥٠٠ وكتاب الديانات القديمة المجلد الثانى ص ٣٥٢	(٨) إنجيل متى الإصحاح الثانى العدد ٢

٩ – وسمع نبى الهنود «نادر» بمولد الطفل الإلهى كرشنة فذهب وزاره في «توكول» وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهى يعبد

١٠ – لما ولد كرشنة كان «ناندا» خطيب أمه ديفاكى غائبا عن البيت حيث أتى إلى المدينة كى يدفع ما عليه من الخراج للملك.

١١ – ولد كرشنة بحال الذل والفقر مع أنه من عائلة ملوكانية

١٢ – وسمع ناندا خطيب أمه ديفاكى والدة كرشنة نداء من السماء يقول له : قم وخذ الصبى وأمه فهرّبهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة لأن الملك طالب إهلاكه

(٩) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٧

(١٠) كتاب فشنوبورانا الفصل الثانى من الكتاب الخامس.

(١١) التنقيبات الآسيوية المجلد الأول ص ٢٥٩ وتاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٠

(١٢) كتاب فشنوبورانا الفصل الثالث

٩ – ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك أن المجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود

١٠ – ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غائبا عن البيت وأتى كى يدفع ما عليه من الخراج للملك

١١ – ولد يسوع المسيح بحالة الذل والفقر مع أنه من سلالة ملوكانية

١٢ – وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كى يأخذ الصبى وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه

(٩) إنجيل متى الإصحاح الثانى عدد ١ ، ٢

(١٠) إنجيل لوقا الإصحاح الثانى من عدد١ – ١٧

(١١) انظر تعداد نسبه فى إنجيل متى وإنجيل لوقا

(١٢) إنجيل متى الإصحاح الثانى عدد ١٣.

١٣ - وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهى وطلب قتل الولد، وكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا فى الليلة التى ولد فيها كرشنة

١٣ - وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهى وطلب قتله وكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذين ولدوا فى الليلة التى ولد فيها يسوع المسيح

١٤ - واسم المدينة التى ولد فيها كرشنة «مطرا» وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن كرشنة أنه ابن الله وأنه الله إلى يومنا هذا

١٤ - واسم المدينة التى هاجر إليها يسوع المسيح فى مصر لما ترك اليهودية المطرية، ويقال أنه عمل فيها آيات وقوات عديدة

١٥ - كانت ولادة القديس راما قبل ظهور كرشنة فى الناسوت بزمن قليل وقد سعى فانسا ملك البلاد فى إهلاك القديس راما وإهلاك كرشنة أيضا

١٥ - وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل وقد سعى الملك هيرودس فى إهلاك الطفل يسوع المسيح وكان يوحنا مبشرا بولادة يسوع المسيح

---

(١٣) دوان ص ٢٨٠

(١٣) إنجيل متى الإصحاح الثانى

(١٤) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ١٧ م والتنقيبات الآسيوية المجلد الأول ص ٢٥٩

(١٤) المقدمة على إنجيل الطفولية تأليف هيجين

(١٥) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٦

(١٥) إنجيل تاريخ ولادة يسوع المسيح الإصحاح السادس

١٦ – وربى كـرشنة بين الرعـاة ولما جئ به إلى مطرا كان فى احتياج عظيم إلى التعليم فأتى له بمعلم خبير وفى وقت قليل فاق على أستاذه فى العلوم وأعياه فى المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقة

١٦ – وأرسل يسـوع المسيح إلى عند المعلم زاخوس كى يعلمه فكتب له أحرف ألف، باء وقال ليسوع قل – آلف – فقال الرب يسوع أخبرنى أولا عن معنى حرف الألف ومن بعده أقـول حـرف البـاء وأخـبـره عن الحـروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة والتى لها نقط وحركات والتى ليس لها نقط ولماذا وضـعت فى هذا التـرتيب– أى بعض الحروف قبل غيرها– وطفق يخبر عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها فى كتاب

١٧ – وفى أحد الأيام كان كرشنة سائرا مع قطيع من البقر فاختاروه ملكا عليهم وذهبت كل بقرة إلى المكان الذى عينه لها هذا الملك

١٧ – وفى شـهـر آذار جـمع يسـوع الأولاد ورتبـهم كـأنه ملك عليـهم وإذا مـر بهم أحـد كـانوا يأخذونه غـصـبـا ويـأمرونه بالسـجـود للملك

(١٦) دوان ص ٢٨٠ وتـاريـخ الـهـند المجلـد الثانى ص ٣٢١

(١٧) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٢

(١٦) إنجيل الطفولية الإصحاح العشرين عدد ١ إلى ٨

(١٧) إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨ من عدد ١ – ٣

١٨ – وفى أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فماتوا فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعا من الموت وعادوا أحياء	١٨ – وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع ذاك الصبى بيده فعاد إلى حال صحته.
١٩ – وسرق بعض أصحاب كرشنة مع عجولهم وأخفاهم السارقون فى غار فخلق كرشنة أصحابا وعجولا مثلهم فى الشكل والهيئة	١٩ – وأخفى الأولاد الذين كانوا يلعبون مع يسوع أنفسهم فى فرن فبدلوا إلى هيئة جداء فناداهم يسوع تعالوا إلى هنا يأيها الأولاد لتلعب فأعيدت تلك الجداء هيئتهم الأولى صبيانا
٢٠ – وأول الآيات والعجائب التى عملها كرشنة شفاء الأبرص	٢٠ – وأول الآيات والعجائب التى عملها يسوع المسيح هى شفاء الأبرص
٢١ – وأتى كرشنة بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وغير ذلك من أنواع الطيب فدهنت منه جبين كرشنة بعلامة مخصوصة وسكبت الباقى على رأسه	٢١ – وفيما كان يسوع فى بيت عتيا فى بيت سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثيرة الثمن فسكبته على رأسه وهو متكئ

(١٨) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣٤٣	(١٨) إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨
(١٩) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ١٤ وكتاب خرافات الآريين المجلد الثانى ص١٣٦	(١٩) إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨
(٢٠) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٩	(٢٠) إنجيل متى الإصحاح الثامن العدد الثانى
(٢١) تاريخ الهند المجلد الثانى	(٢١) إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرين عدد ٦، ٧

٢٢ – كرشنة صلب ومات على الصليب

٢٣ – لما مات كرشنة حدثت مصائب وعلامات شر عظيم وأحاط بالقمر هالة سوداء وأظلمت الشمس فى وسط النهار وأمطرت السماء نارا ورمادا وتأججت أشعة نار حامية وصار الشياطين يفسدون فى الأرض وشاهد الناس ألوفا من الأرواح فى جو السماء يتراوحون صباحا ومساء وكان ظهورها فى كل مكان

٢٤ – وثقب جنب كرشنة بحربة

٢٥ – وقال كرشنة للصياد الذى رماه بالنبلة وهو مصلوب: اذهب أيها الصياد محفوفا برحمتى إلى السماء مسكن الآلهة.

٢٢ – يسوع صلب ومات على الصليب

٢٣ – لما مات يسوع حدثت مصائب جمة متنوعة وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت، وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة وفتحت القبور وقام كثيرون من القديسين وخرجوا من قبورهم

٢٤ – وثقب جنب يسوع بحربة

٢٥ – وقال يسوع لأحد اللصين أيضا اللذين صلبا معه أقول لك أن اليوم تكون معى فى الفردوس

---

(٢٣) كتاب ترقى التصورات الدينية المجلد الأول ص ١٧

(٢٤) دوان ص ٢٨٣

(٢٥) فشنو برانا ص ٢٨٢.

(٢٣) إنجيل متى الإصحاح الثانى والعشرين وإنجيل لوقا

(٢٤) دوان ص ٢٨٢

(٢٥) إنجيل لوقا الإصحاح الثالث والعشرين عدد ٣، ٤

٢٦ – ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات	٢٦ – ومات يسوع ثم قام من بين الأموات
٢٧ – ونزل كرشنة إلى الجحيم	٢٧ – ونزل يسوع إلى الجحيم
٢٨ – وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدا	٢٨ – وصعد يسوع إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدا
٢٩ – ولسوف يأتى كرشنة في اليوم الأخير ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء	٢٩ – ولسوف يأتى يسوع فى اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء
٣٠ – وهو – أى كرشنة – يدين الأموات فى اليوم الأخير	٣٠ – ويدين يسوع الأموات فى اليوم الأخير

---

(٢٦) دوان ص ٢٨٢	(٢٦) إنجيل متى الإصحاح ٢٨
(٢٧) دوان ص ٢٨٢	(٢٧) دوان ص ٢٨٢ وكذلك كتاب الإيمان المسيحى
(٢٨) دوان ص ٢٨٢	(٢٨) إنجيل متى الإصحاح الرابع والعشرين
(٢٩) دوان ص ٢٨٢	(٢٩) إنجيل متى الإصحاح ٢٤
(٣٠) دوان ص ٢٨٣	(٣٠) إنجيل متى الإصحاح ٢٤ العدد ١ ، ٣ ورسالةالرومانيين

٣١- ويقولون عن كرشنة : الخالق لكل شئ ولولاه لما كان شئ مما كان فهو الصانع الأبدى	٣١ - ويقولون عن يسوع المسيح أنه الخالق لكل شئ ولولاه لما كان شئ مما كان فهو الصانع الأبدى
٣٢ - كرشنة الألف والياء وهو الأول والوسط وآخر كل شئ	٣٢ - يسوع الألف والياء وهو الأول والوسط وآخر كل شئ
٣٣ - لما كان كرشنة على الأرض حارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التى كانت تكتنفه ونشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى وإعادة المخلوع كما كان أولا.، ونصرة الضعيف على القوى، والمظلوم على ظالمه، وكانوا إذ ذلك يعبدونه ويزدحمون عليه ويعدونه إلّها	٣٣ - لما كان يسوع على الأرض كان يحارب الأرواح الشريرة غير مبال الأخطار التى كانت تكتنفه وكان ينشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات، كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأخرس والأعمى والمريض، ونصرة الضعيف على القوى والمظلوم على ظالمه، وكان الناس يزدحمون عليه ويعدونه إلّها
٣٤ - كان كرشنة يحب تلميذه أرجونا أكثر من بقية التلاميذ	٣٤ - كان يسوع يحب تلميذه يوحنا أكثر من بقية التلاميذ

---

(٣١) دوان ص ٢٨٢	(٣١) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول من عدد ٣.١ ورسالة كورنسوس الأولى إفسس الإصحاح الثالث العدد ٩
(٣٢) دوان ص ٢٨٢	(٣٢) سفر الرؤية الإصحاح الأول العدد ٨
	(٣٣) انظر الإنجيل والرسائل ترى كثيرا من هذا الذى ذكرناه
(٣٤) كتاب بها كافات كيتا	(٣٤) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣ العدد ٢٣

٣٥ – وفى حضور أرجونا بدلت هيئة كرشنة وأضاء وجهه كالشمس ومجد العلى اجتمع فى الآلهة فأحنى أرجونا رأسه تذللا ومهابة وتكتف تواضعا وقال باحترام : الآن رأيت ثانية حقيقتك كما أنت وإنى أرجو رحمتك يا رب الأرباب فعد واظهر فى ناسوتك ثانية أنت المحيط بالملكوت

٣٦ – وكان كرشنة خير الناس خلقا وخلقا وعلما باخلاص ونصح هو الطاهر العفيف مثال الإنسانية وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل البرهميين وهو الكاهن العظيم برهما وهو العزيز القادر ظهر لنا بالناسوت

٣٧ – كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلٓهية

(٣٥) كتاب مورس وليمس المدعو «دين الهنود» ص ٢١٥

(٣٦) المرجع السابق ص ١٤٤

(٣٧) فشنوبورانا ص ٤٩٢ عند شرح حاشية عدد ٣

٣٥ – وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائل هذا هو ابنى الحبيب الذى سررت له اسمعوا ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدا.

٣٦ – كان يسوع خير الناس خلقا وعلما بإخلاص وهو الطاهر العفيف مكمل الإنسانية ومثالها، وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل التلاميذ وهو الكاهن العظيم القادر ظهر لنا بالناسوت

٣٧ – يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره فى الناسوت سر من أسراره العظيمة الإلٓهية

(٣٥) إنجيل متى الإصحاح ١٧ من عدد ١ إلى ٩

(٣٦) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣

(٣٧) رسالة ثيموثاوس الأول الإصلاح الثالث

٣٨ - كرشنة الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس عند الهنود الوثنيين القائلين بألوهيته

٣٩ - وأمر كرشنة كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة ما يشتهيه ويحبه من مجد هذا العالم ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره فى الله فقط

٤٠ - وقال كرشنة لتلميذه الحبيب أرجونا أنه مهما عملت أعطيت الفقير ومهما أكلت ومهما قربت من قربان مهما فعلت من الأفعال المقدسة فليكن جميعه بإخلاص لى أنا الحكيم والعليم ليس لى ابتداء وأنا الحاكم المسيطر والحافظ

٤١ - قال كرشنة أنا علة وجود الكائنات فىّ كانت وفىّ تحل وعلىّ جميع مافى الكون يتكل وفىّ يتعلق كاللؤلؤ المنظوم فى خيط

٣٨ - يسوع الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس عند النصارى

٣٩ - وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل كما يأتى: وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية

٤٠ - فإذا كنتم تأكلون وتشربون أو تفعلون شيئا فافعلوا كل شئ لمجد الله

٤١ - من يسوع وفى يسوع وليسوع كل شئ «كل شئ به كان وبغيره لم يكن شئ مما كان»

---

(٣٨) كتاب مورس وليمس المدعو العقائد

(٣٩) ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١١

(٤٠) مورس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١١

(٤١) مورس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٢

(٣٨) انظر كافة كتبهم الدينية وكذلك الأناجيل والرسائل

(٣٩) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٦

(٤٠) رسالة كورنسوس الأولى الإصحاح العاشر من عدد ١ : ٣

(٤١) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول من عدد ٣١

٤٢ – وقــال كـرشنة: أنا النور الكائن فى الشـمس والقـمر وأنا النور الكائن فى اللهب وأنا نور كل مـا يضئ ونور الأنوار ليس فىّ ظلمة

٤٢ – ثم كلمـهم يسـوع قـائلا أنا هو نور العالم من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة

٤٣ – قـال كرشنة أنا الحـافظ للعـالم وربه وملجؤه وطريقه

٤٣ – قــال يســوع أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتى الأب إلا بى

٤٤ – وقال كرشنة «أنا صـلاح الصالح وأنا الابتداء والوسط والأخير والأبدى وخالق كل شئ وأنا فناؤه ومهلكه»

٤٤ – وقال يسوع أنا هو الأول والآخر ولى مفاتيح الهاوية والموت

٤٥ – وقال كرشنة لتلميذه الحبيب لاتحزن يا أرجـونا من كـثـرة ذنوبك أنا أخلصك منهـا فقط ثق بى وتتوكل على واعبدنى واسجد لى ولا تتصـور أحدا سواى لأنك هكذا تأتى إلى المسكن العظيم الذى لاحاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللذين نورهما منى

٤٥ – وقــال يســوع للمــفلوج ثق يا بنى مـغـفـورة لك خطاياك يا بنى أعطنى قلبك والمدينة لاتحتـاج إلى شـمس ولا إلى قـمـر ليضيئا فيها الحروف سراجها

---

(٤٢) كـتـاب مـوريس وليـمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٣

(٤٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ العدد ١٢

(٤٣) دوان صفحة ٢٨٣

(٤٣) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر عدد ٦

(٤٤) كـتـاب مـوريس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٣

(٤٤) رؤيا يوحنا الإصحـاح الأول من عـدد ١٧ – ١٨

(٤٥) كـتـاب مـوريس وليـمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٣

(٤٥) إنجيل متى الإصحاح ٩ عدد ٢ وسفر الأمثال الإصحاح ٢٣ عدد ٢٦ وسفر الرؤيا الإصحاح ١٢ عدد ٢٣

٩ - النفس، خلودها وتناسخ الأرواح :

النفس فى نظر البراهمة جوهر خالد صاف عالم مدرك تام العلم والإدراك مادام منفصلا عن الجسد، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفاؤه، ونقص علمه، ولذا يقول باسديو كما نقل البيرونى «إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة، فإذا تلبست بها كانت بكدورتها جاهلة، وظنت أنها الفاعلة، وأن أعمال الدنيا معدة لأجلها، فتمسكت بها، وانطبعت المحسوسات فيها فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات باقية، فلم تنفصل عنها بالتمام، وحنت إليها وعادت نحوها».

وهذه النظرية التى تقرر أن النفس عالمة قبل اتصالها بالجسم تقارب نظرية أفلاطون فى المثل العليا فى النفس، وربما كانت أصلا لها، فالعالم لايقع فى قبضة أحد، بل هو يتنقل فى البلاد والأمم تنقل الرياح والأمطار فيها، لاتقف دونه الحاجزات، ولاتسد الطريق عليه سدود من حدود وحصون.

١٠ - والنفس عندهم خالدة باقية لايعروها الفناء، ولا يتطرق إليها البلى، ولقد صرحت بذلك كتبهم، وهذا ما نقله البيرونى، يشهد بما نقول : قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال، وهما بين الصفين : «إن كنت بالقضاء السابق مؤمنا فاعلم أنهم ليسوا، ولانحن بموتى ولا ذاهبين ذهابا لارجوع معه، فإن الأرواح غير مائتة ولامتغيرة، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن، ثم العودة له». وقال أيضا : «كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة، ولا إلى تلف وعدم، بل هى ثابتة قائمة، لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغصها، ولا ريح توبسها، لكنها تنتقل من بدنها نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق، فما عملك لنفس لاتريد».

١١ - ومن هذا النص يفهم أن عقيدتهم فى النفس أنها لا تريد، وأنها تنتقل من جسم إلى جسم ومن ذلك جاء اعتقادهم فى تناسخ الأرواح، وهو الطابع الذى امتازت به الديانة البرهمية، حتى لقد قال فى ذلك البيرونى : «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والأسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ علَم النحلة الهندية من لم ينتحله لم يك منها».

وقد قامت عقيدة التناسخ عندهم على دعائم ثلاث :

(الدعامة الأولى) اعتقادهم خلود الأرواح.

(الدعامة الثانية) اعتقادهم أن الروح بعد مفادرة الجسم تكون فى حنان دافع إلى الأجسام، لما انطبع فيها من المحسوسات، وأثر فيها من الماديات، وأن كل ذلك التأثير قد عكر صفاءها، وكدر نقاءها.

(الدعامة الثالثة) أن النفس فى بقائها فى الجسم تحيط علما بالجزئيات وإن كان علمها بالصورة الكلية ثابتا لها، وهى فى تنقلها من جسم إلى جسم تستفيد من كل جسم علما جديدا بجزئيات لم تكن تعلمها، فليس من المعقول أن تحيط بكل الجزئيات علما ببقائها أمدا قصيرا فى جسم واحد، ولذلك «احتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات، وهى وإن كانت متناهية عددها كثير والإتيان على الكثرة وإحصاؤها علم يحتاج إلى فسحة فى الأمد، ولذلك لايحصل ذلك العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناوبها من الأفعال والأحوال، حتى يحصل لها فى كل واحد تجربة، وتستفيد بها جديدا فى المعرفة»[1].

لهذا كله كانت الأرواح تنتقل فى الأجسام، وتنتقل متدرجة فى الرقى من جسم إلى جسم حتى تصل إلى الكمال المطلق، وتكون فى صف الروحانيات المتجردة : وهى الملائكة وتكون غير محجوبة عن التصرف فى السموات والأرض، وتدبير الكون.

وإذا كانت الروح قد ارتكبت خطايا فى أثناء حلولها فى أحد الأجسام أركست فى حيوان دون الذى كانت فيه لتكفر عن خطيئاتها، وتطهر من سيئاتها، ثم تسير قدما إلى الرقى، لايعوقها عن بلوغ أوجه إلا خطايا تتأثم بها، ثم تتطهر . وتستمر كذلك حتى تصل إلى الملكوت الأعلى مع الملائكة فى أعلى عليين، وتتجرد من الغلاف الجسمى، وقد يكون تدرجها إلى أدنى، فتهوى إلى جهنم على حسب الأقوال عندهم.

ولعقيدة التناسخ، التى استولت على الفكر الهندى وأثرت فيه – كانوا يعتقدون أن الروح الواحدة تحل فى عدة من الأجسام، وأن الشخص قد تكون روحه قد حلت فى مئات الأجسام قبله، يحكى البيرونى عن ملك من ملوكهم «أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يحرق فيه ميت قط، وأنهم طلبوا موضعا كذلك، فأعياهم، حتى وجدوا صخرة

(١) ما للهند من مقولة – البيرونى.

من البحر ناتئة، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية، فقال لهم باسديو : إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون، فإنما قصد إعلامهم وقد قضيت حاجته».

١٢ - نظام الطبقات فى الديانة الهندية :

الناس فى نظر الديانة البرهمية ليسوا سواء، من حيث العبادة أو الزهادة أو طلب الزلفى، بل هم مختلفون من حيث الطبقات والأعمال وما يمتهنون من مهن، فقد قسم الناس فيها من حيث مهنهم وأصولهم وأنسابهم إلى أربع طبقات :

الطبقة الأولى : وهى أسماها طبقة البراهمة، وهم رجال الدين الذين يبينون أحكامه، ويذكرون قضاياه، ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الإله براهما، ولذلك كانوا أعلى الناس وخلاصة الجنس البشرى، وعقله المفكر ورأسه المدبر، وذلك لأن الرأس فى الجسم عنوان ذلك كله، فهو علاوة الجسم، وموضع التدبير فيه.

والطبقة الثانية : طبقة الجند ويسميهم البيرونى كشتر، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب براهما ويديه، وهم لهذا الحماة والغزاة والقوة، ومرتبتهم دون مرتبة البراهمة وهى المرتبة التى تليها.

والطبقة الثالثة : طبقة الزراع والتجار، وهم مخلوقون من ركبتى الإله براهما فى زعمهم، وتسمى (بيش) والمسافة بينهم وبين الطبقة التى تسبقهم كبيرة جدا، وقريبة من الطبقة التى تليهم.

والطبقة الرابعة : وهى طبقة الخدم والأسارى، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمى الإله «براهما» وتسمى (شودر).

١٣ - ولكل طبقة من هذه الطبقات آداب خاصة تتحلى بها، فيجب على البرهمى أن يكون وافر العقل، ساكن القلب، صادق اللهجة، ظاهر الاحتمال ضابطا للحواس، مؤثرا للعدل، بادى النظافة، مقبلا على العبادة، مصروف الهمة إلى الديانة.

ويجب أن يكون (الجندى كشتر) «مهيبا شجاعا معظما ذلق اللسان سمح اليد، غير مبال بالشدائد، حريصا على تيسير الخطوب».

ويجب أن يكون الزراع والتجار مشتغلين بالزراعة ويراعون العناية بالسوائم والقيام بشئون التجارة، وما تقتضيه من معرفة بشئون الأسواق وما تقتضيه من صفق فى البياعات وتمرس بشئونها وتتبع لها.

ويجب أن يكون الخدم والأسارى مجتهدين فى الخدمة والتملق إلى الناس والتحبب إليهم، لأن ذلك أليق الآداب بهم وهو الذى يتفق مع عملهم.

ويقول البيرونى بعد بيان الآداب الواجبة لكل طبقة : «وكل من هؤلاء إذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير فى إرادته إذا كان غير مقصر فى عبادة الله، غير ناس ذكره فى جل أعماله، وإذا انتقل عما عهد إليه إلى ما عهد إلى طبقة أخرى، وإن شرفت عليه كان آثما بالتعدى فى الأمر».

١٤ – وعلى ذلك تكون كل طبقة ليس لها أن تعدو حالها إلى حال طبقة أخرى، فالزراع لايصح أن يكونوا من التجار، والجند لايرتقون إلى درجة الكهنة، وهكذا. وكل طبقة تنتقل حالها إلى الأعقاب والأخلاف، فالطبقة تورث من الشخص إلى غيره من عقبه.

ويظهر أن التقسيم الأول عند الفتح كان ملاحظا فيه الجنسية، فهو تقسيم جنسى أكثر منه تقسيما للعمل، ولذلك يقول البيرونى : إنهم يسمون طبقاتهم «برن» ومعناها الألوان، ويسمونها أيضا (جاتك) ومعناها المواليد، فالأصل إذن فى الطبقات تقسيم جنسى، وتنقل إلى الأعقاب بالولادة، والأنساب.

وهناك دون هذه الطبقات الأربع : المحرومون، وأبناء الزنى، والذين يتناولون الأعمال القذرة فى المدن، والأعمال الحقيرة، ويسمون من ليسوا من الهند «امليج» ومعناها أنجاس.

والمحرومون وأبناء الزنى والأنجاس فى طبقة دون الطبقات الأربع جميعا، ولايتسامون أبدا إلى واحدة منها، ويعتبرون هم والطبقة الرابعة منبوذين.

١٥ – هذا. وكل طبقة ليس لها أن تتناول من أبواب العبادة ما يتناوله الآخر، فللبرهمى عبادته الخاصة به وطرقه.

بل إن البرهمى له باعتبار السن أحوال أربع، ولكل سن حال خاصة بها، فالدرجة الأولى درجة التلمذة التى يتلقى فيها علوم البراهمة ويأخذه أستاذه ببعض آدابهم، والدرجة

الثانية أن يكون رب أسرة، وتبتدئ من الخامسة والعشرين، وفيها يعنى بتكوين بيت له، ويختار له زوجا من طبقته، والدرجة الثالثة درجة النسك والعبادة يهيم فيها في الغابات والأحراش، وينال فيها من ثمر الأشجار وبعض الأعشاب، ومتى جاز هذه الدرجة بنجاح تام وبلغ سنها المعيّنة انتقل إلى أسمى الدرجات، وهى درجة الفقير، فيخرج من حكم الجسد، وتحكم فيه الروح فقط ويقرب من الآلهة.

١٦ - وهنا يثار نظر الناس فى المنزلة الدينية أهى كذلك ؟ أم تلك المنازل دنيوية أقرها الدين لتنظيم المجتمع فى الدنيا، وهم أمام الدين فى الخلاص سواء ؟ مما لاشك فيه أن تلك المنازل لها أثرها الدينى فى المعاملة فى الدنيا، فالبرهمى له أن يقرأ كتبهم المقدسة، ويتعلمها ويعلمها للناس، والمحاربون لهم فقط أن يقرءوها ويتعلموها، وليس لهم أن يعلموها، فذلك ليس من عملهم فى شئ، لأنهم خصصوا للجهاد والدفاع، والزراع والتجار والخدم ليس لهم أن يقرءوا كتبهم ولا أن يتعلموها، بل إن ثبت أنهم فعلوا شيئا من ذلك رفعت البراهمة الأمر إلى الوالى فقطع لسان من فعل.

وأما كل أعمال البر غير ماذكرنا، وغير تقديم قرابين النار، فهو غير ممنوع عن طبقة من الطبقات.

وقد اختلفت عباراتهم فى الخلاص الذى هو أعلى الدرجات ثوابا : أهو خاص بالبراهمة والفقراء أم يعم الجميع ؟ فبعضهم يمنع من الخلاص الطبقتين السفليين، ولكن الأكثرين على أن الخلاص ثواب الجميع، ولقد قال باسديو فى طلب الخلاص : «إن العقل قد سوى عنده البرهمى وجندال[1] والصديق والعدو، والأمين والخائن، بل الحية وابن عرس، فإن كان العقل هو الذى سوى فالجهل هو الذى فصل وفضل».

١٧ - **الحياة الأخرة** : من عادات الهنود الدينية أن أجسام أكابرهم تحرق بعد الموت، وذلك لأن النار فى اشتعالها تعلو شعلتها إلى أعلى بخط عمودى على أفق الأرض، والعمود أقرب المستقيمات بين السطوح والخطوط، ولذا تتجه الروح بهذا الاحتراق إلى أعلى، سائرة باتجاه عمودى، فتصعد إلى السماء فى الملكوت الأعلى فى أقرب زمن. هذا سبب من أسباب حرق أجسام كبرائهم بعد موتهم، وهناك سبب آخر، هو أن فى الاحتراق تخليصا

(١) طبقة من أدنى طبقات الطبقة الرابعة.

للروح من غلاف الجسم تخليصا تاما، وذلك أن فى الجسم نقطة بها يكون الإنسان وهى متأشبة بالجسم متصلة به، فلا تخلص منه إلا باحتراق أمشاجه وصيرورتها ذرات صغيرة بالاحتراق، فعندئذ تتخلص تلك النقطة وهى معنى الإنسان، وبتخلصها تتخلص الروح من الجسم، وتعلو عنه لتتصل بجسم آخر أو لتسمو إلى درجة الملائكة، إن كانت قد وصلت إلى درجة الخلاص.

١٨ – وإذا تخلصت الروح من الجسم كان أمامها ثلاثة عوالم : أولها العالم الأعلى، وهو الملائكة، تصعد إليه الروح إن كانت بعملها تستأهل الصعود إليه، والخلاص من الجسم، والسمو إلى الملكوت الأعلى، والعالم الثانى عالم الناس، وهو عالمنا الحاضر معشر الآدميين، والنفس تعود إليه بالحلول فى جسم إنسانى آخر لتكتسب عمل خير، ولتجتنب عمل شر، إذا كانت أعمالها فى الجسم الأول لاترفعها إلى مراتب التقديس فى أعلى عليين، ولاتنزل بها إلى أسفل سافلين فى العالم الثالث وهو عالم جهنم، وهذا العالم يكون لمرتكبى الخطايا الواقعين فى الذنوب، وليس هناك جهنم واحدة، بل لكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم، فالمدعون على غيرهم حقوقا كاذبة وشهود الزور لهم جهنم خاصة بهم، وسافك الدم وغاصب حقوق الناس والمغير عليهم وقاتل البقر لهم جهنم خاصة بهم، وقاتل البرهمى وسارق الذهب ومن صحب الأمراء الذين لاينظرون إلى رعاياهم لهم جهنم خاصة، والذى يرد قول أستاذه ولايرضاه، ويستخف بالناس ويستهين بالكتب المقدسة أو يكتسب بها فى الأسواق له جهنم أيضا خاصة، وهكذا لكل صنف من الآثمين جهنم بمقدار يتناسب مع ذنبهم، ومقدار ما فيهم من فسوق عن الدين وخروج من حظيرته.

ثم هل جهنم دائمة، وكذلك الجنة ؟ منهم من يرى أن الجنة نزلها دائم، وأن الجحيم كذلك، وأنها للجنة أبدا أو الجحيم أبدا، على مقدار ما قدم الشخص من عمل، فإن كان العمل فى الحياة لايرفع إلى الجنة ولاينزل إلى الجحيم أعيدت الروح إلى جسم آخر، لتعمل ما يعليها أو يرديها.

ومنهم من يرى أن طريق الاكتساب هى الإنسانية وحدها، وأن التردد فيها مكافأة قاصرة عن درجة الثواب والعقاب الأخروى، أما الجنة فإنها فى علوها تكون للنعيم الذى يستحقه من قدم عملا حسنا، ويكون البقاء فيها إلى أمد محدود، وإذا كان العمل الإنسانى

إثما وخطيئة تردت روح الشخص فى الحيوان والنبات وعقابا لها على ما اجترحت من سيئات وقدمت من خطايا، وبقيت فى ذلك أبدا حتى تتطهر مما اجترحت، وليست جهنم إلا هذا التردى عند هؤلاء، فالجنة والجحيم ليستا أبديتين عند هؤلاء، بل هما مؤقتتان بهذا التأقيت، بعدها تصعد الروح درجة إلى العالم العلوى أو تنزل إلى المرتبة الإنسانية.

وكلا الرأيين يسير على مناهج تناسخ الأرواح، وإن اختلفت أنظارهم فيه، ومهما يكن من خلاف فى هذا المقام فالمتفق عليه أن البعث فى العالم الأخروى إنما هو للأرواح لا للأجساد، فالروح إما فى روح أو ريحان، وإما فى شقوة وجحيم على نحو ما بينا.

١٩ - **كتب الديانة الهندية**:- أقدم كتبهم الفيدا، ولم يعرف المؤرخون عصر كتابتها على وجه التحقيق والضبط، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل خمسة عشر قرنا . فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من أصول ديانتهم. والفيدا مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم، ويقول جماهيرهم أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بأمثالها. ويقول البيرونى : إن خاصتهم يقولون أن فى مقدورهم أن يأتوا بمثلها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها. ولم يبين لنا البيرونى وجه المنع، أهو منع بمعنى التحريم، بمعنى أن فى استطاعتهم أن يتجهوا إلى الإتيان بمثلها وأن يأتوا بالفعل، ولكنهم كلفوا ألا يأتوا فهم ممتنعون إجابة لهذا التكليف ؟ أم أن هذا المنع إنما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها فهم فى قدرتهم أن يأتوا ولكنهم صرفوا عن ذلك. كما يقول بعض الجهلاء فى إعجاز القرآن الكريم، فإن من الناس من يزعم جهلا بالقرآن أو إلحادا فيه أن العرب كان فى استطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن، ولكن الله سبحانه وتعالى قد صرفهم عن ذلك صرفا، فإعجازه ليس لما فيه ولكن لأن الله سبحانه أعجز البشر عن الإتيان بمثله[1] . لم يبين لنا البيرونى أى الوجهين أراد بالمنع، لئن أراد الأول لايمنع ألا يوجد ما يماثلها، لأنه عسى أن يكون ممن يعصون التكليف من يأتى بأمثالها بل يضيف إليها، لأن الناس ليسوا معصومين من المخالفة. وما أظن أحدا من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها، لذلك نرجح أن يكون المراد هو الثانى لا الأول.

والفيدا أربع مجموعات لكل واحدة منها نهج فى القراءة وتلحين خاص فى الإلقاء، ومواضع لايتلى فيها غيرها، ولايرتل فيها سوى نوع خاص من بينها. وأولها نوع يقال له

(١) وقد أشبع عبد القاهر والباقلانى وغيرهم من كبار الكتاب فى القرون الغابرة أصحاب تلك النحلة الباطلة نقدا وردا مما لايترك مقالا لقائل.

«الرجفيدا» وعلى حد تعبير البيروني «الركبذ» وله ثلاثة مناهج للتلاوة، ويرتل عند تقديم قرابين النار. وثانيها ويقال له «الياجورفيدا» ويسميه البيروني «جزربيذ» والفرق بينه وبين الأول فى النغم والتلحين، وإن كان مثله يقال عند تقديم القرابين. وثالثها «السامافيدا» ويسميه البيروني «سام بيذ» وله نغم أيضا خاص به ويرتل عند صنع الشراب المقدس وتناوله، ورابعها «الأثارفيد» ويسميه البيروني «أثر بيذ» ويتلى عند السحر والتعاويذ وله لحن خاص به.

ويحكون لكل مجموعة من هذه الأشعار أسطورة كانت سببا لتنزيله كما يزعمون، وترتيل هذه القصائد لايصح من غير البراهمة والغزاة على ما سبق.

٢٠ – ولهم كتب غير هذه تسمى البرهمات، ويسميها البيروني «البيرانات» وهى كتب من منثور القول لامن منظومه كالفيدا، وهى أقسام كثيرة، وموضوعاتها مختلفة . فمنها ما فيه أحكام شريعتهم وفقه ملتهم من حث على الخلاص، وترغيب فى فداء الروح بالجسم وغير ذلك. ومنها ما هو خاص بالمطالعات التى يطالعها النساك الذين ينسابون فى الأحراش ويرغبون فى التخلص بالفعل من المادة، لينعموا بحرية الروح، فيطالعون تلك الكتب لتقوى عزائمهم ويستحفظونها ليعطوا العلم الباطنى بالروح الأكبر، وترتبط نفوسهم بالموجود الأعظم، ومنها كتب في أصول عقائدهم قد ذكرت فيها نشأة العالم وكيف نشأ ثم كيف ظهرت آلهتهم التى يزعمونها، وكيف وجدت المخلوقات وكيف وجد الإنسان وكيف كانت خواصه، وكيف تكون المعرفة وغير ذلك من المعلومات التى تتصل بآلهتهم وبالإنسان ونفسه وعلاقته بالآلهة والكون.

هذه إلمامة موجزة نرجو أن تكون موضحة للديانة البرهمية، ونظمها وكتبها، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وأن الدين عند الله الإسلام.

البوذية

١ – نشأت الديانة البوذية بالهند كما حلت البرهمية فيها، وقد كان منشئها برهميا، وهى فى الواقع تخفيف لما جاء فى البرهمية من تعاليم وإزالة لما أحدثته البرهمية من تفريق بين الناس يتوارث بينهم خلفا عن سلف، فلا يمحوه كر الغداة ومر العشى، بل ينتقل بالوراثة كما ينتقل الدم، ويولد مع الشخص ويلازمه وهو فى المهد.

ومنشئ تلك الديانة هو «بوذا» واسمه سداثنا واسم أسرته جوتاما وأحيانا يطلق عليه اسم أسرته. أما بوذا فلقب له ومعناه العالم.

ويلقب أيضا بسكياموني ومعناه المعتكف من أسرة سكيا.

مولد بوذا وتطور حياته:-

ولد بوذا قبل المسيح بنحو ٥٦٠ سنة في بلدة على حدود نيبال. وكان من أسرة نبيلة وفيها إمارة وكان هو أميرا. وقد شب مترفا في النعيم فاكها في الثروة، وتزوج في التاسعة عشرة من عمره، وأقام أمدا في حياة زوجية يشتار عسلها وينعم في ظلها، حتى إذا بلغ التاسعة والعشرين انصرف إلى الزهد والتأمل وهجر زوجه وخرج هائما في الأحراش والغابات راغبا عن الدنيا تاركا ملاذها. غير مُعْنًى إلا بالتأملات رائضا نفسه على خشونة الحياة وجشب العيش.

وأقام على ذلك ست سنين دأبا، لايضعف ولاينى، حتى إذا بلغ السادسة والثلاثين من عمره أحس بأن نوعا من المعرفة قد أشرق في نفسه، وقذف بنور في قلبه، وصارت تلك الحال التي أخذ نفسه بها مذهبا يجب أن يدعو إليه بقوله، ولم يبال بعقبات تكأد طريقه، ولا بصعوبات تدعثر سبيله، فالتف به شيب وشباب، وصار له تلاميذ يدعون بدعايته، وانبعثوا في الآفاق دعاة مرشدين، واستمر عددهم ينمو وخبرهم يذيع، ومذهبهم في الحياة ينتشر، وبوذا من ورائهم ومعهم لايكل ولايمل، حتى مات في الثمانين من عمره، فكأن مدة دعايته مكثت على ذلك أربعا وأربعين سنة أو تزيد، وفيها نما المذهب وزاد أنصاره وكثروا وانسابوا في البلاد دعاة بالقول والعمل. ولم يكن بوذا معنيا بتأليف الكتب بل كان معنيا بكثرة الوصايا والإرشاد العملي.

٢ - حياة ساذجة لاتعقد فيها ولاتزيّد، ولكن يأبى الذين جاءوا من بعده إلا أن يحوطوها بشتى الأساطير، أوحت بها الأوهام، ودفعت إليها أخيلة خصبة، فقد زعموا أن أمه بشرت به في المنام، وأن ولادته سبقتها معجزات، وأن الإآله حل فيه، وأن حياته كلها قد أحيطت بالمعجزات، وهكذا من الأوصاف التي انتهوا بها إلى أنه هو المنقذ المعزى، والذى قدم نفسه فداء للخليقة من الخطايا. وقد كثرت هذه الأوهام عند البوذيين الذين يسكنون في التبت في الشمال، أما أهل الجنوب[1]. وهم يبلغون نحو أربعمائة مليون فلم ترج كثيرا بينهم هذه الخرافات، وتلك الأوهام. ومن الغريب أن الأوهام التي جعلها بوذيو التبت أوصافا لبوذا تتوافق مع ماينحله المسيحيون شخصية المسيح بعد تغيير النصرانية، وها هي ذي بعض المقابلات بينهما لتعرف وجه التطابق[2].

---

(١) يلاحظ أن البوذية نشأت بالهند وأكثر معتنقيها في الصين واليابان.

(٢) منقولة من كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية».

مقابلة بين أوهام البوذيين مع ما ينحله المسيحيون شخصية المسيح

أقوال الهنود الوثنيين فى بوذا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين فى المسيح ابن الله
١ - كان تجسيد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا.	١ - كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم.
٢ - لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ودخل فى جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة.	٢ - لما نزل يسوع من مقعده السماوى ودخل فى جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة.
٣ - وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر فى أفق السماء يدعونه «نجم بوذا».	٣ - وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر فى المشرق وقال دوان : من الواجبات أن يدعى «نجم المسيح».
٤ -لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين: ولد اليوم بوذا على الأرض كى يعطى الناس المسرات والسلام ويرسل النور إلى المحلات المظلمة ويهب بصرا للعمى.	٤ - لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمدا للواحد المبارك قائلين: المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة.
٥ - وعرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إلّها.	٥ - وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة.
٦ - وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة.	٦ - وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومر.

(٥) دوان ص ٢٩٠	(٥) إنجيل متى الإصحاح الثانى من عدد ١ إلى ١١.
(٦) دوان ص ٢٩٠	(٦) إنجيل متى من الإصحاح ٢ عدد ١١.

٧- لما كان بوذا طفلا قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعا

٨ - كان بوذا ولدا مخيفا وقد سعى الملك بميسارا وراء قتله لما أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقى حيا.

٩ - لما أرسل بوذا إلى المدرسة أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل وفاق الجميع فى الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسية والتنجيم والكهانة والعرافة.

١٠ - لما صار عمر بوذا اثنتى عشرة سنة دخل الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كافة مناظريه.

١١ - ودخل بوذا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجودا له.

(٧) كتاب هردى المدعو العقائد البوذية ص ١٤٥، ١٤٦.

(٨) كتاب تاريخ البوذية تأليف نيل ص ١٠٣، ١٠٤

(٩) كتاب هردى «العقائد البوذية» وتاريخ الديانة البوذية لنيل.

(١٠) بنصن «الملاك المسيح» ص ٣٧.

(١١) بنصن «الملاك المسيح» ٦٧ الى ٦٩.

٧ - لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم (أنا ابن الله)

٨ - كان يسوع ولدا مخيفا سعى الملك هيرودوس وراء قتله كيلا ينزع الملك من يده.

٩ - لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف «لقد أتيتنى بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم»

١٠ - لما صار عمر يسوع اثنتى عشرة سنة جاءوا به إلى أورشليم وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع.

١١ - وكان يسوع مارا قرب حاملى الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجودا له.

(٧) إنجيل الطفولية الإصحاح ١ عدد ٣

(٨) إنجيل متى الإصحاح الثانى العدد الأول

(٩) إنجيل الطفولية الإصحاح ٢٠ عدد إنجيل لوقا

(١٠) إنجيل الطفولية الإصحاح ٢١ عدد ٢١

(١١) إنجيل نيكوديموس الإصحاح الأول العدد ٢٠

١٢ - ويصلون نسب كوتاما بوذا من أبيه «صسودانا» فى أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى ماها سماطا وهو على زعمهم أول ملك صار فى الدنيا.

والحوادث والأنساب المذكورة فى كتاب «بيوران» البرهمى وتجد فى أنسابه غير أنه لايمكن تحقيق الحوادث ونسبتها مع غيرها وسبب ذلك هو أن مؤرخى البوذية اخترعوا فيها أسماء تمكنهم من إعلاء نسب حكيمهم فوق اعتبارهم إياه إلّها.

١٣ - لما عزم بوذا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه «مارا» أى الشيطان، كى يجربه.

١٤ - وقال مارا «الشيطان» لبوذا لاتصرف حياتك فى الأعمال الدينية لأنك بمدة سبعة أيام تصير ملك الدنيا.

١٥ - فلم يعبأ بوذا بكلام الشيطان بل قال له اذهب عنى.

١٦ - ولما ترك مارا «أى الشيطان» تجربة بوذا أمطرت السماء زهرا وطيبا ملأ الهواء طيب عرفه.

١٢ - ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف فى أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم أبى البشر وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة فى سلالته مذكورة فى التوراة كتاب اليهود.

١٣ - لما شرع يسوع فى التبشير ظهر له الشيطان كى يجربه

١٤ - وقال «أى إبليس» له (أى يسوع) أعطيك هذه «أى الدنيا» جميعها إن خررت وسجدت لى

١٥- فأجابه المسيح وقال اذهب ياشيطان

١٦ - ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه

---

(١٢) دوان ص ٢٩١

(١٣) دوان ص ٢٩٢

(١٤) دوان ص ٢٩٢

(١٥) دوان ص ٢٩٢

(١٦) دوان ص ٢٩٢

(١٣) إنجيل متى الإصحاح ١٤ عدد ١ :٨

(١٤) إنجيل متى الإصحاح ٤ من ١٠ - ١١

(١٥) إنجيل لوقا الإصحاح ٤ عدد ٨

(١٦) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١١

١٧ – وصام بوذا وقتا طويلا.

١٨ – وقد عمد بوذا المخلص حين عمادته بالماء وكان روح الله حاضرا وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل وروح القدس الذى فيه صار تجسد كوتاما لما حل على العذراء مايا.

١٩ – ولما كان بوذا على الأرض فى أواخر أيامه بدلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل «بنداڤا» أى الأصفر المبيض فى «سيلان» ونزل عليه بغتة نور أحاط برأسه على شكل إكليل ويقولون أن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب براق مضئ كالشمس أو كالقمر وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة وحينما رأى الحاضرون هذا التحول فى هيئته قالوا ما هذا بشرا إن هو إلا إله عظيم.

٢٠ – وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب مما يمكن تصوره.

(١٧) دوان ص ٢٩٢

(١٨) كتاب الملاك المسيح ص ٤٥ تأليف بنصن

(١٩) كتاب الملاك المسيح ص ٤٥.

(٢٠) دوان ص ٢٩٣

١٧ – وصام يسوع وقتا طويلا

١٨ – ويوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل والروح القدس الذى فيه تم تجسده عندما حل بالعذراء مريم فهو الأب والابن وروح القدس

١٩ – لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور

٢٠ – وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب مما يمكن تصوره

(١٧) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ٢

(١٨) إنجيل متى الإصحاح ٧ عدد ١، ٢

(٢٠) إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ٢٨ – ٣٤ وغيره

٢١ – وفى صلاتهم لبوذا يتأمل المؤمنون به دخول الفردوس.

٢١ – وفى صلاتهم ليسوع يتأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس

٢٢ – لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية «أى بقوة إلّهية».

٢٢ – لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة إلّهية

٢٣ – وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض.

٢٣ – وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله فى الأرض

٢٤ – ولسوف يأتى بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها.

٢٤ – ولسوف يأتى يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها

٢٥ – وسيدين بوذا الأموات

٢٥ – وسيدين يسوع الأموات

٢٦ – بوذا الألف والياء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم، والواحد الأزلى.

٢٦ – يسوع الألف والياء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم، والواحد الأبدى.

٢٧ – قال بوذا فلتكن الذنوب التى ارتكبت فى هذه الدنيا علىَّ، ليخلص العالم من الخطيئة.

٢٧ – يسوع هو مخلص العالم وكافة الذنوب التى ارتكبت فى العالم تقع عليه عن الذين اقترفوها، ويخلص العالم

---

(٢١) دوان ص ٢٩٣

(٢٢) كتاب بنصن الملاك المسيح ٤٩

(٢٣) دوان ص ٢٩٣

(٢٤) دوان ص ٢٩٣

(٢٥) دوان ص ٢٩٣

(٢٦) دوان ص ٢٩٣

(٢٧) كتاب مولر المدعو تاريخ الآداب السنسكريتية ص ٨٠

(٢١) دوان ص ٢٩٣

(٢٢) إنجيل متى الإصحاح ٢٨ وإنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠

(٢٣) أعمال الرسل الإصحاح الأول عدد ١-١٢

(٢٤) أعمال الرسل الإصحاح الأول

(٢٥) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٢٢

(٢٦) إنجيل يوحنا الإصحاح ١ عدد ١

(٢٧) دوان ص ٢٩٣ وكذلك التعليم المسيحى

٢٨ – قال بوذا : أخفوا الأعمال الحسنة التى تفعلونها، واعترفوا بذنوبكم علانية.

٢٩ – ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعية. والشرير مارا «ويدعونه أيضا الحية» ذات مظلمة غير طبيعية.

٣٠ – وفى أحد الأيام التقى أناندا تلميذ بوذا وهو سائر فى البلاد بالمرأة (مناجى) وهى سبط الكندلاس المرذولين قرب بئر ماء، فطلب منها قليلا من الماء فأخبرته عن سبطها وأنه لايجوز له أن يقترب منه، لأنها من سبط محتقر، فقال لها: يا أختى إنى لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك، إنما سألتك شربة ماء فصارت من ذاك الحين تلميذة بوذية.

٣١ – قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمله، وقد سره عد نفسه حلقة فى سلسلة المعلمين الحكماء.

٢٨- قال يسوع : أخفوا الأعمال الحسنة التى تفعلونها، واعترفوا بذنوبكم علانية.

٢٩- ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير طبيعية، شمس بر، وعدوه الشيطان الحية القديمة

٣٠- وفي أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعد ما سار مسافة، حتى كاد ينهكه التعب، وبينما هو قرب البئر عند مدينة السامرة أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر، فقال لها يسوع: اسقينى شربة ماء فقالت له المرأة السامرية أنت يهودي وكيف تطلب مني شربة ماء فإن اليهود لا يستحلون معاملةالسامريين

٣١- قال يسوع لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل

---

(٢٨) مولر كتابه المدعو العلوم الدينية ص ٢٨.

(٢٩) بنصن الملاك المسيح ص ٣٩ ودوان ص ٢٩٤.

(٣٠) كتاب مولر المدعو العلوم الدينية ص ١٤٠

(٣١) كتاب بنصن الملاك المسيح ص ٤٧، ٤٨.

(٢٨) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١ ورسالةيعقوب

(٢٩) إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ العدد ١ وإنجيل لوقا

(٣٠) إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ عدد ١:١١

(٣١) إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ١٧

٣٢ - وبحسب تعليم بوذا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنى.

٣٢ - وقال يسوع أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم

٣٣ - وفي أوائل أيام بوذا التي علم ويشر فيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها فتبعه كوندينا ثم تبعه أربعة رجال آخرين وصاروا جميعهم تلامذة له، ومن ذلك الحين صار أينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويصيرون من أتباعه وتلاميذه.

٣٣ - وفي أوائل أيام يسوع التي علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة كفر ناحوم وعلم فيها فتبعه من ذلك الحين أربعة رجال صيادين وصاروا تلاميذ له ومن هذا الحين صار أينما كرز يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به

٣٤ - وقال بوذا للذين صاروا تلامذة ليتركوا الدنيا وغناهم وينذروا عيشة الفقر والفاقة.

٣٤- وقال يسوع للذين صاروا تلامذة له ليتركوا غنائم وينذروا عيشة الفقر والفاقة

٣٥ - وجاء في كتاب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا علامة «أي آية» ليؤمنوا به

٣٥- وجاء في كتب النصارى المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع آية كي يؤمنوا به

---

(٣٤) هاردي في كتابه المدعو الرهبانية في الشرق ص ٥، ٦٢.

(٣٥) كتاب علم الأديان ص ٢٧ تأليف مولر.

(٣٢) إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٤٤

(٣٣) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٣ - ٢٥

(٣٤) إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ١٩، ٢٠ والإصحاح ١٦ عدد ٢٥ - ٢٨

(٣٥) إنجيل متى الإصحاح ١٢ عدد ١٢

٣٦ - لما اقتــرب انتــهــاء أيام بوذا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التى ستقع قال لتلميذه أناندا ما يأتى : يا أناندا متى أنا ذهبت لاتظن أنه لم يعد لبوذا وجود، كلا، فالكلام الذى قلته والفرائض التى افترضتها تكون خلفا عنى وهى لك كذاتى أنا.

٣٧ - وجاء فى التعاليم البوذية أن إنفاق الانسان لماله من أعظم الصعوبات ومن ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه، لأن النفس تبخل بالمال وتتمسك به، وبوذا قد وهب ونذر حياته شفقة وحنوا لخير الناس، فلماذا نتمسك بغناء الدنيا الزهيد، ولما تخلص بوذا من حب المشتهيات الدنيوية وملذاتها نال المعرفة الإلّهية وصار الرأس فليعمل الرجل الحكيم الهاجر لملذات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير، عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية.

٣٨ - وكان قصد بوذا تشييد مملكة دينية أى مملكة سماوية

٣٦ - لما اقتــرب انتــهــاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوداث التي ستقع من بعده وقال لتلاميذه : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم. وعلموهم أن يحفظوا هم جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.

٣٧ - واذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل ليكون الحياة الأبدية. قال يسوع: إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى. لاتكتنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لايفسد سوس ولاصدأ وحيث لاينقب سارقون ولايسرقون.

٣٨ - ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات

---

(٣٦) كتاب المونـاشيـزم الشرقية ص ٢٣٠ تأليف هاردى.

(٣٧) مولر فى كتاب علوم الدين ص ٢٤٤.

(٣٨) بيل تاريخ البوذية ص ١٠.

(٣٦) إنجيل متى الإصحاح ٢٤ وإنجيل مرقس الإصحاح ٨ عدد ٣١

(٣٧) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١٩، ٢٠

(٣٨) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ٧

٣٩ – وقال بوذا الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة العظيم ومن أجل هذا فإني ذاهب إلى مدينة بينارس لأهب نورا للتائهين في الظلام وأفتح باب الحياة للإنسانية.

٤٠ – وقال بوذا للتلميذ الحبيب أناندا إن كلامي لاريب فيه فلا يزول قطعيا ولو وقعت السموات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعا.

٤١ – قال بوذا : لايوجد شئ أعظم فعلا في الإنسان من الاشتهاء والهواء الشهواني ولحسن الحظ والسعادة لايوجد سوى اشتهاء شهواني واحد ولو كان يوجد اشتهاء آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم في النساء وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير حاضرين معهم وإذا كلمتموهن فاحترسوا على قلوبكم.

٣٩ – من بعد تجربة الشيطان ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة دينية ومن أجل هذا الغرض ذهب إلى مدينة كفر ناحوم ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه اقترب ملكوت الله، الشعب الجالس في ظلمة أبصر نورا عظيما، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور.

٤٠ – الناموس أعطى لموسى أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامي لايزول

٤١ – قال يسوع : قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها قلبه.

---

(٣٩) بيل تاريخ البوذية ص ١٤٤.

(٤٠) بيل تاريخ البوذية ص ١٦.

(٤١) كتاب تقديم الأفكار الدينية المجلد الأول ص ٢٢٨.

(٣٩) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٢، ١٧

(٤٠) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٧ وإنجيل لوقا

(٤١) إنجيل متى الإصحاح الخامس عدد ٢٧، ٢٨

٤٢ – وقال بوذا : الرجل العاقل الحكيم لا يتزوج قط ويرى الحياة الزوجية كأتون نار متأججة، ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنى.

٤٢ – فحسن للرجل أن لايمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليزوجوا لأن التزويج أصلح من التحرق

٤٣ – ومن جملة التعاليم البوذية قولهم إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاما، وهذه الآلام جزاء عليها. وإذا لم يكن ارتكب شيئا من الآثام فى هذا الدور الحاضر من حياته لابد أن يكون قد ارتكبه فى أحد الأدوار السابقة من ظهوره «أى فى أحد أدوار تقمصه»

٤٣ – وفيما هو مجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين : يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى.

٤٤ – كان بوذا يعلم أفكار الناس عند ما يدير تصوراته نحوهم ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها.

٤٤ – كان يسوع يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها

٤٥ – وجاء فى كتاب الصوماديفا حكاية منسوبة لأحد القديسين البوذيين أنه قلع عينه ورماها لأنها شككته.

٤٥ – قال يسوع فإن كانت عينك اليمين تعثرك فاقلعها وألقها عنك

٤٦ – لما عزم بوذا على التنسك كان راكبا جوادا يدعى كنتاكو ففرشت الملائكة طريقه بالزهر.

٤٦ – لما كان يسوع داخلا أورشليم راكبا على حمار فرشت له الجموع الطريق بأغصان النخيل

---

(٤٢) ريس دانس فى كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣.

(٤٣) ريس دانس فى كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣.

(٤٤) هردى فى كتابه المدعو خرافات البوذيين ص ١٨.

(٤٥) كتاب مولر المسمى العلوم الدينية ٥٤٢

(٤٦) هردى فى كتابه المسمى خرافات البوذيين ص ١٣٠.

(٤٢) رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح ٧ عدد ١ –٩

(٤٣) إنجيل يوحنا الإصحاح التاسع عدد ٢.١

(٤٤) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع كلامه مع المرأة السامرية

(٤٥) إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٢٩

(٤٦) إنجيل متى الإصحاح ٢١ عدد ١ .٩

٣ - وقد كانت كثرة هذه الأساطير والأخبار التى يعسر على العقل أن يصدقها من غير بينات قائمة، وسلطان - سببا فى أن وجد من المؤرخين من يزعم أن بوذا شخصية خرافية لا وجود لها، وأن البوذية ليست إلا مجموعة تعاليم انتحلت لها هذه الشخصية انتحالا. ولكن الحق أن بوذا قد وجد حقا، وأن قبره قد قامت بجواره مسلتان، وأنه قد وصل إلى تعاليم وحقائق عن طريق التجربة والمقابلات الدقيقة بين الأمور والآراء المختلفة، وأنه كان على جانب عظيم من طيبة النفس، وحسن الخلق، ولطف المعشر، وكانت نفسه معتركا شديدا لنضال بين نوازع الجسم وما أخذ به نفسه بالرياضة، حتى انتهى بالانتصار على لذاته انتصارا مؤزرا.

ولكن مع الاعتقاد بوجود بوذا نقول أن كل ما أحيط به من أساطير باطل لايقوى على النظر الصحيح والفكر الثاقب.

٤ - آراء بوذا والإلهيات : - ثبت أن بوذا كان عاكفا على دراسة واحدة هى التى جعلها عماد نظره، وقوام بحثه، والأساس الذى بنى عليه ديانته، أو بعبارة أدق مذهبه الخلقى، وتلك الدراسة كان موضوعها تخفيف ويلات الإنسانية، والقضاء على الشقاء فى الحياة، واجتثاثه من أصله.

ولكن قوما من الباحثين ادّعوا أنه أنكر حقيقتين، هما «١» الألوهية «٢» النفس الإنسانية.

أما الأولى فقد زعم بعض المؤرخين أنه روى عن بوذا أنه أنكر وجود إلّه قد أنشأ الأكوان . ويقول انه كان يقول : وما الإلّه ؟ أهو العناصر نفسها ؟ لئن كان ذلك، ما كان فى الأمر جديد غير وضع اسم على شئ. ويقول أنصار ذلك : إنه كان يعتقد أن فى العالم فقط روحا عاما متغلغلا فى كل شئ.

وإن الذى نعتقده أن بوذا لم يتعرض للبحث فى الألوهية بسلب أو إيجاب، وأن مذهبه اصلاحى اجتماعى خلقى أكثر منه دينى، ولذا لم يتعرض للأهوت، ولعل العبارة التى وردت فى بعض الروايات كانت فى أثناء حيرته وهو منهمك فى الأدغال والأحراش، هائم على وجهه طالبا للحقيقة، بل إن العبارة يتبين من لحنها واستفهامها أنها عبارة شاكّ محيّر لاعبارة منكر جاحد. وإن أولئك الذين يعتمدون على تفكيرهم الخاص فى الوصول إلى الحقيقة يعتريهم مثل ذلك الاضطراب .

والمذهب لايؤخذ من قول المفكر عند حيرته ولا من عبارة تلقف عنه، بل المذهب ما يستقر عليه الشخص، ويتجه إليه، ويدعو الناس لاعتناقه، ولم يدّع أحد أن ذلك كان جزءا من مذهبه وآرائه، دعا الناس إليه، بل إن منتحلي نحلته كانوا جميعا يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم، ولم يمنعهم ذلك من أن يجمعوا بين عقيدتهم ومذهبه، وإذا كان من متبعيه من نحله أوصاف الإله، فذلك دليل يظن معه أنه ليس من دعايته إنكار الإله.

٥ – وأما إنكار النفس، فقد ورد أيضا منحولا له، ولكن ذكرته أكثر المصادر، فهو أقوى سندا من الإنكار الأول، وأصدق نسبة ولكنه لايتلاءم مع جملة أفكارهم، وخلاصة ما ينسب إليهم، ومما ينسب إليهم بلاريب فى نسبته (التناسخ) والتناسخ لايفهم إلا إذا كان للنفس كون قائم مستقل عن الجسم، وليست خاصة له، ولاظاهرة من ظواهره. وبيان ذلك أن التناسخ يقتضى أن يكون شئ منتقلا من جسم إلى جسم حتى يصعد فى مدارج الرقى أو يكفر عن الخطايا بالنزول فى جسم أدنى، ونحو ذلك، ولاجائز أن يكون ذلك الشئ جسما، لأنه لا معنى لانتقال جسم حىّ فى جسم آخر حىّ، إلا إذا كان فى أحدهما خاصة ليست فى الأول، وهى غير الحياة، لأن كليهما فيه الحياة، فلابُد أن يكون ذلك معنى نفسيا.

ولهذا رأى بعضهم لكى تتلاءم فكرة التناسخ مع فكرة إنكار النفس، أن يقول : إن النفس غير موجودة، ولكن هناك رغبة هى التى تنتقل من جسم إلى جسم، ومن حى إلى حى تبعا لقانون التناسخ، وهذا فرض لايمنع الاعتراض الوارد، والتناقض الواقع، لأن هذه الرغبة هى خاصة للجسم، أم هى شئ غير الجسم ؟ فإن كانت شيئا غير الجسم فهى النفس سواء أسموها رغبة أم نفسا، وبذلك يعود هذا على أصلهم بالنقض، ويؤدى كلامهم إلى نقيض مايدّعون، ويهدمون بيد مايبنونه باليد الأخرى.

وإن كانت الرغبة خاصة من خواص الجسم، ولازمة من لوازمه فكيف تنتقل إلى جسم آخر وهى خاصة من خواص غيره ؟ ذلك يقتضى أن ينتقل الجسم مع رغبته الخاصة به، لأنه من غير المعقول أن يوجد اللازم من غير ملزومه والخاصة من غير المختص بها.

لهذا كله نقول : إن إنكار بعضهم للنفس يتنافى مع اعتقادهم التناسخ الثابتة نسبته لهم والتوفيق بينهما يؤدى إلى أمور لايقبلها العقل، أو يؤدى إلى هدم أحد الأمرين: اعتقاد التناسخ أو إنكار النفس.

٦ – **المذهب البوذى العملى :** ـ الجزء الخصب فى البوذية هو مذهبها فى الأخلاق وإصلاح المجتمع، وتخفيف ما فيه من شقاء، فلقد لاحظ بوذا أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب، بل إنها آلام تتبعها أحزان تشقق المرائر. وتجعل كل إنسان فى تغص دائم وبلبال مستمر، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام التى طم سيلها فى هذه الحياة هى اللذات والأمانى التى تبعثها الرغبات التى استحوذت عليها الملاذ والشهوات.

فاللذات فى عقباها آلام، وإن تطلعت النفس إليها وتمنتها كان فى الحرمان منها آلام أيضا : فلولا انبعاث اللذات، ما كانت الآلام ولولا استهواء الأمانى التى تبعثها اللذات ما كانت آلام الحرمان، لذلك كان لابد لمحو الآلام من القضاء على أصلها، والنبعة التى نبعت فيها، وذلك يكون بالقضاء على اللذات وآمالها وأمانيها، ولايتم هذا إلا إذا راض الشخص إرادته على هجر اللذات جملة، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة، فلاينالة الحرمان من لذة بمضض الألم.

لهذا كله كان العماد الذى أقام عليه بوذا مذهبه فى السلوك القويم للإنسان أن يجاهد الشخص الشهوات، ويروض إرادته والعود أخضر على ترك اللذات، والصبر على الحرمان منها، فلايكون ألم.

٧ – ولكى يصل الشخص فى يسر ومن غير عنف إلى تلك الغاية السامية وهى رياضة الإرادة لكى يتحمل الحرمان من غير ألم يصحبه يجب عليه سلوك الجادة المستقيمة والممر الوسط، وذلك بأن يكون فى حياته كلها مقيدا نفسه بثمانية أمور فى كل شأن من شئون الحياة، وتلك الثمانية هى :

(أ) الاتجاه الصحيح المستقيم بأن يتجه إلى أى أمر يريده اتجاها صحيحا مستقيما خاليا من كل سلطة للشهوة واللذة وما تبعثه من أمانى وأحلام فاسدة، فيجتهد عند الاتجاه الى أى أمر فى أن يخلص إرادته من شائبة اللذات أو الشهوات، وما يتصل بها من آمال تبعثها وأحلام تثيرها، وفى الجملة ينقى نفسه من كل ما يتصل باللذة عند الاتجاه.

(ب) الإشراق الصحيح المستقيم، وذلك أن الإنسان عند الاتجاه إلى أمر من الأمور اتجاها مستقيما خاليا من شوائب اللذات، تعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء من غير أن يرنق نظره إلى أى درن من أدران اللذة، ولايرين على عقله ماتثيره من أهواء.

(جـ) التفكير الصحيح المستقيم. وذلك أن العقل إن خلا من شوائب اللذة، ونال الإشراق الصحيح كان تفكيره مستقيما، وكانت العمليات العقلية التى يقوم بها فى التفكير فى هذا الأمر مستقيمة لاتؤثر فيها نزعة هوى، ولاجموح شهوة، ولا اضطراب الأمانى والأحلام فى قلبه.

(د) ولاشك أن هذه المستقيمات الثلاثة السابقة : الاتجاه المستقيم والإشراق المستقيم، والتفكير المستقيم، يترتب عليها أمر رابع مستقيم، وهو اطمئنان العقل والقلب إلى فكرة خاصة من بين مايعرض لها من الأفكار والآراء والأنظار . وذلك هو الإيمان المستقيم. أو الاعتقاد المستقيم الذى يصحبه ارتياح واطمئنان، وبه يصير القلب فى رَوْحٍ وريحان من النعيم المعنوى.

(هـ) والذى يتمم الأمور الأربعة السابقة لفظ مستقيم، وذلك بأن يكون نطق الإنسان بما انتهى إليه من فكرة مطابقا تمام المطابقة لاعتقاده، ولما ارتاح إليه، وعمر قلبه بالسرور به.

(و) السلوك المستقيم : وذلك هو الأمر السادس الذى لابد منه لسلوك الممر الوسط، والسلوك المستقيم ما يكون مطابقا لكل ماقام بالقلب من اعتقاد فيكون العمل على وفق العلم، فلا مجافاة بينهما، ولامناقضة، بل يكون كل منهما مؤكدا للآخر أو متمما له.

(ز) الحياة الصحيحة، بأن يكون قوامها هجر اللذات هجرا تاما وأن يكون كل ما يجرى فيها متطابقا مع السلوك القويم، والعلم الصحيح، ولايشذ فيها شئ عن مقتضى هذا السلوك وأحكامه.

(ح) الجهد الصحيح. وذلك بأن تكون كل الجهود التى يبذلها الإنسان فى سبيل أن تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك، والعلم، والحق، ومنع ما كان له صلة باللذات، أو من شأنه أن يثير دواعيها، ويحفز إليها.

٨ – هذه هى الأمور التى لو تمت على وجه مستقيم سار الشخص على الجادة، وسلك الممر الوسط الذى يوصل إلى حياة سعيدة خالية من الآلام خلوها من دواعيها، وهى الشهوات واللذات.

وإذا كان فى هذا الكلام شئ من الخير، فهو فى مقاربته فى بعض نواحيه إلى ما يرمى إليه الحديث الشريف «لايؤمن أحدكم، حتى يحب الشئ لايحبه إلا لله» بأن يحب الشئ خاليا فى محبته له من كل شوائب الأغراض والأهواء قاصدا بمحبته وجه الله سبحانه وتعالى، وذلك فى جملته يقرب منه فى الاتجاه الصحيح، وإن كان معنى الحديث أسمى، وأدق،وأحكم.

٩ - وإذا كان ماتقدم هو لب الفضائل البوذية، وما تدعو إليه من مجاهدة اللذات وبواعثها ورياضة الإرادة على تركها جملة، فالرذائل عند البوذيين منشؤها هو اللذات، والانهماك فيها، وماتدعو إليه. ونقيض ماتقدم من الأمور المستقيمة التى يتكون منها الممر الوسط هو رأس الرذائل وعماد الآلام ولذلك يرجع الرذائل إلى أصول ثلاثة:

(أ) الاستسلام للملاذ فإنه يجعل الحياة كلها فى ألم مستمر، وفوق ذلك يعكس نظر الأشياء فى العقل والقلب، فكل نظر يكون مغشيا بغشاوة من الشهوات والرغبات والأحلام الفاسدة، والأمانى الكاذبة التى تبعث إليها اللذات الملحة.

(ب) سوء النية فى طلب الأشياء، وذلك من استمكان اللذات فى النفس فإن الغرض الفاسد يتحكم فى طلب الإنسان للأشياء، فلا يصير واضح المقصد بين الغاية لما له من مآرب يطلبها ويسترها، وغايات تدفعه ولاينالها، ويدفعه إلى الكتمان رغبة نيلها، وتوقع الاعتراك بينه وبين غيره فيها، لذلك يسود سوء النية، فهو إذن وليد استمكان اللذة فى القلب، واستيلائها عليه، وهو أيضا أصل لكثير من الرذائل كالغش والكذب والنميمة وغير ذلك.

(جـ) الغباء وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح، وفى أكثر الأحيان يكون ذلك منشؤه من رين الشهوات على النفس. وسدها سبيل الإدراك الصحيح فيصبح العقل لايرى إلا ما تعكسه عليه، ويمتنع على النفس الإشراق الذى ينشأ من التجرد من الملاذ، والإلهام الذى يكون من هجر الشهوات.

١٠ - وقد ذكر فى كتب البوذية عشر رذائل، جاء النهى عنها فى تلك الكتب على صورة وصايا، وهى لو أخذ الشخص نفسه بها، ورعاها حق رعايتها، كان فى الأخذ بها استيلاء تام على الإرادة، وتلك الوصايا العشر هى :

(أ) لاتقتل أحدا، ولاتقض على حياة حى.

(ب) لاتأخذ مالاً يقدم إليك، فلا تسرق ولاتغتصب.

(جـ) لاتكذب، ولاتقل قولا غير صحيح.

(د) لاتشرب خمرا، ولاتتناول مسكرا ما.

(هـ) لاتزن، ولاتأت أى أمر يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرما.

(و) لا تأكل طعاما نضج فى غير أوانه.

(ز) لاتتخذ طيبا، ولاتكلل رأسك بالزهر.

(ح) لاترقص، ولاتحضر مرقصا ولاحفل غناء.

(ط) لاتقتن فراشا وثيرا، فلاتقتن أرائك فخمة، ولاوسائد ولاحشايا وثيرة.

(ى) لاتأخذ ذهبا ولافضة.

١١ – هذه هى الوصايا العشر التي يأخذ بها البوذى ليروض إرادته على ترك الملاذ، والعكوف على المجاهدة وتهذيب الذات، وتخفيف ويلات الحياة، ومنها ترى أنهم يحثون على عدم أخذ الذهب والفضة، كأنهما الأمر الذى تضل عنده الأفهام، وتستيقظ حوله المطامع وكأنهما مدخر اللذة، لاستعانة الناس بهما فى اختراع اللذات، واجترار الشهوات، ولهذا النهى عن اقتناء الذهب والفضة قال العلماء: إن البوذية تحث على عدم الملك، وتطالب البوذى ألا يملك شيئا ولايقتنى شيئا، فهو يطلب طعامه يوما بعد يوم، ولايدخر من يومه إلى غده.

ولقد كان هذا سببا فى أن ينقسم البوذيون الى قسمين :

«أحدهما» البوذيون الدينيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لايحيدون عنها قيد أنملة، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة لايعدونها، ويحرمون كل شئ غيرها، ولايلبسون إلا خشن الثياب ولايرضون إلا جشب العيش، لما راضوا أنفسهم عليه، من ترك كل لذات الحياة وراءهم ظهريا، ليستولوا عليها ويمتنعوا عن آلامها.

«ثانيهما» البوذيون المدنيون، وأولئك هم البوذيون الذين لم يطيقوا تطبيق المنهاج الشاق الذى أخذ به الدينيون منهم، فاختاروا لأنفسهم طريقا وسطا ليس فيه إفراط غير البوذيين فى اللذات، ولاشدة البوذيين الدينيين بل هو وسط بين النجدين. أخذوا الأخلاق

البوذية من تواضع وإيثار وحب للفداء وصدق وأمانة وحلم وعلم وصفاء، ونالوا بعض الملاذ التى لا تعقب ألما، ولم يندفعوا فيها حتى لايصابوا بألم عند الحرمان(١) وفى الوقت الذى سلكوا فيه هذا المسلك آووا إخوانهم الدينيين، وأعانوهم على طريقتهم، وأمدوهم بالأسباب التى تعاونهم على الإيغال فى مذهبهم، معتقدين أن من آمن ببوذا وتحلى بما يدعو إليه من أخلاق وآوى رجال دينه، وأعانهم، ثم تناول بعد ذلك بعض متع هذه الحياة، فإنه يصل إلى طريق الخلاص، ويرقى إلى مرتقى السعادة والنجاة.

١١ – **مابين البرهمية والبوذية** : تبين مما مضى أن البوذية لم تعن بالبحث عما وراء الطبيعة، فلم تتجه إلى الدراسات التى تتصل بالألوهية، وحدود سلطانها بل كل عنايتها لإصلاح الإنسانية بإنقاذها من الآلام، وإبعادها عن ويلاتها، برياضة الإنسان على هجر اللذات، وتربية الإرادة على إهمالها وعدم العناية بها على ما تقدم، وهذا كما ترى فارق بين البوذية والبرهمية، فإن البرهمية كانت فيها العناية الكبرى بالجانب الإلّهى. والتقرب للمعبود، والفناء فيه، وكل مافيها من نسك فهو لهذه الغاية، فإذا اتحدت البوذية والبرهمية فى النسك والزهد فى الملاذ وهجرها، فالغاية مختلفة، فغاية البرهمى الزلفى والتقرب للمعبود وإعطاؤه مايستحق من عبادة، أما البوذى فغايته من النسك رياضة الإرادة على الحرمان، وتعويدها السيطرة على الرغبة فى الملاذ، لكيلا تشقى بطلبها ويحز فيها الحرمان.

ولقد كان أبلغ ما أحدثته البوذية من أثر فى المجتمع الإنسانى، إلغاؤها نظام الطبقات واعتبارها بنى الإنسان سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون فى المواهب، ويتساوون فى الحقوق، لافرق بين شخص وشخص بنسبه أو طبقته، ولكن الفرق بينهما بالموهبة والقدرة والعمل. محا بوذا إذن الفرق بين الطبقات وتلاقى الناس فى مذهبه عند الوحدة الإنسانية، من غير اعتبار للاختلاف العنصرى ولافضل لأحد إلا بالمعرفة وسيطرة الإرادة الإنسانية سيطرة تامة، لاتقوى اللذات على التغلب عليها.

١٢ – **كتب البوذية** : كتب البوذيين ليست منزلة، ولايدّعون ذلك هم، بل هم لاينسبون ما فيها إلى جانب إلهى، بل هى عبارات منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله أو نقل لما أقره من أعمال أتباعه. ونصوص تلك الكتب مختلفة بسبب انقسام البوذيين فى نحلهم.

(١) ولقد اكتفى المدنيون بأن يطيعوا من النواهى العشرة المتقدمة، الخمسة الأولى فقط وهى النواهى عن القتل، والسكر، والسرقة، والكذب. أما خمسة النواهى الأخرى فهى خاصة بالمتدينين.

فبوذيو الشمال لديهم نصوص ليست عند أهل الجنوب، وأكثرها قد اشتمل على أوهام كثيرة، تتعلق ببوذا، أو حلول الإله فيه، ونصوص بوذيي الجنوب هي الأصح نسبا، والأصدق قولا والأبعد عن الأوهام، وهي التي نعتمد على بيانها.

تنقسم تلك الكتب إلى ثلاثة أنواع «أولها» يشتمل على مجموعة قوانين البوذية ومسالكها، وقد جمعت تلك المجموعة سنة ٣٥٠ ق م وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام. قسم يحوى العقوبة المفروضة على مايقع من البوذى من ذنوب ومخالفات، ويحوى نحو سبع وعشرين ومائة فقرة. وقسم يحوى التعاليم التي يجب اتباعها لتربية النفس على ما يدعو إليه البوذيون، وفيه قرارات المجالس البوذية التي انعقدت فيما بين سنتى ٣٨٠ و ٣٢٠ ق م وفيه أيضا بيان بما يتبع لقبول طالبى البوذية واجتماعات البوذية، وتفاصيل حياة البوذى. وقسم فيه خلاصة القسمين الماضيين، ليكون في متناول الجماهير، وفيه خلاصة للسلوك القويم الذي يدعو إليه البوذيون.

«ثانيها» مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا، ووصاياه، وهي مجموعات مختلفة تضم كل مجموعة طائفة من المسائل المتقاربة في الفكر، وفي هذه الخطب وصايا بوذا، ودعواته التي وجهها إلى الناس وكثير من الأحكام التي تتصل بالبوذية مما يجب على البوذى سلوكه، وكل هذه الخطب والوصايا تنسب لبوذا.

«ثالثها» الكتاب الذي يحوى بيان أصل المذهب، والفكرة التي نبع منها، وبعبارة أدق فيه الفلسفة التي قامت عليها الديانة البوذية، والأصل الذي استنبطت منه تعاليمها، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر، واللذة والألم وفي الجملة نرى في كتب البوذية كلاما خصبا قيما فيه بيان للأخلاق والسلوك القويم، وقد ترجمت إلى اللغات الحية وكانت مادة لدراسات فلسفية خلقية.

الكونفوشيوسية

١ – مكثت العقلية الصينية والفكر الصينى القديم كنزا مدفونا فى أحقاب التاريخ لايعرف الغربيون، ومن داناهم شيئا منه، حتى خيل إليهم أن تلك الأمة القديمة ليست لها فلسفة ولا لون خاص من ألوان الفكر الإنسانى، ولامنهج خاص من مناهج السلوك لبلوغ الغاية السامية فى طريق الخير، وما كان ذلك الخفاء إلا لصعوبة الوصول إلى تعرف ماضى تلك الأمة، فاللغة الصينية عسيرة ليس من السهل معرفتها، والتراجم عنها ليست كاملة الصحة، ولاتامة التصوير لمعانى ما اشتملت عليه بسبب تلك الصعوبة، ولكن تلك الغشاوة لم تلبث أن أزيلت، وكشفت الإرادة الإنسانية ودأب العلماء، وحرصهم على طلب المعرفة ولو بالصين – عن الفلسفة الصينية والعقل الصينى، والنفس الصينية، ولقد استبان مما كشفوا عنه أن أخص ما امتازت به النفس الصينية، أنها أقدر النفوس على تحويل النظريات الخلقية إلى أخلاق عملية، ففلسفتها تقوم على السلوك القويم للإنسان، وهى عملية فى هذا المعنى أكثر منها نظرية، فحكم الحكماء ووصاياهم، ونظرياتهم الفلسفية هى أعمال الشعب فى سلوكه ومنهاجه.

وإذا كان العالم قد رأى الآراء الدينية على أكمل وجوهها فى الساميين والتصوف على أكمل مناحيه فى الهنود، والفلسفة النظرية فى الإغريق، فالفلسفة العملية على أكمل وجوهها فى الصين، الفلسفة عندهم تنحو نحو الأخلاق وهى تبتدئ بنظريات للأخلاق الفاضلة وأسس لقواعد الخير والشر، ولاتلبث حتى تبسط وتسهل وتصير أخلاقا عامة للشعب، فالجانب العملى له العناية الأولى لديهم، ولهذا بلغت الأخلاق عند الصينيين درجة من السمو أدهشت العلماء عندما تعرفوها، وعلموها، ولقد شده المبشرون عندما علموا ما عند الصينيين من حكم موروثة، ووصايا، وآراء خلقية سامية، ولذا قرروا أن الصينيين لابد أن قد بعث فيهم رسل، ولقد أخذوا لهذا يوازنون بين التوراة والكتب الصينية فى الأخلاق والحكم والوصايا.

ومهما يكن أمر الدافع الذى يدفع هؤلاء المسيحيين إلى الظن، فليس عندنا نحو المسلمين من مانع يمنع من قبوله، بل أنا أقرب إلى اعتقاده، لأن الله سبحانه وتعالى وهو الحكيم العليم، الرءوف الرحيم، لايترك أولئك الجماعات الكبيرة من البشر من غير هاد

يهديهم، ولا رسول مبين يدعوهم بدعاية الله سبحانه وتعالى، وإن كنا لا نعرف رسولا من هؤلاء الرسل، ولاعصرا لرسول، وليس جهلنا هذا نافيا للوقوع ولادليلا على عدم الحصول، لأن عدم المعرفة لايستلزم عدم الوقوع.

ولم يبين القرآن الكريم كل الرسل السابقين، فقد قال الله تعالى : «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» ولذلك نحن لانستطيع أن نقف موقف السلب من دعوى المسيحيين أن رسلا بعثوا فى الصين، ولكن ليس لدينا خبر يقينى برسول معين بعث فيهم، ودعوى ذلك لاتخلو من الحدس والتخمين. «وإن الظن لايغنى من الحق شيئا».

٢ – هذا . والذى نلاحظه على الفلسفة الصينية أنها اتصلت بالدين وامتزجت به امتزاجا تاما، وفى الحق أن التأملات الفلسفية، والتدين منبعهما من النفس واحد، ينبعان من مكان فى الوجدان واحد، غير أن أحدهما يعتمد على العقل المطلق والآخر يعتمد على النقل فى أغلب نواحيه، وخير القضايا الفلسفية ما كان موافقا للدين الحق، لأن الدين الحق لايأتى بشئ يتنافى مع العقل القويم.

وقد تغالبت الفلسفة والدين عند اليونان الأقدمين لانحراف أحدهما وعدم استقامته، وكذلك اصطدمت الفلسفة والدين فى القرون الوسطى فى أوربا لهذا الانحراف أيضا، ولضيق فى صدور القوانين على الدين، وقد يحدث أن تنحرف الفلسفة، ولاتتقيد بقواعد العقل، فتصير أوهاما وأحلاما وتخييلات لانظرات صائبة وتأملات، وعندئذ تنحرف عن سمتها فلايدانيها الدين الحق، بل يكون بينهما ما يكون بين النقيض والنقيض.

بيد أن الفلسفة فى الصين لم تتجاف عن الدين، ولم تنأ عنه مع أنك ستعلم أن الدين كان قائما على الإشراك، والفلسفة قائمة على الأخلاق القويمة، ومع ذلك تلاقيا وسار التدين مع الفلسفة سيرا متزنا محكما، وذلك لما بيناه من أن الفلسفة الصينية قامت على تنظيم السلوك الإنسانى، وإصلاح الأخلاق العملية، وهنا التقت بدينهم من ناحية مايدعو إليه من حسن المعاملة بين الناس، فاتخذوا الأخلاق الفاضلة مذهبا فى السلوك القويم، ودينا تدعو إليه الآلهة فى زعمهم فكان للأخلاق دعامتان قويتان :

إحداهما قائمة على الفلسفة والعقل والمنطق.

وثانيتهما قامت على دينهم.

وبهذا تقاربت فلسفتهم ودينهم على إقامة بنيان قوى من الأخلاق، وسلوك الناس، وإن كان دينهم فى عقائده وأسسه ليس شيئا مذكورا، ولايمت إلى الحق والمنطق بنسب، ولايتصل به بسبب.

ولقد كان المزج المحكم بين فلسفة خلقية قديمة ودين ليس له أصل قويم ومنطق مستقيم على أتم وضوح فى الكونفوشيوسية وصاحبها كونفوشيوس.

٣ - **حياة كونفوشيوس** : الاسم المشهور فى الصين «كونغ فوتس» ومعنى فوتس الحكيم أو الأستاذ، وكونغ هو الاسم. فمعنى التركيب الأستاذ أو الحكيم كونغ : وقد حرف الغربيون التركيب الى «كونفوشيوس». ولد ذلك الحكيم عام ٥٥١ قبل الميلاد بإحدى قرى مقاطعة لو من مقاطعات الصين وكانت أسرته عظيمة تمُتّ فى نسبها إلى فرع ملكى، فكان يجرى فى عروقه دم ملكي يشعره بالعزة، ولقد كان أبوه قائدا عظيما وحاكما لإحدى المدن، ولم يعقب فى شرخ شبابه ولا فى كهولته، وقد وهب الله له ذلك الابن الحكيم على الكبر، وقد نيّف على السبعين، ولكن الطفل لم يكد يبلغ الثالثة من عمره حتى فقد أباه، ولم يترك له من حطام الدنيا شيئا، غير أنه عاش على سمعة أسرته، فعاش وإن كان مقدور الرزق، محدود المورد، وتعلم العلم الذى كان يتعلمه من هو فى مثل مولده وأسرته، فتعلم آراء الأقدمين الدينية، وتفهمها وأخذ بها، وكان لها سلطان تام على نفسه.

ولننظر نظرة عاجلة إلى التهيئة التى حاطت بها العناية ذلك الشاب، دم نبيل يسرى فى عروقه، وأسرة سامية ذات شهرة ومجد، وفقر شديد كان معه مقترا عليه فى الرزق، وإن تلك العوامل مجتمعة من شأنها أن تكون فى الشخص نزوعا إلى معالى الأمور من غير استعلاء، وذلك إذا صادفها مواهب عالية، ونفس سامية. فإن شعور المرء بمجد أسرته، وكرم محتده، وشرف نجاره من شأنه أن يجعل فى المرء اتجاها إلى معالى الأمور، وتجافيا عن سفسافها، وإن الحد من الرزق يخلق فى نفس الشخص العطوف الرفق بالضعفاء، والتواضع، ومحبة الناس. ومن ذلك المعنى الأثر الصحيح : «اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين».

فذلك الحكيم الذى تهيأ له أن يكون من أسرة كريمة، وينشأ فقيرا، قد اجتمع لديه هذان الأمران، وبامتزاجهما تعلو النفس عن الدنايا من غير كبرياء، وتتواضع من غير ضعة،

وتتسامى من غير ورم فى الأنف، وتتطامن من غير استخذاء. فتكبر من غير استكبار، وتتواضع للضعفاء من غير صغار.

تعلم ذلك الحكيم فى صغره مامكّنه من أن ينظر إلى الحياة نظرة المستقل، وأن يدرس طبائع الناس وخير ما يطب به لأدوائهم، وتكون فيه سلامتهم وإصلاحهم. ولقد تزوج فى مقتبل عمره، فقد تزوج قبل أن يبلغ العشرين من حياته . ولكنه لم يجد فى زوجه رفيقة تصاحبه فى لأواء الحياة، وشريكة له تشركه فى سرائه وضرائه، ففارقها بعد سنين معدودة، ولكن بعد أن أعقب منها صبيا وجارية صارا له قرة عين.

ولقد أحس كونفوشيوس بحنين منذ بلغ أشده، واكتملت نفسه إلى إرشاد الناس إلى خير مناهج الحياة، وأقوم السلوك، ولذا كان أشد ما يرغب فيه أن يتولى صناعة التدريس. ولكن لم يتوافر له ذلك أول قيامه بالأعمال العامة، فقد عين فى بعض الأعمال الإدارية المتعلقة بالزراعة، وقبل ذلك العمل على مضض وشوق إلى غيره، وذلك لضيق ذات يده وحاجته إلى مايقيم أوده وأود أسرته، وقد اعتكف مع ذلك على أسرته يعلم آحادها ومن ينضم إليهم، وصار منزله منتدى طلاب العلم ومقصده. ولقد عين بعد ذلك أستاذا، وعندئذ أخذ مذهبه يتكون وآراؤه تتجمع، ويبديها لا فى كتب يؤلفها، ولكن فى شبيبة ينشئها فأخذ يبث تعاليمه فيها، حتى كان له منهم صحب يشبهون حوارى النبيين فى التمسك بفكرته، والصدور عن دعوته، والإخلاص لنحلته، وهو فى هذه الأثناء لاينى عن تكميل نفسه بكل أنواع المعرفة، فهو يعلم ويتعلم ،ولذلك أعمل الجهد فى الاتصال بفيلسوف كان فى شيخوخته وكونفوشيوس فى شبابه ذلك الفيلسوف هو لوتس[1] فالتقى به وتعرف إليه، ودارسه آراءه فلم يتفق الفيلسوف الشيخ مع الشاب، وسنبين فى الفصول الآتية أوجه الخلاف بين الحكيمين.

---

(١) هو صاحب النحلة الصينية التى تعرف فى الصين «بالطاوية» . ولد لوتس قبل كونفوشيوس بأكثر من خمسين سنة. وقد تولى بعض الأعمال ولكنه اعتزل فى آخر حياته وعكف على حياة الزهد والتأمل الفلسفى، وقد جمعت أحاديثه وآراؤه فى كتاب يسمى «كتاب الأخلاق» وبين فلسفته الخلقية وفلسفة كونفوشيوس خلاف قوى، فالأول يدعو إلى القناعة والزهد والتسامح المطلق، ومقابلة السيئة بالحسنة، والثانى يدعو إلى طريق لاإفراط فيه ولاتفريط، ومقابلة السيئة بسيئة مثلها، وسنبين ذلك كله فى أثناء بحثنا.

ولقد أخذ كونفوشيوس يطوف فى الآفاق دارسا مرشدا، رائضا لنفسه وحاثًا أصحابه على الأخلاق القويمة، حتى لقد استطاع أن يقول عن نفسه التى أشرف على تهذيبها وتكميلها، ما حكى عنه أنه قال فى كتاب المحاورات : «انصرفت الى طلب العلم، وأنا فى الخامسة عشرة من سنى، وفى الثلاثين التزمت جادة الفضيلة، وفى الأربعين لم يكن فى نفسى أى ريب فى حقائق الأشياء، وعلمت القضاء والقدر وأنا فى الخمسين، وأصغت أذنى إلى كل الحق عارفا فاهما له وأنا فى الستين، ولم أتجاوز حدود السلوك القويم وأنا فى السبعين».

٥ – أخذ كونفوشيوس يطوف البلاد داعيا مرشدا، ومسترشدا، وكان فى كثير من الأحيان يخص بإرشاده الحكام، معتقدا أن صلاح الراعى يستلزم صلاح الرعية، وأن حسن قوامته على الناس يتبعه صلاحهم، ولأنه يرى أن السياسة الحكيمة فى تهذيب الرعية. حتى تقوم المحبة بين الناس مقام القانون. ولقد كان يقول «السياسة هى الإصلاح، فإن جعلت نفسك أسوة حسنة لرعيتك، فمن الذى يجترئ على الفساد ؟» لهذا كان يخص – وهو يطوف مقاطعات الصين – الأمراء بإرشاده لأن فى صلاحهم صلاح العامة، وعليهم يواسى.

وقد عاد بعد تطوافه إلى ولايته، وقد كملت رجولته، وأنضج الاختبار آراءه، وصقل تفكيره، فعين حاكما لإحدى مدنها، فكانت هذه فرصة قد انتهزها ليروض الناس على تعاليمه عملا كما راض هو نفسه، فأخذ أهل هذه المدينة بالسلوك القويم، وكانت عبقريته فى أن راض الناس على ذلك رغبا لا رهبا، وبالاختيار لا بالإجبار، حتى صارت تلك المدينة الفاضلة نموذجا يحاكى، ومثالا يحتذى، ولم يستمر ذلك الحكيم مقصورا على المدينة، بل رفعه أمير المقاطعة إلى مرتبة نائب للمقاطعة، ثم ولاه وزارة العدل، فكان شأنه فى هذا كشأنه الأول يروض مرءوسيه على الأخلاق، ويعطيهم من نفسه أسوة حسنة، فيقتدون به، واستعان فى أعماله ببعض أصدقائه الذين أشربوا تعاليمه، ومازجت نفوسهم نفسه، وفى حكمه ساد السلام، واطمأن الناس، وأظلت الفضيلة الجميع، وكان هذا مثلا صالحا لحكم الفلاسفة، سبق أحلام أفلاطون وغيره من المثاليين.

٦ – ولكن تلك الحال لم تدم طويلا، فإن رجالا نفسوا على الحكيم تلك المنزلة، وضاقت صدورهم حرجا من عظيم ماطويت عليه من الحقد، فزينوا لأمير المدينة أن يخالف

إرشاد الفيلسوف، وقدموا له غصنا من الشجرة التى أغرى إبليس آدم على الأكل منها، قدموا له غصن اللذة الشهى، وحسنوا له أن يفك نفسه من القيود، ويقبل عليها، ففعل وعصى إرشاد كونفوشيوس فرأى هذا أن أمور الدولة لاتستقيم، وأميرها غير مستقيم، لأنه القائل : «إن أخلاق الرؤساء كالريح، وأخلاق المرءوسين كالعشب، وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب».

عندئذ هدد الحكيم الأمير بترك الأمر إن لم يستقم، فلم يرعو هذا من غيه، واستمر سادرا فى شهوته، فاعتزل الحكم، وعاد إلى التطواف فى الأقاليم الصينية، لايقيم فى بلد إلا على نية النزوح منه، وكلما حل على أمير مقاطعة دعاه إلى السلوك الفاضل، فلم يجب أحد منهم دعاءه، وإن أكرم وفادته، حتى برم بهم، ولم يكن له عزاء إلا تكاثر تلاميذه الذين اعتنقوا آراءه حتى بلغوا ثلاثة آلاف أو يزيدون، وكلهم قد أشرب روحه، ومازجت آراؤه نفسه، وخالطت منها المهجة والفؤاد.

وقد عاد بعد الرحلة الطويلة إلى مقاطعة «لو» فأكرم أميرها وفادته، ولكنه لم يطعه كسائر الأمراء، فعكف الحكيم على مدارسة أصدقائه. وكانت السن قد تقدمت به، فقد ذرف السبعين وقد اطرح هموم الدنيا، ولكن نزل به وهو فى تلك السن المتقدمة ما حز فى قلبه وقطع نياطه، فقد مات اثنان، كلاهما مهجة نفسه، وقطعة منه، أما أولهما فوحيده، فقد أمضت نفسه بموته، وهو فى هذه السن، وأما ثانيهما فهو تلميذه الأثير عنده المحبب لديه، وقد كان قطعة من روحه ونفسه، واسمه «هووى[1]» فأظلمت الدنيا فى وجهه، ولكنه لم يقعد عن العمل، بل أخذ يلخص الكتب القديمة ويرتبها، وبذلك قد خلد لنفسه عملا آخر جليلا بهذا التلخيص وذاك الترتيب.

هذا موجز لحياة فيلسوف الصين العظيم، وقد مات بعد أن ترك من تلاميذه الذين أخذوا على عاتقهم بث دعوته فى الأقاليم الصينية ثلاثة آلاف، وقد نبغ منهم اثنان وسبعون، وكلهم تعاون فى نشر مذهبه الخلقى فى البلاد، حتى صار بعد ذلك مذهبا رسميا لتلك البلاد المترامية الأطراف، واستمر كذلك من آخر القرن الثانى قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعده.

---

(١) كان هذا تلميذه الفذ، حتى أنه روى أنه عندما احتضر بكى عليه الحكيم بكاء مرا، وقد كان يقول فيه أثناء دراسته معه : لقد حدثت «هووى» طول النهار فلم يناقشنى كأنه غبى، فلما تولى ولاحظت سلوكه وجدته كافيا للتعبير عما دارسته.

٧ - عقيدة كونفوشيوس :

تخرج كونفوشيوس على التعاليم الدينية التي كانت سائدة عند الصينيين الأقدمين، فقد لقنها صغيرا وتلقاها والعود أخضر بالقبول. ولذا أحيا التعاليم الدينية القديمة، ودوّن أصولها ولم يتعرض في دراسته الخاصة لمناقشتها، ولم يكن له مذهب فيها يدعو إليه، ويحث الناس على اعتناقه، بل كل عنايته كانت تقوم على السلوك المستقيم والدعوة إليه، ولم يكن مدعيا لرسالة، ولم يكن هو رسولا مبعوثا . بل كان حكيما فيلسوفا يبشر بمذهب الأخلاق ويستمسك أشد الاستمساك به، وأما عقيدته فهي ما كان يعتقده الصينيون القدماء ولاتزال آثاره في عقيدة أكثر الصينيين المعاصرين. وأساس هذه العقيدة أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : السماء والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء (الملائكة) وأرواح الآباء.

٨ - أما السماء المعبودة فلايقصدون بها تلك القبة الزرقاء، بل يقصدون تلك الأفلاك ومداراتها والقوى المسيطرة التي تسيطر عليها وتسيرها في مداراتها، وباتصالها بالأرض، وبالأمطار والرياح وغير ذلك تنبت الأرض من كل زوج بهيج، وكانت عبادتهم للسماء لأنهم يعتقدون أنها عالم حي متحرك حسب نظام دقيق محكم، وأن كل ما في العالم من قوى مسيرة إنما هو خاضع لسلطان السماء.

وظواهر ما تدل عليه عبارات كتبهم أنهم لايفرضون قوة مغايرة للعالم هي المنشئة له والمدبرة لأموره والمسيرة له والمسيطرة علي حركاته والواقية له من الفناء والانهيار، ولأجل أن يستقيم لهم فرضهم بعض الاستقامة - وإن كان الأساس غير مستقيم - يقولون أن العالم فيه جانب مادي وجانب روحي هو القوى، ومن القوى منفردة أو بائتلاف عدة قوى تحدث ظواهر الأشياء ويتم التحول المستمر الذي يقدرونه قانونا عاما شاملا، والسماء لها السيطرة العليا على القوى والمادة والأشياء جميعها. وعلى أية حال فليس عندهم منشئ ومنشأ، بل المنشئ لديهم من ذات المنشأ، كما كان يسود الفلسفة الأيونية التي كان قوامها العنصر الأول الذي تكونت منه الأشياء.

ومع ذلك هم يؤمنون بالقضاء والقدر، فيقولون إن كل الحوادث مقدرة في السماء معروفة، وقد اختص بعبادة السماء وتقديم القرابين لها ملكهم الأكبر، ولذا يقال عنه أنه ابن السماء، وقد حالت العقيدة وصار كل ملك أو أمير لمقاطعة له حق عبادة السماء كالملك الأكبر.

ومن عقائدهم المتعلقة بذلك أن الملك واجب عليه بأمر السماء أن يحكم الرعية بالعدل فإن قسا وظلم سلطت عليه السماء من رعيته من يخلعه أو يقتله ثم مكنت لغيره من العادلين من يستولى على عرشه. ويحكى أن ملكا استولى على العرش بعد أن انتصر على الملك الذى قبله وقتله، قال : «أعطى الإله لكل إنسان ضميرا إذا اتبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السوى، والإله دائما يبارك الطيب ويعاقب الردئ. ولذلك أنزل المصائب على بيت هشيا «بيت الملك السابق» كى يضع حدا لآلامه».

٩ - أما عبادتهم القوى المسيطرة على الأشياء، الموكلة بها، فلأنهم كانوا يعتقدون أن لكل شئ قوة تسيطر عليه وتسيره، وهى كثيرة : فللشمس قوة تسيرها، وكذلك القمر، وللسحاب، والمطر، والجبال والأنهار، وكل الكواكب، والأشياء، وهذه القوى جميعها يعبدها الصينيون، وقوى الأرض لايعبدها الملوك ولكن يعبدها غيرهم. أما القوى الخاصة بكواكب السماء، وكل مايكون فيها، فهى من السماء لايعبدها إلا الملوك.

ومن عقائد الصينيين أن أرواح الأموات تنفصل عنهم بعد موتهم، وتبقى فى الدنيا مع أسرتهم، ولذلك يعبدون أرواح الآباء تقديسا لهم، ووفاء لعهودهم، وشكرا لهم على ما أسدوا من نعم لأبنائهم، ويقدمون لهم القرابين.

وعبادات الصينيين غناء ورقص وموسيقى، وكأنهم بهذه الأعمال يشركون آلهتهم معهم فى سرورهم، وأفراحهم، وأغانيهم وموسيقاهم.

١٠ - ولم يكن الصينيون القدماء يؤمنون بجنة ولانار، ولاعقاب ولاثواب، ولقد أخذ كونفوشيوس بكل هذه العقائد ولم يزد عليها، فلم يؤمن باليوم الآخر، ولم يفكر فى الحياة بعد الموت، بل كان كل همه فى إصلاح الحياة الدنيا.

يروى أن أحد تلاميذه سأله عن مآل الأرواح بعد الممات، فقال :

«لم نقدر على خدمة الأحياء فكيف نقدر على خدمة الأموات ولم نعلم الحياة فكيف نعلم الممات».

وكان يقدم القرابين، ويقوم بواجب العبادة التى يقوم بها كل صينى بل كان من الناحية الدينية ساذجا يتشاءم من هزيم الرعد، ويرتجف، وترتعد فرائصه عندما يسمعه،

ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته، وفى الجملة كانت عقيدته ساذجة، وعقله فى هذه الناحية كان عشا للخرافات والأوهام، وفيه موضع لأساطير الأولين التى اكتتبها، وحفظها، ولكن عبقريته وقوة إرادته باديتان فى آرائه فى السلوك الإنسانى، والخلق القويم، ورياضة النفس عليه.

١١ – **آراؤه فى الأخلاق** : يجدر بنا قبل أن نتكلم على مذهب كونفوشيوس فى الأخلاق أن نبين الظاهرة العامة فى أخلاق الصينيين عامة والأخلاق التى سادت عصره، والآراء الخلقية التى كانت سائدة قبل زمانه، لكى نكون على بينة من مدى أقواله، وما دفع إليها، ومابعثه على قولها، وخصوصا أنه ما ادعى أنه أتى بجديد فى السلوك القويم، ولكنه أحيا المقبور من آراء سابقيه، وأخذوا أنفسهم به من أخلاق.

اعتقد الصينيون منذ أقدم عصورهم أن الأحداث الكونية تتبع الأخلاق التى تسود الناس وملوكهم، فكلما كان الاعتدال والانسجام والفضائل يسودان المعاملة بين الناس، ويربطان العلاقات بينهم برباط من المودة والرحمة، فالكون سائر فى فلكه من غير أى اضطراب، ولكن إذا حاد الإنسان عن سمت الحق، والسلوك القويم إلى الفضيلة، اضطرب بعض ما فى الكون لمخالفة القانون الأخلاقى، وما الزلازل وخسف الأرض وكسوف الشمس، وخسوف القمر إلا أمارات لفساد خلقى، أحدث ذلك الاضطراب الكونى، وإذا كان السلوك غير القويم يحدث الاضطراب، والقحط، فالسلوك القويم يجلب الخير والبركات، ويجعل كل ما فى الكون يجئ على رغبة الإنسان، والسبب فى ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن المؤثرات فى الأكوان ترجع إلى ثلاثة :

أولها السماء ولها السلطان الأعلى، وثانيها الأرض لقبولها أحكام السماء، وثالثها الإنسان بما يؤثره بإرادته، فإرادته الفضيلة وسلوكه سبيلها يجعل مظاهر الكون إلى خير الإنسان، فالجو يمتلئ بالنسيم العليل، والحرارة المنعشة والغيث المحيى لنبات الأرض من غير أن يخرب العمران.

١٢ – والإنسان مفطور على الخير عندهم، سالك الطريق القويم لو خلى وفطرته، ولكنه مع الفطرة الخيرية حى مستقل مفكر لاتمنع فطرته من النزوع إلى الشر وسلوك سبيله، والارتطام فى حمأته، وذلك لإرادته المستقلة واختياره، واستيلاء الشهوات عليه، ومع أنهم

كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر ويذعنون لأحكام السماء يجعلون للإرادة الإنسانية الشأن الأول، وذلك لأن الإرادة الإنسانية للخير أو للشر لها أثرها في الأكوان، ولأن آلهتهم عادلة فزعموا أنها لعدلها تجعل مشيئتها في الكون على حسب عمل الإنسان إن خيرا فخير له، وإن شرا فشر له، وأن أفعال السماء المسببة لفعل الإنسان لاتقبل التخلف قط، لأنها جزاء ما قدم، وأما أفعال السماء التى تكون حظا من غير تقدم الإنسان بسبب لها فهى تقبل التخفيف بالإرادة الإنسانية الخيرة أو الشريرة، وفى هذه الحدود الضيقة كان إيمانهم بالقضاء والقدر.

١٣ – وطريق الخير هو الاعتدال والاقتصاد فى كل أفعال النفس وسجاياها، فالقناعة مع الجد من غير استسلام فضيلة، واللين من غير ضعف فضيلة، والرحمة مع العدل مع المسئ فضيلة أيضا، وكذلك التجمل مع السذاجة وهكذا كل الفضائل، وأقصى الطرفين من إفراط أو تفريط رذيلة، ويعدون الفضيلة طريق السعادة والرذيلة طريق الشقاء، لأنه إذا كانت آلهتهم تغضب وترسل شواظا من نار على من يخالف قانون الأخلاق فالشقاء فى المخالفة والسعادة فى الموافقة، ولأن الموافقة تجعل النفس متوافقة مع فطرتها منسجمة مع طبيعتها.

والرحمة أخص ما يجب أن يسود الناس من صلات، فهى الرابطة التى تربط آحاد المجتمع بعضهم ببعض، وهى التى تجعل الناس متحابين سعداء من غير عنف زاجر، ولاقانون مشدد، وإذا كانت الفضيلة فى عمومها طريقا لسعادة الآحاد، فالرحمة التى تسود المجموع هى طريق سعادته، فالمجتمع السعيد من كانت الرحمة هى الوحدة الرابطة بين آحاده، وهى العلاقة المبينة حدود ما للانسان وما عليه، وليست الرحمة عندهم هى العفو المطلق، والتسامح المطلق، بل الرحمة التى تسبب السعادة هى الرفق بالمجموع مع معاملة أهل السوء بما يستحقون من غير شطط ولاتفريط. وأما التسامح المطلق، ولو مع المسئ، فإنه رحمة ظاهرة تخفى فى ثناياها سترا للإجرام، وذلك ليس من الرحمة فى شئ.

إذن فغاية الفضيلة فى عمومها وخصوصها عندهم الكمال الإنسانى والسعادة لبنى الإنسان، وإقامة بناء المجتمع على التواد والتراحم والتعاطف.

١٤ – وقوانين الأخلاق لاتنفصل عن السياسة عند قدماء الصينيين، فأقوم الأخلاق ينتج أقوم السياسة، وأحب أنواع الحكم، بل إن الحاكم لايمكن أن يحمل الناس على الجادة

من غير أن يحمل نفسه عليها، وإن الملك الذى لايسوس الناس ونفسه بالأخلاق القويمة ينزل عليه غضب السماء، وينزع منه الملك كما بينًا سابقا، فلا تسامح فى قانون الأخلاق ولو كان الآثم ملكا، وبهذا استمر العدل قائما مع وثنيتهم وعدم تدينهم بدين سماوى.

ولم تكن هذه الآراء فلسفة لخواصهم تدرس، وتناقش أصولها، ولكنها كانت أعمالا للناس، كما هى آراء للعلماء، وبذلك كان مجتمع الصين القديم يسوده الخلق الكامل ردحا من الزمان، ولكن خلف من بعدهم خلف لم يسلك طريق الأخلاق، فحوالى القرن السابع قبل المسيح حكمت الصين أسرة ارتكبت من الظلم والإثم ما أوقع الشعب فى الفوضى والاضطراب، وجعل حكام الولايات يسيرون فى طريق من الاستبداد برعاياهم لغير مصالحهم، والشعب الصينى نفسه انحدر فى طريق الرذيلة والانحلال الخلقى، وإذا تفاقم الشر، وجمحت النفوس، وتفشى الداء، أعمل الفضلاء الجهد، وأحسوا بعظم التبعة، لذلك نجم فى آخر القرن السابع والقرن السادس قبل الميلاد عقول جبارة، ضاعفت الجهود وبذلت أقصى المجهود لكى ترجع الأخلاق الصينية إلى غابرها، وكانت دعوتها وحيا لعبقرية جبارة، واستنباطا لما استقر فى أعماق القديم، وإحياء للمدفون من كرائم العادات. وكان أبرز هؤلاء لوتس وكونفوشيوس.

١٥ - ظهر كونفوشيوس فى هذا المضطرب بعد لوتس، بعد أن جرب هذا كل آرائه فى إصلاح المجتمع الصينى، فلم يفلح إلا قليلا، واضطر لأن يدعو إلى الانزواء والفرار إلى العزلة لذلك جاء كونفوشيوس محاولا إصلاح ذلك المجتمع بغير لوتس، وبغير مذهبه، وآراؤه فى الأخلاق تتجه إلى ثلاث نواح :الأولى فى بيان الأصل الخلقى الذى تقوم عليه الفضائل، والثانية إصلاح المجتمع وحمله على السلوك القويم . والثالثة إصلاح نظام الحكم وتقييده والفضيلةلايعدوها.

أما الناحية الأولى فهى قوام فلسفته، وهى الجزء النظرى منها، وقد ابتدأ نظراته الفلسفية بنظريته تعيين المعنى واللفظ، وتعيين الأسماء والمسميات، وهى النظرية التى ابتدأ بها أيضا سقراط من بعد كونفوشيوس، وذلك لما تشابهت فيه أحوال العصرين اللذين عاش فيهما الفيلسوفان : فكونفوشيوس جاء فى وسط اضطراب خلقى، وتلاعب فى نظم الحكم، وعبث بمصالح الدولة، واللعب بالألفاظ لتوهين الأخلاق، فكان لابد من العمل على تعيين

المعانى الدالة على الألفاظ ليثبت المعنى مستقيما، لكى لايمكن التلاعب به، وإفساد الاستدلال من طريق ذلك التلاعب، وكذلك سقراط وجد السوفسطائيين قد اتخذوا من اللعب بالألفاظ طريقا لحل أخلاق الشباب الأثينى وإفساد اعتقاده، والعبث بكل ما هو فاضل لديه، ولذا كان أول ما دعا إليه سقراط تعيين المعانى الدالة عليها الألفاظ حتى لايتخذ المفسدون من بريق اللفظ مايفسد الاستدلال والتفكير .

دعا كونفوشيوس إلى العناية بمعانى الأسماء، والألفاظ الدالة على المسميات، وألحف فى تلك الدعوة ليقطع على المضللين سبيل التضليل، ويفتح الباب ليستقيم طريق المعرفة من غير تمويه، ولذا جاء فى كتاب الحوار لكونفوشيوس أن أحد تلاميذه سأله «بأى شئ يبتدئ سياسته إن تولى حكم الإمارة؟» فقال : «لابد من تصحيح الأسماء» فدهش التلميذ من هذا الجواب، ووقع من نفسه موضع العجب . فقال كونفوشيوس : إذا لم تكن الأسماء صحيحة لايوافق الكلام حقائق الأشياء، وإذا لم يكن الكلام موافقا للحقائق وقع الخلط فى اللغة وفسدت الأمور فلا تزهر الآداب ولا الموسيقى، ويضطرب التفكير، ولاتنزل العقوبات على من يستحقها، وإذا لم تنزل العقوبات على من يستحقها، لاتعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم، ولذلك يرى الرجل أن من الضرورى أن توافق الأسماء مسمياتها ليمكن أن يتكلم بها . وأن يعمل بما يتكلم، والرجل الكامل الخلق لايستهين بكلامه، ولا يهمل فى تعبيره».

وعنايته بتعيين الألفاظ جزء من عنايته بأن يكون الشخص الكامل على تمام المعرفة بنفسه وبحقائق الأشياء، فهو يحث على المعرفة الصحيحة، ويعتبرها جزءا غير قابل للانفصام من منهاجه الخلقى، فيعتبر من كمال الفضيلة للرجل حسن إدراكه للأمور، وقدرته على فهم ما يلقى بين يديه من المسائل من غير أن يدفعه الغرور إلى الضلال. ثم هو يدعو إلى التفكير القويم فى كل مايلقاه الإنسان، ويرى شرطا لازما للتفكير أن تكون عند الشخص قبل التفكير مقدمات كافية لأن يفكر، والتفكير لابد منه لكل معرفة، ولذا يقول «من تعلم من غير تفكير وتدبير فهو فى حيرة، ومن فكر من غير تعلم فهو على خطر الضلال» ويرى أن طريق العلم ألا يقيس الغائب على الشاهد لأنه تخمين، ولايجرى الحدس والتخمين فيما لايعلم. لأن الظن لايغنى من الحق شيئا، ولذلك يقول لأحد تلاميذه : «ألا أعلمك طريق العلم». ولاتظن أنه يقصر الفضيلة على المعرفة بل إنه يرى أن المعرفة من طريق الفضيلة، وليست هى الفضيلة، كما يقول سقراط. بل هو يقول : «من يعلم الحق دون من يولع بطلبه، ومن يولع بطلبه دون من يطمئن إليه دائما» فالمراتب عنده ثلاث :

(١) معرفة للحق مجردة (٢) وشوق إلى الحق ومحبة له (٣) وعمل به وارتياح النفس إلى العمل به، مهما يكتنفها فى العمل به من صعاب وشدائد. ثم يقسم الناس للمعرفة إلى أربع درجات : الدرجة الأولى درجة رجل وهبته السماء المعرفة، وأوتى الإلهام، وهى أعلى الدرجات، والثانية درجة رجل لم يؤت إلهاما ولكن فيه ذكاء، فتعلم ووصل إلى أقصى ما يتعلمه من لم يؤت إلهاما. والدرجة الثالثة درجة الرجل الذى لم يؤت ذكاء، بل فيه غباء، ويطلب المعرفة، وينال منها بمقدار طاقته، والدرجة الدنيا وهى الدرك الأسفل، رجل حائر بائر فيه غباء وبلادة فلم يعرف ولم يحاول معرفة.

١٦ – وإن معرفة الإنسان لايمكنها أن تصل إلى الغايات من الأشياء بل أقصى ما يمكن أن تصل إليه هو معرفة ما يمكن أن تعرفه، وهو النواميس والقوانين التى تسير الأكوان على مقتضاها، فإن العالم فى نظره محكوم بقوانين لاتقبل التخلف، قوامها التآلف والانسجام بين أجزائه، فالسماء والأرض والإنسان قد ارتبط ثلاثتها بنظام محكم وبقوانين مؤلفة بينها، وأن ذلك النظام قد يمكن أن يعرفه الإنسان، ولايمكن أن يعرف علته الغائية، ولامبعثه، وبواقعه، وإن الشر كل الشر أن يكون فى تصرفات الإنسان مايحيد به عن النظام المؤتلف بين الإنسان والأكوان، وذلك بأن يرتكب من الشر ما يكون سببا فى أن تنزل السماء عذابا، ولذلك يقول فى الحوار : «لو ارتكبت مالا يليق غضبت السماء».

ولذلك كان تحلى الإنسان بالفضيلة، هو الذى يجعله مؤتلفا مع نظام السموات والأرض، لأن العالم يسير بنظام وقوانين محكمة، كانت طبيعة الإنسان وفطرته إلى الخير لكى يكون النظام هو السائد، ولذلك يقول كونفوشيوس كما كان يعتقد من سبقه من حكماء الصين وفلاسفته أن النزوع إلى الخير والفضيلة طبعى فطرى فى الإنسان، فليست الفطرة الإنسانية ميالة إلى الشر نزاعة إليه، بل إنها خيرة، ولكن للإرادة المستقلة التى منحها الإنسان، وللشهوات واللذات التى يمكن استحواذها عليه يشذ عن داعى الفطرة ونداء الطبيعة ويتجه إلى الشر، ويفعل ما ينزل به غضب السماء فى زعمهم، ففى النفس ينابيع صافية المواد للخير، وفيها استعداد للشر إن عرض لها عارض اللذات والشهوات، فالأصل للنفس الخير والشر عارض، وإذا كانت النفس فى أصل فطرتها الخير، والشر انحراف عن الفطرة، فالحكيم إذن من عمل على إحياء الفضيلة بتنمية قوى النفس الخيرة وتصفية ينابيعها من كدور اللذة، واعتكار الشهوات، فإن النفس كصفحة الماء الصافية المستوية واللذات كالأحجار تقذف فيها فتحدث فيها اضطرابا، تثير فيها اعتكارا.

١٧ – وإذا كانت الفضيلة من دواعى الفطرة السليمة فطلبها من كمال الإنسانية، إذ رغبة الخير فطرية فيه. وعلى ذلك يطلب الإنسان الفضيلة لارجاء منفعة، ولادفعا لمضرة، ولاجلبا للذة، ولادفعا لحرمان، ولكن يطلبها لأنها كمال إنسانى، فهو يقول فى الفصل الرابع من كتاب الحوار(١) «الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة، والرجل الناقص الخلق يطلب اللذة، والرجل الكامل الخلق يفكر فى اجتناب الرذيلة وأداء الواجب، والرجل الناقص الخلق يفكر فى كسب المنافع ... والرجل الكامل الخلق واقف على البر، والرجل الناقص الخلق واقف على الربح».

فالفضيلة عنده لاتطلب لما فيها من لذات، ولكن تطلب لأنها كمال الإنسان ولأنها الفطرة السليمة، والطريقة التى بها يتم التآلف والانسجام بين الإنسان والعالم وإذا تمسك الشخص بالفضيلة وابتعد عن الانحراف عن سبيلها، وتجنب الخضوع للملاذ، سهل عليه كل صعب، وهان عليه كل شاق، وإن رياضة النفس على الفضيلة، تجعل الشخص يحتمل الفقر والغنى فإن افتقر لم يهن، وإن غنى لم يطغ ولم يأشر، ولذا يقول فى كتاب الحوار «الرجل غير الفاضل لايستطيع أن يبقى فى الفاقة أو الثروة طويلا، أما ذو الفضيلة فهو مستريح من فضيلته، حريص عليها».

وإن كانت الفضيلة لاتطلب إلا لأنها السنة، والانسجام، وتزكية النفس الإنسانية، فمن ثمراتها الراحة، والاستهانة بالآلام ولذا يقول : «ذو الفضيلة يستبشر بالماء الجارى، وذو الفضيلة يستبشر بالجبل الراسى، وذو الفضيلة نشيط، ورزين، ومعمر» فالفضيلة عنده روضة فيها الراح والريحان، والستر والاطمئنان أما ذو الرذيلة فهو فى شقاء وبلبال مستمر، وينزل عليه غضب السماء جزاء ما قدمت يداه واقترفت نفسه، ولذا يقول : «يولد الإنسان مستقيما فمن فقد الاستقامة واستمر حيا، فنجاته من الموت من حسن حظه».

---

(١) يوازن العلماء بين رأى كانت الألمانى فى العصر الحديث، ورأى كونفوشيوس الصينى الذى عاش قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون فيجدون توافقا بين رأى الحكيمين فى الأخلاق، فكان يقرر أن ينبوع الخير فى الإنسان بمقتضى الفطرة، لأن الإنسان يجد فى نفسه دائما أن فعل مالايليق ولايرتكب جريمة شاعرا بها إلا على نية ألا يعاودها، والشعور القوى الذى يكون فى نفس كل إنسان بأن يتجنب السلوك الذى لو سلكه كل الناس فسد المجتمع.

١٨ – ولكن الفطرة قد يغالطها الإنسان، فيزعم أنه سائر على مقتضاها مؤد للواجب سالك سبيله، وهو يجرع من اللذات والشهوات فكيف يأمن الشخص هذا العثار ؟ وكيف يطمئن إلى أن ما يسلكه هو موجب الفطرة، وهو الفضيلة ؟ قد عالج كونفوشيوس هذه الحال. ويفهم من حواره مع تلاميذه ومن مجموع آثاره أنه يوجب على الشخص أن يراقب نفسه ويلاحظ البواعث التى تبعثه على الأعمال، فإن كانت هى المنفعة الشخصية أو اللذة فهو قد حاد عن السنة، وإن كان الدافع الإخلاص والحق فى ذاته فهو الفطرة، وهو السنة، وهو الصراط المستقيم، والسلوك القويم، ولذلك يقول عند الحكم على الأشخاص أهم إلى هدى أم إلى ضلال : «انظر إلى أعمال الناس، ولاحظ بواعثها، وراقب ما إليه يستريحون فأين يخفى الناس سرائرهم !! أين يخفى الناس سرائرهم !!» إذا كانت ملاحظة الدوافع سهلة على الشخص إذا كانت فى غيره، فكيف يصعب عليه أن يلاحظ دوافعه ؟ ثم هذه الملاحظة، تدفع الفيلسوف الكبير إلى أن يدعو الشخص إلى التأمل النفسى، ومراقبة وجدانه، لتستيقظ نفسه اللوامة، وتحاسبه على ما يقدم عليه من عمل، ويكون من نفسه رقيب عليه شديد المراقبة، قوى الحس، صادق الحساب، لايترك صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها.

ولقد قال أحد تلاميذه : «أراقب نفسى وأسألها كل يوم : هل خانت عند ما تولت شئون الناس ؟ هل كذبت عندما عاملت ؟ هل كانت غافلة عن العمل بما تلقته من العلوم ؟»

بهذه المراقبة الشديدة يأمن الرجل أن يحيد عن الفطرة. وأخشى مايخشاه كونفوشيوس على الفطرة اللذات من أن تطمس نورها وهداها، ولذا كان يحث على الخشونة فى العيش لكى تكون اللذات أمة للشخص ولاتكون سيدا مسيطرا عليه. ويرى أن تعود ترك اللذات مما يساعد على اتباع الفطرة الخيرة، ولذلك يقول : «إذا عزم المتعلم على طلب الطريقة الموافقة للفطرة السليمة وهو يأبى الملبس الخلق، والمطعم الخشن فهو غير خليق بأن يحاضر».

وإن تلك المراقبة النفسية وتعود النفس خشن الحياة والسيطرة على اللذات والشهوات أول ثمراتها التمسك بالفضيلة والتمسك بالآداب، وأول ثمار التمسك بالآداب حسن المعاملة وحسن العشرة مع غيره من الناس، ولذا يقول : «ثمرة الآداب حسن العشرة، وإنما تحسن سنة السلف الصالح لاشتمالها على هذه الصفة التى تراعى فى جميع الشئون صغيرها وكبيرها، ولكن لو روعى حسن المعاشرة من غير أن يضبط بالفضيلة ما استقامت الأمور».

فهو يرى أن المظهر الحسى للفضيلة حسن المعاملة والمعاشرة المقيد بقيودها، ومن هنا نرى أن آراءه فى الأخلاق تبتدئ من الفرد. وتنتقل إلى إصلاح الجماعة بأن يكون

الأفراد جميعا مقيدين أنفسهم بالفضيلة بحيث يجعل كل شخص من نفسه دافعا للفضيلة يبعثه على أن يعامل غيره معاملة مقيدة بالأخلاق الفاضلة، فلايظلم، ولايتعصب ولايغلب رغباته، ولايجعل من نفسه مغلبا على الآخرين. ولذا جاء فى كلامه «الرجل الفاضل لايتحين، والرجل الفاضل لايتعصب» وهذه كلها آراء لو تمسك كل واحد بها لقامت جماعة فاضلة يرتبط آحادها بالحق القويم من غير منافسة، ولامغالبة، ولاتناحر.

١٩ – نرجو بهذه الكلمات أن نكون قد بينَّا فلسفة كونفوشيوس الخلقية ولننتقل إلى الناحية الثانية من نواحى آرائه، وهى محاولته إصلاح المجتمع، ومما تقدم نرى أن إصلاح المجتمع فى نظره غير عسير بل غير متعذر، وذلك أن يتمسك كل آحاده بقانون الأخلاق، ولكن كيف السبيل إلى حمل العامة على التمسك بقوانين الأخلاق ؟ يرى ذلك غير عسير، ولابد من عاملين أحدهما دعوة الرجل إلى الأخلاق، وانغماره فى الناس، وثانيهما جعل القائمين بشؤون الحكم متمسكين بقوانين الأخلاق. ولنترك العنصر الثانى إلى موضعه من الكلام على الناحية السياسية فى آرائه الخلقية، أما دعايته إلى الأخلاق الفاضلة فقد سلك فيها ثلاثة مسالك.

المسلك الأول : أنه دعا إلى احترام الآباء، والعناية بشدة إلى تماسك الأسرة، ولذا ترى فى كتبه عبارات كثيرة فى الدعوة إلى احترام الآباء وجعل ذلك أساسا من أسس الكمال فى نظره، فهو يقول : «واجب الولد البر بأبويه إذا كان داخل المنزل، والاحترام لذوى الإنسان إذا كان خارجه، والصدق فى أقواله، والرحمة بالناس فى كل أفعاله، وأن يتقرب إلى الفضلاء، وإذا كان لديه فراغ من الوقت زجاه فى كتب الأخلاق» ولاشك أن الشخص إذا عنى بالبر بالوالدين العناية الكافية لم يكن منه فى حضرتهما إلا ما يليق بالرجل الكامل.

فملازمتهما مع العناية بالتجمل بالكمال فى حضرتهما أمدا طويلا يجعل الشخص يعتاد الفضيلة والسلوك الحسن، ولعل هذا هو السر فى أن الإباحية إذا سادت زمنا من الأزمان صحبها انحلال الأسرة، وفك عقدة الاحترام التى بين الآباء والأبناء.

المسلك الثانى : من مسالكه فى الدعوة إلى الفضيلة مسلك التدرج فهو كان يدعو إلى الأخلاق فى رفق، ويعطى كل واحد من الناس مقدار طاقته فى دعوته، فهو يقول : «ومن الناس من نستطيع محادثته فى العلم، ولايمكن أن نحمله على السير معنا بمقتضى الفطرة، ومنهم من نستطيع أن نسير بهم على الفطرة من غير أن يكونوا ذوى قدم ثابتة فيها، ومنهم من يكون ذا خلق قويم شديد التمسك بالفطرة والكمال الإنسانى، ولكن لايمكننا مشاورته فى تقدير الشئون».

فهذه الطبقات فى استعدادها لقانونه الخلقى كل طبقة لها حظ من الإصلاح تعالج به، وتحمل على سلوك الجادة بمعالجته، وقد حكى عنه أحد تلاميذه الذين لازموه أشد الملازمة أنه كان يرشد الناس بالتدريج إرشادا حسنا، ولننقل كلام ذلك التلميذ المخلص فهو يقول فى وصف آراء أستاذه وأثرها فى نفسه «إذا رفعت إلى آراء الأستاذ النظر رأيتها أعلى مما كنت أعتقد، وهى ملء نفسى، وتحيط بى، وتستغرق كل حسى، والأستاذ يرشد الناس بالتدريج إرشادا حسنا، وقد وسع بالعلوم مجال فكرى، وضبط بالآداب سلوكى، حتى أنى لو رغبت فى ترك آرائه ما طاوعتنى نفسى».

المسلك الثالث : من مسالك دعوته إلى الخلق القويم القدوة والأسوة، فهو يرى أن الرجل الفاضل يستطيع أن يؤثر بسلوكه القويم أكثر من أى بيان مهما تكن بلاغته، ومن غير أن يهتم بالرياء فى دعوته، ولقد كان يدعو تلاميذه إلى السلوك الخلقى بأخلاقه، كما دعاهم بكلماته، فهو الذى يقول لهم : «أتظنون أنى أخفى عليكم شيئا، ما من أمر أعمله إلا فيه إرشادكم، وهذه هى طريقتى فى التربية».

٢٠ - كان إذن من مذهب كونفوشيوس أن يختلط بالناس ليصلحهم وليس من مذهبه أن يعتزل الناس وينقطع عنهم، ولذا جاء فى كتاب الحوار «لايمكن أن أعاشر الطيور والوحوش، فلو لم أعاشر هذه الأمة، فمن الذى أعاشره ؟ لو كانت البلاد تحت سيادة عادلة ما كنت فى حاجة إلى محاولة لإعادة نظامها».

وهنا يفترق نظر كونفوشيوس عن نظر الفيلسوف «لوتس» صاحب مذهب الطاوية. فنرى لوتس بعد أن جرَّب وخالط الناس، وحلب الدهر أشطره، وعرف حلوه ومره، انتهى إلى أن صار يرى أن الخير ليس فى محاولة إصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والنشاط والدعوة، بل الخير كل الخير فى الزهادة والاعتزال، فلما التقى به كونفوشيوس، وهو شاب متفتح الآمال، مزدهر النفس، وحاوره قال الشاب للشيخ : إذا كان واجب كل شخص من آحاد الأمة أن يعتزل فى كهف من الكهوف، فمن الذى يبقى فى المدن يعمرها، وفى الأرض يفلحها ويزرعها، وفى الصنائع يمهر فيها، ومن الذى ينسل ويعمل ليبقى الكون عامرا ببنى الإنسان؟ وإذا كان الاعتزال مقصورا على الحكماء والفضلاء فمن الذى يربى الإنسان ويؤدبه ؟ أم يترك الناس حائرين بائرين لاهادى ولامرشد».

لذلك يتجه كونفوشيوس إلى الجماعات يصلحها، ويؤدبها، ويعظها، ولايعتزل ويترك الناس فى غيهم يعمهون. ولم تكن هذه النقطة وحدها هى التى افترق عندها الحكيمان، بل تخالفا فى أساس آخر من أسس المعاملة بين الناس، وهى جزاء السيئة أهو سيئة مثلها أم

عـفـو وتسـامح ؟ يرى لوتس أن الصـفـح والعـفـو هو مـا يجب أن يعـامل به المسئ، أمـا كونفوشيوس فيرى أن المسئ يعامل بالعدل، وليس من العدل العفو عن سيئته، بل أخذه بجريرة عمله، فالمسئ، لايعفى عنه، ولكن يعدل معه لايظلم ولايظلم.

٢١ - **آراء كونفوشيوس فى السياسة:**- ولنترك الآن محـاولته أن يصلح الأخلاق بشخصه من غير أن يستعين بسلطان الحكم، ولننتقل إلى الناحيـة الثانية من النواحى الخلقية، وهى آراؤه فى السياسة، ولانقصد بآرائه السياسية ما يجرى به العرف الآن من الآراء فى أصل نظام الحكم، ولون النظام أهو ديمقراطى أم أرستقراطى أم حكم الفرد، ولابيان توزيع السلطات فى الدولة، واختصاص كل سلطة فتلك أمور لاتعنيه ولكن الذى يعنيه هو مقدار القسط الذى يقوم به الساسة من إصلاح فى الأخلاق، وما يجب أن يتبعوه ليكون حكمهم صالحا للوصول إلى الغاية منه، وهى إصلاح أخلاق العامة، وما يجب أن يتصف به الحاكم من أوصاف ويتحلى به من أخلاق وما يصح أن يكون موصلا لتولى المناصب، ثم الأوصاف العامة للحكومة الصالحة للقيام بهذه المهمة الخلقية ، وواجب الحكماء عند تنكب السبيل، هذا ما يعنى به كونفوشيوس وما نشير إلى آرائه فى هذه الإلمامة الموجزة.

يرى كونفوشيوس أن السياسة الحكيمة هى ما تقوم على الأخلاق القويمة، فليست السياسة بمنفصلة عن الأخلاق، ومن فصل الأخلاق عن السياسة فهو لم يفهم الغاية من السياسة، ولا الغاية من الأخلاق فى نظر كونفوشيوس ، إن الغاية السامية من السياسة هى إصلاح الأخلاق، وقد يكون من واجب الدولة أن تعنى بتوفير الخبز للعامة، وأن تعنى بالقيام على الميزانية، وتنظيم دخلها وخرجها، ولكن الغاية السامية أو الواجب الأمثل هو فى إصلاح أخلاق الناس وتهذيبهم، وليس السياسى المستقيم من يستطيع أن يحكم بالعدل والإنصاف فقط بل السياسى حقا من يستطيع أن يهذب الرعية حتى لايكون ظلم، ولذا يقول : «إنى فى الفصل بين المتخاصمين كغيرى من الناس، ولكن السياسة الحكيمة أن تهذب الرعية، حتى لاتكون مخاصمة».

٢٢ - ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ لقد رام صعبا وطلب عسيرا ، هذا مايبدو لنا ، أما هو فيرى أن الأمر ليس من العُسْر بالقدر الذى يلقى اليأس فى قلب الحكيم الطالب للإصلاح الذى يسلك سبيله، فهو يرى أن الملوك والقادة فى السياسة يؤثرون بأخلاقهم أكثر مما يؤثرون بقوانينهم، فهو يعتقد اعتقادا جازما أن العامة يسيرون على أخلاق حكامهم، فإن كان حكامهم صالحين صلحوا وإن كانوا معوجين فسدوا ، ولذلك يجعل أساس إصلاح

أخلاق الناس أن يكون حكامهم ذوى أخلاق، فهو يقول فى قوة وإيمان بما يقول «إن الحاكم إذا شغف بالآداب الفاضلة لايجترئ أحد من رعيته على إهانة غيره، وإذا شغف بالصدق لايجترئ أحد على الكذب، ومن هذه حاله أقبل عليه الناس حاملين أولادهم على ظهورهم».

فاقتداء الناس بحكامهم الصالحين هو الطريق الأول لتهذيب الناس، وهو لايعتقد أن تحلى الحكام بالأخلاق الفاضلة أساس إصلاح العامة فقط. بل أساس طاعتهم أيضا، فإن الناس لايطيعون إلا من يرون فيه الاستقامة والمحافظة على الآداب العامة، فهو يقول : «إن كان سلوك الرئيس مستقيما أطاعه المرءوسون من غير أن يأمرهم، وإن كان غير مستقيم لم يطيعوه ولو أمرهم، هو لهذا لايفهم أن الطاعه بالأحكام الرادعة، والقوانين الزاجرة، والأوامر القاسية، إنما الطاعة فى نظره ما كانت عن رغبة النفس، واقتناعها، بأن الحق فيما تأمر به وتدعى إليه، وليست إجابة الأمر مكرهة تقى المجيب وهو يحاول التخلص من تأنيب الضمير، ولذلك يرى أن قيادة النفس بالآداب والأسوة الحسنة هى التى تتبعها الطاعة التى لايحاول الشخص فيها العصيان إلا وتأنيب الضمير يرصده، فهو يقول «الرعية إذا قدتها بالأحكام الصارمة والعقوبات الزاجرة فستحاول التخلص منها . وهى غير مستحية من مخالفتها، وإذا قدتها بالفضائل وأصلحتها بالآداب تستحيى من ارتكاب الجرائم وهى صالحة».

٢٣ – ثم إن أول الأسس التى يجب أن يعتمد الحاكم عليها ثقة الرعية به ونيله محبتها، فيجب أن يعمل على نية هذه الثقة، واجتذاب الجماهير لتجد أوامره إجابة من القلوب ولاتجد مظهرا من الخضوع، ولذلك يوصى الحكام بالعناية بهذه الثقة إلى درجة أنه يرى أن العمل لها يكون قبل العمل لقوت الناس أو الإعداد للحروب، لأنها أساس قوة الحكم، وهو من غيرها قسر وإرهاب وإرهاق وعنت يولد الخوف.

وإن أطاع الناس رهبة وخوفا انقطع الحبل الموصول بين الحاكم والمحكوم، فتضطرب الأمور وتهزع الأخلاق وتفسد النفوس. سأله أحد تلاميذه عن ضرورات السياسة فقال : «من ضروريات السياسة الأقوات الكافية وذخائر الحرب الواقية، وثقة الرعية».

فقال التلميذ : «لو اضطررنا إلى حذف واحد من هذه الثلاثة فبأيها تبتدئ بالحذف ؟ قال : «احذفوا ذخائر الحرب» قال : «لو اضطررنا إلى حذف أحد هذين الأمرين فأيهما نحذف ؟ وأيهما نبقى ؟».

قال : «احذفوا الأقوات، فإن الموت حظ الإنسان منذ الغابر من الأزمان، ولكن السياسة لاتقوم إلا بثقة الرعية».

وإذا كانت ثقة المحكومين أساس الحكم، فالواجب الأول على الحاكم لكى يقوم بواجبه الخلقى على الوجه الصحيح أن يجتهد فى العمل على جلب هذه الثقة، ولاشك أن أخذه هو بمبادئ الأخلاق أساس لجذب ثقة الناس إليه، والقرب من الناس والتدانى مع الاحتشام والتجمل والوقار، كذلك فلا يجعل هوة بينه وبينهم، ولايتبذل معهم فى قول أو عمل، ويرى أن الشفقة بالناس أساس من أسس الثقة وداع من دواعى الإخلاص للحاكم.

سأله أحد تلاميذه قائلا : «وكيف يجعل الحاكم رعيته يجلونه ويثقون به مخلصين ويتواصون بالخير فيما بينهم ؟» فقال مجيبا :«إذا قابلهم بالسمت والوقار أجَلّوه، وإذا كان بارا بوالديه شفيقا على قومه أخلصوا له، وإذا رفع الصالحين وأعان العاجزين تواصوا بالخير».

٢٤ – وإن من أشد الأمور لزوما لجذب ثقة الناس والوصول إلى الغاية السامية من السياسة، وهى التهذيب أن يولى الحاكم الصالحين فلذا كان «كونفوشيوس» يرى أن أولى طرائق تهذيب الناس، وحملهم على السير على الجادة الاقتداء بالحاكم فى سلوكه القويم، ولذا أوجب أن يكون سلوكه على سمت الأخلاق، وكذلك يجب أن يكون أعوانه من هذا القبيل فلا يولى إلا الصالحين، وينزع الولاية من الطالحين ولا يدنيهم إليه، فإن إدناءهم منه مضعف للثقة به. ولقد سأله أمير مقاطعته قائلا : «كيف تكتسب طاعة الرعية ؟» فأجابه بقوله : «إذا أعلى الصالحون وأبعد الطالحون أطاعت الرعية وإذا أقصى الصالحون، وأدنى الطالحون عصت الرعية» فولاية أهل الصلاح فى نظره تجذب الناس إلى الثقة بالحاكم، وتحملهم على طاعته، وتساعد الحاكمين على الوصول إلى غايتهم السامية من تهذيب الأخلاق، ولذا كان يقول : لو تداولت أيدى الصالحين شئون الدولة لمدة قرن واحد لتهذب الظالمون جميعا، ولاستغنى الحاكم عن عقوبة الإعدام.

ولأنه يرى أن تولى الصالحين يعين الحاكم على تنفيذ مهمته الخلقية يستحسن لذوى الأخلاق والصلاح أن يتولوا مناصب الدولة ويطلبوها إن كان الحاكم عادلا، لأن من يتولى المنصب من قبله يعينه على العدل، بل إن تقديم الخدمة فى ذلك الوقت فريضة لازمة على أهل الصلاح، ولذا يقول فى قوة.

«آمن بالحق، وأحب العلم، واتبع الفطرة، ولاتقم فى مملكة سادتها الفوضى، واطلب المنصب إذا كانت البلاد محكومة بسياسة حكيمة، واعتزل إذا كانت تحت سياسة غاشمة، فمن العار أن تفتقر وتبتعد، والبلاد تحت سياسة عادلة، ومن العار أن تغنى وتعتز والبلاد تحت سياسه غاشمة».

وإن كان طلب المنصب لازما على من هو أهل له إن تعين فمن الواجب قبله أن يعنى الرجل بتأهيل نفسه له، فليس الغرض أن يتولى ليستمتع بسلطان الحكم، وجاه المنصب، لأنه رغبة يؤلمه الحرمان منها، بل يطلبه لأنه تكليف إذا توافرت المؤهلات له، ولذا يقول :

«لايكن همك أن تتولى المنصب، بل ليكن همك ما يؤهلك لهذا المنصب، ولاتهتم بجهل قدرك، بل اهتم بالفضل الذى تريد أن يعرفوك به» ثم إنه يوجب على طالب المنصب ألا يجعل عنايته موجهة إلى مقدار المرتب من المال ولكن ليجعل عنايته فى القيام بالواجب لذات الواجب. ولذا يقول :

«من يخدم الأمراء فليجعل العناية بأداء الواجب فى المحل الأول، وأمر الراتب فى المحل الثانى».

فالإخلاص للواجب هو الأمر الذى يجب أن يعنى به صاحب المنصب. ذكر أحد تلاميذه أن وزيرا من الوزراء تولى رياسة الوزارة ثلاث مرات، فلم يظهر على وجهه أمارة الابتهاج فى واحدة منها، واستقال ثلاث مرات، فلم يبد فى واحدة منها على وجهه الاكتئاب بل كان يخبر الوزير الجديد بجميع ما حصل فى شئون الدولة فى عهده، فقال كونفوشيوس «قد كان مخلصا» فالإخلاص على ذلك فى نظره يجعل طالب المنصب يطلبه لأنه واجب من غير أن يطير فرحا لأبهة الحكم، ويتركه لعجزه عن أداء الواجب من أن يمضه الألم لفقده جاه السلطان، فالمنصب توليه واجب لذوى الأهلية له، ليس فيه مغنم للمخلص، ولا فى فقده مغرم، لايطلب للشهرة ولايشعر المخلص عند تركه بمضاضة الحرمان.

وبينا هو يرى أن الفضلاء إن سعوا للمناصب فى الحكومة الفاضلة، فقد سعوا فيما هو حق وواجب، يرى أن الواجب على الصالحين أن يعتزلوا المنصب إن كانت الحكومة غير صالحة، وعجزوا عن إصلاحها لشهوات استمكنت فى رءوس من هم أعلى منهم، وتعذر عليهم حملهم على الدرب، وقد اعتزل هو منصبه لما رأى أن أمير المقاطعة قد استولت عليه الشهوات واستحوذت على بصيرته، ولما ناقشه تلاميذه فى اعتزاله مناصب الدولة قال لهم : «لماذا يهمكم أن يفقد أستاذكم منصبه !! إن البلاد قد خلت من العدل والاستقامة من زمن بعيد، وستتخذ السماء أستاذكم ناقوسا لها».

٢٥ – وإذا كانت الحكومة مستقيمة وهى التى يكون الحكم فيها على مقتضى قانون الأخلاق كان من آثارها أن تكون الأمة قوية شجاعة مهما أحاط بها من أسباب الضعف، ومهما يكن بها من فقر، فهو يرى أن الفضيلة تجعل النفس عامرة بالشجاعة ممتلئة بالقوة

مطمئنة إلى الغاية، وهو يرى هذا الرأى واثقا به ولم يكن قد رآه عن حدس وتخمين وتخيل جميل بل قد رآه عن خبرة وتجربة.

ومجمل ما يقال فى سياسة هذا الحكيم أنها الأخلاق الفاضلة فهى عدة الحكام وعتادهم وهى غايتهم ومرتجاهم، وهى المطمح الأسمى وهى البذرة الصالحة يلقيها الحاكم فى أمته فتنبت أزكى النبات وتثمر أطيب الثمرات. وما كان هو إلا نموذجا للحاكم الصالح، حكم فلم يخالف حكمه آراءه ولم يباعد السلطان بينه وبين كلماته. ولقد قال فيه أحد تلاميذه: «إن رتبة الأستاذ «كونفوشيوس» لايمكن أن يصل إليها أحد كما أن السماء لايمكن أن يصعد إليها أحد، لو كان للأستاذ حظ من الإمارة أو الرياسة لصدق عليه قول القائل، إن أقام الرعية قاموا سراعا وإن هداهم سارعوا وإن أراحهم أووامنه إلى ظل وارف وإن عاش عاش جليلا وإن مات لقيت بموته النفوس حسرات فكيف يمكن أن يصل إلى رتبته غيره!!».

٢٦ – هذا هو الفيلسوف الحكيم الذى لاتزال الصين تجله على اختلاف مللها ونحلها، وهذه إشارة موجزة إلى آرائه الخلقية التى لاتزال فى الصين نبراسا يهتدى به الكثرة الغالبة فيهم، ويجدر بنا أن نقول أن ذلك الحكيم لم تكن عنايته الكبرى متجهة إلى تأليف كتب، ولكن عنايته كانت متجهة إلى تكوين نفوس، وإلى تربية طائفة من التلاميذ يكونون نواة لتربية جيل، وبذلك تتوارث آراءه الأجيال، وجدتها لاتبلى لأنها تجد غذاء من نفوس الناس.

ولقد دون تلاميذه آراءه، ومنها بين أيدينا كتاب الحوار ترجمه من الصينية إلى العربية صديقنا الأستاذ محمد مكين. وهو روضة ناضرة الأزهار يرى فيها القارئ صورة صادقة لآراء كونفوشيوس الخلقية والسياسية ويستشف من ثناياه روح العطف بين الأستاذ والتلميذ إذ يرى فيهم أسرة شريفة لم تجمعها لحمة نسب أو صلة، ولكن جمعتها لحمة علم وعاطفة رحمة.

ولكونفوشيوس مؤلفات أخرى ألفها هو، وهى تلخيصات وشروح للكتب المقدسة القديمة التى نسخها وشرحها وعلق عليها إحياء لآداب القدماء من الصينيين، وقد كانت شروحه وتعليقاته متضمنة منهجه وآراءه فى الدين والأخلاق، والسلوك القويم.

وثنية اليونان

١ - **تعدد أربابهم وتماثيلهم:**- اليونان الأقدمون كانوا يؤلهون ظواهر الطبيعة ويعبدونها، كما فعل المصريون من قبل، وذلك ظاهر فى آلهتهم الأولى، فإنهم ألهوا السماء، والأرض والبحر، والشمس، والزمن، ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل لحظوا بعد ذلك الصفات الأدبية فى الأحياء، وفنونهم وما يؤثر فيهم، فجعلوا لكل واحد منها إلّها أو آلهة. ومن هذه الآلهة هيرا ربة القوة المنتجة فى الطبيعة وآريس أو المريخ إلّه الحرب وأبولون إلّه الموسيقى والنور، وهراميس رسول الآلهة ورب الفصاحة والبيان، وأثينا ربة الحكمة وأفروديت ربة الحب الجميل وديونيسوس رب الخمر والتمثيل «التيراجينى» أو المحزن.

٢ - وكان لكل مدينة أربابها الخاصة بها، ومعبودات لها كثيرة، وإن اتحدت فى الاسم مع أرباب المدينة الأخرى، فالمسمى يختلف، فأبولون فى مدينة ليس هو أبولون فى مدينة أخرى، وإن اتحد الاسم، ولكن مع هذا الاختلاف كانت هناك أرباب كثيرة أجمع اليونان فى الجملة على عبادتها وتقديسها كالسماء والأرض والبحر، ولها فى كل مكان معبد خاص بها، أو مزار يتقرب فيه إليها، وإن الأرباب التى يشترك اليونان فى تقديسها كثيرة جدا، وكلها يمثل أعظم القوى الطبيعية تأثيرا فى الكون، ومن هذه زيوس المشترى، وهيرا وأثينا وأرتيمس وهرميس (عطارد) وأريس (المريخ) وإفروديت (الزهرة) وكرونس (زحل) وهكذا.

٣ - وأرباب اليونان يزعمون لها التجسد، ويتصورون لها حياة كحياة الإنسان وعلى أكمل وجه من أوجه الحياة الإنسانية الجسدية والشهوانية والنفسية فيصورون إلّههم كائنا حيا فى أبهى مظاهر الحياة من الصور البشرية، ويتمثلون المعبود أو المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة أو امرأة وسيمة المحيا، ويذكرون لآلهتهم من الصفات ما يليق بالإنسان من اعتدال قامة، واتشاح بالثياب الجميلة، وتحل بالذهب والفضة. وهذا هوميروس فى إحدى قصائده يقول عن بعض الآلهة «أندرايس وأثينا كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب، وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تليق بالأرباب، إذ البشر أقزام قصار القامات» ولكل رب من أربابهم هيئته وهندامه وخصائصه، فالربة أثينا ربة الحكمة عندهم مثلا على صورة عذراء ذات عينين براقتين، تحمل رمحا، وعلى رأسها خوذة، وعلى صدرها سلاح لامع.

وللأرباب كما للبشر أقرباء، وأولاد وأسر، فأمهم ربة وأخواتهم أرباب أو نصف أرباب، وللأرباب تاريخ وحوادث وقصص، فالرب (أبولون) له ولد مثلا ولد فى جزيرة ديلوس، وكانت لجأت إليها أمه.

ولقد صوروا لكل رب من هذه الأرباب تمثالا يعبد، ولقد كان للتماثيل الكبيرة محال خاصة بها يزعمون أن الآلهة توحى إليهم فيها على لسان الكهنة، ويتقربون فى تلك المحال للآلهة بالقرابين والنذور، وأشهرها معبد (دلفى) لأبولون بمدينة (فوكيس).

وقد بقيت تلك الديانة، حتى ظهرت المسيحية فغالبتها حينا من الزمن وقضت عليها، ولكن بعد أن أثرت أبلغ الأثر فى المسيحية فلسفة الإغريق، وفنونهم.

وثنية الرومان

١ – اعتقد الرومان، كما اعتقد اليونان من قبل بأن كل ما يحدث فى هذا العالم هو مما قضت به إرادة خالق له، ولكنهم لم يعتقدوا بوحدانية الخالق، بل عددوا أربابهم بتعدد مظاهر الطبيعة التى تتجلى فيها أوامر آلهتهم ونواهيها، فهناك رب ينبت البذر، وآخر يحمى الحقل، وثالث يحرس الثمار وهكذا، ولكل رب اسمه وجنسه وعمله، فعندهم للسماء إله وللحرب إله وللشجاعة إله كما عند اليونان وسموا إله السماء جوبتر وإله الحرب مارس وإله الشجاعة هركوليس، وهو ما يسمى عند اليونان هركليس، وقد قبسوا أيضا بعض أسماء آلهتهم وخواصها من المصريين القدماء، فعندهم إيزيس إلهة القمر وأوزيريس إله الزراعة ومراميس إله الشفاء، وكلها أسماء مصرية لآلهة مصرية. وإن الأرباب قد تعددت عند الرومان جدا فلكل مظهر من مظاهر الحياة رب، ولكل قوة فى الإنسان رب، فعندما يولد الطفل يأتيه رب يعلمه النطق، وربة تعلمه الشرب، وأخرى تقوى عظامه، وربان يرافقانه إلى المدرسة، وآخران يرجعان به. ويعتقدون أن هناك أربابا للمدينة، وللكتابة وللجبل، ولكل نهر، ولكل نبع، ولكل شجرة رب خاص، ولقد قال الكاتب الأتينى بترون فى إحدى قصصه على لسان امرأة صالحة : «إن بلادنا غاصة بالأرباب، بحيث يسهل عليك أن تلقى فيها ربا من أن تصادف رجلا».

٢ – ولقد أتى عهد على الرومان كانوا يعبدون فيه تلك الآلهة المتعددة من غير أن يتخذوا لها تماثيل بل كانوا يعبدونها من غير تماثيل خاصة لكل إله، فلم يكن فى رومية فى ذلك العهد صنم. ثم اتخذوا بعد ذلك الأصنام من الخشب أولا، ثم اتخذوها من الرخام على مثال أصنام اليونان. ولم تكن آلهتهم على صورة حية من البشرية كآلهة اليونان فلم يصفوها بما يتصف به البشر من تحاب وتباغض وتقاتل كاليونان. ولم يفرضوا أن بين الأرباب صهرا أو نسبا وأن لكل إله تاريخا يبتدئ من مولده بل كل ما ينحلونه للرب من أربابهم أنه يسيطر على قوة من قوى الطبيعة، ويعمل للناس الخير والشر على ما يحب ويريد.

٣ – ولقد كان الرومان يؤمنون بالطيرة أو الفأل فيذهبون إلى أن الأرباب يعرفون ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الرومانى الأرباب قبل أن يشرع فى عمل، فإذا أراد الحاكم عملا يجمع لديه مجلسا ينظر إلى الطيور السائرة، فإذا كانت فيها إشارة موافقة يدركون أن الأرباب استحسنت المشروع، وإلا كان معناه أنهم غير راضين عنه.

ويزعمون أنه كثيرا مايرسل الأرباب آياتهم من غير أن يسألوا، ويزعمون أنه قد ظهر نجم ذو ذنب يوم موت قيصر فكان إشارة نعيه.

ولقد كان الرومان يقدسون الأباطرة، ويقيمون المحاريب.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

مؤلفات الإمام الشيخ
محمد أبو زهرة

العالم الجليل الذى أثرى المكتبة الفقهية بموسوعاته، والذى ستبقى ذكراه شعلة وهاجة فى العلم والفقه الإسلامى. تلك المؤلفات الخصبة التي وهبه الله سبحانه وتعالى إياها لتكون منارا يهتدى به العلماء من بعده فى دراسة الفقه الإسلامى.

١ – خاتم النبيين ﷺ (ثلاثة أجزاء فى مجلدين)

٢ – المعجزة الكبرى – القرآن الكريم

٣ – تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان فى مجلد واحد)

٤ – العقوبة فى الفقه الإسلامى

٥ – الجريمة فى الفقه الإسلامى

٦ – الأحوال الشخصية

٧ – أبو حنيفة – حياته وعصره – آراؤه وفقهه

٨ – مالك – حياته وعصره – وآراؤه وفقهه

٩ – الشافعى – حياته وعصره – آراؤه وفقهه

١٠ – ابن حنبل – حياته وعصره – آراؤه وفقهه

١١ – الإمام زيد، حياته وعصره – آراؤه وفقهه

١٢ – ابن تيمية – حياته وعصره – آراؤه وفقهه

١٣ – ابن حزم – حياته وعصره – آراؤه وفقهه

١٤ – الإمام الصادق – حياته وعصره – آراؤه وفقهه

١٥ – أحكام التركات والمواريث

١٦ – أصول الفقه

١٧ – محاضرات فى الوقف

١٨ – محاضرات فى عقد الزواج وآثاره

١٩ – الدعوة إلى الإسلام

٢٠ – مقارنات الأديان

٢١ – محاضرات فى النصرانية

٢٢ – تنظيم الإسلام للمجتمع

٢٣ – فى المجتمع الإسلامى

٢٤ – الولاية على النفس

٢٥ – الملكية ونظرية العقد

٢٦ – الخطابة «أصولها . تاريخها فى أزهى عصورها عند العرب»

٢٧ – تاريخ الجدل (الذى مضى على طبعته مايقارب الخمسين عاما).

٢٨ – تنظيم الأسرة وتنظيم النسل

٢٩ – شرح قانون الوصية

٣٠ – الوحدة الإسلامية

٣١ – العلاقات الدولية فى الإسلام

٣٢ – التكافل الاجتماعى فى الإسلام

٣٣ – المجتمع الانسانى فى ظل الإسلام

٣٤ – الميراث عند الجعفرية

وتطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

مؤسسة

دار الفكر العربى

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى – القاهرة

ص .ب ١٣٠

دار الفكر العربى

مؤسسة مصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تأسست ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

مؤسس الدار وصاحبها : محمد محمود الخضرى

نشاط المؤسسة : ١- طبع ونشر وتوزيع جميع الكتب العربية فى شتى مجالات المعرفة والعلوم.

٢- استيراد وتصدير الكتب من وإلى جميع الدول العربية والأجنبية.

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى - القاهرة

ص . ب : ١٣٠ الرمز البريدى ١١٥١١

فاكس : ٣٩١٧٧٢٣ - ٢٦١٩٠٤٩ (٠٠٢٠٢)

ت : ٣٩٢٥٥٢٣ - ٣٩٢٠٩٥٦

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا بجمهورية مصر العربية

الفرع الرئيسى : ٦ أ شارع جواد حسنى مع تقاطع شارع الساحة- عابدين- القاهرة

ت : ٣٩٣٠١٦٧

فرع الدقى : ٢٧ شارع عبد العظيم راشد المتفرع من شارع محمد شاهين - بالعجوزة

ت: ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر : ٩٤ شارع عباس العقاد - المنطقة السادسة - مدينة نصر

وإدارة التسويق ت ٢٦١٩٠٤٩ - ٦١٨٩٦٩ فاكس ٢٦١٩٠٤٩

وكذلك تطلب جميع منشوراتنا من الكويت من

شركة دار الكتاب الحديث

ص . ب ٦٠٥٦ السالمية ٢٢٠٧١

ت : ٥٧٤٨١٦٥ فاكس ٥٧١٨٥٧١

محاضرات فى

النصرانية

تبحث فى الأدوار التى مرت عليها عقائد النصارى

وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، الذى بعث رسله ليكونوا حجة على الناس يوم لاتجزى نفس عن شيئا ، والصلاة والسلام على النبى الأمى محمد ﷺ نبى الرحمة الذى بعث على فترة من الرسل، بعد أن ضلت الأفهام، وحرفت الحقائق وسيطرت الأوهام ، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا كالنجوم بين العالمين .

أما بعد .. فهذه محاضراتى فى النصرانية أعيد طبعها ، بعد أن ألح الكثيرون فى طلب الإعادة ، إذ تعذر على مريدى قراءتها الحصول عليها، حتى أنها عندما قررت دراستها على طلبة معهد الدراسات الإسلامية لم يجد الدارسون ما يراجعون فيه، فلم يكن بد من أن يعيد المعهد طبعها ليعين الدارسين ، ولينشر تلك الحقائق، من غير تهجم على متدين، ولا مضايقة لغير مسلم، لأن البحث الذى يتبع فيه المنهاج العلمى السليم ، لا يصح أن تضيق به الصدور ، ولا أن تنزوى عنه العقول . وإذا كانت فيه ثغرات يرأبها النقد المنطقى المستقيم، ويعالجها البحث العلمي القويم من غير عوج فى القول، ولا التواء فى القصد .

لقد كتبنا تلك المحاضرات بروح المحقق الذى يجمع الحقائق ، ويعرضها، وقد تماسك بعضها ببعض، ليتكون من ذلك مجموعة علمية تهدى ولا تضل، وما كنا نجهد التاريخ لتسيره، ولكنا خضعنا له، وهو الذى كان يسيرنا .. وكنا فى ذلك كالقاضى العادل خضع للبيانات التى تكون بين يديه، وهى التى تحكم فى الحكم الذى نسجله . لا نغير ولانبدل ، ولاننحرف بها عن النتائج التى تؤدى إليها مقدماتها . فنسير حيث يسير بنا الدليل من غير انحراف ولا تحريف .

وما كانت البيانات التى بين أيدينا من مصادر إسلامية، أو من أعداء المسيحية. بل كانت من كتاب المسيحيين أنفسهم التى سجلوها فى تاريخها، كتبها المتقدمون، ورددها المتأخرون، فهى شهادات من أهلها استنطقناها، فنطقت، واستهديناها، فهدت، واسترشدنا بها، وما ضنت .

وإذا كان من إخواننا وعشرائنا من تململ من محاضراتنا، أو تبرم من مخالفتنا لما يؤمن به، فإنا – علم الله – ما قصدنا بكلامنا إحراجاً ولا إيلاما، إنما أمانة العلم هى التى جعلتنا لا نقدم لتلاميذنا الذين نلقاهم، والذين لا نلقاهم بالخطاب، بل لا نلقاهم بالكتاب، إلا ما نعتقد أنه الحق الناصع، وقد وجه إلينا نقد من بعض المخلصين من إخواننا المسيحيين فى مقالات متتابعة نشرتها إحدى المجلات المسيحية، فما ضاقت صدورنا، بل ذهبنا إلى الناقد فى داره، وطلبنا إليه أن يطلعنا على كل الأعداد التى تشتمل على نقد لنا، لنصحح خطأ وقعنا فيه، أو لنبدل حكما ما أنصفنا فيه، عملا بقوله تعالى: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون».

وإنا لنحسب أنه من بين إخواننا أقباط مصر من ظلموا، فما كان لنا إلا أن نتقبل النقد بقبول حسن، ونتبعه فى كل ما وجه إلينا مستطيبين ذلك، حتى ما كان منه تهجم علينا. فإن المخلص يستمع، ولو كان فى كلام مخالفه هجوم، أو تهجم بغير الحق.

وما وجدنا فى النقد ما يغير حكماً، ولقد أرسل إلينا بعض أبنائنا المسيحيين رسائل نقد قدرناها؛ فقرأناها، وكان كتابها يخرجون عن حد النقد أو الدفاع إلى ما لا يحسن من قول، فما ضاقت صدورنا، وحاولنا أن ننتفع منها، ولكنا ما وجدنا فيها أيضاً ما يبرر لنا تغيير حكم حكمنا به، وإلى هؤلاء وأولئك نعتذر.

ولا يصح أن يتبرم أحد من إخواننا وأبنائنا من كلام نسوقه لطلابنا، معتقدين أنه الحق الذى لاريب فيه، فلو كان أهل كل دين تضيق صدورهم بالبحث والدرس، لكان حقاً علينا معشر المشتغلين بالدراسات الإسلامية أن تذهب نفوسنا حسرات مما يكتبه بعض علماء أوروبا عن الإسلام، يفترون على حقائقه ولايدرسونه دراسة موضوعية، بل يدرسونه دراسة ذاتية محرفين الكلم عن مواضعه، ومع ذلك ندرس كلامهم، ونضع الصواب منه فى موضعه، ونضع الباطل فى مكان سحيق، نأخذهم إلى المنطق ولا ننحرف معهم عن قصد السبيل.

وأخيراً نقول لإخواننا : إننا نؤمن بالمسيح عليه السلام؛ ونؤمن بمحمد ﷺ وسائر النبيين «قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون» .

محمد أبو زهرة

٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ

١٩ من مارس سنة ١٩٦١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثانية

الحمد لله الذى خلق فقدر، وخلق آدم من طين ، وعيسى بن مريم من غير أب ليكون حجة على العالمين ، فيثبت أن الخلق بالإرادة لا بالعلّية، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر النبيين، المبعوثين رحمة للناس أجمعين .

أما بعد ، فقد جاء فى صحيح البخارى عن النبى ﷺ أنه قال :

ثلاثة لهم أجران : «رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» .

وبقبس من هذا الروح السمح كتبنا كتاب محاضرات فى النصرانية، نرجو به مع إحقاق الحق الهداية، لانهاجم اعتقاديا، ولانبطل عقيدة، بل ننير السبيل ونضع المصباح أمام الجادة فيسلكها من يريد الرشاد، ومن يرجو السداد، ولكننا فى عصر فهم الناس فيه الدين منزعا جنسيا، ولم يفهموه حقا اعتقاديا، ولا تهذيباً نفسياً، ولاخلاصاً روحيا، فكان ذلك حاجزاً دون أن تصل الهداية إلى القلوب، وأن تشرق النفوس بنور الحق .

وقد كان الناس فى الماضى يوجد من بينهم من يقول « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» أما الآن فالناس جميعاً غلقوا على أنفسهم باب النور باعتبارهم الدين جنسا، والاستمساك به من القومية أو ما يشابهها، فيكون العار على من خالف، وإن كانوا يعلمون أن فيما يعتقدون ما ليس بمفهوم .

وبسبب هذه النزعة الجنسية فى التدين ظهر نقد لكتابى هذا من بعض بنى وطنى غير المسلمين، وكنت (علم الله) مستريحاً لظهوره، فجمعت النقد، وشكرت الناقد، وتغاضيت عن عبارات نالنى بها، لأنها من فلتات القلم، ولقد أخذت أدرس ذلك النقد حرفاً حرفاً، لأصحح به خطأ جرى فى الكتاب، أو سوء تفسير فسرناه، أو تخريجاً بعيداً عن المعنى خرجناه .

ولكنى وجدت النقد خالياً من ذلك فى جملته، بل هو مهاجمة لمقصد الكتاب، يثير

اعتبار الدين جنسا، ويدفعه التعصب الشديد، ويحاول توهين المكتوب، حتى أنه فى سبيل ذلك يعتبر الكلام المقيد بوصف متناقضا، والمعلق على شرط متضاربا، لأن صدر الكلام غير الوصف، ومقدم القضية الشرطية غير تاليها . وإن كان فى النقد ما يفيد أنه أثبت أن بعض إخواننا تألم من عبارات جاءت فى كتابنا . فغيرناها إن لم يكن فى التغيير ما يمس الجوهر، ويفسد المعنى .

وقد كنا بسبب التألم نحجم عن إعادة طبع الكتاب ، مع الإلحاف من الكثيرين وبعضهم من إخواننا المسيحيين، وأحجمنا عن ذلك حوالى ست سنوات، ولكن اشتد الطلب من البلاد الشرقية والمصرية، وزكوا الطلب بأنه لا يليق أن تحول الاعتبارات النفسية دون ظهور ثمرات الفكر، وأن عند إخواننا من سعة الصدر ما يتسع لذلك . وخصوصاً أن الكتاب معروف فى أمريكا وأوربا والهند . فقد ترجم إلى الإنجليزية . ولخصته بعض المجلات الأمريكية تلخيصاً كاملاً، وترجم إلى الفرنسية والأردية .

فإذا كانت هذه الأمم المسيحية تطوع بعض المسيحيين فيها بترجمته تسجيلا للآثار العلمية وإن خالفوها – فإنه من نقص الحرية الفكرية فى مصر أن يضيق صدر بعض أبنائها حرجا بإعادة طبع كتاب سجله المسيحيون فى لغاتهم .

ولقد أقدمت على إعادة طبع الكتاب بعد طول الإحجام ، راجياً من المولى جلت قدرته الهداية والتوفيق والسداد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

محمد أبو زهرة

٩ من رجب المحرم سنة ١٣٦٨ هـ

الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٤٩ م

افتتاحية الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى، وعلى آله وصحبه وسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى بن مريم من النبيين الصديقين، ومن عباد الله الصالحين وأولى العزم من الرسل.

أما بعد .. فقد عهد إلىَّ تدريس تاريخ الديانات بقسم الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين فألقيت محاضرات فى النصرانية ، وهذه خلاصتها، وتلك لبابها، ولقد عنيت ببيانها فى أدوارها المختلفة متبعاً فى بيان المسيحية الحاضرة سلسلة أسنادها المتصلة . فكان أول السلسلة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، وتنتهى بعصرنا الحاضر، هذا مبدأ السند وهذا منتهاه، فالسند إذن ينقطع بين المسيح عليه السلام، والمجمع الأول من المجامع المقدسة، وإن انقطاع السند فى هذه الفترة الطويلة سببه الاضطهاد الذى لحق النصارى فيها، حتى كانوا يستخفون ويتعبدون فى السر . فلا يعلنون دينهم الذى ارتضوا، ويفرون به فرارا إن كشف أمرهم، وقد ينطقون بكلمة الكفر يتقون بها حد السيف أو نار العذاب، وقد اعترف بقطع السند مجادلوهم واختاروا ذلك السبب علة لهذا القطع .

وإنا إزاء ذلك العجز أو عدم توافر أسباب العلم ابتدأنا بحثنا فى دينهم بكتبهم التى ألزم المسيحيون بها بعد قرار المجامع بالإلزام ، ثم تتبعنا فى البحث سير المجامع . نسير فى مسارها، ونتجه فى اتجاهاتها، ولكنا لا نكتفى بدراسة قرارات مجمع من المجامع، بل ندرس البواعث التى بعثت إلى انعقاده، ونفصل بعض التفصيل الخلاف الذى سبقه، والذى جاء المجمع لحسمه، ثم انتهى إلى تشعيبه وتوسيع زاويته .

وإن عنايتنا بتفصيل البواعث التى أدت إلى انعقاد المجمع الأول ، وبيان قراراته، وكيف تلقى جمهور المسيحيين، وخاصة رجال الدين، تلك القرارات، قد أزالت الستار عما أكنته غياهب التاريخ فى الفترة التى كانت بين المسيح وهذا المجمع، بل إن تلك العناية جعلتنا نخترق حجب الظلام التاريخى لنصل إلى ضوء إليه لنعرف حقيقة دعوة المسيح فى عصر الاستخفاء أو عصر الاضطهاد، ولقد ساعدنا على الاستضاءة بذلك الضوء موازنات تصدينا لها وازنا فيها بين المسيحية الحاضرة وفلسفة الرومان واليونان فى تلك الفترة، وما حاولنا أن نفرض ما استنبطنا على القارئ أو نسبقه إلى الاستنباط، بل ألقينا إليه بالمقدمات، وتركنا له استخراج نتائجها، ليشاركنا فيما وصلنا إليه باقتناعه، ولكيلا نملأ عقله، وهو خال ، فينقص تقديره للدليل ويضعف وزنه للبرهان .

ولقد كانت عنايتنا متجهة إلى بيان العقيدة، فجلينا أدوارها، وبينًا ما قام حولها من مناقشات وخلافات . وبينًا كل فرقة ومنبعثها، والمجمع الذى انبعثت من بعده . وما أحصينا فرقهم عدا، ولا فصلنا آراء كل فرقة تفصيلا، بل عنينا بالفرق الكبرى، وعنينا بتفصيل العقيدة دون سواها .

وعلم الله أنى لبست رداء الباحث المنصف، ونظرت بالنظر غير المتحيز، وتخليت عن كل شئ سواه، لأصل إلى الحق وصول المجتهد الحر، لا المقلد التابع المأسور بسابق فكره؛ والمأخوذ بسابق اعتقاده، ولكنى انتهيت كما ابتدأت، مؤمناً بالله الواحد الأحد، الذى ليس له والد ولا ولد .

وإنى لأهدى كتابى هذا إلى كل مسيحى طالب للحقيقة يسير فى مسالكها لا أبغى به غلبا فى جدال، ولا سبقاً فى نزال، ولكن أبغى به الحق المجرد «ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولايتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله» .

محمد أبو زهرة

تمهيد

١ – عسير على المرء أن يكتب في رأي يخالف رأيه، ويتحرى مع هذه المخالفة أن يصور الرأي، كما يجول بخاطر صاحبه، وينبعث في نفسه، فيبين دوافعه وغاياته، وإذا كان ذلك واضحا في رأي مخالف يرتأى، فكيف تكون الحال إذا كانت المخالفة في عقيدة تعتنق، وتتغلغل في أعماق النفس، وتستكن في أطوائها !! إن الطريق حينئذ يكون أوعث، ومسالكه أضيق، لذلك كان الطريق غير معبد أمام الباحث الذي يريد أن يكتب في النصرانية كما تجول بخاطر معتنقيها، ويفرض من نفسه ناظرا غير متحيز، يبين العقيدة، كما هي في نفس أصحابها، لا كما ينبغي أن تكون، أو كما يعتقد هو، لأن الباحث يخلع نفسه مما تعتنق وتؤمن به . ويجردها تجردا تاما مما قد صار منها بمنزلة الملكات، وخالط الإحساس والمشاعر واستولى على كل مسالك الآراء إليها . وتصوير المسيحية كما يعتقد أصحابها ليس فقط عسيرا على الكاتب غير المسيحي، بل إنه عسير على الكتاب المسيحيين أنفسهم، يستوي في ذلك المختصون بالدراسات الدينية وغير المختصين، ولذلك يستعينون في تصويرها، وإدنائها إلى العقول بضرب الأمثال، والتشبيهات الكثيرة لتأنيس غريبها بالقريب المألوف، والمشاهد المحسوس، ولإدخالها في العقل من الباب الذي يألفه ويعرفه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

٢ – ولكن البحث العلمي يتقاضى الباحث الحر المنصف أن يدرس المسيحية إن أراد أن يعلنها كما يعتقد أهلها مجردا من نزعاته السابقة على الدراسة، غير جاعل لعقيدته سلطانا على حكمه، حتى لا تسيره في دراسته، وتتحكم في اتجاهاته، لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم، والتزيد ليس من شيمة العلماء، أو يدفعه لأن يتناول كلامهم بغير ما يريدون، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هي في ذاتها، بل يدركها كما انعكست في نفسه، وكما رسمت على قلبه، وقد يباعد ذلك الأمر في ذاته .

ولذلك سنحاول – داعين الله مبتهلين إليه أن يلهمنا التوفيق – دراسة المسيحية، مجردين من أنفسنا ناظرا غير متحيز عليها ، لنصورها كما هي، وكما يعتقد أهلها، ولنتمكن من أن نكتبها بروح الإنصاف، ولقد نضطر في سبيل ذلك الإنصاف أن ننقل عبارات كتبهم المقدسة عندهم وغير المقدسة من غير أن نتصرف بأي تصرف، حتى ما

يتعلق بالإعراب وأساليب البيان، لكيلا يدفعنا التصرف فى التعبير إلى تغيير الفكرة، أو تحريف القول عن مواضعه . وسنجتهد ما استطعنا فى تصوير تفكيرهم بضرب الأمثال، وإن لم نجد بدا من ذلك .

ولكن مع عنايتنا الشديدة بتفهم ما عند القوم، وتعرف غاياته ومراميه لا نترك النقد العلمى النزيه، الذى يستمد قوانينه من بدائه العقول وأحكام المنطق ، وخصوصا مايتعلق بكتبهم، لأنه إذا كان الإنصاف قد طالبنا بألا نتزيد على ما عندهم، أو نحرفه عن مراده ومرماه، فالإنصاف أيضا يطالبنا بألا نهمل العقل، وإلا خرج بحثنا عن معناه العلمى التاريخى، وصار بحثا لاهوتيا صرفا، وذلك مالا نريد، فلا يصح أن يدفعنا حرصنا على إنصافهم إلى ظلم العلم والحق والعقل .

المسيحية : كما جاء بها المسيح عليه السلام

المسيحية فى القرآن :

٣ – قبل أن نخوض فى المسيحية كما هى عند المسيحيين نتكلم فى المسيحية التى جاء بها المسيح عليه السلام، وإنا إذا تصدينا للمسيحية التى جاء بها المسيح نجد التاريخ لايسعفنا بها، إذ بعد العهد ، واضطربت روايات التاريخ بالأحداث التى نزلت بالمسيحيين، ويجوز أن تكون قد عملت يد المحو والإثبات عملها، حتى اختلط الحابل بالنابل. وصار من العسير أن نميز الطيب من الخبيث، والحق من الباطل، والصحيح من غير الصحيح، وإننا معشر المسلمين لانعرف مصدرا صحيحا جديرا بالاعتماد والثقة من المسلم غير القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، فهما المصدران المعتمدان للمسلم فى هذا. وما نكتب هذا لنلزم به المسيحيين، ولا على أنه هو المعتبر عندهم، ولكن نكتبه، ليتسق البحث، ولنتم السلسلة.

ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هى التوحيد الكامل، التوحيد بكل شُعَبه، التوحيد فى العبادة، فلا يعبد إلا الله، والتوحيد فى التكوين، فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد فى الذات والصفات فليست ذاته بمركبة، وهى منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى . فالقرآن الكريم يثبت أن عيسى مادعا إلا إلى التوحيد الكامل ، وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من مجاوبة بينه وبين ربه : «وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته، تعلم مافى نفسى، ولاأعلم مافى نفسك، إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شئ شهيد» .

فهذا نص يفيد بصريحه أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد، فغير التوحيد إذن دخل النصرانية من بعده، وما كان عيسى إلا رسولا لله رب العالمين .

ولقد نزل على السيد المسيح كتاب هو الإنجيل، وهو مصدق للتوراة، ومحيى

شريعتها، ومؤيد للصحيح من أحكامها، وهو مبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد. وهو مشتمل على هدى ونور، وهو عظة للمتقين، وأنه كان على أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه، ولذلك قال الله تعالى: «وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون».

دعوة المسيح :

٤ - ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس أنه لا توسط بين الخالق والمخلوق، ولاتوسط بين العابد والمعبود، فالأحبار والرهبان لم تكن لهم الوساطة بين الله والناس، بل كل مسيحي يتصل بالله في عبادته بنفسه، من غير حاجة إلى توسط كاهن أو قسيس أو غيرهما، وليس شخص - مهما تكن منزلته أو قداسته أو تقواه - وسيطا بين العبد والرب فى عبادته، وتعرف أحكام شرعه مما أنزل الله على عيسى من كتاب، وما أثر عنه من وصايا، وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ .

ودعوة عيسى عليه السلام - كما ورد في بعض الآثار، وكما تضافرت عليه أقوال المؤرخين - تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفى لأن تقوم عليه الحياة، وكان يحث على الإيمان باليوم الآخر، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبنى الإنسان فى الدنيا، إذ الدنيا ليست إلا طريقا غايته الآخرة، وابتداء نهايته تلك الحياة الأبدية .

ولماذا كانت دعاية المسيح عليه السلام إلى الزهادة فى الدنيا، والابتعاد عن أسباب النزاع والعكوف على الحياة الروحية ؟ الجواب على ذلك أن اليهود الذين جاء المسيح مبشرا بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية، وكان منهم من يفهم أن الحياة هى غاية بنى الإنسان، بل إن التوراة التى بأيديهم اليوم خلت من ذكر اليوم الآخر، ونعيمه أو جحيمه، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذى أوعد به العاصين، وثوابه الذى وعد به المتقين، إنما زمانه فى الدنيا لا فى الآخرة، وقد قال رينان الفيلسوف الفرنسى فى كتابه حياة المسيح : «الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية فى نفس هذا العالم، فإنه يؤخذ من أقوال شيوخهم أن الصالحين يعيشون فى ذاكرة الله والناس إلى الأبد، وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله، ويكونون معروفين عند الله، أما الأشرار فلا، هذا كان جزاء أولئك ، وعقاب هؤلاء. ويزيد الفريسيون على ذلك أن الصالحين ينشرون

فى هذه الأرض يوم القيامة ليشتركوا فى ملك المسيح الذى يأتى لينقذ الناس، ويصبحوا ملوك العالم وقضاته، وهكذا يتنعمون بانتصارهم، وانخذال الأشرار أعدائهم، وعلى ذلك تكون مملكتهم فى هذا العالم نفسه» ا هـ . فجاء المسيح عليه السلام مبشرا بالحياة الآخرة، وأنها الغاية السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها، ومن لم ينكرها بقوله منهم أنكرها بفعله، فكانوا فى ذلك الإنكار سواء .

مريم والمسيح فى القرآن الكريم :

٥ – وإذا كانت شخصية المسيح هى اللب فى المسيحية الحاضرة، وأساس الاعتقاد فيها، وجب أن نبينها كما جاءت فى القرآن، كما سنبينها كما جاءت فى المسيحية، ليستطيع القارئ أن يوازن بين الشخصيتين، ويعرف أيهما أقرب إلى التصور، والعقل يتقبلها بقبول حسن، ولنبدأ بأمه .

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام، فيقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها فى سورة آل عمران . فيقول تعالت كلماته : «إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم* فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يامريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

هذه هى الأحوال التى اكتنفت الحمل بالبتول مريم، وولادتها ، وتربيتها ، ويلاحظ القارئ أن العبادة والنسك أظلاها ، وهى جنين فى بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء، واصطفاها الله لأمر جليل خطير، فأمها وهى حامل بها نذرت أن يكون ما فى بطنها محرراً خالصاً لخدمة بيت الله وسدانته، والقيام بشئونه، واستمرت مصممة على الوفاء بنذرها ، فلما وضعت، وكان نذرها على فرض الذكورة، كما يبدو من إشارات النصوص القرآنية، جددت العزم على الوفاء بالنذر، وقد وجدت ماتسوغه النفس للتحلل من النذر،

فكان ذلك الإصرارعبادة أخرى، إذ وجدت فى النفس داعيات التردد، والرجوع والتحلل من الوفاء، فكان كفها هذه الداعيات والقضاء عليها عبادة أخرى، ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا إلى النسك والعبادة، وقام على تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبى من أنبياء الله الصديقين الصالحين، فكفلها زكريا، ووجهها إلى العبادة الصحيحة، وتنزيه القلب من كل أدران الشر والإثم، وكان الله سبحانه وتعالى يدر عليها أخلاف الرزق من حيث لا تقدر ولاتحتسب، ومن غير جهد ولاعنت، حتى أثار ذلك عجب نبى الله كافلها فكان «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يامريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

٦ – ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التى تكونت فى ظلها بريئة من دنس الرذيلة – لايجد الشيطان سبيلا أو منفذا ينفذ إلى النفس منها – تمهيداً لأمر جليل قد اصطفاها الله تعالى له دون العالمين، ولذا خاطبتها الملائكة وهى الأرواح الطاهرة باجتباء الله لها: «إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » . ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أما لمن يولد من غير نطفة آدمية . وكان ذلك لكى تكون آية الله مشهورة ، تحمل فيما حف بها من أحوال القرائن التى تقطع ريب المرتاب، وألسنة كل أفاك، وتنير السبيل أمام المؤمنين، إذ أن ولادته من غير أب، من أم كانت حياتها للنسك والعبادة، والعكوف على التقوى، وتحت ظل نبى من أنبياء الله تعالى لم تزن بريبة قط – يجعل المؤمن يؤمن بآية الله الكبرى فى هذا الكون، ولا يجعل شيئاً يقف أمام مريد الهداية من تظنن بالأم أو ريبة فيها، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنفى هذه الريبة، وتبعدها عن موطن الشبهة .

الحمل بالمسيح وولادته :

٧ – حملت العذراء البتول مريم بالسيد المسيح عليه السلام، وهو الأمر الذى اجتباها الله لأجله، ولقد فوجئت به، إذ لم تكن به عليمة . فبينما هى قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، أرسل الله إليها ملكاً تمثل لها بشراً سوياً «قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً *

قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً» . حملت السيدة مريم البتول بعيسى من غير أب، ثم ولدته . ولم تبين الآثار النبوية مدة الحمل . فلم يرد فى الصحاح آثار تبين تلك المدة، ولو كانت مدة الحمل غريبة لذكرت ، فليس لنا إذن إلا أن نفرض أن مدة الحمل كانت المدة الغالبة الشائعة بين الناس . وهى مدة تسعة أشهر هلالية .

ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم ، سواء فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها، ومن لا يعرف، لأنها فاجأتهم بأمر غريب، وهى المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل، فكانت المفاجأة داعية الاتهام، لأنه عند المفاجأة تذهب الروية، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر، وخصوصاً أن دليل الاتهام قائم ، وقرينته أمر عادى لامجال للريب فيه عادة، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة . فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله، ويأتى على قواعده ويفاجئهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتيه الريب، ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه فى نسكها وعبادتها، ولذلك نطق الغلام، وهو قريب عهد بالولادة ، أشارت إليه «قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» .

٨ – نطق السيد المسيح فى المهد، ليكون كلامه إعلاماً صريحاً ببراءة أمه، وأنه لم يكن إلا عبدا لله ، ولد من غير أب . ويروى ابن كثير : «عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان، فأكثر اليهود فيه وفى أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية، وذلك قوله تعالى: «وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً»، ولم يذكر فى الآثار الصحاح عن النبى عليه الصلاة السلام حال عيسى عليه السلام فى مرباه ونشأته، وكيف كان منه

مما يكون إرهاصاً بنبوته، فليس لنا إلا أن نقول أنه قد تربى بما كان يتربى به أمثاله الذين ينشئون على التقى والمعرفة فى إسرائيل، ويغلب على الظن أن يكون قد ظهر منه وهو غلام، ما يدل على روحانيته، ومايدعو إليه بعد ذلك من حياة روحية ، وسط قوم سيطرت عليهم المادة، وغلبت عليهم نزعاتهم، والاتجاه إليها .

الحكمة فى كون المسيح ولد من غير أب :

٩ - لابد من أن نشير هنا قبل أن ننتقل إلى بعثته عليه السلام إلى السبب الذى من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير أب . فإنه لابد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله جلت قدرته، وقد أشار إليها سبحانه فى قوله تعالت كلماته : «ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً» .

وإننا نلتمس تلك الآية الدالة فى ولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، فنجد أنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان : أحدهما : أن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه الفاعل المختار المريد، وأنه سبحانه لايتقيد فى تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التى نرى العالم يسير عليها فى نظامه الذى أبدعه الله والذى خلقه، فالأسباب الجارية لاتقيد إرادة الله، لأنه خالقها، وهو مبدعها ومريدها، فإن الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته، كما يصدر الشئ عن علته، والمسبب عن مسببه، من غير أن يكون للعلة إرادة فى معلولها، بل كانت بفعله سبحانه وبإرادته التى لايقيدها شئ مهما يكن شأنه، وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية. بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية، وفى عصر ساده نوع من الفلسفة، أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول، كالعلة من معلولها، فكان عيسى آية الله على أنه سبحانه لايتقيد بالأسباب الكونية، وأن العالم كله بإرادته، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول : «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً» .

الأمر الثانى : إن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه، وأنه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التى يتكون منها، فلقد قيل عن اليهود أنهم كانوا لايعرفون الإنسان إلا جسماً عضوياً، ولايقرون أنه جسم وروح ، فقد قال رينان فى سبب الحقد الذى تغلغل فى النفس

اليهودية : «لو كان الشعب الإسرائيلى يعرف التعاليم اليونانية التى كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين : أحدهما الروح ، والآخر الجسد، وإنها تعذبت الروح فى هذه الحياة لأنها تستريح فى الحياة الثانية، لسرى عنه شئ كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر، بسبب ذله وخضوعه مع ما كان يراه فى نفسه من الامتياز الأدبى والدينى عن الشعوب التى كانت تذله» .

يقرر رينان فى هذا أن اليهود ما كانوا يقولون كاليونان أن الإنسان جسم وروح، ولقد يؤيد هذا ما جاء فى التوراة التى بأيديهم فى تفسير النفس بأنها الدم، فقد جاء فيها: «لاتأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هى دمه»، إذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شئ غير الجسم، فلما جاء عيسى من غير أب ، وكان إيجاده بروح من خلق الله، كما قال « والتى أحصنت فرجها، فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين» كان ذلك الإيجاد الذى لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ فى جيب مريم . فكان الإنسان من غير بذرة الإنسان وجرثومته . كان ذلك إعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها، ولم يعرفوها، فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الإنسان إلا أنه جسم لاروح فيه، وهذه آية الله فى عيسى وأمه عليهما السلام .

بعثة عيسى عليه السلام ومعجزاته :

١٠ – بعث عيسى عليه السلام ، ولم يرد فى القرآن، ولا فى الآثار الصحاح بيان السن التى بعث عند بلوغها عليه السلام، ولكن ورد فى بعض الآثار أنه بعث فى سن الثلاثين، وهى السن التى تذكر الأناجيل المعبرة عند النصارى أنه بعث على رأسها، ويصح لنا أن نفرض أنه بعث فى هذه السن على هذا الأساس .

بعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح، وهجر الملاذ التى استغرقت النفوس فى تلك الأيام، واستولت عليها، ويبشر بعالم الآخرة، ولقد أيده الله بمعجزات ، وإن ولادته نفسها معجزة، كما جاء فى الملل والنحل للشهرستانى، فقد قال رحمه الله فى ذلك : «كانت له آيات ظاهرة، وبينات زاهرة، مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه، وذلك حصوله من غير نطفة سابقة، ونطقه من غير تعليم سابق» .

ومعجزاته التى ذكرها القرآن الكريم تتلخص فى خمسة أمور، جاء ذكر أربعة منها فى سورة المائدة فى قوله تعالى : «إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس، تكلم الناس فى المهد وكهلا، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى، وإذ تخرج الموتى بإذنى» .. إلى قوله تعالت كلماته : «إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها، وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك وارزقنا، وأنت خير الرازقين * قال الله إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم، فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» .

ويستبين من هذه الآيات الكريمة أربع معجزات :

الأولى : أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق على يديه طيراً من الطين، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى . ولكن جرى الخلق على يد عيسى، وبنفخ منه عليه السلام بإذن الله تعالى .

الثانية : إحياؤه عليه السلام الموتى بإذن الله جلت قدرته، والمحيى فى الحقيقة هو الله العلى القدير، ولكن أجرى الإحياء على يد المسيح عليه السلام ، ليكون ذلك برهان نبوته، ودليل رسالته .

الثالثة : إبراؤه عليه السلام الأكمه والأبرص، وهما مرضان تعذر على العالم قديمه وحديثه العثور على دواء لهما، والتمكن من أسباب الشفاء منهما، ولكن عيسى بقدرة الله شفاهما، وبرئ المريضان برقيته، فكان دليلا قائماً على رسالته عليه السلام .

الرابعة : إنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين، لتطمئن قلوبهم، وليعلموا أن قد صدقهم .

وهناك خامسة ذكرت فى سورة آل عمران، وهى إنباؤه عليه السلام بأمور غائبة عن حسه، ولم يعاينها، فقد كان ينبئ صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم. وقد ذكر الله تعالى فى قوله جل شأنه حاكياً عنه «وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» .

الحكمة من كون معجزاته عليه السلام من ذلك النوع :

١١ – هذه معجزات عيسى عليه السلام، وهنا يتساءل القارئ : لماذا كانت معجزاته عليه السلام من ذلك النوع ؟ يجيب عن ذلك ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية بقوله : «كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزاته مما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه، وعاينوا ماعاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لايمكن صدوره إلا ممن أيده، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له أسلموا سراعاً، ولم يتلعثموا . وهكذا عيسى ابن مريم بعث فى زمن طبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالا من الأعمى، والأبرص والمجنوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره، وغير هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به، وعلى قدرة من أرسله، وهكذا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين، بعث فى زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فلفظه معجزة تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لايقدرون لا فى الحال، ولا فى الاستقبال، فلم يفعلوا، ولن يفعلوا، وما ذلك إلا أنه كلام الخالق عز وجل، والله لايشبهه شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

ما نراه حكمة صحيحة :

١٢ – من هذا الكلام يستفاد أن معجزة المسيح كانت من نوع إبراء المرضى الذين يتعذر شفاؤهم، وإحياء الموتى، لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعى، وكانوا فلاسفة فى ذلك، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون، ليكون عجزهم حجة عليهم، وعلى غيرهم ممن

هم دونهم فى الطب، ولكن رينان الفيلسوف المؤرخ الفرنسى يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعى فيقول : «كانت صناعة الطب فى المشرق فى ذلك الزمان كما هى اليوم، فإن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التى وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ، وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب لأبقراط أبى الطب موضوعه العلة المقدسة، يعنى الهستريا، وفيه وصف هذه العلة، وذكر دوائها ، إلا أن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب، وكان فى اليهودية فى ذلك الزمان كثيرون من المجانين، وربما كان ذلك ناشئاً من شدة الحماسة الدينية .

فاليهود الذين بعث المسيح بين ظهرانيهم لم يكونوا على علم إذن بالطب، أو الطب الطبيعى على رأى ذلك الفيلسوف المؤرخ .

وفى الحق أن الذى نراه تعليلا مستقيما لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه، لا لأنهم أطباء، فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والأدواء، بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم، وأفعال جميعهم، فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة، مصدق لما يأتى به الرسول، وهى فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح، وبرهان قاطع على وجودها ، فهذا طين مصور على شكل طير، ثم ينفخ فيه فيكون حياً، ماذاك إلا أن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه، فكانت معه الحياة، وهذا ميت قد أكله البلى، وأخذت أشلاؤه فى التحلل ، وأوشكت أن تصير رميما، أو صارت . يناديه المسيح عليه السلام، فإذا هو حى يجيب نداء من ناداه، وماذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذى غيرّه البلى حلت فيه بذلك النداء، ففاضت عليه بالحياة، وهكذا . فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته، وتناسب أخص رسالته، وهو الدعوة إلى تربية الروح، والإيمان بالبعث والنشور، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى إنكاره أو تسمح لجاحد البعث والنشور أن يستمر فى جحوده. وقد أسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة . وعدم الإيمان

باليوم الآخر . إن لم يكن بالقول فبالعمل، فكان إحياء الموتى صوتاً قوياً يحملهم على الإيمان حملا، ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون .

تلقى اليهود لدعوته :

١٣ - بعث عيسى عليه السلام بتلك البينات، وأيد رسالته بتلك المعجزات ، وأنها باهرة تخرس الألسنة ، وتقطع الطريق على منكرى رسالته . لو كان الدليل وحده هو الذى يهدى النفوس الضالة، والقلوب الشاردة، ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ الرقاب، قساة القلوب، فكانت مهمته شاقة، إذ حاول هدايتهم، لأن منهم من علم الديانة رسوماً وتقاليد يتجهون إلى الأشكال والمظاهر منها دون الاتجاه إلى لبها وغايتها . حتى لقد كان منهم من يحجم عن عمل الخير فى يوم السبت زاعماً أنه داخل فى عموم النهى عن العمل فيه، فإذا جاء المسيح داعياً إلى أن ينظروا إلى إصلاح القلب، بدل الأخذ بالمظاهر والأشكال فإنه لاشك يصدم هؤلاء فيما يألفون وفيما وجدوا عليه سابقيهم .

واليهود قوم عكفوا على المادة، واستغرقتهم، واستولت على أهوائهم ومشاعرهم حتى لقد كان نساكهم وسدنة الهياكل عندهم، وقد فاتهم العمل على كسب المال من أبوابه الدنيوية - يجمعون المال من نذور الهياكل، والقرابين التى يتقرب بها الناس، ويحرصون على ذلك أشد الحرص . فكانوا يأخذون القرابين من أشد الناس حاجة وأفقرهم . فجاء المسيح وندد بهذا .

ولقد اتخذ بنو إسرائيل من تدينهم المزعوم بدين موسى والأنبياء من بعده، وزعمهم أن لهم منزلة دينية لايساميهم فيها أحد - اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى أرستقراطية دينية ! فزعموا أن لهم المكانة السامية، ولغيرهم المنزل الدون، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية، وآمنوا برسالة موسى، فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة، وكان الإسرائيليون يعاملون آحادها، كأنهم المنبوذون . فلما جاء عيسى عليه السلام، وسوى بين بنى البشر فى دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العداء .

ولقد كانوا يجعلون لأحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة العالية دون الناس . فجاء المسيح وجعل الناس جميعاً سواء أمام ملكوت الله .

مناوأة اليهود له :

١٤ - لكل هذا تقدم اليهود لمناوأة المسيح . وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به ، وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعايته، فلما أعيتهم الحيلة، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداءه، ويلتفون حوله مقتنعين بقوله - أخذوا يكيدون له، ويوسوسون للحكام بشأنه، ويحرضون الرومان عليه، ولكن الرومان ما كانوا يلتفتون إلى المسائل الدينية والخلافات المذهبية بين اليهود، بل تركوا هذه الأمور لهم يسوونها فيما بينهم، واليهود يريدون أن يغروا الرومان بعيسى كيفما كان الثمن. فبثوا حوله العيون يرصدونه، ويتسقطون قوله بشأن الحكومة والحكام، عساهم يجدون كلمة له يتعلقون بها وينقلونها للحاكم الرومانى، فلم يجدوا؛ لأن المسيح ما كان يدعو إلا إلى إصلاح الجانب النفسى الخلقى، ولم يكن قد اتجه إلى إصلاح الحكومة بعد. ولما ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه، وانتهى الأمر إلى أن تمكنوا من حمل الحاكم الرومانى على أن يصدر الأمر بالقبض عليه، والحكم عليه بالإعدام صلباً .

نهاية المسيح فى الدنيا :

١٥ - وهنا نجد القرآن الكريم يقرر أن الله لم يمكنهم من رقبته ؛ بل نجاه الله من أيديهم : «فما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم» ، وبعض الآثار تقول أن الله ألقى شبهه على يهوذا ، ويهوذا هنا هو يهوذا الأسخريوطى الذى تقول الأناجيل عنه أنه هو الذى دس عليه، ليرشد القابضين إليه، إذ كانوا لايعرفونه، وقد كان أحد تلاميذه المختارين فى زعمهم .

ولقد وافق هذا إنجيل برنابا موافقة تامة، ففيه : ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفا، وكان الأحد عشر نياما، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفائيل وأدريل[1] سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله إلى الأبد .. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن استيقظ أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا، وأجبنا : أنت ياسيدى معلمنا، أنسيتنا الآن ... إلخ» .

---

(١) يريد إسرافيل وعزرائيل

والأناجيل المعتبرة عند المسيحيين لم تختلف فى شئ كاختلافهم فى قصة الصلب ، فلكل رواية بشأنها .

المسيح بعد نجاته :

١٦ – لم يصلب المسيح بنص القرآن، ولكن شبه على القوم ، لقوله تعالى : «وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم» وقوله تعالى : «وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه» وإذا كان المسيح عليه السلام لم يصلب، فما هى حاله بعد ذلك ؟ اختلف فى هذا الشأن مفسرو القرآن، فجلُّهم على أن الله سبحانه وتعالى رفعه بجسمه وروحه إليه، وأخذوا بظاهر قوله تعالى فى مقابل القتل، بل رفعه الله إليه؛ وببعض آثار قد وردت فى ذلك ، وفريق آخر من المفسرين، وهم الأقل عدداً، قالوا : إنه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى أنبياءه، ورفع روحه إليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، وأخذوا فى ذلك بظاهر قوله تعالى : «إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة». «فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شئ شهيد» ولكل من المختلفين وجهة هو موليها، ولا نريد أن ندخل فى تفصيل حجج الفريقين وترجيح إحداهما على الأخرى؛ فلذلك موضع ليس هذا مقامه .

١٧ – ويزعم بعض الناس أن المسيح عليه السلام قد هاجر إلى الهند، وأنه عاش فيها حتى استوفى أجله، ومات هناك، وله قبر، ولقد جاء فى تفسير المنار ما نصه : «وجد فى بلدة سرى نكرا مقبرة فيها مقام عظيم يقال أنه مقام نبى جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسعمائة سنة ، ويسمى يوز آسف ويقال أن اسمه الأصلى عيسى، وأنه نبى من بنى إسرائيل، وأنه ابن ملك، وأن هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم، وتذكر فى كتبهم، وأن دعاة النصرانية الذين رأوا ذلك المكان لم يسعهم إلا أن قالوا أن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله» هذا ما جاء فى تفسير المنار، وقد ذكر أن نقله عن غلام أحمد القديانى الهندى وهو راو يشك فى صدقه .

هذا ، وأن القرآن الكريم لم يبين ماذا كان من عيسى بين صلب الشبيه ووفاة عيسى أو رفعه على الخلاف فى ذلك، ولا إلى أين ذهب، وليس عندنا مصدر صحيح يعتمد عليه، فلنترك المسألة، ونكتف باعتقادنا اعتقاداً جازماً أن المسيح لم يصلب ، ولكن شبه لهم .

موازنة بين المسيح فى القرآن الكريم والمسيح فى المسيحية الحاضرة :

١٨ - «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» .

وتلك ديانته كما جاء بها، ودعا إليها، فما الذى عرض لها من بعده، وما الذى أدخل عليها بعد أن رفع إلى ربه ؟ . وأول ما أدخل على هذه الديانة هو ما يتعلق بشخص المسيح عليه السلام، ولنسارع فى بيان اعتقادهم فى المسيح بإيجاز، ثم بعد ذلك نبين الأدوار التاريخية التى مرت بتاريخ المسيحيين، محاولين ما استطعنا أن نبين مصادر هذه الاعتقادات التى تتعلق بالمسيح، ثم بقوانينهم الكنسية .

يعتقد المسيحيون أن الله سبحانه وتعالى أوصى آدم بألا يأكل من الشجرة، فأكل منها بإغواء إبليس، فاستحق هو وذريته العذاب، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده جسَّد كلمته، وهى ابنه الأزلى تجسداً ظاهراً، ورضى بموته على الصليب، وهو غير مستحق لذلك، لكى يكون ذلك فداء الخطيئة الأولى، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقوم بذلك الفداء سوى ابن الله وابن الإنسان معاً، وكان ذلك الابن، وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء .

أرسل الله إليها ملاكه جبريل ، وبشرها بأن المسيح مخلص الدنيا يولد منها، وأن الروح القدس يحل فيها، فتلد الكلمة الأزلية، وتصير والدة الإله . وقد ولد ببيت لحم، إذ كان قد ذهب إليها يوسف النجار خطيب مريم الذى لم يتركها بعد أن حملت، لرؤيا رآها فى منامه تمنعه من ذلك، لأن بيت لحم بلده، فذهب إليها ومعه مريم ليقيد اسمه فى الإحصاء العام الذى أمر به الرومان .

ولد المسيح فى خان قد نزل فيه يوسف ومريم، ولفقرهما لم يجدا مأوى لهما فى الخان سوى مكان الدواب، ولقد قمطته وأضجعته فى مذود البقر .

وفى ليلة ميلاده ظهر ملاك لجماعة من الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم فى الحقول المجاورة لبيت لحم، فرأوا بغتة جمهوراً من الملائكة مسبحين قائلين «المجد لله فى الأعالى،

وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة» فترك الرعاة القطعان، وذهبوا إلى المكان الذى دلهم عليــه الملائكة، فــرأوا الطفل فى المذود، وعــادوا وهم يمجــدون الله، ويســبحــونه على كل ماسمعوا ورأوا . كما قيل لهم.

وقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من وقت ولادته، وسمى يسوع ، أى المخلص فى زعمهم كما سماه الملاك عند التبشير به .

ولقد حدث بعد ولادته بأيام أن وفد إلى أورشليم جماعة من حكماء المجوس وعلمائهم، قالوا إنه لاح لهم فى السماء نجم عرفوا من مرآه بما أوتوا من علمهم وما عندهم من آثار ونبوات أنه نجم مولود جديد هو ملك اليهود المتنبأ به فعزموا على الرحيل إليه، ليسجدوا له، وحملوا معهم هدايا من الذهب واللبان والمر . وكانوا فى مسيرهم يسيرون والنجم الذى رأوه يهديهم إلى الطريق هم ومن معهم من خدم. حتى جاءوا إلى المدينة، وسألوا عن مكان الملك، فلما علم هيرودس ملك اليهود بأمرهم دعاهم إليه، واستطلع طلعهم، وتعرف أمرهم فقصوا عليه قصصهم وما ابتعثهم إلى الضرب فى الأرض، والمجئ إلى أورشليم، فسرى إلى نفسه الخوف على ملكه من هذا الوليد، ثم دعا إليه كهنة اليهود وكتبتهم، وسألهم أين يولد المسيح. فقالوا : فى بيت لحم اليهودية حسب النبوءات، فقال للمجوس : اذهبوا إلى بيت لحم، ومتى وجدتم الصبى فأخبرونى لأسجد له، قال ذلك، وأخفى فى نفسه أمراً لم يبده، فذهبوا والنجم يتقدمهم، ووجدوا الصبى يسوع وأمه، فسجدوا له، وقدموا هداياهم، وفى هذا الوقت ظهر ملاك الرب فى الحلم ليوسف، وقال له: قم وخذ الصبى وأمه، واهرب إلى مصر، لأن هيرودس يطلب الصبى ليقتله، ففعل كما أمر، وخرجت الأسرة المقدسة إلى مصر، وسافر المجوس إلى بلادهم من غير أن يعرجوا على هيرودس؛ لأنهم نهوا عن العودة إليه بوحى أوحى إليهم فى حلم، فأخذه الغيظ، واندفع فأمر بقتل جميع أطفال بيت لحم والبلاد التى تجاوره ممن لاتتجاوز سنه سنتين، زاعماً أن يسوع لابد أن يكون أحدهم .

رحلت الأسرة المقدسة إلى مصر ونزلوا حيث يوجد الدير المحرق، كما يعتقدون، وبعد أن أقاموا بضعة أشهر اعتزموا الرحيل، لأن ملك الرب ظهر ليوسف فى الحلم، وقال له : قم وخذ الصبى وأمه وعد إلى اليهود، لأن هيرودس الذى كان يطلب نفس الصبى قد

مـات، فـقامـوا واتجـهـوا إلى فلسطـين ومـروا فى طريقـهم بالمطرية، واسـتظلوا بشـجـرة هناك تسمى شجرة العذراء، وفى بعض الآثار أنه لما دخلت مريم وابنها ويوسف أرض مصر، انكفأت أصنامها وتحطمت، وكان ذلك إتماماً لنبوة أشعياء القائلة، «هوذا الرب راكب على سحابة وقادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من جهة . ويذوب قلب مصر داخلها» سفر أشعياء – ١٩:١ .

ولما عادوا إلى فلسطين أقاموا فى الناصرة . ولما بلغ يسوع الثلاثين من عمره عمِّد فى نهر الأردن، عمّده يوحنا المعمدان، ثم صام أربعين يوماً، ولما شرع فى التبشير ظهر له الشيطان يجربه . وقال له : أعطيك هذه الدنيا إن خررت وسجدت لى، فأجابه يسوع وقال: اذهب ياشيطان . ثم تركه إبليس ، وإذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه، وبعد هذه التجربة صار فى طريق التبشير. فلازمه حواريوه الاثنا عشر، واختار معهم سبعين أرسلهم مثنى مثنى إلى قرى اليهود والجليل للتبشير، ثم أقام ثلاث سنوات يبشر ، ويأتى بالمعجزات المثبتة لألوهيته فى زعمهم، يشفى المريض ويفتح أعين العميان، ويخرج الأرواح النجسة . . وينهر الرياح إذا ثارت، والبحر إذا اصطخب بالأذىِّ، وقذف بالزبد، فيهدآن .

ولما رأى اليهود أن الأمر يكاد يفلت من أيديهم تشاوروا لكى يصطادوه، وتآمروا عليه، وشكوه ظلماً، وكذبوا عليه، ثم أمسكوا به وأسلموه إلى بيلاطس حاكم فلسطين من قبل الرومان . فقضى عليه بالموت صلباً ، فصلب فى زعمهم ودفن . وبعد أن مكث فى القبر ثلاثة أيام قام فى الفصح، ومكث أربعين يوماً ارتفع بعدها إلى السماء أمام تلاميذه الذين عيّنهم لنشر ديانته، إذ قال لهم : «اذهبوا إلى العالم، وكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، وعمِّدوهم باسم الآب والابن وروح القدس» .

المسيحية بعد المسيح

ما نزل بالمسيحيين من اضطهاد :

١٩ – هذا هو المسيح كما جاء فى كتبهم وتعاليمهم، ولانريد أن نخوض فى بيان خلافاتهم حوله، ولا بيان اختلافهم فى تفسير هذه العقيدة، ولا فى تفصيل مجملها قبل أن تبين ما نزل بالمسيحيين بعد المسيح، ولكنا سارعنا إلى بيان اعتقادهم الذى استقروا عليه فى المسيح ليوازن القارئ بين ما جاء فى القرآن الكريم، وما جاء فى أناجيلهم وتعاليمهم .

ونعود بعد ذلك إلى ما يوجبه البحث العلمي، وهو تتبع العقيدة في نموها، وفى استقامتها أو انحرافها بعد صاحبها، وتمهيدا لذلك نبين ما نزل بالمسيحيين بعده، لكى يستبين القارئ مقدار قوة السند بين الديانة وصاحبها مع هذه الأحداث، وليعرف الفلسفة التي عاصرت المسيحية ومقدار اتصالهما .

اتفقت المصادر شرقية وغربية، دينية وغير دينية : على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايا وكوارث، جعلتهم يستخفون بديانتهم، ويفرون بها أحيانا ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحيانا أخرى، وهم فى كلتا الحالتين لاشوكة لهم ولاقوة تحميهم، وتحمى ديانتهم وكتبهم، وأنه فى وسط هذه الاضطهادات يذكرون أنه دونت أناجيلهم الأربعة التى يؤمنون بها، ودونت رسائلهم ! !

وأول اضطهاد نزل بالمسيحيين كان فى عهد المسيح، وانتهى بالخاتمة التى بيناها . ولقد نزلت من بعده الشدائد بالمسيحيين بما يتفق مع هذا الابتداء . فلقد جاء قيصران بعد طيباروس الذى عاصر المسيح ، كانا شديدين على تلاميذه، وقتلا منهم قتلا ذريعا، وفى زمن ثانيهما دوّن متى إنجيله بالعبرية ، وترجمه يوحنا صاحب الإنجيل إلى اليونانية، على رواية ابن البطريق كما سنتبين، ولم يكن الاضطهاد فى عهد هذين القيصرين من الرومان فقط، بل كان من اليهود أيضا، وأذاهم أمكن، وتنقيبهم عن العقيدة أدخل. لأنهم من الشعب ومخالطوهم ومعاشروهم، فهم بداخلهم أعرف .

وأشد ما نزل من أذى كان فى عهد نيرون (سنة ٦٤م) وتراجان سنة ١٠٦م وديسيون (٢٤٩ – ٣٥١م) ودقلديانوس (سنة ٢٨٠م) ، فنيرون أهاج الشر عليهم، وأنزل البلاء والعذاب بهم، واتهمهم بأنهم الذين أحرقوا روما، فأخذهم بجريرتها . وكانت السنوات

الأربع الأخيرة عذابا أليما لهم . فقد تفنن هو وأشياعه فى هذا العذاب، حتى لقد كانوا يضعون بعضهم فى جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم، وصلبوا بعضهم، وألبسوا بعضهم ثيابا مطلية بالقار، وجعلوهم مشاعل يستضاء بها، وكان هو نفسه يسير فى ضوء تلك المشاعل الإنسانية .

وفى عصر نيرون هذا دوّن الإنجيل مرقس سنة ٦١ على رواية، وكان بمصر وقد كتبه عنه بطرس وهو برومة، وكتب أيضا لوقا إنجيله فى عهد هذا القيصر، وفى ابتداء هذا الإنجيل ينص على أنه يراسل به تاوفيلس، ليؤكد له صحة الكلام، وتاوفيلس هذا رجل من عظماء الروم وأشرافهم، وفى عصر هذا القيصر أو بعده دوّن يوحنا إنجيله .

وفى عهد تراجان نزلت بهم آلام، لأنهم قد جرت عادتهم بالصلاة فى الخفاء وهربا من الاضطهاد، وقد أمر تراجان بمنع الاجتماعات السرية، فأنزل بهم الذل والعذاب لذلك، ولأنهم مسيحيون لايدينون بدين القيصر .

جاء فى كتاب تاريخ الحضارة «لقد كتب بلين - وكان واليا فى آسيا - إلى الإمبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة، التى كان يُعامَل بها المسيحيون، قال : «جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية، وهو أنى أسألهم إذا كانوا مسيحيين فإذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانيا وثالثاً مهددا بالقتل، فإن أصروا أنفذت عقوبة الإعدام فيهم، مقتنعا بأن غلطهم الشنيع، وعنادهم الشديد، يستحقان هذه العقوبة. وقد وجهت التهمة إلى كثير بكتب لم تذيل بأسماء أصحابها، فأنكروا أنهم نصارى، وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسماءهم أمامهم وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأرباب، بل إنهم شتموا المسيح، ويقال أن من الصعب إكراه النصارى الحقيقيين، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى، ولكنهم كانوا يثبتون بأن جريمتهم فى أنهم اجتمعوا فى بعض الأيام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على أنه رب ، وعلى إنشاد الأناشيد إكراما له ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم، بل على ألا يسرقوا ، ولا يقتلوا، ولا يزنوا، وأن يوفوا بعهدهم، ورأيت من الضرورى لمعرفة الحقيقة أن أعذب امرأتين ذكرتا أنهما خادمتا الكنيسة بيْد أنى لم أقف على شئ سوى خرافة سخيفة مبالغ فيها» .

وهذا الكتاب كاشف كل الكشف عما كان يحدث للنصارى فى عهد ذلك القيصر من اضطهاد وتعذيب، وتنقيب على القلب وخبيئة النفس .

ولم ينقطع الاضطهاد بعد موت تراجان ، بل استمر؛ وإن أخذت الرأفة بعض القياصرة، خلف من بعده خلف ينزلون عذابا مرا يزيل أثر كل رحمة سابقة كانت نسبية حتى جاء ديسيوس فأنزل بهم من البلاء ما تقشعر من هوله الأبدان، ولنترك القلم لبطريرك الإسكندرية، يصف بعض ماعاين من ديسيوس بعد أن ذاق بعض الرحمة من سابقه، فهو يقول : «لم نكد نتنفس الصعداء ، حتى حلق بنا الخوف وحفنا الخطر، عندما بدل ذلك الملك الذى كان أرق جانبا ، وأقل شرا من غيره، وجاء مكانه ملك آخر، ربما لايجلس على كرسى المملكة حتى يوجه أنظاره نحونا فيعمل على اضطهادنا. وقد تحقق حدسنا، عندما أصدر أمرا شديد الوطأة . فعم الخوف الجميع، وفر بعضهم، وقد أبعد كل مسيحى من خدمة الدولة، مهما يكن ذكاؤه، وكل مسيحى يرشد عنه يؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة . بعد أن يجتهدوا فى حمله بالترهيب . . . ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته واقتدى به البعض، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار، أو من زج به فى غيابات السجون» .

وهكذا يقص ذلك القسيس ما نزل بهم حتى انتهى به الأمر إلى فراره هو، وقد كتب يعتذر[1] عن ذلك إلى بعض من أبلوا بلاء حسنا، ولم يلوذوا بالفرار .

ولم يكن البلاء مقصورا على مصر ، بل كان يتتبع المسيحيين، فى الدولة الرومانية حيثما ثقفوا، وأينما كانوا . ولى بعد ديسيوس من أوقع البلاء وأنزله بالمسيحيين، ولكن كان أشد هؤلاء وأبلغهم أذى وأنكاهم بطشا – دقلديانوس الذى جاء إليهم، بعد أن خف العذاب عنهم قليلا، وقد رجوا فيه خيرا، وأملوا منه أن يكون عونا، لأن مدير خاصته مسيحى، ولكنه كان أشد من غيره على المسيحيين، وخصوصا المصريين، وذلك لأن المصريين رأوا أمما تحللت من حكم الرومان، وفكوا أغلاله ، فاقتدوا بهم، ونزعوا إلى السير فى طريق الحرية والاستقلال، وساروا فيه، وعقدوا الإمرة لواحد منهم، فجاء دقلديانوس إلى مصر، وأنزل بها البلاء، وأزال استقلالها، وأعاد فتحها، وكانت كثرتها فى ذلك الإبان مسيحية، وقد أمر بهدم الكنائس، وإحراق الكتب، وأصدر أمرا بالقبض على الأساقفة والرعاة، وزجهم فى غيابات السجن، وقهر المسيحيين وحملهم على إنكار دينهم، وقد استشهد فى هذا الوقت عدد كبير من الأقباط تجاوزت عدتهم أربعين ومائة ألف، وعدهم بعض المؤرخين ثلاثمائة

(١) راجع فى هذا كتاب تاريخ الأمة القبطية الجزء الأول ص ١٠٤، ١٠٥ ، ١٠٦ .

ألف، ولكثرة ما استشهد من شهداء وما نزل من بلاء كانت ولاية دقلديانوس حادثا ذا خطر فى شأن مصر فجعلوه مبدأ تقويمهم؛ وذلك فى سنه ٢٨٤ ميلادية .

وقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم حتى جاء عهد قسطنطين، يمنا وبركة على المسيحيين، لا على المسيحية كما سنبين .

أثر الاضطهادات فى الديانة :

٢٠ - هذه هى الاضطهادات التى قارنت المسيحية فى نشأتها وفى تكوينها وليدا وفى تدرجها، وفى عصر تدوينها ورواية كتبها، وهى مع أسباب أخرى جعلت بعض العلماء يبحثون عن قيمة هذه الكتب، وجعلت بعض العلماء المسيحيين أنفسهم يعتذرون عن بعض الاضطراب فى الأناجيل بأنها دونت فى عصور اضطهاد المسيحية الأولى، بل إن مناظريهم يقررون بأن تلك الاضطهادات كانت سببا فى فقد سندها المتصل بصاحب الشريعة . يقول الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه إظهار الحق : «طلبنا مرارا من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم، فقال : إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة، وتفحصنا كتب الإسناد لهم، فما رأينا فيها شيئا غير الظن، يقولون بالظن، ويتمسكون ببعض القرائن . وقد قلت أن الظن فى هذا الباب لايغنى شيئا، فما داموا لم يأتوا بدليل شاف، وسند متصل فمجرد المنع يكفينا . وإيراد الدليل فى ذمتهم لا فى ذمتنا» . وفى الحق أن تلك الاضطهادات جعلت كل عمل يقومون به فى شئونهم الدينية - وخاصة ما كان متصلا ببيان الشريعة - يقومون به سرا لا جهرا ، وفى خفية من العيون المتربصة، والأعداء المترقبين، والسرية يحدث فى ظلمتها ما يجعل العقل غير مطمئن إلى ما يحكى عما يحدث فيها، فيتظنن فى كل ما يروى عنها، ولامانع من أن يدس على اجتماعاتها ما لم يجر فيها، وينقل عن أشخاصهم ما لم يقولوه، ويتسامع الجمهور أمورا ما حدثت فى تلك الاجتماعات، ولا قالها حاضروها، فإذا جرى الشك والريب فيما دوّن من كتب المسيحية التى فقدت سندها بسبب هذا الاضطهاد، والتى كتبت فى ظلمة السرية، يكون قد وقع حيث وجدت دواعيه، وقامت شواهده .

الفلسفة الرومانية والمسيحية :

٢١ - ولقد كان من المسيحيين من يفرون بدينهم، ومنهم من يظهر الوثنية ويبطن المسيحية، ومنهم من دخل النصرانية وفى رأسه تعاليم الوثنية لم تخلع منه ولم تزايله، وإن زايلها بعقله المدرك فعقله الباطن مازال مستقرا لها ومكمنا تكمن فيه، وهؤلاء لا شك تفكيرهم أثر فى المسيحية التى لم يكن لها قوة تحميها وشكيمة تعقل النفوس إلى حظيرتها.

وإن التاريخ يروى لنا أنه فى القرن الثانى، والثالث ، والرابع الميلادى قد دخل الرومان والمصريون أفواجا أفواجا فى المسيحية. فمن حق العلم أن نحكى ما كان يسيطر على هذه الأمم من أفكار، وما كان يسود تفكيرها من منازع عقلية ودينية، ولا نعتمد فى ذلك إلا على ما أثبته تاريخ العلم والفلسفة، وما أجمع عليه المؤرخون .

يحكى التاريخ أن مدينة الرومان لم تكن متناسقة تناسقا اجتماعيا، فلم يكن توزيع الثروة فيها توزيعا يتحقق معه العدل الاجتماعى، فبينما ترى ترفا ورخاء لمن أفاءت عليهم الدولة بالفئ والغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية، ترى ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به فى حياتهم، فاستولى عليهم الإحساس بالظلم، والسخط على الحياة، والتململ بها، والناس لايشقون لآلامهم وحرمانهم بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التى امتنعت عليهم، وكذلك كانت آلام سواد الرومان، ولولا الإيمان بحياة مستقبلة، يستمتعون فيها بما حرموا منه فى هذه الحياة، لضاقت الصدور بما يجلجل فى القلوب، ولانفجرت فى ثورة اجتماعية، لكن توجهت هذه النفوس إلى الإيمان بعالم علوى، واعترف الإنسان بعجزه التام عن معرفة نفسه وإسعادها، إذا اعتمد على تفكيره فقط، لذلك رجعوا إلى الدين .

وفى هذا الوقت أراد الفلاسفة أن يحلوا فلسفتهم محل الأديان، إذ أخذت التماثيل والأوثان تفقد قوة تأثيرها، ولم يعد لها سلطان فى تصريف سلوك الإنسان، وفقدت معابدها ما كان لها من روعة وقوة، فاعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان، كلاهما فيه قوة ويأس، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم فى حاجة إلى عزاء من الدين، وسلوى باليوم الآخر، وملاذ إلى حياة روحية، والفلسفة - بما لها من سلطان العقل - لما وجدت الأوثان تسقط قيمتها أرادت أن تحل محلها، حينئذ التحمت الفلسفة بالشعور الدينى، أو التقت الفلسفة والدين، ولم يكن التقاؤهما عداوة وخصاما، بل كان محبة وسلاما، فكانت تلك الحال داعية اتصال بينهما، لا داعية افتراق .

قال فندلبند فى ذلك : «إن الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الآراء الدينية، وترتيبها، ولتقدم بالشعور الدينى اللجوج فكرة فى العالم تقنعه، فأوجدت نظما دينية من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقا يختلف قلة وكثرة» .

هذه كلمة ذلك الفيلسوف نقلها عنه صاحب كتاب المبادئ الفلسفية، فما هذه الأديان المتضادة التى ألّفت بينها الفلسفة، وجعلت من نغماتها المختلفة نغمة واحدة مؤتلفة ؟

إن التاريخ يقص علينا أن الأديان التى كانت فى بلاد الرومان ثلاثة : الوثنية الرومانية ، واليهودية ، والمسيحية الناشئة، فهل عملت الفلسفة على إيجاد ديانة تجمع بين المسيحية واليهودية، وفيها وثنية؟ وهل المسيحية التى تؤمن بالتوراة التى عند اليهود على اختلاف هيّن، وتؤمن بالتثليث وألوهية المسيح وتقديس الصليب، هى النظام الدينى الجامع بين الأديان الثلاثة !! لنترك ذلك الآن . وقد وضعنا أمام القارئ المصباح الذى يرى به الطريق .

الأفلاطونية الحديثة وأثرها فى النصرانية :

٢٢ - ولنتجاوز رومة الرومان ولنعبر البحر الأبيض، ولنيمم شواطئه الجنوبية، فهناك نجد مدينة الإسكندرية ومدرستها، وفلسفتها التى كانت تشع على العالم كله بنور العلم؛ وقد آوى إليها فلاسفة اليونان، وتابعوا الفلسفة اليونانية، والتى نراها تتجه اتجاها واضحا إلى النواحى الدينية، والبحث فى منشئ الكون .

كان شيخ هذه المدرسة أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢، اعتنق فى صدر حياته الديانة المسيحية. ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين، وجاء من بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ وقد تعلم فى مدرسة الإسكندرية أولا، ثم رحل إلى فارس والهند، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية، واطّلع على تعاليم بوذا وديانته، وبراهمة الهند وديانتهم. وعرف آراء البوذيين فى بوذا والبراهمة فى كرشنة، وقد عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية، وأخذ يلقى بآرائه على تلاميذه، وجلّها يتجه إلى تعرف ما وراء الطبيعة، ومنشئ الكون .

ويلخص اعتقاده فى منشئ الكون فى ثلاثة أمور :

(أولها) أن الكون قد صدر عن منشئ أزلى دائم لاتدركه الأبصار، ولاتحده الأفكار، ولاتصل إلى معرفة كنهه الأفهام .

(ثانيها) أن جميع الأرواح شُعب لروح واحد وتتصل بالمنشئ الأول بواسطة العقل

(ثالثها) أن العالم فى تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة، وهو تحت سلطانها . فالله منشئ الأشياء وهو مصدر كل شئ، وإليه معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث . فليس بجوهر ولا عرض، وليس فكرا كفكرنا . . ولا إرادة كإرادتنا، ولا وصف له، إلا أنه واجب الوجود، يتصف بكل كمال يليق به، يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود، ولا يحتاج هو إلى موجود، وأول شئ صدر عن هذا المنشئ فى نظر أفلوطين هو العقل المصدر عنه كأنه يتولد منه، ولهذا العقل قوة الإنتاج، ولكن ليس كمن تولد عنه، ومن العقل تنبثق الروح التى هى وحدة الأرواح، وعن هذا الثالوث يصدر كل شئ ومنه يتولد كل شئ.

٢٣ - هذه فلسفة المعاصرين لنشأة الديانة المسيحية عندما أريد تحويلها، وترى أن فلسفة الرومان ترمى إلى إيجاد ألفة بين الوثنية واليهودية ومسيحية المسيح عليه السلام، كما ترى أن فلسفة الإسكندرية ترجع العالم فى تكوينه وتدبيره إلى ثلاثة عناصر أو إلى ثالوث مقدس هو المنشئ الأول، والعقل الذى تولد منه كما يتولد الولد من أبيه، والروح الذى يتصل بكل حى ومنه الحياة، فإذا عبّرنا عن المنشئ الأول بالآب، وعن العقل المتولد عنه بالابن، وعن الروح بروح القدس، كما هو ثالوث النصارى الذى أخذ ببعضه مجمع نيقية، وبكله المجامع التى جاءت من بعده، لما خرجنا فى التسمية عن الصواب، وما كان فيها أى تسامح؛ فذلك الثالوث فى معناه هو ثالوث النصارى، وإذا لم يختلف المسمى، فلماذا يختلف الاسم ؟.

وهنا يرد على النفس سؤال : أيهما استقر، وأيهما كان الينبوع ؟ هل أخذت الأفلاطونية الحديثة من النصرانية، أم النصرانية الحاضرة هى التى أخذت عن الفسلفة ؟ إن الجواب عن هذا يقتضى تعرف السابق منهما، فالسابق بلا ريب أستاذ اللاحق، والزمن هو الذى يحكم ويفصل، وسنجد فيما يلى من البحث أن مجمع نيقية هو الذى سار فى تقرير هذا الثالوث، ووضع الأساس لمن بعده، أو بعبارة أدق قرر ألوهية الابن، وأن جوهره هو جوهر الآب، وقد جاء فى قراره «إن الجامعة المقدسة، والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لاشئ، أو من يقول أن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الآب، وكل من يؤمن أنه خلق، أو من يقول أنه قابل للتغير [1] » .

(١) اطلع زميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية أصول الدين سابقا على هذا الاستنباط التاريخى فقال : إنه يوافق ما استنبطه بعض المستشرقين، ثم ترجمه، وتفضل فأرسل إلينا نص الترجمة وها هى ذى، ننشرها مع بحثنا شاكرين له - رحمه الله - فضل تعاونه : =

وهذا المجمع كان فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد، والمسيحيون قبله كانوا على اختلاف كبير جدا، ويكفى للدلالة على هذا الاختلاف أن الذين حضروا المجمع نيف وأربعون بعد الألفين، وهم على آراء مختلفة، ولم يجمع أعضاء هذا المجمع على نحلة واحدة، أما عقيدتهم فى الابن وقولهم أنه تولد عن المنشئ من غير زمن بينهما كما يقول الفلاسفة، وأنه من

= التثليث ليس من المسيحية بل من الفلسفة الإغريقية

١ – كانت المشكلة الفلسفية التى واجهت الإغريق أولا هى : «ما مبدأ كل شئ؟» وباجتهاد الفلسفة فى الإجابة عن هذا السؤال إجابة محدودة ومقنعة شيئا فشيئا كان لنا تلك المذاهب الفلسفية التى تتابعت فى تاريخ الفلسفة الإغريقية . هذه فلسفة بدأت طبيعية مع الفلاسفة الأيونيين، ثم أخذت فكرة التوحيد فى الظهور على أيدى سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، بحيث رأى هؤلاء أن المبدأ الذى صدر عنه العالم هو الله الواحد الذى لم يتغير، على غموض فى تعيين هذه الصفات ونحوها مما يصح أن يتصف بها .

ولكن بمقدار تبين هذه المعارف والمعلومات عن الله كانت تكمن الصعوبة الأساسية التى اصطدمت بها المذاهب التى سبقت سقراط : كيف تصدر الأشياء عن مبدئها ؟ كيف يمكن أن يخرج الكثير – أى العالم – من الواحد ، والمتغير من الذى لا يتغير ؟ وأنه كلما قرب المبدأ الأول من الوحدة الحق بصيرورته روحيا، ومن عدم التغير الحق بصيرورته كاملا، تتسع الهوة التى تفصله عن العالم وكثرته، وتصير أكبر عمقا، كما يصبح عسيرا فهم كيف يبرز الله العالم للوجود ويحركه .

٢ – إذا كان الله واحدا وحدة مطلقة كيف يمكن أن يخلق الكثرة المختلفة دون أن يقبل فى ذاته كثرة بأى وجه من الوجوه ؟ وإذا كان كماله المطلق يقتضى عدم التغير ، كيف نفهم أنه فى وقت ما أوجد العالم دون أن يلحقه تغير، مع أنه انتقل من حالة عدم العمل إلى العمل؟ هنا تظهر عبقرية العقل الآرى ! الواحد البرىء من التغير لايمكن أن يصدر عنه العالم المتكثر المتغير مباشرة، يجب إذن أن تتوسط بينهما وسائط أزلية متدرجة حسب نظام ميتافيزيقى .

٣ – كان أفلاطون أول من أدرك تلك المشكلة وأول من أدرك هذا الحل الذى وجب على العقل الإغريقى فيما بعد – بعد إنضاجه طويلا – أن يجتمع نهائيا عليه أعنى عقيدة ثلاثة أقانيم أو عقيدة التثليث ص ٧٠ – ٧١ .

٤ – هذا المذهب أو هذه العقيدة التى تمثلها عقل أفلاطون، وإن أدركها إدراكا فيه نوع غموض، ليس إلا عقيدة التثليث المشهورة، ومن السهل إدراك الغرض منها : الاحتفاظ لله بالكمال المطلق والبراءة من التغير، جعله يضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه خارجين عنه، وعلى نحو ما داخلين فيه، أى=

جوهر أبيه، كما يقولون لم تسد إلا بعد ذلك المجمع، وسيأتى لذلك فضل بيان إن شاء الله تعالى، وعلى ذلك يكون تثليث المسيحية كحقيقة مقررة متأخرا عن أفلوطين؛ لأن أفلوطين توفى سنة ٢٧٠ بعد الميلاد كما علمت، والتثليث لم يتكامل إلا فى آخر القرن الرابع، والمتقدم أستاذ المتأخر كما يرجح العقل وكما يوجبه الظن الذى لايعد من الإثم .

ولقد ترى ذلك الظن عند بعض علماء أوربا، حتى شك بعضهم فى حياة المسيح وقالوا إنه شخص خرافى لم يوجد، أراد بعض فلاسفة الأفلاطونية الحديثة أن يفرضوه ليجعلوا من آرائهم ديانة يعتنقها العامة، وتسود الكافة، وقد تم لهم ما أرادوا، ولكنا نحن المسلمين لانقر ذلك كله، لما فيه من إنكار وجود المسيح الذى نؤمن به، ونزل بخبره الوحى الأمين، وإن كنا نصدق لبه .

= تتضمنهما ذاته - صادرين عنه، دونه فى الكمال، ويجعلان ممكنا أن يصدر عن الله العالمُ الكبيرُ المتغير، أول هذين الوسيطين العقل، وثانيهما الروح الإلهية - ص ٧٣ - ٧٤ .

٥ - وهكذا، كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الإغريقية، لم ينتج فلسفة فقط، بل أنتج معها دينا أيضا، أعنى المسيحية التى تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان . ذلك أن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الأفلاطونية الحديثة (يريد فلسفة أفلاطون التى كانت المعين الأصلى للفلسفة الأفلاطونية الحديثة) مشابهات كبيرة، وإن افترقا أحيانا فى بعض التفاصيل، فإنهما يرتكزان على عقيدة التثليث، والأقانيم الثلاثة واحدة فيهما - ص ٩٣ .

٦ - أول هذه الأقانيم هو مصدر كل كمال، والذى يحوى فى وحدته كل الكمالات، هو الذى دعاه المسيحيون الآب . والثانى أو الابن هو الكلمة . والثالث هو دائما الروح القدس ص - ٩٢ - ٩٤ .

على أنه يجب أن يلاحظ (وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحى عن الأفلاطونية الحديثة) أن الأقانيم الثلاثة ليست فى نظر هذا المذهب متساوية فى الجوهر والرتبة . بينما هى متساوية عند المسيحية، فالابن الذى يتولد من الآب لا يمكن أن يكون أدنى منه كمالا . والاصار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطرارا عنه غير الكامل . وهذا حط من رتبته . وكذلك الروح القدس مساو للآب والابن - ص ٤٩ .

كل هذه النقول من كتاب : «مقدمة (أو المدخل) لدراسة الفلسفة الإسلامية» تأليف المستشرق المعروف ليون جوتيه طبع باريس عام ١٩٢٣ .

٢٤ - الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأناجيل، ورسائل، الرسل، وتسمى التوراة (أسفارها الموسوية وغيرها) كتب العهد القديم، وتسمى الأناجيل، ورسائل الرسل : كتب العهد الجديد، فمن العهد القديم يعرفون أخبار العالم فى عصوره الأولى، وأجياله القديمة، وشرائع اليهود الاجتماعية والدينية، وتاريخ نشأتهم، وحكوماتهم وحوادثهم، والنبوات السابقة منذ هبوط الإنسان على هذه الأرض، والبشارات بالنبيين اللاحقين، وبالمسيح، وفيها يجدون أدعية متوارثة تعين على أداء العبادات، والقيام بالطقوس الدينية كمزامير داود. ولنترك الكلام فى التوراة وأسفارها، فلذلك موضعه من الدراسة للديانة اليهودية، بيد أنه يجب أن يلاحظ أن بعض الأسفار المعتبرة عند اليهود مرفوضة عند المسيحيين، لعدم اعتقادهم بصحة الوحى فيها .

الأناجيل :

٢٥ - أما كتب العهد الجديد، فهى التى تعنينا فى هذا البحث، ويهمنا أن نجلى أمرها، ونعرف حقيقتها، وأولها الأناجيل .

والأناجيل المعتبرة عندهم أربعة: إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا .

ومكان الأناجيل فى النصرانية مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما حاطوها به من أفكار هى شعار المسيحية، فإن هذه الأناجيل هى المشتملة على أخبار تلك الشخصية، من وقت الحمل إلى وقت صلبه فى اعتقادهم وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال، ثم رفعه بعد أربعين ليلة، وهى بهذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح فى زعمهم، والصلب والفداء، أى أنها تشتمل على لب المسيحية فى نظرهم بعد المسيح ومعناها .

هذه الأناجيل الأربعة هى التى تعترف بها الكنائس، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها، ولكن التاريخ يروى لنا أنه كانت فى العصور الغابرة أناجيل أخرى، قد أخذت بها فرق قديمة، وراجت عندها، ولم تعتنق كل فرقة إلا إنجيلها، فعند كل من أصحاب مرقيون، وأصحاب ديسان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل، ولأصحاب مانى إنجيل يخالف هذه الأربعة، وهو الصحيح فى زعمهم، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس،

والنصارى ينكرونه، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة، إنجيل سرن تهس، ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة؛ وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية، ثم أرادت الكنيسة فى آخر القرن الثانى الميلادى أو أوائل القرن الرابع أن تحافظ على الأناجيل الصادقة - فى اعتقادها - فاختارت هذه الأناجيل الأربعة الرائجة إبان ذلك .

ولقد يذكر بعض المؤرخين أنه لم توجد عبارة تشير إلى وجود أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثالث . وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس فى سنة ٢٠٩ . ثم جاء من بعده كليمنس إسكندريانوس فى سنة ٢١٦، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة، بل أرادت الناس على قبولها لاعتقادها صحتها، ورفض غيرها، وتم لها ما أرادت فصارت هذه الأناجيل هى المعتبرة دون سواها .

ولقد كنا نود ونحن ندرس المسيحية وأدوارها فى التاريخ أن نعرف هذه الأناجيل التى أهملت، وما كانت تشتمل عليه، مما كان سببا فى رفضها، وحمل الناس على تركها، وخصوصا أنها كانت رائجة . ويأخذ بها طوائف من المسيحيين ويتدينون هذه الديانة على مقتضاها، فإن الاطلاع عليها يمكننا من معرفة اعتقاد الناس فى المسيح، وكيف كان، وخصوصا بين أولئك الذين قاربوا عصره، وأدركوا زمانه، ولقوا تلاميذه، ونهلوا من مناهلهم، وإذ ضن التاريخ بحفظ نسخ منها، فقد كنا نود أن تطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه مما يخالفها، وما كان من سبب رفضها، وترينا حجة الرفض، لتكون دليلا منيرا لها على أنها بهذا أقامت ديانة المسيح ولم تغيرها، ولكن ضن التاريخ علينا، فطوى تلك الأناجيل، وضنت الكنيسة فطوت تلك البيانات، فلم يبق لنا إلا أن نكتفى من الدراسة بما بين أيدينا، لعل فيه غناء إن أنعمنا النظر وأمعنا فى الاستنباط، وجعلنا لقضية العقل سلطانا، ومن بدهياته برهانا .

الأناجيل لم يملها المسيح ولم تنزل عليه :

٢٦ - وهذه الأناجيل الأربعة لم يملها المسيح، ولم تنزل عليه هو بوحى إلهى، ولكنها كتبت من بعده - كما رأيت - وتشتمل على أخبار يحيى (يوحنا المعمدان) والمسيح، وما كان منه، وما أحاط بولادته من عجائب وغرائب، وما كان يحدث منه من أمور خارقة

للعادة، ولا تحدث من سواه من البشر، وما كان يحدث له من أحداث، وما كان يجرى بينه وبين اليهود، وما كان يلقيه من أقوال وخطب وأحاديث وأمثال ومواعظ، وفيها قليل من الشرائع التى تتعلق بالزواج والطلاق، ثم أخبار المؤامرة عليه، واتهامه والقبض عليه، ومحاكمته، سواء أكانت تلك المحاكمة أمام اليهود، أم أمام الرومان. ثم فيها الحكم عليه بالموت صلبا، وصلبه بالفعل فيما يعتقدون، وفيها أيضا قيامته من قبره، ومكوثه أربعين يوما، ثم رفعه إلى السماء . وفى الجملة هى تشتمل على أخبار المسيح وصلواته، وأقواله وعجائبه، من بدايته إلى نهايته فى هذا العالم . وهذا – كما قلنا – لب المسيحية ومعناها، لأن فيها النواة الأولى لألوهية المسيح، وعقيدة النصارى فيه، ولنتكلم عن كل إنجيل من هذه الأناجيل بكلمة تبين تاريخ تدوينه، وتعرف بمؤلفه، ومكانته من المسيح .

إنجيل متى :

٢٧ – وقد كتبه متى ، وهو أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر، ويسميهم المسيحيون رسلا، وقد كان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب، وكانوا يسمون فى ذلك العهد عشارين، ولقد كان جابيا للرومان فى كفر ناحوم من أعمال الجليل بفلسطين، وكان اليهود ينظرون للجباية نظرة ازدراء، لأنها تحمل صاحبها على الظلم، أو على الأقل تحمله على العنف، والعمل فيها معين للدولة الرومانية المغتصبة التى تحكم البلاد بغير رضا أهلها، ولكن السيد المسيح اختاره تلميذا من تلاميذه كما جاء فى إنجيله . ففى الإصحاح التاسع منه : «وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى إنسانا جالسا عند مكان الجباية، واسمه متى، فقال له، اتبعنى، فقام وتبعه، وبينما هو متكئ فى البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا، واتكئوا مع يسوع وتلاميذه .

فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه، لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ! فلما سمع يسوع قال لهم : «لايحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى، فاذهبوا وتعلموا ما هو، إنى أريد رحمة لا ذبيحة، لأنى لم آت لأدعو أبرارا، بل خطاة إلى التوبة» .

ولما صعد المسيح إلى ربه جال متى للتبشير بالمسيحية فى بلاد كثيرة .

ومات فى سنة ٧٠ ببلاد الحبشة على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة . وفى رواية أخرى أنه طعن برمح فى سنة ٦٢ بالحبشة بعد أن قضى بها نحو

ثلاث وعشرين سنة داعيا للمسيحية مبشرا بها، فموطن دعايته كما يروى مؤرخو المسيحية هو الحبشة .

إنجيل متى كتب بالعبرية ولم يعرف إلا باليونانية وجهل المترجم :

٢٨ – وقد اتفق جمهورهم على أنه كتب إنجيله بالعبرية أو السريانية، كما اتفقوا على أن أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية، ولكن موضع الخلاف فى تاريخ تدوينه، ومن الذى ترجمه إلى اليونانية، فمن المتفق عليه عند أكثرهم أن متى كتب إنجيله بالعبرانية. وذلك لأنه كتبه لليهود يبشر بالمسيحية بينهم وليقرأه مؤمنوهم بها، قال جيروم: «إن متى كتب الإنجيل باللسان العبرى فى أرض يهودية للمؤمنين من اليهود» وقال غيره : «إن متى كتب الإنجيل باللسان العبرى . وهو الذى انفرد باستعمال هذا فى تحرير العهد الجديد» .

وإذا انتقلنا إلى تاريخ تدوين هذا الإنجيل وترجمته نرى ميدان الخلاف فسيحا . فنجد ابن البطريق يذكر أنه دوّن فى عهد قلوديوس قيصر الرومان من غير أن يعين السنة التى كتب فيها .

ويذكر أن الذى ترجمه يوحنا، فيقول فى ذلك : «فى عصر قلوديوس كتب متاوس (متى) إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس . ونشره من العبرانية إلى اليونانية يوحنا صاحب الإنجيل » .

وهنا نجده لم يعين السنة التى كتب فيها الإنجيل، بل عين الملك الذى كتب فى عهده، وهذا الملك لم يكن هو الذى عاصر المسيح، ولا الذى يليه . بل الذى عاصر المسيح وصلب – على زعمهم – فى عهده طيباريوس، وولى من بعده غابيوس، وملك أربع سنين وثلاثة أشهر، ثم جاء من بعده قلوديوس وملك أربع عشرة سنة، فيحتمل تدوين هذا الإنجيل أن يكون فى آخر العشرة الرابعة من ميلاد المسيح، ويحتمل أن يكون فى أول أو آخر العشرة الخامسة أو أوائل السادسة . فكلام ابن البطريق يحتمل كل هذا، وقال جرجس زوين اللبنانى فيما ترجمه عن الفرنسية : «إن متى كتب بشارته فى أورشليم فى سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب إليه القديس إيرنيموس، والسبب فى ذلك على ما ذهب إليه القديس أبيفانيوس أنه كتبه إما إجابة ليكرز لليهود الذين آمنوا بالمسيح، أو إجابة لأمر الرسل، ولم

يكتب إنجيله باليونانية بل بالعبرانية على زعم أوسيبيوس فى تاريخه، وقد وافق أسيبيوس القديس أبرنيموس، إذ أن بانتيوس قد ذهب ليكرز بالإيمان المسيحى فى الهند، فوجد إنجيلا لمتى الرسول مكتوبا بالعبرانية، فجاء به إلى الإسكندرية، وبقى محفوظا فى مكتبة قيصرية إلى أيامه، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت، وبعد فقدها ظهرت ترجمتها فى اليونانية» ا هـ .

وفى هذا يعين الكاتب تاريخ السنة التى دون فيها الإنجيل، ولكن لا يعين المترجم. بل يذكر أنه غير معروف، بينما نرى ابن البطريق يعين أنه يوحنا صاحب الإنجيل المسمى باسمه .

وبالنسبة لتاريخ التدوين يقول صاحب كتاب (مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين) : «إن متى بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب إنجيله قبل مرقس ولوقا ويوحنا، ومرقس ولوقا كتبا إنجيلهما قبل خراب أورشليم . ولكن لا يمكن الجزم فى أية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص، لأنه ليس عندنا نص إلهى على ذلك» .

وقال صاحب ذخيرة الألباب : «إن القديس متى كتب إنجيله فى السنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ فى فلسطين، وهى العبرانية أو السيروكلدانية . . ثم ما عتم هذا الإنجيل أن ترجم إلى اليونانية . ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذى لعبت به أيدى النساخ الأيونيين ومسخته بحيث أضحى ذلك الأصل خاملا، بل فقيدا، وذلك منذ القرن الحادى عشر » .

وقال الدكتور بوست فى قاموس الكتاب المقدس، مخالفا جمهور المتقدمين فى أنه كتب بالعبرانية أو السريانية : «إن هناك من يقول أنه كتب باليونانية» ثم يرجح أنه ألف باليونانية مخالفا بذلك إجماع مؤرخيهم. ثم يقول بالنسبة لتاريخ تدوينه «ولابد أن يكون هذا الإنجيل قد كتب قبل خراب أورشليم» ويظن البعض «أن الإنجيل الحالى كتب ما بين سنة ٦٠ وسنة ٦٥» . والحق أن باب الاختلاف فى شأن التاريخ لا يمكن سده، ولا يمكن ترجيح رواية، ولاجعل تاريخ أولى من تاريخ بالاتباع، ولذلك يقول هورن؛ «ألف الإنجيل الأول سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٤ من الميلاد» . ونقول نحن : «يجوز غير ذلك، والجمهور على أنه كتب بغير اليونانية، ولكن لم

يعرف غيرها، ولم يعرف جمهرة المؤرخين من يكون المترجم، وفي أي عصر ترجم، وقد علمت أن ابن البطريق يذكر أن يوحنا هو الذى ترجمه إلى اليونانية؛ ولكن لانجد أحدا من المؤرخين أيده، بل إن الكثيرين منهم يقولون: «إنه لم يعرف المترجم» .

أثر جهل تاريخ التدوين والمترجم :

٢٩ – لاشك أن جهل تاريخ التدوين ، وجهل النسخة الأصلية التى كانت بالعبرية ، وجهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره، وعلم بالدين واللغتين التى ترجم عنها والتى ترجم إليها، كل هذا يؤدى إلى فقد حلقات فى البحث العلمى، ولئن تسامح الباحث فى تاريخ التدوين، وتاريخ الترجمة وملابساتها ليمنعنه العلم من الاسترسال فى التسامح، حتى لا يرى أن السلسلة تكون كاملة إذا لم يعرف الأصل الذى ترجم، فلقد أردنا أن نعرف ذلك الأصل، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل، أم فيها انحراف، ولنعرف أفهم المترجم مرامى العبارات ومعانيها سواء أكانت هذه المعانى تفهم بظاهر القول أو بإشاراته، أم بلحن القول وتلويحاته أم بروح المؤلف وغرضه، ومرماه الكلى من الكلام. ولكن عز علينا العلم بالأصل، ولقد كنا نتعزى عن ذلك لو عرفنا المترجم، وأنه ثبت ثقة أمين فى النقل، عالم لا يتزيد على العلماء، فقيه فى المسيحية حجة فيها، عارف للغتين فاهم لهما، مجيد فى التعبير بهما، فعندئذ كنا نقول : ثقة روى عن ثقة بترجمته، ونسد الخلة بتلك الرواية، ونرأب الثلمة بتلك النظرة، ولكن قد امتنع هذا أيضا، فقال جمهرة علمائهم : إن المترجم لم يعرف، فبقيت الثلمة من غير ما يرأبها .

إنجيل مرقس :

٣٠ – يقول المؤرخون أن اسمه يوحنا ويلقب بمرقس، ولم يكن من الحواريين الاثنى عشر الذين تتلمذوا للمسيح، واختصهم بالزلفى إليه، وأصله من اليهود، وكانت أسرته بأورشليم فى وقت ظهور السيد المسيح، وهو من أوائل الذين أجابوا دعوته، فاختاره من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس– فى اعتقادهم – من بعد رفعه، وألهموا بالتبشير بالمسيحية، كما ألهموا مبادئها . ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية : «وقد أجمعت تقاليد الطوائف المسيحية على أن الرب يسوع كان يتردد على بيته، وأنه فى هذا البيت أكل الفصح مع تلاميذه، وفى إحدى غرفه حل الروح القدس على التلاميذ» . وجاء

فى سفر الأعمال : «إن الرسل بعد صعود السيد المسيح كانوا يجتمعون فى بيته» ولقد لازم مرقس خاله برنابا (وهو من الرسل) وبولس الرسول فى رحلتهما إلى أنطاكية وتبشيرهما بالمسيحية فيها، ثم تركهما بعد ذلك، وعاد إلى أورشليم، ثم التقى مرة أخرى بخاله، واصطحبه إلى قبرص، ثم افترقا، فذهب إلى شمال أفريقية ودخل مصر فى منتصف القرن الأول فأقام بها وأخذ يدعو إلى المسيحية التى كانت أخبارها قد سبقته إليها، وقد وجد فى مصر أرضا خصبة لقبول دعوته، فدخل فيها عدد كبير من المصريين، وكان يسافر من مصر أحيانا إلى رومة وأحيانا إلى شمال أفريقية، ولكن مصر كانت المستقر الأمين له، فاستمر بها إلى أن ائتمر به الوثنيون، فقتلوه بعد أن سجنوه وعذبوه، وكان ذلك سنة ٥٢ من الميلاد، وقد جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس الحوارى، وقد جاء فى ذلك الكتاب عن مرقس، «صنف إنجيله بطلب من أهالى رومية، وكان ينكر ألوهية المسيح» .

اللغة التى كتب بها إنجيل مرقس وتاريخ تدوينه والاختلاف فيه وفى الكاتب :

٣١ – وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية، ولم نر أحدا من كتاب المسيحيين ناقض ذلك، وقد ذكر الدكتور بوست فى كتابه (قاموس الكتاب المقدس) أنه كتب الإنجيل باليونانية، وشرح فيه بعض الكلمات اللاتينية . وأخذ من ذلك أنه كتب فى رومة . ويجئ مثله فى تاريخ ابن البطريق، ففيه : «وفى عصر نارون قيصر كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عن مرقس فى مدينة رومية ونسبه إلى مرقس» .

ونوجه نظر القارئ إلى ما قاله ابن البطريق من أن الذى كتب الإنجيل هو بطرس عن مرقس، ونسبه إليه ، فكان بطرس راوى مرقس . مع أن الأول رئيس الحواريين – كما يقول ابن البطريق – والثانى من تلاميذه ، كما جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار . وإذا كان ذلك الإنجيل خلاصة علمه بالمسيحية، فإذا رواه عنه أستاذه، فقد روى هذا عن مرقس ما ألقاه عليه وعلمه، وإن ذلك لغريب، ولقد ذكر هذا الأمر صاحب مرشد الطالبين : «قد زعم أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان ينصرهم بخدمته» . وقد ذكر الأمر بلفظ الزعم، كأنه لايصدقه، وأنه لايراه مقبولا، كما نراه

غريباً، ولكن هكذا يذكر الرواة. وبجوار هؤلاء الذين يقولون أو يزعمون أن إنجيل مرقس كتب بتدبير من بطرس، وبولس ، فقد قرر الكاتب القديم أرينيوس : «أن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس» .

وفي الحق أن ذلك الاختلاف، وإن كان زمنياً فى ظاهره، هو فى معناه ولبه اختلاف فى شخص المحرر لهذا الإنجيل. فابن البطريق، وهو من المؤرخين المسيحيين الشرقيين يقرر أن الذى كتبه هو بطرس عن مرقس، ونسبه إليه، وأرينيوس يقرر أن الذى كتبه هو مرقس من غير تدبير بطرس، لأنه كتبه بعد موته. فمن الكاتب إذن ؟ ليس بين أيدينا ما نرجح به إحدى الروايتين على الأخرى ! . ولنتجاوز هذا إلى تاريخ كتابة ذلك الإنجيل، فنجدهم أيضاً قد اختلفوا فى زمان تأليفه . وقد قال فى ذلك هورن : «ألف الإنجيل الثانى سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥ والأغلب أنه ألف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣» ، ويقول صاحب كتاب مرشد الطالبين : أنه كتب سنة ٦١ .

إنجيل لوقا :

٣٢ – يقولون : أن لوقا ولد فى أنطاكية، ودرس الطب، ونجح فى ممارسته ولم يكن من أصل يهودى، ولقد رافق بولس فى أسفاره وأعماله، وجاء فى رسائل بولس ما يشير إلى هذه الرفقة، وتلك الملازمة . ففى الإصحاح الرابع من رسالته إلى كولوسى يقول: «ويسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب»، وفى الإصحاح الرابع من رسالته الثانية إلى أهل تيموتاوس يقول : «لوقا وحده معى»، وفى رسالته إلى أهل فليمون يقول : «مرقس وأرسترخس وديماس ولوقا العاملون معى» . من هذا كله يفهم أن لوقا هذا هو الأنطاكى، ومثل هذا جاء فى تاريخ ابن البطريق، ويستنبط القس إبراهيم سعيد من كون لوقا طبيباً معانى كثيرة تسمو بإنجيله، فيقول «وكان لوقا طبيباً، وهذه المهنة لها قيمتها الخاصة لأنها تلقى على حياة لوقا نوراً ساطعاً، فترينا إياه الرجل العلمى العملى المدقق المحقق، الرقيق الأسلوب ، الجميل الديباجة، لأن الرومان لم يسمحوا فى وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة » ، ثم يبين : «أن كونه طبيباً قد سرد ولادة المسيح من غير أب سرداً طبيعياً هادئاً من غير محاولة التدليل على جوازه، يؤخذ منه أن ذلك ليس ضد العلم ، وإن كان فوق متناول العلم، وليس ضد الطبيعة، وأنه فوق مجرى الطبيعة» . ويرجح – كما قال كثيرون – أنه

ولد بإنطاكية، ولكن الدكتور بوست يقرر أنه لم يكن إنطاكياً، ويبين أن الذين يقولون أنه إنطاكي وهموا ذلك أو ظنوه من اشتباهه بلوكيوس، فيقول : ظن بعضهم أنه (لوقا) مولود فى أنطاكية إلا أن ذلك ناتج من اشتباهه بلوكيوس . وزعم بوست أنه كان رومانيا نشأ بإيطاليا . ومهنة الطب التى نسب إليها ليست أيضاً موضع اتفاق، لأن بين المؤرخين المسيحيين من يقررون أنه كان مصوراً .

ومن هذا يتبين أن الباحثين ليسوا على علم يقينى بمولد وصناعة كاتب هذا الإنجيل، فمن قائل أنه أنطاكى ولد بأنطاكية، ومن قائل أنه رومانى ولد بإيطاليا، ومن قائل أنه كان طبيباً، ومن قائل أنه كان مصوراً، وكلهم يتفقون على أنه من تلاميذ بولس ورفقائه، ولم يكن من تلاميذ المسيح، ولا من تلاميذ حوارييه. ولبولس هذا شأن خطير فى المسيحية كما سنبين .

من كتب لهم إنجيل لوقا، ولغته، واختلافهم حوله :

ويختلفون أيضاً فى القوم الذين كتب لهم أولا هذا الإنجيل . فالقس إبراهيم سعيد يقول : «إنه كتب لليونان، وإنجيل متى كتب لليهود وإنجيل مرقس يقول: كتب للرومان ، وإنجيل يوحنا كتب للكنيسة للعامة» . وإنا نجد إنجيل لوقا يبتدئ بهذه الجملة : «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين، رأيت أيضا، إذ قد تتبعت كل شئ من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به» . وثاوفيلس هذا يقول عنه ابن البطريق أنه من عظماء الروم، فيقول فى ذلك : «وكتب لوقا إنجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له تاوفيلا . وكتب إليه أيضا الأبركسيس الذى هو أخبار التلاميذ» وهى الرسالة المسماة أعمال الرسل، وهناك من يقول أن ثاوفيلس هذا كان مصريا ، لا يونانيا ، فهو قد كُتب للمصريين لا لليونانيين .

ويقول الدكتور بوست فى تاريخه : «قد كتب هذا الإنجيل قبل خراب أورشليم وقبل الأعمال، ويرجح أنه كتب فى قيصرية فى فلسطين مدة أسر بولس سنة ٥٨ - ٦٠ من الميلاد غير أن البعض يظنون أنه كتب قبل ذلك» . ومن هذا يفهم أن بوست يرجح أنه ألفه وبولس حى فى الأسر، ولكن يحقق العلامة لارون أنه حرر إنجيله ذلك بعد موت بطرس؛ وبولس . والواقع أن باب الخلاف فى تاريخ تدوين هذا الإنجيل أوسع من ذلك، فقد قال هورن : ألف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ .

ولا نترك هذا الإنجيل من غير أن نقول أن الباحثين قد اختلفوا فى شخصية كاتبه وفى صناعته، وفى القوم الذين كتب لهم، وفى تاريخ تأليفه، ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ولا تلاميذ تلاميذه . وإلا على أنه كتب باليونانية .

إنجيل يوحنا :

٣٣ – لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره فى نظر الباحث، لأنه الإنجيل الذى تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح ، فهذه الألوهية يعتبر هو نص إثباتها وركن الاستدلال فيها . ولذلك كان لابد من العناية به ، إذ كان التثليث هو شعار المسيحية، وهو مخالفتها لديانات التوحيد، وأساس التباين بين هذه الديانة وتلك الديانات، ويقول جمهور النصارى، أن كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحوارى بن زبدى الصياد الذى كان يحبه السيد المسيح، حتى أنه استودعه والدته وهو فوق الصليب- كما يعتقدون – وقد نفى فى أيام الاضطهاد الأولى، ثم عاد إلى أفسس، ولبث يبشر فيها، حتى توفى شيخا هرما .

هذه خلاصة ما جاء بكتاب مرشد الطالبين، ولكن بجوار هؤلاء من محققى المسيحيين من أنكر أن يكون كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحوارى، بل كتبه يوحنا آخر لا يمت إلى الأول بصلة روحية، وأن ذلك الإنكار لم يكن من ثمرات هذه الأجيال، بل ابتدأ فى القرن الثانى الميلادى، فإن العلماء بالمسيحية فى القرن الثانى الميلادى أنكروا نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحوارى، وكان بين ظهرانيهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحوارى، ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة، ولو كانت صحيحة لعلم بذلك حتما تلميذه بوليكارب، ولأعلم هذا تلميذه أرينيوس ، ولأعلن هذا تلك النسبة عندما شاع إنكارها . ولقد قال أستادلين فى العصور المتأخرة : إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، ولقد كانت فرقة لوجين فى القرن الثانى تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا، ولقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية التى اشترك فى تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه : «أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المزور فى متن الكتاب أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى، ووضعت اسمه على الكتاب نصا، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه

مثل بعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا، ولو بأوهى رابطة، ذلك الفلسفى - الذى ألف هذا الكتاب فى الجيل الثانى- بالحوارى يوحنا صياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى».

هذا قول بعض الباحثين من كتابهم : «ومن البدهى أن يعد المتعصبون ذلك القول خروجا على وجه المسيحية، ولذلك قال أحد هؤلاء المتعصبين، وهو الدكتور بوست رادا على هؤلاء : وقد أنكر بعض الكفار قانونية هذا الإنجيل لكراهتهم تعليمه الروحى، ولا سيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح، غير أن الشهادة بصحته كافية، فإن بطرس يشير إلى آية منه ٢ بط ١ : ١٤ قال يو ٢١ ، ١٨ ، وأغناطيوس وبوليكرس يقتطفان من روحه وفحواه، وكذلك الرسالة إلى ديوكنيتس وباسيلوس وجوستينس الشهيد وتانياس، وهذه الشواهد يرجع بنا زمانها إلي منتصف القرن الثانى، وبناء على هذه الشهادات، وعلى نفس كتابه الذي يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم بأنه من قلمه، وإلا فكاتبه من المكر والغش على جانب عظيم، وهذا الأمر يعسر تصديقه، لأن الذى يقصد أن يغش العلم لا يكون روحيا، ولا يتصل إلى علم وعمق الأفكار والصلات الموجود فيه، وإذا قابلناه بمؤلفات الآباء رأينا بينه وبينها بونا عظيما، حتى نضطر للحكم بأنه لم يكن منهم من كان قادرا على تأليف كهذا، بل لم يكن بين التلاميذ من يقدر عليه إلا يوحنا ذاته ولا يستطيع تأليفه بدون إلهام من ربه».

وإذا نظرنا إلي هذا القول نظرة فاحصة كاشفة نقسمه قسمين، قسم يعلن به الكاتب شدة إيمانه وتعصبه لما يشتمل عليه هذا الكتاب وتقديسه. وهو القسم الذى ذكره فى عجز قوله ، وهو أنه لا يستطيع أحد من الآباء بل لايستطيعه أحد من الحواريين، بل لايستطيعه الكاتب نفسه إلا بإلهام من ربه. ويلحق بهذا الجزء ما سبقه مما يماثله، فإن من الخطأ أن يعد ذلك برهنة واحتجاجا، فإنه ليس فيه أية محاولة لها، أما القسم الثانى فهو ما يصح أن يعتبر محاولة للاستدلال وهو ما ذكر فى صدر قوله، فإنه يقرر الاتفاق بين نص ما جاء فيه، ونص جاء فى رسالة بطرس الثانية، فهو يقول أن الفقرة الرابعة عشرة من الإصحاح الأول ونصها مع الفقرة التى قبلها : «١٣ - ولكنى أحسبه حقا مادمت فى هذا المسكن أن أنهضكم بالتذكرة - ١٤ - عالما أن خلع مسكنى قريب، كما أعلن ربنا يسوع المسيح أيضا» موافقة الفقرة الثامنة عشرة من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل

يوحنا ونصها : «الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تنطق ذلك، وتمشى حيث تشاء، ولكن متى شخت فإنك تمد يدك، وآخر يمنطقك، ويحملك حيث لاتشاء» .

ونحن لا نجد موافقة بين الفقرتين لا في اللفظ ولا في المعنى ، واستولى علينا العجب من ادعاء الموافقة، ولا جامع بينهما ، فظننا أن هناك خطأ فيما كتبه الدكتور بوست، وقلنا لعله يريد الرسالة الأولى لا الرسالة الثانية، فرجعنا إلى الفقرة الرابعة عشرة من الإصحاح الأول من الرسالة الأولى، فوجدنا نصها هى وما قبلها هكذا : «لذلك منطقوا أحقاء ذهنكم صاحين فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التى يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح كأولاد الطاعة، ولا تشاكلوا شهواتكم السابقة فى جهالتكم» وهنا نجد بعضا من الموافقة فى اللفظ، والموافقة فى المعنى، فرجحنا أنه أراد هذه الرسالة، وسبق قلمه فدون الثانية بدل الأولى، وعلى ذلك نناقش القول على أساسها ، وأساس المناقشة ما نعرفه من أن المتأخر إن وافق قوله من سبقه يكون قوله شهادة للسابق، ولا يكون قول السابق شهادة له، وأيهما أسبق تدوينا رسالة بطرس أم إنجيل يوحنا ، وقد اتفق مؤرخو النصرانية على أن بطرس قتله نيرون، ويقول فى ذلك ابن البطريق : «وأخذ نارون قيصر لبطرس فصلبه منكسا وقتله، لأن بطرس قال له : إن أردت أن تصلبنى فاصلبنى منكسا لئلا أتشبه بسيدى المسيح. فإنه صلب قائما » . . وعاش بطرس بعد السيد المسيح اثنتين وثلاثين سنة، فكأن بطرس قتل بعد ميلاد المسيح بنحو ٦٥ ، لأن المسيح صلب فى اعتقادهم، وله ثلاث وثلاثون سنة، يضاف إليها اثنتان وثلاثون سنة عاشها بعده بطرس. ومن المؤكد أن إنجيل يوحنا كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ على ما اعتمد الدكتور بوست، فإذا وجدنا اتفاقا بين ما كتب فى هذا الإنجيل، وما جاء فى رسالة بطرس يجب أن يكون كاتب هذا الإنجيل شاهدا لبطرس، لا أن بطرس شاهد له، وشهادة إنجيل يوحنا لاقيمة لها ، لأنها شهادة إنجيل فى نظر من أنكروه مجهول غير معروف يحتاج إلى دليل، فلا حجة فى هذا الأمر، وعلى ذلك يكون الأمر فى غيره من الشهادات وسنبين عند مناقشة كتبهم كثيرا من أوجه النقد فيها .

تاريخ تدوين هذا الإنجيل وسبب تدوينه :

٣٤ – ولقد اختلف المسيحيون فى تاريخ تدوين هذا الإنجيل اختلافا بينا . فالدكتور بوست يرجح أنه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦، ويقول هورن فى تاريخ تدوين

ذلك الإنجيل «ألف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ وسنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد» إذن فليس هناك محرر لتدوين هذا الإنجيل، كما أنه ليس هناك بيان قد خلص من الشك بحقيقة كاتبه، وقد علمت ما فى ذلك .

ولقد قالوا أنه كتب لغرض خاص، وهو أن بعض الناس قد سادت عندهم فكرة أن المسيح ليس إلها ، وأن كثيرين من فرق الشرق كانت تقرر تلك الحقيقة، فطلب إلى يوحنا أن يكتب إنجيلا يتضمن بيان هذه الألوهية، فكتب هذا الإنجيل، وقد قاله جرجس زوين اللبنانى فيما ترجمه : «إن شيرينطوس وأبيسون وجماعتهما لما كانوا يعلّمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنسانا . وأنه لم يكن قبل أمه مريم، فلذلك فى سنة ٩٦ اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح، وينادى بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون؛ وأن يكتب بنوع خصوصى لاهوت المسيح» قال يوسف الدبس الخورى فى مقدمة تفسيره : (من تحفة الجبل) أن يوحنا صنف إنجيله فى آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها ، والسبب أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح، فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله متى ومرقس ولوقا فى أناجيلهم، وقال صاحب مرشد الطالبين أنه لا يوجد اتفاق بين العلماء بضبط السنة التى فيها كتب يوحنا إنجيله، فإن بعضهم يزعم أنه كتبه فى سنة ٦٥ قبل خراب أورشليم، وآخرون ممن يوجد فيهم بعض الأقدمين يرون بكتابته فى سنة ٩٨ ، وذلك بعد رجوعه من المنفى، فالمقصد بكتابته إبقاء بعض مسامرات المسيح الضرورية ذات التروى مما لم يذكره باقى الإنجيليين، وإفناء لبعض هرطقات مفسدة، أشهرها معلمون كذبة فى شأن ناسوت المسيح وموته، وخاصة ترسيخ النصارى الأوائل فى الاعتقاد بحقانية لاهوت وناسوت ربهم وفاديهم ومخلصهم، وقد قيل أن يوحنا لم يؤلف إنجيله إلا بعد صلاة عامة قلبية مع التبعية لأجل أن يوحيه الروح القدس بذلك .

ما يستنبط من سبب كتابته :

٣٥ — من هذه النقول يستفاد أن كتاب النصارى يجمعون أو يكادون على أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا كتب لإثبات ألوهية المسيح التى اختلفوا فى شأنها، لعدم وجود نص فى الأناجيل الثلاثة يعلنها . وهنا لا يسع القارئ لتلك النقول إلا أن يستنبط أمرين : (أحدهما) صريح وهو أن الأناجيل الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على ألوهية المسيح، أو

هى كانت كذلك قبل تدوين الإنجيل الرابع على الأقل، وهذه حقيقة يجب تسجيلها، وهى أن النصارى مكثت أناجيلهم نحو قرن من الزمان ليس فيها نص على ألوهية المسيح، (وثانيهما) أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذى يدل عليها، ويصرح بها، ولما أرادوا أن يحتجوا على خصومهم، ويدفعوا هرطقتهم فى زعمهم لم يجدوا مناصا من أن يلتمسوا دليلا ناطقا يثبت ذلك، فاتجهوا إلى يوحنا، فكتب كما يقولون إنجيله الذى يشتمل على الحجة وبرهان القضية، والبينة فيها، على زعمهم، وهذا ينبئ عن أن الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجود نص فى الكتب عليه، وإلا ما اضطروا اضطرارا إلى إنجيل جديد طلبوه، افتقدوه فلما لم يجدوا طلبوا من يوحنا أن يكتبه. ولكن الواقع أن رسائل الرسل التى كتبت فى قولهم قبل هذا الإنجيل، فيها ما ينبئ عن ألوهية المسيح، ويعلنها، أفلم تكن فيها حجة لا تجعلهم فى حاجة ماسة إلى إنجيل جديد، وفيها غناء من البيان يغنيهم عن سواه؟ أم لعل تلك الرسائل المشتملة على هذه الألوهية كتبت بعد هذا الإنجيل ليؤيده بها، وليثبت ما أتى به، ويرسخ فى نفوس المسيحيين، ثم نسبت إلى السابقين .

هذا تنبيه مجمل اضطرنا سياق البحث لبيانه قبل أوانه، وفى غير مكانه، وله فى البحث موضع، يغنى فيه الإجمال عن التفصيل .

هذه الأناجيل لم تنزل على عيسى عليه السلام :

٣٦ – هذه هى الأناجيل التى ذكرناها كما كتب النصارى، لا كما يعتقد غيرهم. وسنلقى عليها نظرة علمية بعد الكلام فى بقية الكتب، ولكن يجدر بنا هنا أن ننبه إلى أن هذه الأناجيل ليست نازلة على عيسى عليه السلام فى نظرهم، وليست منسوبة له ولكنها منسوبة لبعض تلاميذه، ومن ينتمى إليهم، وهى تشتمل على أخبار المسيح وقصصه، ومحاوراته، وخطبه، وابتدائه ونهايته فى الدنيا كما يعتقدون هم .

إنجيل عيسى :

ولكن هل هناك إنجيل غيرها يعد إنجيل عيسى، وهل فى كتابات الباحثين من النصارى ما يدل على ثبوت هذا الإنجيل، وإن كنا لانجده !

نجد في هذه الأناجيل عبارات تذكر كلمة إنجيل أو بشارة (وهي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية) مضافة أحيانا إلى المسيح على أنه ابن الله ، وأحيانا إلى الله ، وأحيانا إلى ملكوت الله ، فنرى مثلا في إنجيل متى في الإصحاح الرابع منه ما نصه: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض، وكل ضعف في الشعب»، وبشارة الملكوت هي ترجمة كلمة إنجيل باليونانية، ونرى في إنجيل مرقس في الإصحاح الأول منه : «وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول : قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» وجاء في رسالة بولس إلى أهل رومية في الإصحاح الأول منها » أولا أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة جميعكم، أن إيمانكم ينادى به في كل العالم فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم . . . » .

ويجئ في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس في إصحاحها التاسع : «بصرت الضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء، صرت للكل كل شئ لأخلص على كل حال قوما، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل، لأكون شريكا فيه» ففي هذا كله نجد كلمة إنجيل أو كلمة بشارة (وهي ترجمة كلمة إنجيل اليونانية) مضافة إلى ملكوت الله، كما في إنجيل متى ومرقس، وإنجيل الابن كما في رسالة بولس إلى أهل رومية، وكلمة الإنجيل من غير إضافة كما في إنجيل مرقس، ورسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى، ولا شك أن الإنجيل المذكور في كل هذا ليس واحدا من هذه الأناجيل لأنها لاتضاف إلا إلى أصحابها باتفاق النصارى، ولأن المسيح قد وعظ بهذا الإنجيل، كما جاء في عبارة متى التي نقلناها، ولم يكن واحد من هذه الأناجيل قد وجد في عهده بالاتفاق، وليس من المعقول أن يعظ بأقوال تلاميذه، وهم بعد لا يزالون في دور التعلم، ولأن هذا الإنجيل قد ذكر في هذه الأناجيل على أنه كان قائما في عهد عيسى، ولأنه ذكر من غير نسبة كما في إنجيل مرقس ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، وليس واحد من هذه الأربعة تنصرف إليه كلمة إنجيل من غير نسبته إلى صاحبه، ولأنه ذكر في رسالة بولس إلى أهل رومية منسوبا إلى المسيح الابن . وليس واحدا من هذه الأناجيل يستحق هذا الاسم . لهذا كله نقول : ليس هذا الإنجيل واحدا منها كما تقضي بذلك طبيعة السياق، وكما يقضي بذلك العقل، وإذا كان الأمر كذلك، فهل لنا أن نفهم أن هناك إنجيلا أصيلا نزل على عيسى وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ، ويعتبر الأصل لهذه الديانة ؟.

أقوال علماء النصرانية فى إنجيل عيسى :

ولقد يمهد لذلك الرأى، ويرشح له - أننا وجدنا من مؤرخى المسيحية الأحرار الذين لم يقيدهم فى بحثهم إلا العلم والحقائق التاريخية من يصرحون بأنه كانت فى القرن الأول رسالة تعتبر أصلا لهذه الأناجيل فيما جاء به المسيح، وخلاصة أحواله، وهذا ترجمة ما قاله نارتن فى كتاب له : «قال أكهارن فى كتابه : إنه كان فى ابتداء الملة المسيحية فى بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال أنها هى الإنجيل الأصلى، والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم، ولم يروا أحواله بأعينهم . وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب » .

إذن فهؤلاء الأحرار يقرون أنه كان هناك إنجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب، ولكنه غير موجود، فهل لنا أن نقول أن ذلك الإنجيل هو المشار إليه فى أقوال متى، ومرقس، وبولس السابقة، وهو الذى نزل على عيسى، أهو إنجيله وإنجيل الله ؟ ليت، وهل ينفع ليت، ليت هذا الإنجيل قائم، وحرصت الكنيسة على بقائه، وقامت بحياطته ليكون فيصلا بين المختلفين، وحكما بين الفرق والمفترقين، وليكون قسطاس المجامع القديمة والحديثة التى حكمت حين الانشقاق، وليكون مصدرا علميا لمن يكتب فى المسيحية الأولى . ويتبعها فى مدارجها فى أحقاب الزمن وملابسات التاريخ .

إنجيل برنابا :

٣٧ - لقد كتبنا خلاصة ما بينه المسيحيون فى أناجيلهم الأربعة، واستنبطنا من نصوصها ما يدل على وجود إنجيل أصيل، هى منه الفرع من الأصل، على أن فى ذلك كلاما قد طويناه إلى موضعه من القول، وقد أيدنا فى استنباطنا بعض الأحرار المسيحيين واستنبطوا قريبا مما استنبطنا، وقبل أن نغادر الكلام فى الأناجيل إلى الكلام فى الرسائل يجدر بنا أن نتكلم فى إنجيل جديد قد كشف عنه البحث العلمى، وقد حمل من الأمارات ما يدل على أنه فى نشأته يمتد إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحى، وأبعد أغواره، وهو يشبه الأناجيل القائمة فى أنه قصة المسيح من ولادته إلى اتهامه . ويحكى محاوراته، ومناقشاته وخطبه، ولكن الكنيسة لم تعترف به وأنكرته، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا،

ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية، وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية، والاهتمام، ولم يمنعهم من ذلك إنكار الكنيسة له . ذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا، ومن الحق علينا أن ندرسه، ونعرف رأى المسيحيين فيه، وما يؤدى إليه النظر العلمى من غير افتيات عليهم ولاتهجم ، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من إملاء عقيدة على القوم فى دينهم .

برنابا :

٣٨ - جاء ذكر برنابا فى رسالة أعمال الرسل التى ينسب تدوينها إلى لوقا . فقد جاء فى الإصحاح الرابع من تلك الرسالة: «ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ : وهو لاوى قبرصى الجنس، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم، ووضعها عند أرجل الرسل» وجاء فى الإصحاح التاسع عند الكلام عن إيمان شاول - وهذا هو الذى اشتهر بعدئذ باسم بولس الرسول - أن برنابا هو الذى شهد له بالإيمان، وهذا نص ما جاء فيه : «ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ . وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل . وحدثهم كيف أبصر الرب فى الطريق . وأنه كلمه، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع» ولقد ذكر ذلك السفر أيضا أنه كانت ترسله الكنيسة للوعظ والهداية، وفى الإصحاح الحادى عشر : «فسمع الخبر عنهم فى أذن الكنيسة التى فى أورشليم. فأرسلوا برنابا لكى يجتاز إلى أنطاكية، الذى لما أتى، ورأى نعمة الله فرح ووعظ أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب . لأنه كان رجلا صالحا، وممتلئا من الروح القدس والإيمان، فانضم إلى الرب جمع غفير، ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول، ولما وجده جاء به إلى أنطاكية . . . »، ويزعمون أن الروح القدس خاطبه واختصه بالخطاب هو وبولس (شاول) من بين الأنبياء والمعلمين، فقد جاء فى الإصحاح الثالث عشر من رسالة الأعمال : «وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون: برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر، ولوكيوس القيروانى، ومنابن الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع، وشاول .

وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس : افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى ثم أطلقوهما، فهذان إذ أرسلا من الروح القدس انحدرا إلى سلوكية، ومن هناك سافرا فى البحر إلى

قبرص . ولما سارا فى سلاميس ناديا بكلمة الله فى مجامع اليهود . وكان معهما يوحنا خادما» وقد استمر برنابا وبولس مصاحبين فى التبشير بالديانة المسيحية فى قبرص . وحدثت على أيديهما المعجزات، حتى زعم أنهما إلهان . وجاء فيه عن بيان وقع الخبر عليهما: فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما، واندفعا إلى الجمع صارخين وقائلين . «أيها الرجال لماذا تفعلون هذا ؟ نحن بشر تحت آلام مثلكم، نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحى الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، الذى فى الأجيال الماضية ترك جميع الأمم ، مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد» .

ومن هذا كله يتبين أن رسالة الأعمال تشهد أن برنابا كان من الرسل فى اعتقادهم الذين أخلصوا للدعوة إلى المسيحية، حتى باع كل ما يملك، وألقى بثمنه بين أيدى الرسل يتصرفون به فى سبيل نشر الدعوة، وينفقونه فى حاجات الجميع . وأنه هو الذى شهد لبولس بالإيمان . وأن الكنيسة أرسلتهما مبشرين بالمسيحية فى قبرص بعد أن أرسلت برنابا وحده إلى أنطاكية، وأن برنابا كان رجلا صالحا ممتلئا من الروح، وأن الروح القدس خصه بعناية من بين الرسل والمعلمين كما يعتقدون .

وينص بولس فى رسالته إلى أهل كولوسى فى إصحاحها الرابع على أن مرقس صاحب الانجيل ابن أخت برنابا . فيقول : «يسلم عليكم أرسترخص المأسور معى، ومرقس ابن أخت برنابا الذى أخذتم لأجله إن أتى إليكم فاقبلوه» .

ولقد كان مرقس هذا يصاحب خاله وبولس فى سفرهما للدعاية والوعظ . ولقد افترقا بسبب إرادة برنابا أن يصحبهما ابن أخته فى الطواف فى المدن التى سبقت إليها الدعاية، ومخالفة بولس لذلك، ولذلك جاء فى رسالة الأعمال فى إصحاحها الخامس عشر ما نصه :«ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا : لنرجع ونفتقد إخواننا فى كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب، كيف هم؟ فأشار برنابا أن يأخذ معهما أيضا يوحنا الذى يدعى مرقس؛ وأما بولس فكان يستحسن أن الذى فارقهما من بمفيلية، ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما، فحصل بينهما مشاجرة، حتى فارق أحدهما الآخر، وبرنابا أخذ مرقس وسافر فى البحر إلى قبرص، وأما بولس فاختار سيلا، وخرج مستودعا من الإخوة إلى نعمة الله» .

ولقد أشرنا إلى الصلة بين برنابا ومرقس صاحب الإنجيل عند الكلام فى إنجيل

مرقس، ونقلنا من كتب المسيحيين ما يدل على أن مرقس هذا، وهو حجة عندهم باتفاق، كان ينكر ألوهية المسيح، هو وأستاذه بطرس، وقد نقلنا عن مروج الأخبار فى تراجم الأبرار ما يدل على ذلك .

هل برنابا من الحواريين الاثنى عشر :

٣٩ – هذا هو برنابا . قديس من قديسى المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم، وركن من الأركان التى قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى، وقد وجد إنجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى إليه، والتقرب منه، وملازمته فى سرائه وضرائه، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الإنجيل لاتعده من هؤلاء الحواريين وإن كانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح ، ومهما يكن من شئ فى هذا الأمر، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم، فإن برنابا حجة عند المسيحيين، وهو من الملهمين فى اعتقادهم، فإن صحت نسبة هذا الإنجيل إليه كان ما يشمله حجة عليهم، يدعوهم إلى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم، ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصور والتصديق، وأصح سندا ، وأقرب بالمسيحية الأولى رحما .

فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت فى العصر الحديث .

اتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية، عثر عليها كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا، وذلك فى سنة ١٧٠٩. وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ إلى البلاط الملكى بفينا ، وكانت تلك النسخة هى الأصل لكل نسخ هذا الإنجيل فى اللغات التى ترجم إليها .

ولكن فى أوائل القرن الثامن عشر، أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية وجدت نسخة أسبانية ترجمها المستشرق سايل إلى اللغة الإنجليزية، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها إلا شذرات أشار إليها الدكتور هوايت فى إحدى الخطب، وقد قيل أن الذى ترجم النسخة الأسبانية إلى تلك اللغة مسلم نقلها من الإيطالية إلى الأسبانية .

ولقد رجح المحققون أن النسخة الإيطالية هى الأصل للنسخة الأسبانية، وذلك أنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذى كشف النقاب عن النسخة الأسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها، فيقول : «أنه عثر على رسائل لإيريانوس وفيها رسالة يندد

فيها بما كتبه بولس الرسول، ويسند تنديده إلى إنجيل برنابا، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن إنجيل برنابا . وقد وصل إلى مبتغاه لما صار أحد المقربين إلى البابا سكتس الخامس، فإنه عثر على ذلك الإنجيل فى مكتبة هذا البابا، فأخفاه بين أردانه، وطالعه، فاعتنق الإسلام» ويظهر أن تلك النسخة هى نفس النسخة التى عثر عليها سنة ١٧٠٩ .

ويقول فى ذلك الدكتور سعادة مترجم الإنجيل إلى العربية : «إذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر» وقد علمت مما مر بيانه أن نوع الورق الذى سطر فيه إنما هو ورق إيطالى يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التى فيه، والتى يمكن اتخاذها دليلا صادقاً على تاريخ النسخة الإيطالية والتاريخ الذى يحدسه العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر، والسادس عشر، وعليه فمن الممكن أن تكون النسخة الإيطالية هى عينها التى اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على مامرت الإشارة إليه .

الكلام فى صحة تسمية هذا الإنجيل :

٤٠ – أقدم نسخة معروفة إذن هى النسخة الإيطالية التى عثر عليها فى فجر القرن الثامن عشر، ولكن وجودها يمتد إلى منتصف القرن الخامس أو أول القرن السادس عشر، وقد وجدت فى جو مسيحى خالص، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم .

فأول من عثر عليها فى خزانة كتبه رئيس دينى خطير، وكاشفها راهب، ولما تداولتها الأيدى انتقلت إلى مستشار مسيحى من مستشارى ملك بروسيا، ثم آلت إلى البلاط الملكى بفيينا فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم، وهى منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواه، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود إنجيل له أمراً معروفاً بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول إنه اطلع على رسالة لأريانوس يستنكر ما كتب بولس مستشهداً على استنكاره بإنجيل برنابا .

ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة – كما أشرنا من قبل، ويقول الدكتور سعادة : «يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية يعدد فيها أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها، وفى عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا ، ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه إنما هو برمته تزوير » .

ولكن التاريخ أصح وأصدق من قول هؤلاء العلماء ، وإن كانوا محققين، فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة أناجيل كثيرة . فإذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه، وجرى على سنته من بعده أخلاف، وإذا صح ذلك الأمر - كما يشهد التاريخ، وكما تنبئ عنه المقدمات والنتائج ، فإن إنجيل برنابا كان معروفاً متداولا قبل النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من قرنين .

وزعم الدكتور سعادة بأنه لو كان معروفاً فى ذلك الإبان لعرفه النبى صلى الله عليه وسلم واحتج به، أو أخذ منه - زعم باطل - لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يقم فى البلاد التى سادتها المسيحية آماداً تمكنه من المعرفة والاطلاع، ولأن مضى قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج أثره، فيختفى ما كان ذائعاً، ويدفن ما كان معلوماً مشهوراً، فمائتان من السنين تكفى لطمس الموجود، وتعفية آثار المفقود .

وأن المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الإنجيل أخباراً دقيقة عن التوراة، حتى لقد يقول الدكتور سعادة: «إنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلماما عجيباً بأسفار العهد القديم لاتكاد تجد لها مثيلا بين طوائف النصارى إلا فى أفراد قليلين من الأخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين، كالمفسرين، حتى أنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا» .

ترجيح صدق النسبة فى هذا الإنجيل :

٤١ - هذه بينات شاهدة - وإن لم تبلغ اليقين والجزم - بأن نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة، لأنه وجدت نسخته الأولى فى جو مسيحى خالص، وكان معروفاً قبل ذلك بقرون أن لبرنابا إنجيلا، وهو يدل على أن كاتبه على إلمام تام بالتوراة التى لا يعرفها الرجل المسيحى غير الاختصاصى فى علوم الدين، بل يندر من يعرفها من المختصين، وأن برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا فى الدعوة عملا لايقل عن عمل بولس، كما تذكر رسالة أعمال الرسل، فلابد أن تكون له رسالة أو إنجيل .

هذه بينات تشهد بأن الإنجيل الذى كشف وعرف صحيح بالنسبة، ليس للمسلمين يد فيه، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل فى يده شيئاً يظن فى حمله اتهاماً له . فيسند ملكيته إلى غيره نفياً للتهمة عن نفسه . فهل يقبل منه ذلك النفى من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاماً له ؟ وهل يقر القضاء ذلك النفى ؟ .

قد يقول قائل : إن هذه البينات كلها مرجحة وليست يقينية، ونحن نقول أن أكثر مسائل التاريخ ترجيح، وليست يقينية جازمة، فإذا كانت نسبة إنجيل برنابا إليه ظنية تقبل الاحتمال فإنا نأخذ بذلك الظن، لأنه المأخذ فى أكثر مسائل التاريخ، والاحتمال الذى لا ينشأ عن دليل لا يلتفت إليه، بجوار الاحتمال الناشئ عن دليل، ووجود ذلك الإنجيل بلغة مسيحية وبين ظهرانى المسيحيين، وفى مكاتبهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد فى إنشائه .

ولكن زعم بعضهم أن أصله عربى، وهو زعم ليس له دليل، وعلى مدعى ذلك الأصل أن يبرزه، ويبين تاريخ تدوينه، ومقدار نسبته .

ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربى بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح فى التبشير باسم النبى، مع أن المعهود فى البشارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الأول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها لأنه مستقيم التعبير أحياناً قليلة، وسقيم العبارة فى أحيان كثيرة، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامى، ولا يتخذ من صلبه الإيطالى دليلا على أصله المسيحى .

أما كون التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم صريحاً فيه وليس بتلميح فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات فى الكتب الدينية تلميح . نعم بعضها رمز وتلميح، وليس معنى ذلك نفى الصريح، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح، فالنص الإيطالى الذى بين أيدينا ترجمة لا نص، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى، فلم يسعفه فى لغته التلميح، فنطق بالتصريح كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبرى .

ومن المؤكد أن ذلك الإنجيل لم يكن معروفاً عند المسلمين فى غابرهم وحاضرهم، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة فى كل العصور، ولم يعرف أن أحداً احتج على مناظره المسيحى بهذا الإنجيل . مع أن فيه الحجة الدامغة التى تفلج المسلم على المسيحى، فدعوى وجود نسخة عربية كانت هى الأصل للنسخة الإيطالية، فوق أنها لادليل عليها مطلقاً، ولو بطريق الوهم – هى تناقض أخبار التاريخ الإسلامى مناقضة تامة، وإلا

احتج المجادل عن الإسلام بها، ففيها أقوى دليل، والتاريخ لم يحفظ ذلك، وهذى سجلاته ليستنبطوها، وليعرفوا دخائلها، فلن يجدوا شيئاً يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .

قيمة إنجيل برنابا من حيث ما اشتمل عليه :

٤٢ – وإنجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير، وسمو التفكير، والحكمة الواسعة، والدقة البارعة، والعبارة المحكمة، والمعنى المنسجم، حتى أنه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة من الدرجة الأولى، لسمو العبارة وبراعة التصوير .

ولماذا أنكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لاتقل عن قوة النسبة فى كتبهم الأربعة كما ذكرنا، إن لم تكن أقوى؟ الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة .

ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين، لتعرف أى الكتب أقرب نسباً بالمسيحية الأولى، أذلك الإنجيل بما خالف، أم الرسائل والأناجيل التى توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار . كما سبق أسلافهم إلى إنكاره من قبل .

مخالفة إنجيل برنابا لما عليه المسيحيون :

والأمور التى خالف ذلك الإنجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص فى أربعة أمور :

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلهاً، وقد ذكر ذلك فى مقدمته فقال : «أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذى أمر به الله دائماً، مجوزين كل لحم نجس، الذى ضل فى عدادهم أيضاً بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته» .

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن أن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله، فاضطررت بسبب الشعب إلى أن آتى

هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فنرجو من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التى ثارت بسببك، لأن فريقاً يقول إنك الله، وآخر يقول إنك ابن الله، ويقول فريق إنك نبى . فأجاب يسوع : «وأنت يارئيس الكهنة . لماذا لم تخمد الفتنة ، وهل جننت أنت أيضاً، وهل أمست النبوات ، وشريعة الله نسياً منسياً، أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان» ولما قال يسوع هذا عاد فقال : «إنى أشهد أمام السماء، وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برئ من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر، لأنى بشر مولود من امرأة، وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام» .

ويقول فى الفصل السبعين : «أجاب يسوع : وما قولكم أنتم فى ؟ أجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله . فغضب حينئذ يسوع . وانتهره بغضب قائلا : اذهب . وانصرف عنى، لأنك أنت الشيطان، وتريد أن تسئ إلى» .

(الأمر الثانى) : أن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو إسماعيل ، وليس بإسحق، كما هو مذكور فى التوراة، وكما يعتقد المسيحيون، هذا نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : «الحق أقول لكم أنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلموا خبث كتبتنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : «ياإبراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله . حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : ها هو عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا : «خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة» . فكيف يكون إسحق البكر، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين .

(الأمر الثالث) : هو كما يقول الدكتور سعادة «بك» : أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع، بل محمد . وقد ذكر محمدا باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول، وقال أنه رسول الله، وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور «لاإله إلا الله محمد رسول الله» ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا : «إن الآيات التى يفعلها الله على يدى تظهر أنى أتكلم بما يريد الله، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه، لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى . وسيأتى بعدى بكلام الحق . ولا يكون لدينه نهاية»

وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاماً وافياً فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به . فصرح بما يعلن حقيقته، ويبين ماله من شأن .

(الأمر الرابع) : أن هذا الإنجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب، ولكن شبه لهم، فألقى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطى، ويقول فى ذلك برنابا : « الحق أقول أن صوت يهوذا ، ووجهه، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع، كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع، معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً، وأن الآيات التى فعلها بصناعة السحر، لأن يسوع قال أنه لايموت إلى وشك انقضاء العالم، لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم» .

ثم يبين أن يسوع طلب إلى الله أن ينزل إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه، فنزل بعد ثلاثة أيام .

ثم يقول : «ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات. وقام قائلا : أتحسبوننى أنا ؟ والله كاذبون، لأن الله وهبنى أن أعيش، حتى قبيل انقضاء العالم، كما قد قلت لكم، الحق أقول لكم أنى لم أمت، بل يهوذا الخائن، احذروا، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم، ولكن كونوا شهودى فى كل إسرائيل، وفى العالم كله، لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها».

٤٣ – هذا هو إنجيل برنابا ، وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية : وفى الحق أنه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها، فإن تلك المسيحية امتازت بالتثليث، وبنوة المسيح وألوهيته، وكان هذا شعارها الذى به تعرف، وعلامتها التى بها تتميز، وقد خالف كل هذا، وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهرى ثابتة – وهو ينسب إلى قديس من قديسيهم – فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرانى المسيحيين وفى مكاتب من لايتهمون بالكيد للمسيحية، ومن لا يتهمون بأنهم لايرجون لها وقاراً – رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضاً باتاً، مادام قد أتى بما لا يعرفونه هم، ولايعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية، ينتهون فيها إلى نقضه جملة، أو قبوله جملة، أو قبول بعضه، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده، ومتنها أقرب إلى العقل والفكر من متنه .

ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلهم، بل بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ومما هو مشهور عند المسلمين .

ومن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية، أن تعنى الكنيسة بدراسته، ونقضه، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض، وتوازن بين ما جاء فيه وما جاء فى رسائل بولس، ليعرف القارئ والباحث أيهما أهدى سبيلا، وأقرب إلى الحق، وأوثق به اتصالا .

رسائل رسلهم

٤٤ - انتهينا فى كلامنا السابق إلى ذكر الأناجيل وعرضها، كما يقول المسيحيون، وكنا فى ذلك ناقلين، ولم نعن فى ذلك بالنقد، فإن لذلك موضعه.

والآن ننتقل إلى القسم الثالث من مصادر المسيحية، وهو رسائل رسلهم، ويسمونها - ما عدا رسالة أعمال الرسل - الأسفار التعليمية، كما يسمون الأناجيل ورسالة أعمال الرسل الأسفار التاريخية، لأن الأناجيل تعنى بشرح حياة السيد المسيح وحكاية أحواله، وبعض أقواله ومواعظه، أما الرسائل فإنها تعنى بالناحية التعليمية التى تبين بها الديانة .

عدد الرسائل وكاتبوها :

والرسائل اثنتان وعشرون رسالة : الأولى وتسمى أعمال الرسل، وتنسب إلى لوقا صاحب الإنجيل، وأربع عشرة كتبها بولس، وهى رسالة أهل رومية وكورنثوس الأولى والثانية، وغلاطية، وأفسس، وفيليبى، وكولوسى، وتسالونيكى الأولى والثانية، وتيموثاوس الأولى والثانية، وتيطس، وفيلمون والعبرانيين، ورسالة كتبها يعقوب ، ورسالتان كتبهما بطرس، وثلاث كتبها يوحنا، ورسالة كتبها يهوذا .

وهناك غير الاثنتين والعشرين ، رسالة أخرى يسمونها السفر النبوى، وهى رؤيا يوحنا ، وهذه الرسالة فى منحاها ومنهجها تخالف الرسائل السابقة، فبينما الرسائل السابقة وعظية وتعليمية فى جملتها، وتتعرض كثيرا لذكر بنوة المسيح، وتخليصه للعالم من خطيئته، تجد رسالة رؤيا يوحنا اللاهوتى؛ تعنى ببيان ألوهية المسيح وسلطانه فى السماء وعلمه بحال الكنيسة والقوامين على المسيحية من بعده، وهى تارة تصور الإله فى عليائه كشيخ أشيب يشبه المسيح متمنطقا عند ثدييه بمنطقة من ذهب ، وعيناه كلهب نار ، وفى يده سبعة كواكب، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فيه، (راجع الإصحاح الأول من الرؤيا) .

وتارة تصور المسيح خروفا قائما كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين، (راجع الإصحاح الخامس) .

وتبين أن الناس يعرضون أمام الإله والمسيح، ويخرجون ساجدين، ثم تصور الملائكة وأحوالهم وأعمالهم ، وهكذا . . . . .

فهى رسالة تشرح سلطان المسيح فى الملكوت وتبين أحوال الملائكة وخضوعهم للمسيح ولله .

٤٥ – وهذه الرسائل تشرح المسيحية الحاضرة بأكثر من الأناجيل، وقد كتبت جميعها باليونانية، كما يقول مؤرخوهم، وللباحثين كلام كثير فى شأن الرسائل، وقوة سندها، وقيمتها من حيث الاستدلال لهذا الدين، ولكنا نرجئ القول فى ذلك إلى الكلام فى نقد مصادر المسيحية نقدا علميا، ونكتفى الآن بعرضها وذكرها، محوطة بهالة من تقديسهم، ومكلوءة بتقديرهم .

وقد ذكرنا موجزا لتاريخ يوحنا، وعرفنا القارئ به، وهو صاحب الرؤيا، وثلاث رسائل، وبينًا لوقا ، وهو صاحب رسالة أعمال الرسل ، فلنعرف الآن بكلمات موجزة القارئ ببطرس صاحب الرسالتين، ويعقوب ويهوذا، ولكلٍّ رسالة، وبولس وله أربع عشرة كما ذكرنا .

فبطرس من حواريي المسيح، وكان اسمه الأصلي سمعان، وكان صياد سمك، وقد جال بعد المسيح للتبشير، فذهب إلى أنطاكية وغيرها، ثم ذهب إلى رومة سنة ٦٥ فقبض عليه وزج فى السجن، وحكم عليه بالموت صلبا فى زمن نيرون على مانوهنا . وقد طلب أن يصلبوه منكسا حتى لايتشبه بالمسيح .

وقد علمت أن صاحب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار يخبر أن بطرس وتلميذه مرقص صاحب الإنجيل الذى كان يعبر عنه بابنه كلاهما كان ينكر ألوهية المسيح .

ترجمة يعقوب صاحب الرسالة :

٤٦ – ويعقوب صاحب الرسالة هو يعقوب بن زبدى الصياد، أخو يوحنا، وكان حواريا كأخيه، ويقولون : إنه أول أسقف لكرسى أورشليم، ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية: «كان لشهرته بالطهارة يعرف بيعقوب البار. وقد اغتاظ منه رؤساء اليهود، فحكموا عليه بالموت فى مجمعهم، فمات رجما سنة ٦٢ وكان قد كتب رسالته سنة ٦١» .

ترجمة يهوذا :

٤٧ – أما يهوذا ، وهو حوارى، ويقولون أنه يدعى لباوس، ولقب تداوس وهذا هو الاسم الذى ذكر فى إنجيل متى. ولكن إنجيل برنابا يقرر أن يهوذا غير يهوذا

الأسخريوطى الذى شهد على المسيح وخانه، وغير تداوس، ويقولون : أنه أخو يعقوب الصغير، وعلى هذا يكون لزبدى الصياد ثلاثة من الحواريين، ولكن متَّى لما ذكر يعقوب ويوحنا ذكر أمامهما أنهما ولدا زبدى الصياد، ولم يذكر أمام تداوس !! وعلى أية حال فليهوذا هذا رسالة منسوبة إليه، وقد قالوا أنه مات شهيدا ببلاد العجم .

ترجمة بولس :

٤٨ – بولس : ولننتقل الآن إلى الكلام فى بولس والتعريف به، وإن لبولس هذا لشأنا فى المسيحية؛ فهى تنسب إليه أكثر مما تنسب لأحد سواه، فرسالته هى التى شرحتها، وقد كان بنشاطه الجم، وتطوافه فى الأقاليم مشرقا ومغربا، لا يستقر فى مكان على نية الإقامة فيه، بل على قصد فى الرحيل إلى غيره – أشد دعاتها، وقد تأثر المسيحيون خطاه، وتعرفوا أخباره وأقواله، ما دونه منها فى رسالته، وما ألقاه فى الجموع وتناقلوه، وإن لم يدونه هو، وتأثروا أعماله فاحتذوا حذوه، وسلكوا مسلكه، واعتبروه القدوة الأولى، فلابد إذن من العناية بتاريخه لنتعرف أكانت منزلته فى المسيحية الأولى ، كمنزلته فى المسيحية الحاضرة، حتى يصلح أن يكون حلقة الاتصال بينهما، وناقل الأولى إلى أهل الثانية، ولنتبين أنه صادق النقل، حتى تكون الأولى والثانية شيئا واحدا، وليستا شيئين مختلفين .

وإنا فى حكاية بدايته ونهايته نعتمد على المصادر المسيحية وحدها، كسنتنا فيما أسلفنا من القول، حتى لا نتزيد عليهم، ولكى نعرض الرجل كما هو عندهم .

فى سفر أعمال الرسل تفصيل لحياة بولس، وقد أخذت أعماله من ذلك السفر الشطر الأكبر . وقد جاء فيه أن مولده كان فى طرسوس، وتربى فى أورشليم، واسمه الأصلى شاول. وهذا نص الفقرة الثالثة من الإصحاح الثانى والعشرين حكاية عنه : «أنا رجل يهودى ولدت فى طرسوس كيليكية، ولكن ربيت فى هذه المدينة» (أورشليم) .

ولقد جاء أنه من الفريسيين الذين يقولون أن هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح فى الدنيا ، فقد جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين : «ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون، والآخرون فريسيون، صرخ فى المجمع : أيها الرجال الإخوة أنا فريسى ابن فريسى على رجاء قيامة الأموات . أنا أحاكم» .

ونجد كتّاب المسيحية متفقين على أنه من اليهود، ولكن جاء في سفر أعمال الرسل أيضا ما يدل على أنه روماني، ففي آخر الإصحاح الثاني والعشرين منه ما نصه : «فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائه الواقف : أيجوز لكم أن تجلدوا إنسانا رومانيا غير مقضى عليه، فإذ سمع قائد المائة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلا : انظر ما أنت مزمع أن تفعل ، لأن هذا الرجل روماني. فجاء وقال له : قل لي أنت روماني ؟ فقال : نعم . فأجاب الأمير : أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية، فقال بولس: أما أنا فقد ولدت فيها . وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه، واختشى الأمير لما علم أنه روماني، لأنه قيده».

وهذان بلا ريب نصان متعارضان، لعل أرجحهما أنه يهودي، لأنه ذكر أنه روماني عندما رأى أن جسمه سيكوى بالسياط، فأعمل الحيلة ، عساه يجد مخرجا، فادعى أنه روماني لينجو جلده، وقد تم له ما أراد بتلك الحيلة التي احتالها في انتسابه، وأصر عليها عندما روجع فيها .

ولكن لو اتخذنا من قرائن الأحوال دليلا على كذب ادعائه الرومانية، وأنه قالها خلاصا واحتيالا لورد مثل ذلك عندما قال أنه يهودي، لأنه كان يخاطب جمعا يهوديا عمل للقبض عليه .

ولقد صرح في سفر الأعمال أنه قال أنه فريسي ليوقع الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين، فقد جاء فيه عند ذكر إقراره بأنه فريسي. ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون والآخر فريسيون، إلخ . فهو ما صرح بهذا التصريح إلا ليوقع الفرقة بينهم، وينجو من كيدهم بتدبير فريق منهم .

رقد تم له بعض ما أراد ، فاختلفوا وجرى بينهم نزاع شديد، كما دلت على ذلك الفقرات التي ذكرت من بعد في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الأعمال، وإذن فلا نستطيع أن نستبين جنسه من هذا على وجه تطمئن إليه النفس .

٤٩ – ومهما يكن من أمر جنسه، فقد كان بولس هذا في صدر حياته من أشد أعداء المسيحية، وأبلغهم كيدا لها، وأكثرهم إمعانا في أذى معتنقيها ، كما يدل على ذلك ما جاء في سفر الأعمال في مواضع كثيرة منه .

ففى الإصحاح الثامن منه : «وحدث فى ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التى فى أورشليم، فتشتت الجميع فى كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل، وحمل رجال أتقياء استفانوس، وعملوا عليه مناحة عظيمة، وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت، ويجر رجالا ونساء، ويسلمهم إلى السجن» .

وجاء فى أول الإصحاح التاسع : «أما شاول فكان لم يزل ينفث تهددا وقتلا على تلاميذ الرب فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا فى الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم» .

ويجئ فى ذلك السفر أيضا اعترافه الصريح بذلك الماضى فى مواضع متعددة، فمنها ما جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين مخاطبا اليهود: «كنت غيورا لله، كما أنتم جميعكم اليوم، واضطهدت هذا الطريق، حتى الموت ، مقيدا ومسلما إلى السجون رجالا ونساء، كما يشهد لى أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للإخوة إلى دمشق، ذهبت لآتى بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكى يعاقبوا» .

ولكن سفر الأعمال يقول أن ذلك الرجل الذى كاد للمسيحية هذا الكيد وآذى أهلها ذلك الإيذاء، قد انتقل من الجبت والطاغوت إلى المسيحية فجأة من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال، ولا تمهيدات مهدت له .

فيقول فى الإصحاح التاسع : «فى ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق، فبغته أن برق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض، وسمع صوتا قائلا له : شاول. شاول . لماذا تضطهدنى ؟ فقال : من أنت ياسيدى ؟ فقال : أنا يسوع الذى أنت تضطهده، صعب عليك أن ترفس مناخس، فقال وهو مرتعد متحير: يارب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقل لك ماذا ينبغى أن تفعل » .

دخل بولس أو شاول فى المسيحية، وحاول أن يتصل بتلاميذ المسيح ، ولكنهم أوجسوا منه خيفة، ولم يصدقوا إيمانه، ولكن شهد له برنابا الذى حدثناك عنه بالإيمان، وما حدث له فى الطريق .

فقد جاء فى الإصحاح التاسع أيضا من السفر المذكور: «ولما جاء شاول حاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل، وحدثهم كيف أبصر الرب، وأنه كلمه، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع» .

ومن ذلك الوقت صار بولس القوة الفعالة، والحركة الدائبة فى الدعاية للمسيحية، كما تدل على ذلك عبارات سفر الأعمال، وقد اصطحب فى رحلاته برنابا، حتى اختلفا كما ذكرنا فى الكلام على برنابا - فلما اختلفا افترقا، وهناك نجد حلقة مفقودة، فلم يبين لنا سفر الأعمال على من تلقى مبادئ المسيحية التى أخذ يبشر بها، والتى دونها فى رسائله الأربع عشرة، والتى يضيف إليها بعض الكتاب سفر الأعمال، وينسبه إليه بدل نسبته إلى لوقا؟ لم تبين لنا الكتب المسيحية على من تلقى مبادئ المسيحية؟ ولعلهم يعتقدون أنه ليس فى حاجة إلى التلقى، لأنه انتقل من مرتبة الكافر المناوئ إلى مرتبة الرسل فى المسيحية، وصار ملهما ينطق بالوحى فى اعتقادهم، فلم يكن فى حاجة إلى التعلم والدراسة، لأن الوحى كفاه مؤونة الدرس وتعبه .

لقد أخذ بولس فى التطواف فى الأقاليم ينشئ الكنائس، ويقوم بالدعاية ويلقى الخطب، وينشئ الرسائل، حتى كانت رسائله هى الرسائل التعليمية بما اشتملت عليه من مبادئ فى الاعتقاد، وبعض الشرائع العملية، وقد قالوا أنه قتل فى اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو سنة ٦٧ على الخلاف فى ذلك .

صفات بولس :

٥٠ - إن الذى يستخلص من أحوال وأقوال بولس التى دونت فى رسائله وأعماله التى ذكرها سفر أعمال الرسل، يتبين له أنه امتاز بثلاث صفات جعلته فى الذروة من الدعاة إلى المبادئ والعقائد :

الصفة الأولى : أنه كان نشيطا دائم الحركة ذا قوى لا تكل، وذا نفس لاتمل.

الصفة الثانية : أنه كان ألمعيا شديد الذكاء بارع الحيلة، قوى الفكر، يدبر الأمور لما يريد بدهاء الألمعى، وذكاء الأروعى، يسدد السهام لغاياته ومآربه فيصيبها .

الصفة الثالثة : أنه كان شديد التأثير فى نفوس الجماهير، قوى السيطرة على أهوائهم على انتزاع الثقة به ممن يتحدث إليه .

وبهذه الصفات الممتازة، وبهذه القدرة البارعة استطاع أن يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحية، وقطبهم، وأن يفرض ما ارتآه على المسيحيين، فيعتنقوه دينا، ويتخذوا قوله حجة

زاعمين أن له رسالة أرسل بها، وبهذه الصفات الباهرة استطاع أن يحمل صديقه برنابا على أن يصدقه في رؤيته المسيح، واستطاع أن يحتل المنزلة الأولى بين التلاميذ، وقد كان بلاءهم، وكيد الشيطان لهم. وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه، وأن يندغموا في شخصه حتى يصير هو كل شئ، وهم لايستطيعون رد قوله في الجماهير، حتى لقد صارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه، منسوبة إليه، ولقد يعجب الذين درسوا الديانات وعرفوا أحوال رجالها، وأدوارهم ، فيقولون : كيف ينتقل رجل من كفر بديانة إلى اعتقاد شديد بها طفرة، من غير سابق تمهيد، ولكن ذلك العجب يزول إن كان الانتقال مقصوراً على مجرد الانتقال من الكفر إلى الإيمان، فإن لذلك نظائر وأشباها، بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى الرسالة في الدين الذى كفر به، وناوأه وعاداه، فإن ذلك ليس له نظير وليس له مشابه، ولم يعهد ذلك في أنبياء ورسل فقط، وهذه توراة اليهود وأسفار العهد القديم التى يؤمن بها المسيحيون كما رووها، وكما قالوها، ليذكروا لنا رسولا بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقى الوحى، وصفاء نفس يجعله أهلا للإلهام؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته، وأنه إذا لم يكن للرسالة إرهاصات قبل تلقيها، لا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب في عصره، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وأراء ه وتعاليمه .

بيد أن العقل يخترق بنوره الحجب، ويزيل بضوئه كل أسداف الظلم، ولو قاوم في سبيل ذلك براعة بولس وذكاء ه، ولذا وجد في العصور المسيحية من كانوا يثيرون مناقشات قوية حول أقوال بولس منكرين لها مبطلين، ونسارع فنقول مقالة القس عبد الأحد: «إن بولس يبجل ويعظم رجلا اسمه عيسى أميت ومات. وحيى فقط. وأن خمس عشرة رسالة من كتب العهد الجديد تحمل اسم الرسول المشار إليه، فلا محمل للحيرة إذا قلت أن المؤسس الحقيقى للمسيحية الحاضرة هو بولس، فإن شاول الشاب الطرسوسى من سبط بنيامين، ومن مذهب الفريسيين وتلميذ أحد علماء الدهر عضو مجلس صانهدرين المدعو عمانيل .. الذى كان يجتهد في محو اسم عيسى وأتباعه من الأرض، والذى رأى عدوه الناصرى في السماء؛ معا داخل الأنوار وقت الظهر أمام دمشق . اهتدى وسمى باسم

بولس، وهو الذى وضع أساس العيسوية» . والقسم الأعظم من أعمال الرسل يبحث عن سياحات بولس الطويلة وجهوده ومتاعبه، فهل هو صادق فى النقل عن المسيح، والإخبار عنه ؟ للإجابة عن هذا السؤال موضعها عند الكلام فى الإلهام الذى نحلوه لرسلهم، ونقد الكتب نقدا علميا .

كتب العهد القديم والإنجيل والرسائل كتبت بإلهام فى اعتقادهم :

٥١ – إلى هنا قد بينا الكتب، وذكرنا طرفا من حياة منشئيها، وأحوالهم ومقدار الاختلاف فى نسبة الكتب إلى أصحابها، وقبل أن ننتقل إلى نقد هذه الكتب نقدا علميا فى متنها وإسنادها، نقول : إن المسيحيين يقولون أن هذه الكتب كلها، كتبت بالإلهام ، وأنها لذلك لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فهى حق وصدق، لأنها موحى بها، وسواء فى ذلك كتب العهد القديم؛ والعهد الجديد، سواء أكانت أناجيل أم رسائل تعليمية أم رسالة النبوة .

ولذا يقول مؤلفو موجز تاريخ الأمة القبطية فى شأن الكتاب المقدس : «الكتاب المقدس هو مجموع الأسفار التى كتبها رجال الله القديسون بإلهام الروح القدس فى أوقات مختلفة، وفيها أعلن الله مشيئته ووصاياه، وماقطعه من المواعيد، وما فرضه من المثوبة، وما فيه إرشاد للناس وخيرهم وخلاصهم، وما أتمه من عمل الفداء» وبمراجعة ما كتبه شراحهم وعلماؤهم نفهم أن الإلهام عندهم ، هو إلهام المضمون الرئيسى، ولذا يقول هورن: «إذا قيل أن الكتب المقدسة أوحى بها من عند الله لا يراد أن كل الألفاظ والعبارات من إلهام الله، بل يعلم من اختلاف محاورات المصنفين واختلاف بيانهم أنهم قد جوز لهم أن يكتبوا، على حسب طباعهم وعاداتهم وفهومهم، واستعمل علم الإلهام على طريقة استعمال العلوم الرسمية، ولايتخيل أنهم كانوا يلهمون فى كل أمر يبينونه، وفى كل حكم كانوا يحكمون به» .

إذن لم تكن كل الكتب المقدسة ملهمة من حيث أسلوب البيان، ومن حيث التصرف فى التعبير، ومن حيث كل ما تشمل عليه من معان، بل موضع الإلهام فقط المعانى الرئيسية أو الرسمية، وبقية الأفكار والمعانى على حسب الطبائع والأفهام والعادات .

نظرة فاحصة فى الكتب

٥٢ - عرضنا على القارئ كلام القوم فى كتبهم، وحاولنا أن نكون حاكين ولم نعلق عليها ولم ننقدها، ولم ننبه إلى وهنها، إلا إذا كان ذلك التنبيه قد سبق إليه علماؤهم، والباحثون منهم، ووجهوا هم النقد إليه، أو كان الأمر من الوضوح بحيث يكون المرور عليه من غير تنبيه إلى موضع الضعف يجعل البحث غير متسق، وبعيدا عن الانسجام الفكرى .

والآن نريد أن ننتقل من النظرة الحاكية المتغاضية إلى النظرة الفاحصة الكاشفة، ولسنا نريد أن نحصى كل أوجه النقد التى وجهت، فإن ذلك يحتاج بيانه إلى مجلدات ضخام لكثرتها، وتعدد نواحيها، وكثرة دواعيها، ولكنا نكتفى بايراد بعضها، ونترك الباقى للاطلاع عليه فى مصادره المسيحية وغير المسيحية .

ما يجب أن يكون فى الكتاب الدينى من صفات ليكون حجة :

لأجل أن يكون الكتاب حجة - يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه، ومجموع أوامره ونواهيه، ومصدر الاعتقاد، وأساس الملة - يجب أن يتوافر فى هذا الكتاب أمور :

أحدها : أن يكون الرسول الذى نسب إليه قد علم صدقه بلا ريب ولا شك، وأن يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة، أى بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين والمكذبين، وأن يشتهر أمر ذلك التحدى وهذا الإعجاز، ويتوارثه الناس خلفا عن سلف، ويتواتر بينهم تواترا لا يكون للإنسان مجال لتكذيبه .

ثانيها : ألا يكون ذلك الكتاب متناقضا مضطربا يهدم بعضه بعضا، فلا تتعارض تعليماته، ولاتتناقض أخباره، بل يكون كل جزء منه متمماً للآخر ومكملا له، لأن ما يكون عن الله لايختلف، ولا يفترق، ولا يتناقض، بل إن العقلاء، فى أقوالهم، وفى كتبهم، يتحرون ألا يتناقض قولهم، ولا يختلف تفكيرهم .

ثالثها : أن يدعى ذلك الرسول أنه أوحى إليه به، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة، وهى المعجزات التى بعث بها الرسول ، ودعا إلى كتابه على أساسها،ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر، أو يثبت بالكتاب نفسه .

رابعها : أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول الذى نسب إليه ثابتة بالطريق

القطعى بأن يثبت نسبة الكتاب إلى الرسول ، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف، جيلا بعد جيل من غير أى مظنة للانتحال .

وأساس ذلك التواتر أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، حتى تصل إلى الرسول بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوى عن الجمع الذى سبقه، والذى سبقه كذلك، حتى يصل إلى الرسول الذى أسند إليه الكتاب، ونسب إليه، ونزل به الوحى عليه .

تطبيق هذه الشروط على كتب النصارى :

٥٣ - إن الكتب فى الدين هى أساسه؛ فإن لم تكن مستوفية الشروط السابقة لم يكن الاطمئنان إلى صحتها كاملا، وتطرق إليها الريب والظن من كل جانب، وبذلك يتهدم الدين من أساسه، ويؤتى من قواعده، ولايكون شيئا مذكورا فى الأديان، بل يكون طائفة من أساطير الأولين اكتتبها طائفة من الناس، وادعوها دينا، ونسبوها لشخص معترف به، لتروج عند العامة، وتدخل فى أوهامهم، ويعتمدون على الزمان فى تمكينها فى نفوسهم وقلوبهم .

وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء أكانت من كتب العهد القديم أو العهد الجديد مستوفية هذه الشروط، فتكون ملزمة للكافة ؟

لا يزعم النصارى أن هذه الكتب كتبها المسيح نفسه، حتى ننظر فى قوة نسبتها إليه، ولكن يزعمون أن الذين كتبوها رسل من بعده مبعوثون بها، يبشرون الناس بما فيها، فنبحث، هل هؤلاء رسل حقا وصدقا قد ثبتت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه ؟

لقد قلنا أن الطريق لذلك أن يدعوا هم هذه الرسالة ويثبتوها بمعجزة يجريها الله على أيديهم، ويتحدوا الناس ليدفعوهم إلى الإذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم .

إننا نبحث فى مراجعهم فلا نجد مرجعا صحيحا قرر أن هؤلاء ادعوا مثل هذه الرسالة، ودعوا الناس إلى الإيمان بها، ومعهم البرهان عليها ، والدليل القائم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نعم قد نجد فى رسالة أعمال الرسل ذكرا لأخبار تلاميذ المسيح، وأن روح القدس

تجلي عليهم، وأنهم كانوا يأتون بأمور خارقة للعادة، وسماهم كاتب تلك الرسالة رسلا، ففيها يذكر أن عدد الأصحاب بعد المسيح أحد عشر، وهم : بطرس، ويعقوب ، ويوحنا، وأندراوس، وفيلبس، وتوما ، ويرثولماس، ومتي، ويعقوب بن حلفى، وسمعان الغيور، ويهوذا أخو يعقوب، وأن بطرس وقف وألقى فى وسط التلاميذ - الذين بلغوا نحو عشرين ومائة - خطبة، وأنهم امتلئوا جميعا بروح القدس، وتكلموا بألسنة غير ألسنتهم .

ثم يذكر أن بطرس شفى أعرج من عرجه، ومات من كذب عليه، بعد أن كشف كذبه واختلاسه، هو وامرأته .

ذكر سفر الأعمال هذا وذكر عجائب أتى بها بولس فى زعمه فى آخر ذلك السفر أيضا .

وكذلك نجد فى إنجيل لوقا أنه يذكر أن المسيح أرسل سبعين رجلا ليبشروا باسمه، وأنهم عادوا يقولون له : «حتى الشياطين تخضع لنا باسمك، فقال لهم: رأيت الشيطان ساقطا مثل البرق من السماء، وهأنذا أعطيكم سلطانا لتدوسوا الحيات والعقارب، وكل قوة العدو، فلا يضركم شئ، ولكن لاتفرحوا بهذا لأن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كتبت فى السموات» .

مناقشة ادعاء الإلهام فى سفر الأعمال :

٥٤ - ونريد أن نناقش أعمال الرسل وإنجيل لوقا فى هذا المقام لنعرف منه من هم هؤلاء الرسل، لم يذكر سفر الأعمال أسماء العشرين والمائة الذين ملئوا من روح القدس، نعم إنه ذكر أسماء الحواريين الأحد عشر، وليس منهم من ينسب إليه كتب أو رسائل، سوى متى وبطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا .

وقد علمت بعض ما فى نسبة إنجيل متى ويوحنا إليهما . وأما بطرس والباقون فلهم رسائل، ولم يكن معترفا بصحتها، هى رسائل يوحنا إلى سنة ٣٦٤ حتى أن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها إلى أصحابها . وقد كان سنة ٣٢٥ .

وإذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة، ولم يذكر كذلك إنجيل لوقا أسماء، فكيف تؤمن برسالة رسل لم تعرف أسماؤهم ! نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء

أشخاص، ويوصفون بأنهم رسل، ولكن لم يذكر أهم من العشرين والمائة، أم ليسوا منهم، ومن المؤكد أن بولس لم يكن فى العدد الذى ذكر فى الأعمال ، ولا فى العدد الذى ذكر فى إنجيل لوقا .

إذن لا مقنع فيما جاء فى سفر الأعمال ، ولا فى إنجيل لوقا، لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء معينين بالاسم. ثم من هو مؤلف سفر الأعمال ! قالوا إنه لوقا صاحب الإنجيل . إذن فالمصدر هو لوقا فى الاثنين، ولوقا قد بينا أنه طبيب وقيل أنه مصور، أو هو طبيب مصور. فهل هو كان من تلاميذ المسيح أو كان من تلاميذ تلاميذه، لم يثبت شئ من ذلك، وكل ما ثبت من صلته برجال المسيحية أنه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس، وإذن فروايته عن هؤلاء وعن المسيح ليست رواية من شاهد وعاين، وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح، أو تلاميذ المسيح.

الرسل غير معروفين :

٥٥ – لم نعرف إذن حقيقة هؤلاء الرسل، ومن هم بسند صحيح، فضلا عن أن يكون السند قطعيا، وإذا كنا لانعرف من هم، فكيف نؤمن لهم بمعجزات؟ إن المصدر الذى ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذى ذكر الرسل من غير أن يبين من هم، وهو راو لم يعاين ولم يشاهد، وعلى ذلك يكون الكلام فى الإلهام، وأنهم رسل ملهمون لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه، والاطمئنان إليه، وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه.

ولكنا لا نكاد ننتهى إلى هذه النتيجة حتى نجد من مجادلى القوم، والمناظرين عنهم من يزعمون أن لوقا نفسه، صاحب سفر الأعمال، وصاحب الإنجيل كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج إلى سند، لأن كل كلامه من الروح القدس الذى ملأه كما ملأ إخوانه الرسل، ولكن أين معجزته التى تثبت إلهامه حتى نصدق كل ماجاء فى كتابيه، ويؤمن مؤمن (يحترم الإيمان) بكل ما اشتملا عليه! لم يرد عندهم أى شئ يدل على إلهام لوقا، وأنه كان من العشرين والمائة الذين ألقى فيهم بطرس خطبته، وامتلئوا بروح القدس فى زعمه، ولم يكن من السبعين الذين أرسلهم المسيح (كما ذكر فى إنجيله) وأخضعوا الأرواح وأخبرهم أن أسماءهم كتبت فى السماء.

ولسنا فى ذلك إلا مطالبين بأن يثبتوا إلهام لوقا، لنصدق بإخباره عن الرسل

وأعمالهم وعن إلهامهم، وامتلائهم بالروح القدس، وإعجازهم. لا يوجد أمامنا أى دليل يثبتون به إلهام لوقا فيما كتب، حتى كنا نصدقه فى كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس، وامتلئوا به، وإن كنا لا نعرف أشخاصهم، ولا شيئا عن أسمائهم وأعمالهم.

بل لقد وجدنا من كتاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهمين وأن إنجيله لم يكن إلهاميا، وبالأولى رسالته لم تكن بإلهام، فقد قال من المحدثين، واطسن فى المجلد الرابع من كتابه الإلهام ما ترجمته : «إن عدم كون تحرير لوقا إلهاميا يظهر مما كتب فى ديباجة إنجيله ونصها:

إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المستيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين، وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شئ من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به».

وبمثل هذا القول من أن ما كتب لوقا ليس بإلهامى قال العلماء الأقدمون من المسيحيين، فيقول أرينوس : «إن الأشياء تعلمها من بلغها إلينا».

لوقا صاحب سفر الأعمال لم يكن ملهما :

٥٦ — لم يكن إذن لوقا ملهما، لأنه لا يوجد دليل يثبت إلهامه، ولأن مقدمة إنجيله كمقدمة رسالته تدل على أنه لم يكن ملهما، ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون أنه لم يكن ملهما فيما كتب، بل كتب ما تعلم، ولقن، لا ما أوحى إليه به وألهم.

وإذا كانت رسالة الأعمال هى المصدر المثبت لإلهام الرسل وامتلائهم بالروح القدس، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته للاعتماد عليه، لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح، ولأن لوقا لم يكن ملهما، وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند إلى لوقا، وفى تلك الصحة كلام سنثبته فى موضعه من بحثنا إن شاء الله.

ليس عندنا إذن دليل نقلى عندهم يثبت رسالة من يسمونهم رسلا، ويثبت معهم أنهم كتبوا بالإلهام، حتى يعتبر كلامهم وحيا أوحى به، ويجب تصديقه وقبوله، ولا نجد من الكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها، بل إن راجعنا هذه الكتابات لا نجد أن كتابها يدعون لأنفسهم أنهم رسل، ولا من تلاميذه العشرين والمائة، ولا من السبعين الذين ذكرهم لوقا.

وقد رأينا بطرس فى رسالتيه يقدمهما بأنه رسول يسوع المسيح، ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة عن الله. ولا نجد فى عباراتهم ما يدل على أنهم كتبوا بالإلهام، إلا رسائل بولس، فهو الذى يذكر فى رسالته أنه يتكلم عن الله. وأحيانا يقول أنه يتكلم من نفسه.

وإذن فلنا أن نقول أن أصحاب هذه الكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والإلهام إلا بولس الذى كانت صلته بالمسيحية على ماعلمتم، وليس فى كتبها ما يشهد له بالرسالة والإلهام، بله الإيمان، إلا سفر الأعمال، وقد علمت قوة الاستدلال به، والاعتماد عليه فى الاحتجاج والإثبات.

دعوى الإلهام ليست محل إجماع المسيحيين.

٥٧- وفى الحق أن دعوى إلهام الرسل فى كل ما كتبوا لم تكن محل إجماع من كتاب المسيحيين فى القديم والحديث، فطائفة من علماء إنجلترا قالوا فى مؤلف كتبوه[1]. «إن الذين قالوا أن كل قول مندرج فى الكتب المقدسة إلهامى لا يقدرون أن يثبتوا دعواهم بسهولة» ثم قالوا : «إن سألنا أحد على سبيل التحقيق أى جزء تعتبرون من العهد الجديد إلهاميا، قلنا : المسائل ، والأحكام، والإخبار بالحوادث الآتية التى هى أصل الملة المسيحية - لا ينفك الإلهام عنها. وأما الحالات الأخرى فكان حفظ الحواريين كافيا لبيانها».

وترى من هذا أن بعض العلماء لا يرون أن كل مافى كتب العهد الجديد إلهامى بل منه الإلهامى وغير الإلهامى.

ولكن هناك من يقول أنه يشك فى أصل الإلهام فيهما، فهذا عالم مسيحى يقال له ريس، يقول ناقلا حاكيا بعض أقوال المتقدمين. «إن الناس قد تكلموا فى كون الكتب المقدسة إلهامية، وقالوا أنه يوجد فى أفعال مؤلفى هذه الكتب وأقوالهم أغلاط، واختلافات، فمثلا إذا قوبلت الآيات ١٩ ، ٢٠ من الإصحاح العاشر من متى و ١١ من الاصحاح الثالث عشر من إنجيل مرقس، إذا قوبلت هذه الآيات بالآيات الست التى فى سفر الأعمال فى إصحاحه الثالث والعشرين يظهر ذلك الاختلاف جليا. وقيل أيضا أن الحواريين ما كان يرى

(١) أليسائى كلوبيديا برتنبيكا.

بعضهم بعضا صاحب وحى، كما يظهر هذا من مباحثهم في محفل أورشليم، ومن إلزام بولس لبطرس، وقيل أيضاً أن المسيحيين القدماء ما كانوا يعتقدونهم منزهين عن الخطأ، لأنهم فى بعض الأوقات تعرضوا له».

ولقد قطع بعض العلماء بأن بعض هذه الكتب ليس من الإلهام فى شئ، فإنجيل متى على قول القدماء من المسيحيين، وقول جمهور المتأخرين الذين قالوا أنه كتب باللسان العبرانى كما أسلفنا من القول، قد قالوا أن أصله فقد، وترجمته ليست بالإلهام.

ويقول إستادلن وغيره أن إنجيل يوحنا ليس بإلهام، وجميع رسائل يوحنا ليست بإلهام على رأى فرقة لوجين، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، ورسالة يهوذا، ورسالة يعقوب، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورؤياه التى تسمى الكتاب النبوى - كل ذلك عند الأكثرين ليس بإلهام، وكان كذلك إلى سنة ٣٩٣ ميلادية».

دعوى الإلهام باطلة ممن يدعيها:

٥٨ - ومهما يكن اختلافهم بالنسبة لكونها ملهمة كلها أو بعضها، وطريق الإلهام، فادعاء الإلهام على فرض اتفاقهم عليه ليس له من البينات ما يثبته، ولا من الأدلة ما يقيم ادعاءه، ونحن نطالبهم بالدليل.

وكان يصح لنا أن نقف موقف المانع منعا مجردا، نطالبهم بالدليل حتى يقيموه، ولكن تتميما للبحث وتعريفا للحقائق نثبت أن دعوى الإلهام باطلة من أساسها، ليس لعدم إقامة الدليل عليها، بل لأن البينات قائمة ضدها، وذلك لأنها لو كانت بإلهام من الله كما يقولون لكانت صادقة فى كل ما أخبرت به، وما وجد الباطل منفذا ينفذ منه إليها، ولم يكن ثمة محل لتكذيبها، ولكانت متفقة غير مختلفة، ولم تكن متضاربة بأى نوع من أنواع التضارب، وذلك لوحدة من صدرت عنه، لأنها جميعا صادرة عن واحد، وإن اختلف الناطقون بها، ولكنا وجدنا بينها اختلافات من أوجه عدة، ووجدنا فيها أخبارا تناقض ما علم فى التاريخ وكان مشهورا فيه، ولنذكر بعض هذه الأمور على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر.

التضارب بين كتب العهد الجديد :

(أ) أول ما يلقاك من أوجه اختلاف الأناجيل فى الأمر الواحد الذى لا يقبل إلا

حقيقة واحدة اختلاف إنجيل متى عن إنجيل لوقا فى نسب المسيح، فإن من يقابل بين نسب يوسف النجار متبنى المسيح فى الأناجيل يجد الاختلاف من ستة أوجه ذكرها الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه إظهار الحق .. فقال :

١- فى متى أن يوسف بن يعقوب، وفى لوقا أنه ابن هالى.

٢- يعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داود عليهم السلام. ومن لوقا أنه من أولاد ناثان بن داود.

٣- يعلم من متى أن جيمع آباء المسيح من داود إلى جلاء بابل سلاطين مشهورون، ومن لوقا أنهم ليسوا بسلاطين ولا مشهورين غير داود وناثان.

٤- يعلم من متى أن سلتائيل ابن يكنيا، ومن لوقا أن سلتائيل ابن نيرى.

٥- يعلم من متى أن اسم ابن زربابل أبيهود، ومن لوقا أن اسمه ريسا.

والعجب أن أسماء بنى زربابل مكتوبة فى الباب الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام من كتب العهد القديم. وليس فيها أبيهود ولا ريسا فكل منها غلط.

٦- من داود إلى المسيح عليهما السلام ستة وعشرون جيلا على ما بين متى، وواحد وأربعون جيلا على ما ذكر لوقا.

هذه أوجه اختلاف ستة في نسب المسيح عليه السلام وهو نسب يوسف النجار، الذى كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل، وهذا الاختلاف الذى يعترف به المسيحيون ولا يجدون مناصاً من الإقرار به يدل على أمرين:

أحدهما : أن أحد الإنجيلين لم يكن بإلهام بيقين، وإذا فرضنا أن أحدهما صادق والآخر كاذب، فالكاذب لا شك لم يكن بإلهام ، وإلا كان الإله الذى أوحى به كاذبا، وذلك لا يليق بحسب بداهة العقل، ولما كان الصحيح منهما غير متعين فالشك يرد على الاثنين حتى يثبت الصحيح، ويقوم الدليل على صدقه دون الآخر، ومع هذا الشك لا يمكن الاعتقاد بأن ثمة إلهاما، لأن الشك إن اعترى الأصل زال الاعتقاد.

ثانيهما : أن إنجيل متى لم يكن معروفا للوقا، أى أنه لم يكن متدارسا معروفا لدى العلماء فى المسيحية. مع أن تدوين إنجيل متى يسبق تدوين إنجيل لوقا بأكثر من

عشرين سنة على ما عليه جمهورهم، ولو كان لوقا يعرفه لراجعه، وما وقع فى الخطأ الذي وقع فيه، أو على الأقل ما خالفه، وإذا لم يكن معروفا لدي علماء المسيحية، وحوارييها ورسلها، فلابد أنه لم يكن معروفاً قط، أو بعبارة أصرح، ربما لم يكن موجودا قط.

ولا مناص من هذا إلا أن نقول أن لوقا كان يعرفه، واطلع على حديث النسب فيه، وخالفه على بينة منه، لأنه لم يصدقه، وعلى ذلك لا يكون لوقا معترفا برسالة متى، والإيحاء إليه، وأن ماكتبه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإلا ما خالفه مع علمه.

وخلاصة القول فى ذلك أن المخالفة تنتج إحدى اثنتين : إما ألا يكون إنجيل متى معروفا للرسول لوقا، وذلك يقتضي ألا يكون موجودا . وإما أن يكون موجودا يعرفه لوقا، ولكن لا يعترف به مصدرا صادق الرواية. وإحدى القضيتين لازمة حتما، ولكن لا يعترف المسيحيون بكلتيهما .

(ب) ونجد فى الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى أنه بعد مناقشة الفريسيين تقدمت إليه امرأة، ابنتها مريضة بالجنون تطلب شفاءها، ونص الخبر كما جاء فى ذلك الإصحاح : «ثم خرج يسوع من هناك، وانصرف إلى نواحى صور وصيداء. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى ياسيدى يا ابن داود، ابنتى مجنونة جداً، فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها، لأنها تصيح وراءنا». وتجئ هذه القصة فى الإصحاح الثامن من إنجيل مرقص بالنص الآتى : «ثم قام من هناك، ومضى إلى تخوم صور وصيداء ودخل بيتا وهو يريد ألا يعلم به أحد، فلم يقدر أن يختفى لأن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به، فأتت وخرت عند قدميه، وكانت المرأة أممية وفى جنسيتها فينيقية سورية».

ففى هذا النص يبين جنس المرأة بأنها فينيقية سورية، وأنها أممية ليست من اليهود، وفى الأولى توصف بأنها كنعانية أى ليست فينيقية، فأيهما الأحرى بالقبول، لا شك أنه لا يمكن أن تكون الروايتان صادقتين معا، بل لابد أن تكون إحداهما كاذبة وليست بإلهام من الله، لأن الله لا يكذب، وإذا كانت إحداهما ليست صادقة بيقين، وكاذبة بيقين، ولم يدر أيتهما الكاذبة المفتراة، فالشك إذن ملازم الاثنتين لا ينفصل عنهما، حتى نتبين الصدق من الكذب، ولا سبيل إلى ذلك، ولا يمكن أن نثبت لأيهما إلهاما مع هذا الشك الملازم الذى لا سبيل إلى إزالته.

(جـ) وقد اختلف خبر القبض على المسيح لمحاكمته فى متى عن يوحنا، ففى متى جاء فى ذلك بالإصحاح السادس والعشرين ما نصه : وفيما هو يتكلم، وإذا يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء، ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا : «الذى أقبله هو أمسكوه، فللوقت تقدم إلى يسوع؟ وقال : السلام ياسيدى، وقبله، فقال يسوع : ياصاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا، وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه» هذا ما جاء فى متى، وجاء فى يوحنا في هذا المقام ما نصه : «فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع، وهو عالم بكل ما يأتى، وقال لهم : من تطلبون ؟ أجابوه : يسوع الناصرى، قال لهم : إنى أنا هو، وكان يهوذا مسلمه أيضا واقفا معهم فلما قال لهم : إنى أنا هو ، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، فسألهم أيضا: من تطلبون؟ فقالوا : يسوع الناصرى، فأجاب يسوع : قد قلت لكم : إنى أنا هو، فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون ليتم القول الذى قاله : إن الذين أعطيتنى لم أهلك أحدا».

وترى هنا اختلافا بينا بين الروايتين، فمتّى يقول أن يهوذا أعلمهم بالمسيح بالعلامة التى اتفق معهم عليها، وهى تقبيله، ويوحنا يقول : إن المسيح هو الذى قدم نفسه وكفى يهوذا مئونة التعريف، ولا شك أن ذلك الاختلاف البين فى رواية حادثة واحدة يجعل إحدى الروايتين كاذبة والثانية صادقة، والكاذبة ليست بإلهام، فإحداهما ليست إلهاما، ولا سبيل إلى معرفتها فيثبت الشك فى الروايتين.

وفى الحق أن من يراجع الأناجيل فى خبرها عن القبض على المسيح وحبسه، ثم محاكمته وصلبه فى زعم النصارى، ثم قيامته من قبره، يجد الاختلاف فى أخبارها اختلافا بينا، ولو كان بعض هذا الاختلاف فى شهادة اثنين يشهدان فى درهم ما ثبتت بشهادتهما دعوى، ولا انتصر بها حق.

ولتراجع الأناجيل فى هذا المقام لتعرف مقدار الصحة فى خبرها، ولتعرف مقدار ما فى دعوى الإلهام لكاتبيها عند كتابتها من حق، فلا شك أن ذلك الاختلاف الذى لا يمكن التوفيق بين متناقضه يؤدى إلى أن تلك الأناجيل يأتيها الشك من كل جانب، ويأتيها من بين يديها، ومن خلفها، فلا يمكن أن تكون إلهاما من حكيم حميد.

وأن ذلك الاختلاف فيما أحاط بمسألة الصلب - فوق أنه يفقد الثقة بالأناجيل، هو أيضا يجعل خبر الصلب عند القارئ الخالى الذهن الذى لم يكن فى ذهنه قبل القراءة ما ينفيه أو يثبته موضع الشك الذى يرجح فيه الرد على القبول، والتكذيب على التصديق.

(د) وفى موت يهوذا الذي خان المسيح على زعمهم، اختلفت رواية متى عن رواية لوقا فى سفر أعمال الرسل. فمتى يقول : أنه خنق نفسه ومات، كما جاء فى الإصحاح السابع والعشرين.

ولوقا يقول فى سفر الأعمال : أنه خر على وجهه، وانشق بطنه، فانسكبت أحشاؤه كلها ومات.

ولا شك أن بين الروايتين اختلافا، لأن الموت بالخنق غير الموت بشق البطن، ولا بد أن تكون إحداهما علي الأقل كاذبة، ولكنها غير معلومة، فيتطرق الشك إلى الأخرى فيردان معا، ولا يمكن أن تكونا بإلهام، أو لا يمكن - مع ذلك الشك - الإيمان بأن كلتيهما بإلهام.

(هـ) قد اشتمل بعض هذه الكتب على أخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة فى التاريخ يعرفها الخاص والعام، ولدونتها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة فى الدهر. ولكن لم يرد لها ذكر في التاريخ. ولم يعرف الناس أمرها إلا من تلك الكتب.

هذا متى يقول عند صلب المسيح وقيامته : فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت، والصخور تشققت، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين. وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة، وما كان، خافوا جدا، وقالوا : حقا كان هذا ابن الله».

وهذه حادثه عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذى لم يشر إلى المسيح بكلمة. ولو صحت أيضا لآمن الرومان واليهود. الصخور تتشقق. والأرض تزلزل، والأموات ينشرون، ويسيرون على الأرض، ويراهم الكثيرون، ويبقى بعد ذلك مساغ لإنكار، ولكن لم ترد أخبار بإيمان أحد من اليهود على أثر تلك البينات الباهرات.

ولقد جزم العلامة المسيحى نورتن بكذب هذه الحكاية، وقال فى تكذيبها : «هذه الحكاية كاذبة والغالب أن أمثال هذه الحكاية كانت رائجة

فى اليهود بعد خراب أورشليم، فلعل أحدا كتب هذه الحكاية فى النسخة العبرانية، وأدخلها الكتاب فى المتن، وهذا المتن فى يد المترجم فترجمها كما وجدها».

ونقول : لعل كثيرا مما في المتن أصله فى الحاشية ثم نقل خطأ فى المتن، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدراً لاعتقاد جازم وإيمان بدين، وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب بحواشيه الدخيلة غير المعلومة من متنه الأصيل، هو بإلهام من الله العلى القدير؟.

ولكن فى العالم عقول تقبل ذلك.

بيد أنه من الإنصاف لهذه العقول أن نقول : إنهم يقيمون غواشى تمنع نورها أن يكشف عن موضع الضعف فيها، فهى لا تقبله على نور وبينة، وسلطان مبين.

٥٩ – هذه بعض المتناقضات بين هذه الكتب بعضها مع بعض ، وبعض مناقضتها للعقل وللمدون فى التاريخ، وإنا نحيل القارئ فى هذا المقام إلى كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى : فقد أتى بأكثر من مائة اختلاف بين هذه الكتب، وجبه بها مناظريه، فلم يحيروا جوابا، ولم يستطيعوا خطاباً، ولسنا نريد أن ننقلها برمتها هنه فليرجع القارئ إليه، فسيجد الغريب.

التناقض بينها مبطل لادعاء الإلهام. وبيان إنكارهم لبعضها ثم اعترافهم به :

وإذا كانت هذه الكتب متناقضة متضاربة يلحق الكذب كلها في جملتها وأجزائها عند مناقشتها فهى إذن ليست بإلهام، ويكفى هذا بطلانا لمدعاهم فى الإلهام.

وأن نسبة هذه الكتب إلى من نسبت إليهم على مافيها، وعلى أنها فى ذاتها ليست حجة، هى موضع شك كثير، فإنه ليس لهم سند متصل يصل هذه الكتب فى أقدم العصور التى عرفت فيها – بالكاتبين لها، فهى لم تعرف معرفة كاملة قبل مجمع نيقية الذى كان فى سنة ٣٢٥ م. ولم يجئ ذكر لها قبل ذلك إلا على لسان أرينيوس سنة ٢٠٠ وكليمنس سنة ٢١٦.

بل إن مجمع نيقية لم يعترف بكثير منها، فإن ذلك المجمع لم يعترف بما يأتى :

١- برسالة بولس إلى العبرانيين.

٢- ورسالة بطرس الثانية.

٣ ، ٤ - ورسالة يوحنا الثانية والثالثة.

٥- ورسالة يعقوب.

٦- ورسالة يهوذا.

٧- ورؤيا يوحنا التي تسمى «الكتاب النبوى».

ولم يحكم بصحة هذه الكتب إلا فى مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤.

انقطاع السند فى نسبتها لكاتبيها :

فقبل سنة ٣٦٤ لم يعترف بصحة هذه الرسائل السبع، وقبل سنة ٣٢٥ لم تكن الكتب كلها معروفة أو مختصة بذلك التقديس. وآخر كتاب من هذه الكتب كتب فى القرن الأول، فبين آخر كتبهم تدوينا فى زعمهم، ومعرفته والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سنة ومائتين لاراوى يرويها، وقد وقع بهم من الأحداث فى هذه المدة ما يذهب باللب ويضيع الرشد، وينسى المرء معه كل شئ، وأن الكتب نفسها لم تسلم من الاضطهاد. فقد أصدر أحد أباطرة الروم سنة ٣٠٢ أمراً بهدم الكنائس وإحراق الكتب، وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عباداتهم، فنفذ الولاة الأمر، فهدموا الكنائس، وحرقوا الكتب، وأتوا على ما كان للمسيحيين من بيوت عبادة وكتب، هدما وتحريقا، ومن سبق إلى ظنهم أنه أخفى كتابا عذبوه عذابا شديدا، حتى يعلنه فيحرق.

ومن قبل ومن بعد أنزلوا البلاء بعلمائهم، فما تركوا عالما منهم بالديانة إلا قتلوه، وكان الولاة يتفننون فى طرق إبادة المسيحية من الوجود، أبادوا العلماء حتى لايوجد من يرشد إليها، ويتوارث العلم بها. وأبادوا الكتب حتى لا تحفظ تلك الديانة في الصدور أو السطور.

ولا شك أن ذلك الاضطهاد الذى دام إلى صدر القرن الرابع يجعل الكتب التى رويت قبل ذلك موضع شك فى نسبتها إلى قائلها، حتى يقوم دليل على صحة تلك النسبة، ولم يقيموا أى دليل، لأن السند منقطع بينها وبين من تنسب إليهم، والحبل بينهم وبينها غير

متصل بأوهى أنواع الاتصال، لأن السند المتصل الذى يطمئن معه القارئ لكتاب، فيغلب على ظنه أنه صادق النسبة لمن تنسب إليه، وهو أن يروى ثقة عن ثقة مثله حتى يصل السند إلى من لقى المؤلف فيقول : سمعته منه، أو تلقيته عنه، أو قرأته عليه، كما ترى فى أحاديث رسول الله ﷺ . ويكون كل راو من تلك السلسلة المتصلة حلقاتها عدلا ثقة، ضابطا حافظا، وإذا كان السند غير متصل بين ذيوع هذه الكتب واشتهارها، وبين قائليها، فقد ذاعت بعد سنة ٣٦٤، ومن نسبت إليهم كتابتها كانوا فى وسط وآخر القرن الأول، فالعقل يتشكك فى هذه النسبة، ولا يثبت مع الشك كتاب يكون حجة لديانة.

هذه كتبهم، اعتقدوا أنها كتبت بإلهام من كتابها، ولم يقيموا أى دليل على دعوى الإلهام، وبدراستها يتبين التناقض بينها، مما يثبت أنها ليست بإلهام من الله، وبدراسة تاريخها يثبت أنها منقطعة السند عمن نسبت إليهم.

موازنة قس بين أحاديث الرسول وكتبهم من حيث الرواية :

٦٠ — ولقد جرؤ قس اسمه إبراهيم سعيد فى شرحه لإنجيل لوقا، فعقد موازنة بين روايته، ورواية أحاديث رسول الله ﷺ، فقال : «إن الذى يطالع ديباجة لوقا يستعيد إلى ذاكرته ديباجة الأحاديث فى الإسلام، غير أنه إذا تشابهت الديباجتان فى بعض الأوجه، فإن أوجه الخلاف تفوق بكثير أوجه الشبه، فمن أوجه الشبه :

(١) أن بشارة لوقا والأحاديث كلاهما ترجمة حياة، وأقوال مؤسس لدين واسع الانتشار.

(ب) أن الذين كتبوها أخذوها عن أقوال مسلمة إليهم.

إلى هنا فقط تنتهى أوجه الشبه، أو تبتدئ زاوية الانفراج تتسع إلى أن تختفى خطوطها مع رسوم الأبد.

(أ) فالأحاديث النبوية كتبها أناس أخذوها عن أناس آخرين، هؤلاء الآخرون أخذوها عن التابعين، وهؤلاء أخذوها عن الصحابة، والتبر متى تنقل بين الأيدى الكثيرة امتزج بكثير من التراب، إن لم يتحول ترابا، ولكن لوقا أخذها عن شهود عيان ممن رأوا المسيح، وخدموا إنجيله .

(ب) نقلت الأحاديث النبوية عن رواة، وما آفة الأخبار إلا رواتها، لكن سيرة المسيح سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

(جـ) كانت مهمة كتبة سيرة نبى الإسلام جمع الأحاديث وتكديسها، لكى يظفروا بأكبر عدد ممكن، وكانت مهمة لوقا التمحيص العلمى إذ كان هو طبيبا عمليا، علميا دقيقا .

بيان ما فى كلامه من زيف :

٦١ - هذا نص ما كتبه ذلك القس فى الموازنة بين أحاديث الرسول ﷺ وإنجيل لوقا، ونحن نقره فى أن أوجه الاختلاف تنفرج زاويتها، حتى لا يتلاقى المتشابهان بعدها، وإن شئت الحق الخالص من كل تمويه، والصدق الخالى من كل تزوير، فقل أنه لا تشابه بينهما، كخطين متوازيين لم يتلاقيا، ولن يتلاقيا قط .

ولكن أذلك الاختلاف يعلى الأحاديث أم يعلى البشارة المنسوبة للوقا؟ هنا نختلف مع القس . فهو يزعم أن الاختلاف يعلى بشارة لوقا، ويفقد الثقة فى أحاديث الرسول، وهو لكى يؤيد هذا الزعم يأتى بالمحاسن فيسميها مساوئ، ويعرض لما يوجب الثقة فيزعمه دليل نقيضها، وهو فى هذا كمن يزعم قبح الشمس فى نورها الرائع، وضوئها الساطع، وقبح القمر فى صفائه، وانبلاجه فى ظلمة الليل البهيم، ثم يستعين فى تقبيح المحاسن إلى التشبيهات والأخيلة والرموز، كشأن المموهين دائما، عندما يحاولون طمس المعقول ورد المقبول، ومعارضة ما تنتجه بدائه العقول، والمنطق المستقيم .

يقول إن الأحاديث كتبها ناس عن ناس حتى يصلوا إلى التابعين، فالصحابة، وبشارة لوقا أخذها عن شهود عاينوا، ويرى أن رواية بشارة لوقا هى المثلى، ورواية الأحاديث ليست المثلى، ويستدل على ذلك بأن التبر متى تنقل بين الأيدى امتزج بالتراب أو تحول إلى تراب، فأى دليل هذا؟ ومن أى أبواب الأقيسة المنطقية، ومن أى أشكالها ؟ إن ذلك ليس من المنطق فى شئ ، ولا يمت إليه بنسب، بل لا نستطيع أن نقول أن ذلك قياس خطابى، لأن الأقيسة الخطابية، وإن كانت ظنية لا تناقض العقل، ولاتكذب على البدائه، ولكنا مع ذلكم نناقش ذلك الاستدلال .

إن أحاديث الرسول رويت بسند متصل، وذلك عيبها فى زعم هذا الكاتب، وبشارة لوقا لم ترو بسند متصل، وذلك حسنها، وإذا قال قائل : أين ما تثبت به أنه روى عن شهود عاينوا، ومن هؤلاء الذين عاينوا وأخبروه؟ ولماذا لم يتولوا هم التدوين، وهم أولى بذلك، وكلامهم أحرى بالتصديق ؟ فلا جواب عنده بلا ريب .

فأيتها العقول المستقيمة، أى الخبرين أحرى بالقبول، خبر من ذكر أنه روى عن فلان العدل المعروف بالصدق والتقوى، وعيَّنه، وعدالته مشهورة، وصدقه معروف. أم خبر من ذكر لك أنه روى عمن عاين ولم يبين من هو، ولم يخبر عنه. فلم نعرف أهو ثقة مقبول الرواية أم هو غير ثقة كيهوذا الأسخريوطى؟ إن أقصى ما يقال هو أن لوقا نقل عن بولس، لأنه كان رفيقا له فى بعض أسفاره، ولكن بولس نفسه لم يكن من تلاميذ المسيح الذين عاينوا وشاهدوا بل كان فى صدر حياته حربا عليهم وإلبا، أذاقهم البلاء أكؤسا، والشر ألوانا، فهو راو يحتاج إلى من يوثقه إن ادعى أن لوقا روى عنه، وذلك ما لم يقله حضرة القس.

ولننتقل إلى مناقشة تشبيه الذى ذكره دليلا : إن التبر إذا انتقل إلى أيد تستطيع صيانته وحياطته – تحفظه من التراب، وتصونه من الاختلاط به وتميط عنه كل ما يخالط جوهره، فيزداد بهذا الحفظ بريقا وصفاء، إن أحاديث الرسول نقلها ثقات صانوها وحفظوها، ولكن يظهر أن القس يأبى فى مناقشته إلا أن يخالف كل معقول، حتى يكون كل كلامه متفقا مع الباعث عليه والداعى إليه، فيزعم أن التبر قد يتحول إلى تراب إذا تناقلته الأيدى.

فأيها الناس، ويأيها العرب والعجم، ويأيها الشرق، ويأيها الغرب، هل علمتم أن الذهب يتحول إلى تراب، ولكن القس المرشد الرشيد يقول ذلك فصدقوه وكذبوا العقل والحس والمشاهدة.

ثم من الذى روى لنا تلك البشارة عن لوقا؟ إن السند يجب أن يكون معروفا حتى لوقا، قبل أن نتعرف النسبة بين لوقا والمسيح ، إن بشارة لوقا كتبت كما يزعم النصارى فى العشرة السابعة بعد المسيح من غير أن يعينوا الزمن تعيينا دقيقا، ولكن لم يرد فى التاريخ، ولا على ألسنة الرؤساء والقسيسين أى ذكر لها إلى سنة ٢٠٠ ثم ذكرت الأناجيل الأربعة على لسان اثنين من العلماء فقط من سنة ٢٠٠ إلى سنة ٣٢٥ ولم نعرف أهذه الأناجيل المدونة المسطورة الآن هى التى جاء ذكرها على لسان عالمين من علمائهم فى فترة من التاريخ قدرها خمس وعشرون سنة وثلاثمائة، وهى فترة طويلة.

ولكن مع كل هذا يستحسن القس إبراهيم سعيد تلك الحال، فقد زينت له فرآها

الأمر الحسن الجدير بالثقة. ورأى غيرها الأمر القبيح الجدير بالرد. هل نطالب ذا رمد أن يفتح عينيه فى ضوء الشمس، أو نطالب من فقد حاسة الشم أن يدرك أريج الزهر،، وعرف الطيب، أو نطالب من إيفت منه المشاعر أن يكون صادق الحس دقيق الشعور.

٦٢- ولننتقل إلى الفرق الثانى الذى ذكره معليا لبشارته، ومنزلا بأحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : نقلت الأحاديث عن طريق رواة، وما آفة الأخبار إلا رواتها، أما سيرة المسيح فقد سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم.

هذا ما ذكره بنصه تقريبا، وهو يبين أرجحية أخبار أناجيله عن سيرة المسيح بأنها رواها التاريخ، أما عن السنة فرواية رواة، وآفة الأخبار رواتها، ولا نريد مناقشة تلك الكلمة العامية التافهة «آفة الأخبار رواتها» فإنها لا تصلح مقدمة لدليل ولو أن طالبا ممن تلقوا العلم علينا قالها لعركنا أذنه وأسررنا إليه أن رواة الأخبار الذين هم آفاتها إنما هم الكاذبون. أما الصادقون العادلون، فليسوا آفاتها بل حملتها، وإلا ما صحت شهادة، ولا قبل القضاء بينات، ولا ثبتت حقوق، ولا أدين متهم، ولا برئ برئ.

ثم يقول أن أناجيله سجلها مؤرخون محققون، فكيف نسميهم؟ أرواة رووا عن غيرهم؟ إن كانوا كذلك، فقد سجل على سيرته ماعده قبيحا عند غيره، وإن كانوا مؤرخين لم يتعرفوه بطريق الرواية، بل بالنقش على الأحجار، أو فيما استبطنته بطون الآثار، فأى أثر هذا الذى وجدوا تلك الأناجيل منقوشة عليه، ومدونة فيه، وأثبت التحقيق العلمى أنها ترجع إلى عصر المسيح، وأنه الذى ألقاها، أو أن تلاميذه دونوها عنه؟

إن أخبار التاريخ تثبت بأحد أمرين، إما بالرواة يروون، أو بالآثار ينقبون فيها، ويتعرفونها منها، لم تثبت الأناجيل بواحد من الأمرين، فليست ثمة رواية لها ولا رواة، وهم ينزهونها عن ذلك، ولا آثار تنطق بها، وتعلن خبرها فهى إذن يرفضها التاريخ، ولا يمكن أن يسجلها مؤرخون محققون قط، وأن التاريخ لا يعرف لها ذكرا إلا من مجتمع نيقية أو بعده. فهى مسندة إلى ثمانية عشر وثلاثمائة اجتمعوا فى نيقية، وليست محققة النسبة لغيره، بل بعضها ليس محقق النسبة عندهم، وبين هؤلاء وبين المسيح خمس وعشرون سنة وثلاثمائة!. وبعد هؤلاء المجتمعين تناقلها الرواة عنهم، وإن أغضب ذلك حضرة القس، وأن ذلك المجمع لنا فيه كلام، سنقوله فى موضعه.

٦٣ – ولننتقل إلى مناقشة الفرق الثالث الذى ظنه رافعا مؤرخيه إلى مرتبة الثقة، يقول : كما كانت مهمة كتبة سيرة النبى ﷺ الجمع، ليظفروا بأكبر عدد من الأحاديث. أما مهمة لوقا، فقد كانت التحقيق والتمحيص، وهنا نرى القس أخذ يجد بعد الهزل، ويقول بعد الهذر، ولكنه إذ ابتدأ يجد قد كذب وأعظم الفرية على أحاديث نبينا، وادعى على بشارة لوقا ما ليس فيها، فأى تحقيق علمى فيها، وأى تمحيص اشتملت عليه؟ إنها لا تفترق عن غيرها من حيث اشتمالها على أمور غريبة؟ وأشياء عجيبة، ولم تبين لنا رأيه فيها، بل كان قاصاً ككل القصاص، ولا يرفعها أنه كان طبيبا، لأن نسبتها إليه موضع شك كبير، ولم يتفق الكتاب على شخصه كما بينا، ولم يتفقوا على أنه كان طبيبا، بل منهم من قال أنه كان مصورا، وعلى ذلك تكون دعواه التمحيص فى بشارة لوقا لا يؤيدها مادون فيها، ولا تؤيدها نسبتها إلى لوقا.

ولننتقل بعد ذلك إلى رد افترائه ، وكذبه على أحاديث النبى ﷺ، فإن المطلع على أخبار رواتها العدول، وما كتب فى صحاحهم يتبين له أنهم ما كان همهم الجمع، بل كان همهم التنقيب والبحث، فإنهم ماكانوا يروون كل ما يتلقون، بل يختارون الصادق مما يتلقون، وأن الذى يرفضون كان أضعاف ما يقبلون وينقلون، لأنهم كانوا يتحرون الصدق ليتميز الخبيث من الطيب، وأن الصحابة كانوا يتهمون من يكثر من الرواية خشية أن يخبر عن الرسول بغير ما رأى وشاهد، فكيف يقول ذلك الرجل على غير علم، أو محرفا الكلم عن مواضعه : «إن رواة الحاديث كان همهم الجمع»، كلا إنهم كانوا ينقدون ما يروون، ينقدون السند أولا، فلا يقبلون إلا من الرواة الذين اشتهر صدقهم وضبطهم وفهمهم لما يحملون ويروون، وينقدون متن الحديث، فيعرضونه على الكتاب وما اشتهر من السنة واستفاضت به الأخبار، وما علم من هذا الدين بالضرورة، فإن لم يخالفها بعد أن روى بسند متصل مكون من عدول كان مقبولا، وإلا كان مردودا. ونريد أن نهمس في أذن حضرة القس الرشيد بأن من أسباب ردهم لبعض الأحاديث ورفض نسبتها إلى الرسول ﷺ– عدم موافقتها العقل، فهل له أن يطبق ذلك النقد علي أناجيله ورسائله؟ إنا ننصح له أن يفعل، لأنا نريد له الهدى، لا الضلال، والرشد لا الغى، وهى نية نحتسبها عند الله.

نظرة فى الوحى فى الإسلام والوحى فى المسيحية :

٦٤ – نريد أن نختم مناقشتنا لذلك القسيس بمناقشة كلمة ذكرها. وهى التفرقة بين الوحى فى الإسلام والوحى فى المسيحية. فيقول عن الوحى فى الإسلام : «إن الوحى فى

الإسلام هو التجريد عن كل شئ إنسانى وتلاوة ما يسمونه اللوح المحفوظ. ولكن الوحى فى المسيحية يجمع بين العنصر البشرى والعنصر الإلهى، أى الملهمات الإلهية تتجسد فى لباس لغوى بشرى، لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ إليهم، فالكلمة المعلنة المكتوبة في الإنجيل هى رمز لكلمة الله، الوحى المعلن لنا عن الله.

من أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الوحى بالروح القدس لا يحرم على الموحى إليهم استخدام الوسائل البشرية الاجتهادية الممكنة لديهم، ولا يرفع عن الكاتب مسئولية الاجتهاد، والتحقيق والتدقيق، هذا بخلاف الإعلانات المحتوى عليها كتاب الوحى التى لا تتدخل فيها مواهب الكاتب الطبيعية، بل هى من الله أولا وآخرا، كالنبوات المتفرقة في كل أجزاء الكتاب المقدس، وسفر الرؤيا».

معنى الوحى :

هذه كلمته، ونريد قبل أن نتعرف من تلك الكلمة معنى الوحى في كتبهم أن نسارع إلى بيان وحى الله لنبيه ﷺ فى الإسلام فنقول : إن وحى الله تعالى لنبيه ﷺ قسمان: قسم يوحى به على أنه كلام الله تعالت كلماته، ولهذا يكون المعنى والتعبير لله جلت قدرته، وذلك كما فى القرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين.

القسم الثانى : الأمور الشرعية التى كان يوحى الله بها إلى النبى ﷺ ليبينها للناس، فالمعنى فيها بوحى من الله تعالى، والعبارة فيها للنبى ﷺ .

وإذن فكلامه عن الوحى فى الإسلام لم يكن صحيحا فى عمومه، وكان عليه أن يتحرى قبل أن يكتب، ولكنه لم يفعل.

ولننتقل إلى الوحى بالكتب عندهم، وهذا ما نريد أن نأخذ العلم به عنه، وعساه يهدينا إلى ما نعرف به محض الحق المبين.

هو يقول أن كلمات الإنجيل ليست هى كلمات الروح القدس التى ألهمها رسلهم، سواء فى ذلك كل كتبهم، فالعبارة فيها للكاتب، وليست للروح القدس الذى يلهم رسلهم بما يكتبون فيما يزعمون، ثم تنقسم كتبهم بعد ذلك إلى قسمين : قسم هو وحى لا تدخل فيه المواهب الطبيعية بالتصرف فيه بأى نوع من أنواع التصرف، وهو ما يسمى بالنبوات

عندهم. والقسم الثاني تتصرف فيه مواهب الكاتب، وفي هذا القسم لا يرفع عن الكاتب ما يوجبه عليه التحقيق والتدقيق والاجتهاد.

ونظرة فاحصة إلى هذا القول ترينا أن الإلهام قد أخذ يضؤل أمره، وتتواضع دعواه، وخصوصا بالنسبة للأناجيل، لأنها ليست بكتب نبوة كالرؤيا، ولم يتخللها كلام الله، كما يفعل بولس في رسالته، إذ كان يزعم أحيانا أنه يتكلم عن الله ، وأحيانا يقول أنه يتكلم من عنده، فالأناجيل ليست فيها إذن تلك النبوات، وعلى ذلك يكون للمواهب الطبيعية البشرية دخل في كتابتها، ويتحملون تبعة الاجتهاد فيها والتدقيق والتمحيص، ومن يتحمل تبعة عمل ينسب إليه. وعلى ذلك قد يتوارد الخطأ على اجتهادهم وتدقيقهم وتمحيصهم، فيكون من أخبارهم ما صادف التحقيق فيه الصواب، وما عرض له الخطأ، وكيف تكون بعد ذلك بإلهام أو وحي؟ وكيف تكون مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؟ وإذن فقد أتوا على دعوى الإلهام بالنقض فلا إلهام في الأناجيل إذن.

هذه كلمتنا في كتبهم تحرينا فيها أن نكتبها كما كتبها المسيحيون، ونوجه من النقد ما وجهوا، وذلك لكي ننصف القوم.

ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة لنوائم بين أخبارها المختلفة، ونجمع بين الأقوال المتضاربة، ونشير إلى حكم العقل المستقيم عليها، أهي صالحة لأن تكون مصدر دين يتدين به ألوف الألوف من البشر وأهل العلم، أم غير صالحة؟

إن كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأساس، فإذا كان غير صحيح السند أو غير مقبول لدى العقول كان ثبوت الدين فيه نظر، بل إنه انهار، وفقد أصله ولم يعد شيئا في الأديان مذكورا.

ولننتقل بعد ذلك إلى عقيدة المسيحيين، وبعض شرائعهم كما جاءت بها تلك الكتب التي علمت أمرها.

النصرانية كما هى عند النصارى وفى كتبهم

العقيدة :

٦٥ – جاء في كتاب سوسنة سليمان، لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى أن «عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى، هى الإيمان بإله واحد، أب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد، ويسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب فى الجوهر، الذى به كان كل شئ والذى من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على مافى الكتب. وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب، وسيأتى بمجد، ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه، والإيمان بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب، الذى هو مع الابن يسجد له ويمجد، الناطق بالأنبياء».

هذا هو جوهر العقيدة ولبها الذى لا اختلاف فيه، وفى هذا الكلام إيهام يحتاج إلى فضل بيان، وإنا مستعينون فى توضيحه بما كتبوه هم حتى لا نتزيد عليهم بقول، ولا نفرض عليهم فهمنا، ولكى نكون صادقى الحكاية لكل أقوالهم من غير أى تحريف، والذى يستفاد من هذا أن أساس العقيدة يقوم على ثلاثة عناصر :

العنصر الأول : التثليث والإيمان بثلاثة أقانيم.

والعنصر الثانى : صلب المسيح فداء عن الخليقة وقيامه من قبره، ورفعه.

والعنصر الثالث : أنه يدين الأحياء والأموات.

ولنتكلم كل عن واحد من هذه العناصر.

عقيدة التثليث :

٦٦ – قال الدكتور بست فى تاريخ الكتاب المقدس : «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الآب ، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير ».

ويفهم من هذا أن الأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق.

التوراة والتثليث.

وقد فسر هذا المعني القس بوطر في رسالة صغيرة، سماها (الأصول والفروع) وإليك ما جاء فيها : «بعد ما خلق الله العالم، وتوج خليقته بالإنسان لبث حيناً من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بوحدانيته، كما يتبين ذلك من التوراة، على أنه لا يزال المدقق يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية، لأنك إذا قرأت فيها بإمعان تجد هذه العبارات :

«كلمة الله، أو حكمة الله، أو روح القدس» ولم يعلم من نزلت عليهم التوراة ما تكنه هذه الكلمات من المعاني، لأنه لم يكن قد أتى الوقت المعين الذى قصد الله فيه إيضاحها على وجه الكمال والتفصيل، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة فى ضوء الإنجيل يقف على المعنى المراد، إذ يجدها تشير إلى أقانيم فى اللاهوت، ثم لما جاء المسيح إلى العالم أرانا بتعاليمه وأعماله المدونة فى الإنجيل أن له نسبة سرية أزلية إلى الله، تفوق الإدراك، وتراه مسمى فى أسفار اليهود : «كلمة الله» وهى ذات العبارة المعلنة فى التوراة، ثم لما صعد إلى السماء أرسل روحاً، ليسكن بين المؤمنين، وقد تبين أن لهذا الروح أيضا نسبة أزلية إلى الله فائقة، كما للابن، ويسمى الروح القدس، وسر ذات العبارة المعلنة فى التوراة كما ذكرنا، ومما تقدم نعلم بجلاء أن المسمى بكلمة الله والمسمى بروح الله فى نصوص التوراة هما المسيح والروح القدس المذكوران فى الإنجيل، فما لمحت إليه التوراة صرح به الإنجيل كل التصريح، وأن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم، وكل من أنار الله ذهنه وفتح قلبه وفهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر الكلمة بمجرد أمر من الله أو قول مفرد، ولا يفسر الروح بالقوة التأثيرية، بل لابد له أن يعلم أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين فى الكمالات الإلهية، وممتازين فى الاسم والعمل، الكلمة والروح القدس اثنان منهم، ويدعى الأقنوم الأول الآب، ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها، وأن نسبته للكلمة ليست صورية بل شخصية حقيقية، ويمثل للأفهام محبته الفائقة، وحكمته الرائعة، ويدعى الأقنوم الثانى الكلمة، لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس، ويدعى أيضاً الابن، لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة، والوحدة بينه وبين أبيه، وطاعته الكاملة لمشيئته، والتمييز بين نسبته هو إلى أبيه، ونسبة كل الأشياء إليه، ويدعى الأقنوم الثالث الروح القدس، الدلالة على النسبة بينه وبين الآب والابن، وعلى عمله فى تنوير أرواح البشر، وحثهم على طاعته».

الابن لا يعنى به الولادة البشرية :

وبناء على ماتقدم يظهر جلياً أن عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ إلى ولادة بشرية، ولكنها تصف محبة سرية فائقة بين أقنوم وآخر فى اللاهوت الواحد، وإذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة فى الذات، والأمانة للمشورة الإلهية، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزه عنها، لأجل هذه الإيضاحات علم خدام الدين المسيحى واللاهوتيون حسب ماقررته الكلمة الإلهية أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم، حسب نص الكلمة الأزلية، ولكل منهم عمل خاص فى البشر. انتهى بنصه تقريباً.

ونجد كاتب هذا الكلام يحاول ثلاث محاولات :

أولاهـا : إثبات أن التوراة وجد فيها أصل التثليث، لوحت به ولم تصرح ، وأشارت إليه، ولم توضح.

وثانيها : أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم، وهى فى شعبها متغايرة وإن كانت فى جوهرها غير متغايرة.

وثالثها : أن العلاقة بين الآب والابن ليست ولادة بشرية، بل هى علاقة المحبة والاتحاد فى الجوهر.

ولقد كان بيان ذلك المعنى أوضح من هذا البيان فى قول القس إبراهيم سعيد فى تفسير بشارة لوقا، فقد جاء فيه فى تفسير معنى كلمة ابن العلى التى جاءت فى إنجيل لوقا مانصه : يليق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد «يابن العلى» أو «ابن الله» فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله وإلا لقيل ولد الله، ولم يقصد بها مايقال عادة عن المؤمنين جميعاً أنهم أبناء الله، لأن نسبة المسيح لله هى غير نسبة المؤمنين عامة لله، ولم يقصد بها تفرقه فى المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا فى الجوهر، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التى بين المسيح والله، وهى محبة متبادلة، وما المحبة التى بين الآب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها، وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها، ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذى حاز رضا الله، وأطاع وصاياه، فقبل الموت موت الصليب، لذلك يقول الله فيه : «هذا ابنى الحبيب الذى به سررت، له اسمعوا» وقد

تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لأنه تمم إرادة الله في الفداء، ويراد بها إظهار التشابه والتماثل في الذات، وفي الجوهر، كما يكون بين الآب والابن الطبيعيين، فقيل عن المسيح أنه بهاء مجد الله، ورسم جوهره، وقال هو نفسه : من رآني فقد رأى الآب، أنا والآب واحد، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شئ الذى منه وبه وله كل الأشياء، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل».

الثالوث أشخاص متغايرة وإن كان وجودها متلازماً :

٦٧ – وفى هذا التفسير، والتفسير الذى سبقه يبدو بجلاء أن شخصية الابن غير الآب، وكذلك روح القدس، ولكن هل يدخل في الأقنوم الثاني جسده وروحه؟ جاء في كتاب خلاصة تاريخ المسيحية في مصر : «كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقوروس. ومعها الكنائس : الحبشية، والأرمنية والسريانية والأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم. أقنوم الآب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس، ومن مريم العذراء، مصيِّراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة».

وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بأن للأقنوم الثانى طبيعتين ومشيئتين، ومن هذا نرى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث، وهذا هو موضع اتفاق، ولكن موضع الخلاف بينها هو العنصر الإلهى فى المسيح، أهو الجسد الذي تكون من الروح القدس ومن مريم العذراء الذى باختلاطه بالعنصر الإلهى صار طبيعة واحدة ومشيئة واحدة أم أن الأقنوم الثانى له طبيعتان ومشيئتان؟.

٦٨– ومن هذا كله يفهم أن المسيحيين علي اختلافهم يعتقدون أن فى اللاهوت ثلاثة يعبدون، وعباراتهم تفيد بمقتضاها أنهم متغايرون وإن اتحدوا في الجوهر والقدم، والصفات، والتشابه بينهم كامل، ولكن كتابهم يحاولون أن يجعلوهم جميعاً أقانيم لشئ واحد، وبعبارة صريحة يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية، ولكن عند هذه المحاولة تستغلق فكرة التثليث، وتصير بعيدة عن التصور ، كما هى فى ذاتها مستحيلة التصديق، وأن كتابهم أنفسهم يعتقدون أنها بعيدة التصور عند هذه المحاولة، لأن من أصعب الأشياء الجمع بين الوحدانية والتثليث.

فترى صاحب رسالة الأصول والفروع بعد بيان عقيدة التثليث، يقول : «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، نرجو أن نفهمه أكثر جلاء فى المستقبل، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السموات وما فى الأرض، وأما فى الوقت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية» أى أن عقيدة التثليث لا يمكن أن تنكشف للنفس على وجهها إلا يوم تتجلى كل الأشياء لها يوم القيامة، وذلك حق، فإنهم لا يعلمون حقيقتها إلا يوم يحاسبهم الله عليها.

لماذا يحاولون الجمع بين الوحدانية والتثليث :

ولماذا شغف النصارى بذكر التوحيد بجوار التثليث، أو على الأقل يجتهد بعضهم فى بيان أنه لا منافاة بينهما؟ لعل الذى يدفعهم إلى ذلك هو اعتبارهم التوراة كتاباً مقدساً عندهم، وهى تصرح بالتوحيد، وتدعو إليه، وتحث عليه، وتنهى عن الشرك بكل شعبه. وكل أحواله، بل تدعو إلى البراءة من المشركين أينما كانوا، وحينما ثقفوا.

فهم يجتهدون أولا فى أن يستنبطوا من نصوصها ما يحملونه على الإشارة إلي التثليث، كعبارة «كلمة الله» أو عبارة «روح القدس».

وثانياً : يحاولون أن يرجعوا التثليث إلى الوحدانية، لتلتقى التوراة مع الإنجيل فيقربوا التوراة إليهم بتحميل عباراتها ما لاتحتمل، ويقربوا عقائدهم من التوراة بتضمين ثالوثهم معنى التوحيد، وإن كان هو أيضاً لا يحتمل ذلك، ولعل ذلك تتميم للفلسفة الرومانية التى كانت تحاول الجمع بين مسيحية المسيح عليه السلام، ووثنية الرومان، وتوراة اليهود بما تحمل من وحدانية ظاهرة لا شية فيها، إلا التجسيد، أو مايوهمه في بعض عباراتها.

٦٩– ولقد يجتهد كتاب المسيحية فى إثبات أن عقيدة التثليث وألوهية المسيح قد وردت بها كتبهم المقدسة، ويسندونها إلى آياتها، سواء أكانت من كتب العهد القديم، أم من كتب العهد الجديد، فيقول صاحب كتاب الأصول والفروع : «أما الآيات الإلهية التى تثبت لاهوت المسيح فهى كثيرة جداً، ولضيق المقام نكتفى باقتباس شئ يسير، فمن أقواله تعالى بلسان أشعياء النبى: «ها العذراء تحبل، وتلد ابناً، وتدعو اسمه عمانوئيل (أى الله معنا) » وقوله : «كأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً، وتكون الرياسة علي كتفه : ويدعى اسمه عجيباً، مشيراً إلها قديراً، أبا أبديا رئيس السلام» : أشعيا ٧ : ٩,٩٤ : ٦ – .

وعند عماده وتجليه على الجبل شهد له من السماء بصوت مسموع قائلا : «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» متى ٣ : ١٧,١٨ أ ص ٥.

ويشهد له يوحنا الرسول قائلا : في «البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله .. كل شئ به كان. وبغيره لم يكن شئ، والكلمة صار جسداً وحل بيننا، ورأينا مجده مجداً، كما للوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» يوحنا ١ : ١ ,٣ ,٤.

وقال المسيح نفسه : أنا والآب واحد، يوحنا . ١٠ : ٣٠، وقال له أحد تلاميذه : «ربي وإلهي » يوحنا ٢٠ : ٢٨ وقبل منه السجود. ولم يوبخه على دعوته إلها، ولما سأله رئيس الكهنة، وقال له : أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله؟ أجابه المسيح على الحلف: قال «أنا هو» متى ٢٦ : ٣٦ مرقس ١٤ : ٦٢، «وحينما ركب بحر الجليل أظهر طبيعتي لاهوته وناسوته الكليتين، وذلك بينما كان نائما هاجت الرياح، واضطربت الأمواج، فقام من النوم وأسكتها. فصار هدوء عظيم، متى ٨ : ٢٣ - ٢٧ فبنومه أظهر ناسوته، وبتسكينه الأمواج والرياح أظهر لاهوته».

ويقول صاحب ذلك الكتاب في أقنوم روح القدس : «ومن حيث أقنومية الروح القدس فظاهر من كلمة الله، لأن أشعياء يقول : «ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه، فتحول لهم عدوا، وهو حاربهم»، أشعياء ٦ : ١٠.

ويقول الرسول بولس : لا تحزنوا روح الله القدس، ومن المعلوم أنه إن كان للروح قوة، أو شئ من الأشياء غير العاقلة لا يمكن أن يحزن، أو يفرح أبداً : فلابد أن يكون أقنوماً.

ثم نقرأ في سفر الأعمال أن الروح قال للرسول : «أفرزوا إليّ برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه».

وهكذا يسترسل في أمثال هذا الاستدلال إلى أن يقول : «وقيل عن أعمال الله أنها أعمال الروح من الذي خلق العالم، ويجدد النفوس، والمولود منا مولود من الله، ويحيي أجسادنا الميتة، وهو علي كل شئ قدير».

وفضلا عما ذكر نجد في الكتاب أن الحقوق والصفات الإلهية تنسب على سواء إلى كل من الآب والابن والروح القدس.

ولكل منهم تقدم العبادة وهم متساوون ومتحدون، كما نرى فى دستورية المعمودية : «عمدوا باسم الآب والابن وروح القدس». متى ١٨ : ١٩، «والبركة الرسولية نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة وبركة الروح القدس مع جميعكم».

٧٠ — هذه هى استدلالاتهم من كتبهم لإثبات عقيدة التثليث، والإبراء عليها، وإثبات سندها من تلك الكتب، قد أطلنا فى نقلها عنهم، واقتطعناها من عباراتهم بنصها، ولم نتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرف فى البيان خشية التزيد عليهم، وخشية أن يؤدى التصرف فى التعبير إلى التغيير فى الفكرة، وترى أنهم لم يعتمدوا فى إثبات تلك العقيدة على أى دليل عقلى، بل كل اعتمادهم على ما عندهم من نقل يحملونه من أثقال المعانى ما تنوء به العبارات، ولا تحتمله أبعد الإشارات، وأنهم إذا حاولوا أن يربطوا قضية التثليث بالعقل حاولوا جهد الطاقة أن يجعلوا العقل يستسيغها فى تصوره، ويحسون أن العقل لا يكاد يستسيغ ذلك التصور، وقد نقلنا لك عن عباراتهم ما يفيد ذلك، فارجع إليه.

وإذا كانت محاولاتهم تصور القضية قد أجهدتهم، وكلفتهم مالا يطيقون، فكيف يستطيعون أن يجعلوا من بدائه العقل ما يحمله على تصديق مايدعون والاقتناع بما يقولون، لذلك لم يحاولوا أن يتجهوا إلى العقل لإثبات قضيتهم من بدهياته، فإن ذلك ليس فى قدرة أحد، إذ ليس فى قدرة أحد من البشر جمع النقيضين فى قرن، والتوفيق بين الأضداد، وقضيتهم والبدهيات العقلية نقيضان لا يجتمعان.

ونرى أن اعتمادهم على النقل لا يغنى من الحق شيئاً، لأن شروط الإنتاج فى استدلالهم غير مستوفاة، إذ ترى أن تلك العبارات التى عثروا عليها فى كتبهم لا تفيد على وجه القطع ما يريدون، بل قد تفيد بأبعد أنواع الاحتمالات، أو باحتمال قريب، ومن المعلوم فى قواعد الاستدلال أن الاحتمال إذا دخل الاستدلال أبطله، وكل أدلتهم ينفذ الاحتمال إليها من كل جانب. هذا وإن الاستدلال بكتبهم يفيد من يصدقها وهى ذاتها يعروها النقد العلمى فى سندها، وفى متنها من كل ناحية، فهى فى ذاتها فى حاجة إلى دفاع طويل لإثباتها، وقد بينا ذلك كله فى موضعه من بحثنا.

صلب المسيح فداء عن الخليقة :

٧١ — ولنترك الآن الحديث فى عقيدة التثليث، ولكن يجب قبل تركها مؤقتا أن نشير إلى أن التثليث لم يرد دفعة واحدة على المسيحية، بل تورد عليها شيئاً فشيئاً، إلى أن أعلن

نهائياً عند غالبيتهم فى نهاية القرن الرابع الميلادى، وسنبين ذلك كله فضل بيان فى موضعه من هذا البحث، ولنتكلم الآن فى العنصر الثانى من عناصر العقيدة المسيحية، وهو صلب المسيح فداء عن الخليقة، وقد أشرنا إليه إجمالا من قبل.

يقولون فى هذا : أن الله من صفاته المحبة، حتى لقد جاء فى الكتب المقدسة عندهم: «الله محبة» ومحبة الله ظهرت فى تدبيره طريق الخلاص للعالم، لأن العالم من عهد سقوط آدم فى الخطيئة ، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمته رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم، وقد جاء فى إنجيل لوقا : «وإن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب، ويخلص ماقد هلك» فبمحبته ورحمته قد صنع طريقا للخلاص، لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى، وبين عدله ورحمته، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم، ولكن باقتران العدل بالرحمة، وبتوسط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد، وقد كان التكفير الذى قام به المسيح هو الصلب، لهذا صلب، ورضى الله عن صلبه، وهو ابنه، ودفن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره، ويقولون أنه كان قد أنبأ بذلك قبل صلبه.

جاء فى إنجيل متى فى الفقرة التى بعد بيان الصلب : «اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين : ياسيد، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى أنى بعد ثلاثة أيام أقوم، فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث، لئلا يأتى تلاميذه ليلا، ويسرقوه، ويقولوا للشعب أنه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى، فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس، اذهبوا، واضبطوه كما تعلمون، فمضوا وضبطوا القبر بيد أن ظهوره كان بين تلاميذه».

وقد قام من القبر بعد ثلاثة أيام كما ذكرت أناجيلهم، ولكنها اختلفت فى تفصيل القيام، فمتّى ذكر أنه ظهر فى الجليل، ولوقا ذكر أنه ظهر فى أورشليم، ويوحنا ذكر أنه ظهر فى اليهودية والجليل معا، ومرقس بينٌ أن ظهوره كان بين تلاميذه.

وقد ذكر القس إبراهيم سعيد توفيقا بين هذا الاختلاف فقال : «أجمع البشيرون الأربعة علي تقرير هذه الحقيقة. ليس المسيح فى القبر، لأنه قام كما قال، ولكن كلا منهم كتب عن القيامة وظهور المسيح للتلاميذ من وجهة نظره الخاصة، متّى كتب عن ظهور المسيح فى الجليل، لأنه كتب عن المسيح الملك، ولوقا كتب عن ظهوره فى أورشليم، لأنه كتب عن المسيح مخلص جميع الأمم مبتدئا من أورشليم ، ويوحنا كتب عن ظهوره في اليهودية والجليل لأنه كتب عن المسيح ابن الله الأبدى صخر الدهر. ومرقس كتب عن ظهور المسيح للتلاميذ فى فترات متقطعة، ليشدد عزائمهم للقيام بالخدمة التى تنتظرهم، لأنه كتب عن المسيح الذى جاء ليخدم البشرية، ويرفعها إلى مستوى الكمال، كل هذا لكى يوقع البشيرون الأربعة نعمة مشعبة متنوعة العناصر لأنشودة القيامة المجيدة فلئن تنوعت روايتهم إلا أنها لا تتناقض».

وهذا أشبه بالتعلات التى لا تناقش، ولا تقوى أمام النظر المنطقى المستقيم، ولكنها تقبل فى الخطابيات، فهى كالزهرة ترى وتشم، ولكن لاتعرك، وذلك لأن هذا التوفيق يقوم على قضيتين:

إحداهما : أن كل إنجيل كتب لغرض معين لا يشمل فى عمومه ما كتب له الإنجيل الآخر.

وثانيهما : أن كلا ذكر المكان الذى يتفق مع غرضه، وإذن فلا اختلاف فى الخبر.

وهذا الكلام فيه نظر فى مقدمته ونتيجته، وذلك لأنه لو كان متى كتب يخبر عن المسيح الملك، ولوقا عن المسيح المخلص، وهكذا، لكان كل إنجيل مغايرا للأناجيل الأخرى تمام المغايرة، مباينا له تمام المباينة، لأنه يكتب فى موضوع يخالف ما يكتب فيه الآخر، وإن كان الشخص واحداً، كأن يكتب كتاب عن شخص بارز فى السياسة والقانون. فكاتب يكتب عنه سياسيا، وآخر يكتب قانونيا، فالموضوع يختلف، وإن كان الشخص متحدا، ولكنا لا نجد فى الأناجيل فى مجموعها ذلك التغاير، وعلي فرض تسليم تلك القضية لا نستطيع أن نسلم القضية الثانية، وهى أن الجليل يناسب المسيح الملك، وأورشليم تناسب المسيح المخلص، وهكذا . فلماذا اختصت هذه بالملك وتلك بالخلاص ؟ إن ذلك التخصيص تحكم لا يعتمد على منطق. وعلى فرض صحة المقدمتين فإن النتيجة لا تتبنى عليهما، لأن النتيجة

اختلاف ذكر الأمكنة فى حادثة معينة والشهادة بها، فأحد الشهود يقول : أنه رآه فى الجليل، وآخر يشهد بوجوده بين التلاميذ فى فترات متقطعة، وثالث يشهد بوجوده فى أورشليم، وإذا اختلف الشهود فى مكان حادثة معينة كان اختلافهم سببا للظنة في الشهادة واتهام الشهود فيها، ولئن قيل أن المسيح ظهر في الأمكنة التى ذكرت، بيد أن كلا ذكر ما رأى، ولم يكن رآه فيها جميعا كان الكلام مستقيما، ولكن يكون معناه أن كل إنجيل لم يذكر حال المسيح كاملة، ويحتمل أن يكون الجميع لم يذكروها كاملة على هذا الأساس، ويكونوا قد نسوا حظا مما ذكروا به.

المسيح يدين ويحاسب :

٧٢ – لم يمكث المسيح بعد قيامته هذه التى يعتقدها المسيحيون إلا أربعين يوما، ثم ارتفع بعدها إلى السماء، وجلس بجوار الرب فى زعمهم، وسيأتى ليدين الناس يوم القيامة، يحاسب كل إنسان على مافعل وقال إن خيراً فخير، وإن شرا فشر. وله بهذا الملك الأبدى، فلا فناء لملكه، فهم يقولون : إن الله قد أقام يوما سيدين فيه سكان هذه الأرض بيسوع المسيح، لأن الآب فى زعمهم لا يدين أحدا، بل قد أعطى ذلك للابن، فأعطاه سلطان أن يدين الإنسان، لأنه ابن الإنسان أيضا، ولابد أن يظهر الناس جميعا أمام كرسى المسيح، لينال كل واحد جزاء ما كان قد صنع، خيرا أو شرا، هذه عقيدتهم.

فقد جاء فى إنجيل يوحنا : «الحق أقول لكم، أنه تأتى ساعة، وهى الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون، لأنه كما أن الآب له حياة فى ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة فى ذاته، وأعطاه سلطانا أن يدين أيضا، لأنه ابن الإنسان، ولا تعجبوا من هذا فإنه تأتى ساعة يسمع جميع الذين فى القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئا، كما أسمع أدين، ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى». راجع الإصحاح الخامس.

وجاء فى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس : «لابد أننا جميعا نظهر أمام كرسى المسيح، لينال كل واحد منا ما كان بالجسد، بحسب ما صنع، خيراً كان أم شرا» (راجع الإصحاح الخامس من هذه الرسالة).

وجاء فى رسالة بولس إلى أهل تسالونيكى : «إن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقا، وإياكم الذين تتضايقون - راحة معنا، عند استعلان الرب يسوع مع ملائكة قوته، فى نار لهيب معطيا نقمته للذين لا يعرفون الله، والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدى من وجه الرب، ومن مجد قوته، متى جاء ليتمجد فى قدسيته، ويتعجب منه فى جميع المؤمنين».

فهذه النصوص جميعا تبين بجلاء أن الذى سيحاسب الناس، ويجازيهم بما فعلوا الخير بمثله والشر كذلك. إنما هو المسيح فى نظرهم.

تقديس الصليب

مقام الصليب في المسيحية :

٧٣ - لا يرتفع تقديس الصليب إلى مرتبة العقائد السابقة، لأن تلك العقائد أساس المسيحية، أما الصليب فليس له ذلك الحظ. وإن كان شعارهم، وموضع تقديس الأكثرين. ولذا كان حمله علامة على اتباع المسيح.

جاء فى إنجيل لوقا : «وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى».

وحمل الصليب كما يقول كتابهم، إشعار بإنكار النفس، واقتفاء أثر المسيح فى هذا الإنكار، والسير وراء مخلصهم، وفاديهم.

جاء فى شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد : «إن آثار قدمى المعلم تعين طريق خطوات التلاميذ لأنه وإن كان المسيح قد صلب عنا فقال فى صلبه : « قد أكمل » لكنا قد أصبحنا بحكم صلبه عنا تحت التزام شرعى لأن نكون شركاء المسيح المتألم. إن شركتنا الشرعية مع المسيح المصلوب ينبغى أن ترافقها وتدعمها شركة اختيارية فعلية معه، إن صلب المسيح معناه مات عنا، ولكن صليب كل مؤمن معناه: «موت النفس عن الأنانية وحب الذات» وخلاصة هذه الذات هى النفس الأمارة بالسوء، هى تلك الإرادة المتمردة التى ينبغى أن نخضعها، ونستأسرها لطاعة المسيح، فقول كل واحد ليس ما أريد أنا بل ماتريد أنت يارب، إنه من أوجب واجبات كل مسيحى أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً. لأن التعبير

بحمل صليبه مستعار من العادة التى قضت بها الأنظمة الرومانية علي المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم. وهذه العبارة انفرد لوقا بذكرها، فهو صليب.يتجدد كل يوم، كلما تجددت الآمال فى الحياة اليومية العملية، فلابد إذن لحمل الصليب من خطوة تسبقه، وخطوة تعقبه، أما الخطوة السابقة له فهي إنكار النفس، بمعنى أن يقول تلميذ المسيح لنفسه الأمارة بالسوء، لا ، لأن حمل الصليب هو حمل العار مضافاً إلى ألم الموت، وهذا عمل يستلزم إنكار النفس، لأن الرومان لم ينفروا من الصليب فقط، بل فزعوا من ظله. كذلك كان شعور اليهود بأن الصليب هو حمل اللعنة، لأنه مكتوب فى ناموسهم : «ملعون كل من علق خشبة»، والخطوة اللاحقة لحمل الصليب بل الخطوات هى اقتفاء آثار المسيح كقوله :«ويتبعنى»، إذن ليس حمل صليبنا غاية لكنه وسيلة لهذه الغاية، وهى اتباع المسيح حيث «يمضى» أ. هـ.

فحمل الصليب إذن عندهم ليس غاية، وليس مقصوداً لذاته، ولكنه مقصود لغاية أخرى أسمى عندهم، وهى اقتفاء خطوات المسيح فى إنكار الذات، والرضا بالفداء فى زعمهم واتباع تعاليمه.

عبادتهم :

٧٤ – عند النصارى عبادتان : هما الصلاة ، والصوم ، أما الصوم فإنهم يقولون إن شرعه عليهم اختيارى لا إجبارى، وميقاته قد تتخالف فيه الفرق، فلنتركه إلى الكلام فى الفرق والكنائس إن كان للقول متسع، ولنتكلم الآن فى صلاتهم.

والصلاة عندهم ركن من أركان الدين، وهى فى زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح.

ولقد جاء فى كتاب الأصول والفروع : «إن الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق والحافظ والفادى، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب، يعبر بها عما يخالجه من الأشواق والعواطف، فبالنظر لاقتناعه بقداسته تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له، وبالنسبة لاقتناعه بجوده وإحسانه تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد، وبالنسبة لوقوعنا فى الخطيئة، تكون الصلاة كلمات التذلل والتواضع والاستغفار، وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى تكون الصلاة طلباً ودعاء».

والصلاة عندهم لها شرطان أساسيان لاتوجد بدونهما، هما منها بمنزلة الدعامة :

الشرط الأول : أن تقدم باسم المسيح، فقد جاء فى الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا : «الحق أقول لكم إن كل ماطلبتم من الآب باسمى يعطيكم، وإلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمى، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا».

ويعللون ذلك بأن الإنسان بسبب خطاياه أبعد عن رضا الله، ولكن بدم المسيح زال هذا البعد، وأصبح قريباً إليه.

فقد جاء فى رسالة بولس إلى أهل أفسس فى الإصحاح الثانى منها : «لكن الآن فى المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلا بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذى جعل الاثنين واحداً، ونقض حائط السياج المتوسط».

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع: «للصلاة باسم المسيح معنى أدق من ذلك، وهو أن الاسم يمثل دائما المسمى فتكون صلاتنا باسم المسيح تمثل وحدته معنا، بحيث تكون طلباتنا طلباته، وصلاحنا صلاحه، وحياتنا حياته، وبالجملة كأنه يحيا فينا ولأجلنا».

الشرط الثانى :

أن يسبق الصلاة الإيمان الكامل بما عندهم، فقد جاء فى الإصحاح الحادى عشر من إنجيل مرقس مانصه : «لذلك أقول لكم كل ماتطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه، فيكون لكم».

وجاء فى رسالة يعقوب : «وليكن الطلب بإيمان غير مرتاب ألبتة، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئا من الرب».

وليست للصلاة عندهم عبارات خاصة معلومة يجب أن يتلوها، بل ترك لهم أن يتلوا العبارات التى يختارونها بشرط ألا تخرج عن قاعدة الصلاة التى علمهم إياها المسيح لكى يصلوا على منوالها، وهى المسماة بالصلاة الربانية، وهى التى جاءت فى صدر الإصحاح الحادى عشر من إنجيل يوحنا، ففيه عن المسيح، «وإذ كان يصلى فى موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه : يارب علمنا أن نصلى، كما علم يوحنا أيضا تلاميذه، فقال لهم : متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، ولتكن مشيئتك كما

فى السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم، واغفر لنا خطايانا، لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب إلينا، ولا تدخلنا فى تجربة، ولكن نجنا من الشر. ولديهم أمثلة كثيرة للصلوات يختارون منها ما يسهل عليهم. وأشهر الأسفار المشتملة على نماذج للأدعية والصلوات سفر المزامير.

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع : «إنه خزانة ذهبية لصلوات داود النبى وغيره من الأنبياء، صلوا بها فى أحوالهم الخاصة، مسوقين من الروح القدس، وكثيرا ما يعرض علينا ذات أحوالهم،فنقتبس من أقوالهم ما يطابق حالنا للاستعانة على التعبير عما بنا من ملمات الأمور، كما إذا كنا فى حال الحزن والأسى على خطايانا نقتبس فى صلاتنا من مزمار . – ٥١– لأنه يشتمل على أشد العبارات تأثيرا بصدد التوبة والاعتراف، والاستغفار من الله، وكما إذا كنا فى حال الشعور برحمة الله علينا ونعمته نقتبس من مزمار – ١٠٣– التعبير عن شكر قلوبنا، وشعورها بالمحبة والنعمة»انتهى بتصرف.

وليس عليهم عدد معين من الصلوات كل يوم، كما أنه ليس لها مواقيت معلومة، بل كل ذلك قد وكل إلى نشاط المصلين، ورغبتهم فى العبادة، ولكن لأن اليهود كانوا يعبدون الله في هياكلهم في صباح كل يوم ومسائه استنبطوا أنه تلزم الصلاة مرتين، إحداهما في الصباح، والأخرى فى المساء.

ويقولون فى حكمة ذلك «فى الصباح نطلب بركة الرب علينا سحابة اليوم، وأن يهدينا إلى عمل مافيه رضاؤ ه، وأن يحفظنا من السوء، وفى المساء نشكره على إحسانه علينا كما أننا نعترف بما فرط منا فى اليوم من الزلات، ونطلب منه المغفرة ودوام نعمته علينا، وفوق ذلك لا نفتأ نذكر فضله ونشعر بجميله دائما».

وإذا لم يكن للصلاة عدد محدود عندهم، فالمستحسن الإكثار، ويخالفون اليهود فى زعمهم أن الإكثار من الصلاة يجعل الله يمل.

جاء فى إنجيل لوقا فى صدر الإصحاح الثامن عشر مانصه، «قال لهم مثلا فى أنه ينبغى أن يصلى كل حين، ولا يمل قائلا : كان فى مدينة قاض لا يخالف الله ولا يهاب إنسانا، وكان فى تلك المدينة أرملة، وكانت تأتى قائلة : أنصفنى من خصمى. وكان لا يشاء إلى زمان، ولكن بعد ذلك قال فى نفسه، وإن كنت لا أخاف الله ولا أهاب إنسانا، فإنى

لأجل أن هذه الأرملة تزعجنى أنصفها لئلا تأتي دائما فتقمعنى. وقال الرب : اسمعوا مايقول قاضى الظلم، أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهارا وليلا وهو متمهل عليهم، أقول لكم أنه ينصفهم».

يقول القس إبراهيم سعيد في شرح الجمل فى إنجيل لوقا، «ينبغى أن يصلى كل حين ولا يمل» من هنا ترى أن صلاة المثابرة واللجاجة ليست من الأمور الممكنة فقط، ولكنها من الأمور الواجبة، فهى فرض عين لافرض كفاية، وهذا عن خلاف ما علم به التلمود : محظور على الإنسان أن يصلى أكثر من ثلاث مرات فى النهار، لأن الله يمل الصلاة كل ساعة، ولقد أوصى المسيح بالصلاة من غير ملل لعلمه أن صلاة الروح تعب على الجسد، سيما إذا تأخرت الإجابة، فالروح نشيط والجسد ضعيف».

وجاء فى آخر رسالة بولس إلى أهل تسالونيكى : «صلوا بلا انقطاع».

وبينّ معنى ذلك صاحب رسالة الأصول والفروع فيقول، «معنى هذا أن نستحضر فى أذهاننا روح الصلاة على الدوام، وكلما خطر علي البال ذكر الله ومحبته نرفع قلوبنا إليه، سواء أكان بالقول أو بالتوجهات القلبية بدون كلام والله يعلم ما فى القلوب».

من شعائر المسيحيه :

٧٥ – للمسيحية شعائر يجب القيام بها، لا يصح التخلى عنها، ويقولون فيها أنها فرائض مقدسة وضعها المسيح، وهى أعمال جليلة تشير إلى بركات روحية غير منظورة عندهم، ومن الشعائر الواجب اعتقادها والعمل بها التعميد والعشاء الربانى.

التعميد والعشاء الربانى :

وقد جاء فى إنجيل متى عن التعميد، «تقدم يسوع وكلمهم قائلا : دفع إلىّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس ، وعلموهم جميع ما أوصيكم به».

وجاء بالنسبة للعشاء الربانى فى رسالة بولس لأهل كورنثوس مانصه : «إن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها نفسه أخذ خبزاً، فكسر وقال : خذوا وكلوا، هذا هو جسدى المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا لذكرى».

كذلك ذكر الكأس أيضا بعدما تعشوا قائلا : «هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى، اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى، فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجئ».

بهذه النصوص ثبت التعميد، والعشاء الربانى، والتعميد يقول فيه صاحب كتاب الأصول والفروع : فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء باسم الآب والابن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح، وهى ختم عهد النعمة كما كان الختان في الشريعة الموسوية، والمعمودية تدل على اعترافهم العلنى بإيمانهم وطاعتهم للآب والابن والروح القدس كإلههم ومعبودهم الوحيد، ولا يجوز أن يعمدوا إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهاراً أمام كنيسة الله». ويقول فى العشاء الربانى:

«وهو فريضة رسمها المسيح فى الليلة التي أسلم فيها الجسد، ويستعمل فى هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز، وقليلا من الخمر على المثال الذي رسمه المسيح تذكاراً لموته، فالخبز يشير إلى جسده المكسور، والخمر إلى دمه المسفوك، فالمؤمنون الذين يشتركون في هذا العشاء يقبلون المسيح بالإيمان كالخبز الذى نزل من السماء وكل من يأكل منه لايجوع، ولكنهم لا يقبلونه طعاماً جسدياً بل طعاماً روحياً لحياة روحية لأجل النمو فى النعمة والإيمان» ويقول أيضاً : «ويشير العشاء الربانى إلى مجئ المسيح الثانى ، كما يشير إلى موته فيكون تذكاراً للماضى والمستقبل».

من تنظيم الأسرة :

٧٦ – فى الأناجيل ورسائل من يعتقدون أنهم الرسل فى المسيحية ذكر للزواج والطلاق، ففيها بيان لبعض شريعة الأسرة مختصرة، وخلاصة ما جاء فى كتبهم المعتبرة أن الزواج قد سن للإنسان وشرع له، بل إن الزواج شرعه الله للإنسان وهو في جنة عدن، فخلق لآدم من ضلعه حواء لأنه كما فى التكوين : «ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصبح له معيناً نظيره».

على أن المسيح فى إنجيل متى قد أجاز العزوبة في حال عدم القدرة التناسلية، وذلك بدهى.

وجاء فى رسالة بولس لأهل كورنثوس أنه تجوز العزوبة إذا استطاع الرجل أو المرأة أن يضبط نفسه، ويتوقى الزنى، فقد جاء فى الإصحاح السابع من هذه الرسالة : «ولكنى أقول لغير المتزوجين ، وللأرامل : أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فيتزوجوا ، لأن التزوج أصلح من الخرق».

وشريعة الزواج عندهم لا تحل للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة وإن لم يوجد نص فى ذلك، ولا يطلق، وقد فهموا تحريم الطلاق من إنجيل متى، ففى الإصحاح التاسع عشر منه : «قال له تلاميذه : إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج ؟ فقال : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام. بل الذى أعطى لهم، ولا يفترق الزوجان إلا بالموت، وبعد موت أحدهما يحل للحى أن يتزوج غيره».

وهذا نص ماجاء فى رسالة بولس لأهل رومية : «إن الناموس يسود على الإنسان مادام حياً، فإن المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالناموس بالرجل الحى، ولكن إن مات الرجل، فقد تحررت من ناموس الرجل، فإذاً مادام الرجل تدعى زانية إن صارت لرجل آخر وقبل موت أحدهما لا يحل لهما الطلاق».

وهذا نص ماجاء فى متى في الإصحاح التاسع عشر منه : «جاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم : أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى؟ وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً، وإذ ليس بعد اثنين، بل جسد واحد، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان، قالوا : فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق، فتطلق ؟ قال لهم : إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هذا، وأقول لكم أن من طلق امرأته إلا بسبب الزنى، وتزوج بأخرى يزنى، والذى يتزوج بمطلقة يزنى».

الطلاق إذن لا يجوز ولا يقع، ولكن استثنيت حالان يجوز فيهما الافتراق :

الحال الأولى : حالة زنى أحد الزوجين ، فللآخر أن يطلب التفريق ويجاب فى هذه الحال إن ثبت الزنى.

الثانى : إذا كان أحد الزوجين غير مسيحى فيصبح التفريق عند تهاجرهما وعدم وجود الألفة بينهما، ولذا جاء فى رسالة بولس إلى أهل كورنثوس « والمرأة التى لها رجل غير مؤمن ، وهو يرتضى أن يسكن معها فلا تتركه، لأن الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل، وإلا فأولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدسون، ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق».

ولقد أمرت المسيحية فى وصايا رسلهم بأن يحب الرجال نساءهم. فقد جاء فى إحدى رسائل بولس : «أيها الرجال أحبوا نساءهم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة، وأسلم نفسه لأجلها» وفيها أيضا : وأما أنتم أيها الأفراد فليحب كل واحد امرأته، هكذا كنفسه، وأما المرأة فلتحب رجلها.

شرائع التوراة والمسيحية

منزلة شرائع التوراة فى المسيحية :

٧٧ – ولقد كان المفهوم من أن المسيحية تعتبر التوراة وأسفار النبيين السابقين كتباً مقدسة تسميها كتب العهد القديم، أن تأخذ بكل الشرائع التى نصت عليها التوراة إلا ما خالفه المسيح بنص قد أثر عنه، ويظهر أن المسيحيين استمروا علي ذلك نحوا من اثنتين وعشرين سنة بعد المسيح، وهم فى هذا كانوا يسيرون على المنهاج الذى سنه والطريق الذى بينه، ولكن التلاميذ اجتمعوا بعد مضى اثنتين وعشرين سنة من تركه لهم، وخطب يعقوب فيهم، مقترحاً عليهم أن يحصروا المحرم على الأمم فى أربعة ، وهى : الزنى، وأكل المخنوق، والدم، وما ذبح للأوثان، وكان ذلك لأنهم وجدوا أن الختان يشق على بعض من يدعونهم إلى النصرانية فيفرون منها بسببه.

وهذا نص ما جاء فى الإصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال بعد بيان خلاف التلاميذ بشأن الختان، واجتماعهم لأجل الفصل فى شأنه. وحينئذ رأى الرسل والمشايخ أن يختاروا رجلين منهم، فيرسلوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا، وهما يهوذا الملقب برسابا، وسيلا، رجلين متقدمين فى الأخوة، وكتبوا بأيديهم هكذا: الرسل والمشايخ يهدون سلاماً إلى الإخوة الذين هم من الأمم فى أنطاكية وسورية وكيليكية، إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم، وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس،

من الذين نحن لم نأمرهم، وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين، ونرسلهما إليكم مع حبيبنا برنابا، وبولس، رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح، فقد أرسلنا يهوذا وسيلا، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها، لأنه قد رأى الروح القدس، ونحن – ألا نضع عليكم ثقلا أكثر، غير هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم، والمخنوق، والزنى ، التى إن حفظتم أنفسكم منها، فنعما تفعلون، كونوا معافين».

فى هذا الخطاب يتبين أن المشايخ والتلاميذ يحللون للناس كل ما حرمه الناموس، أى التوراة وكتب النبيين السابقين، ولا يجعلون محرماً عليهم إلا أربعة أمور، والامتناع عنها هو الأمر الواجب فقط، وبذلك حل لهم كل شئ حرمته التوراة، حل لهم الخمر والخنزير، وكل ما كانت التوراة وشرائع النبيين قد حرمته، وبأى شئ أعطى هؤلاء القدرة على التحليل والتحريم؟ قد قالوا : إن ذلك بإلهام من روح القدس وتجليه.

وقد ذكر صاحب سفر الأعمال عن لسان بطرس، أنه قال فى افتتاح ذلك الاجتماع الذى أصدر ذلك القرار مانصه : «أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمى يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون. والله العارف للقلوب شهد لهم معطياً لهم روح القدس، كما لنا أيضاً ، ولم يميز بيننا وبينهم بشئ، إذ طهر بالإيمان قلوبهم، فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نعمله ولكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص، كما أولئك أيضاً».

فمن هذا النص يستفاد أن الذى سوغ لهؤلاء أن ينصرفوا جهراًعما كانوا عليه، وعما تركهم المسيح عليه، هو أنهم ينزل عليهم الروح القدس، كما كان ينزل على النبيين والصديقين ، وذلك في اعتقاد كتاب المسيحية، وقد بينا حقيقة ذلك فى موضعه من كلامنا عن الكتب.

تحليل لحم الخنزير مع تحريمه فى التوراة :

ولقد أحلوا فيما أحلوا من محرمات التوراة لحم الخنزير، وكان المعروف أنه حرام فى النصرانية التى تأخذ بكتب العهد القديم، وعلى رأسها التوراة.

ويروى ابن البطريق فى هذا المقام أن اليهود لما دخلوا فى النصرانية بسبب اضطهاد قسطنطين لهم بعد تنصره تشكك النصارى فى إيمانهم، فأشار بطريرك

القسطنطينية على قسطنطين أن يختبرهم بحملهم على أكل لحم الخنزير. وقال له : «إن الخنزير فى التوراة حرام ، واليهود لا يأكلونه، فتأمر أن تذبح الخنازير ، وتطبخ لحومها ويطعمون منها هذه الطائفة، فمن لم يأكل علمت أنه مقيم على اليهودية» عندئذ آمن قسطنطين بتحريم الخنزير ، إذ نصت على التحريم التوراة المقدسة فى نظر النصارى، كما هى مقدسة فى نظر اليهود، وقال : «إن الخنزير فى التوراة محرم فكيف يجوز لنا أن نأكل لحمه، ونطعمه للناس» ولكن البطريرك مازال به حتى حمله على الاعتقاد بأنه حلال، فقد قال له : «إن سيدنا المسيح قد أبطل سائر ما فى التوراة، وجاء بتوراة جديدة هى الإنجيل، وقال فى إنجيله المقدس أن كل ما يدخل الفم ليس ينجس الإنسان، إنما ينجس الإنسان كل مايخرجه من فيه» يعنى السفه والكفر، وغير ذلك مما يجرى مجراه، ويقص قصة عن بولس رسولهم بأن بطرس رأى رؤيا تفيد التحليل، وبذلك يحللون الخنزير.

المجامع المسيحية، تاريخها - وأسبابها - وقراراتها

٧٨ - قد شرحنا فيما أسلفنا من القول العقائد المسيحية، كما هى فى كتبهم ولم نتجه إلى الآن لدراستها دراسة نقدية لأننا نجدهم يجتهدون فى تصويرها ويشعرون بعظم المشقة فى ذلك، حتى إذا يئسوا قالوا أنها فوق العقل، وأن العقل لا يستطيع تصويرها تصويراً كاملا، وأنها ستنجلى يوم القيامة، ولذلك نجد من الظلم لأنفسنا أن نناقشها، لأن العقل لا يستسيغها باعترافهم، فكيف نناقشها؟ وهم يلقنون الصبية بأن يجتهدوا فى تصورها وتصديقها، لا فى البرهنة لها وإثباتها، ولذلك نترك الآن مناقشتها بالعقل، ونحيل القارئ الكريم على ماكتب الذين ناقشوها من فطاحل العلماء، ونخص بالإشارة كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى، وكتاب الفارق فيما بين المخلوق والخالق، والقول الصحيح لابن تيمية ، بلل الله ثراهم، فإن هؤلاء لم يتركوا مقالا لقائل.

ويهمنا الآن فى بحثنا التاريخى أن نبين الأدوار التى مرت عليها هذه العقيدة، فإنه من المقرر فى تاريخ المسيحية بالبداهة أن التثليث بالشكل الذى يعتقده جماهير المسيحيين، أو الكثرة الغالبة فيهم، لم يعلن للناس دفعة واحدة، بل فى أزمان متفاوته مختلفة، وكان بإعلان المجامع التى كانت تعقد من الأساقفة، وفيها يقرر المجمع رأياً معيناً، ولا يهمنا مما كانت تقرره تلك المجامع إلا ما يتعلق بالعقيدة، وإن كنا سنعرض أحياناً لما كان يجئ فى ثنايا قراراتها من بعض النظم.

كيف وجدت فكرة جمع المجامع :

والمجامع فى المسيحية هى كما يقول علماؤهم جماعات شورية في المسيحية، قد رسم رسلهم نظاماً فى حياتهم، حيث عقدوا المجمع بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة، وقرر ذلك المجمع، كما علمت قريباً، عدم التمسك بمسألة الختان، بل زاد عدم التمسك بشرائع التوراة، وما وليها من سائر أسفار العهد القديم المقدس عندهم فيما يتعلق بالتحريم، إلا تحريم الزنى، وأكل المخنوق، وأكل ذبائح الأوثان، فقد قالوا أن التلاميذ والمشايخ بهذا المجمع الذي بينه سفر الأعمال فى إصحاحه الخامس عشر قد سنوا للمسيحيين سنة جمع المجامع لدراسة مايتعلق بالعقيدة والشريعة.

المجامع العامة والمجامع الخاصة :

والمجامع عندهم قسمان : مجامع عامة أو على حد تعبيرهم مجامع مسكونية، أى تجمع رجال الكنائس المسيحية فى كل أنحاء المعمورة، والمجامع المكانية وهى التى تعقدها كنائس مذهب أو أمة فى دوائرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها، إما لإقرار عقيدة، أو لفرض عقائد أخرى.

ويقسم المجامع صاحب كتاب سوسنة سليمان إلى ثلاثة أقسام فيقول : «وهذه المجامع تنقسم بالنظر إلى عدد أربابها ودرجاتهم وشوكتهم إلى ثلاثة أقسام وهى : مجامع عامة، ويقال لها مسكونية، ومجامع ملية، أى خاصة بطائفة دون غيرها، ومجامع إقليمية، أى خاصة بإقليم مخصوص، لكن مقاصد كلامنا لا تحتاج إلا إلى ذكر المجامع التى تعتبر عامة، سواء صادق عليها الجميع أو أنكرها بعضهم على بعض، لما فى ذلك من معرفة النتائج التى تولدت عنها».

هذا كلام صاحب ذلك الكتاب المسيحى، وإذا كان هو لايعنى فى تاريخ ديانته إلا بالمجامع العامة، فنحن كذلك لانعنى إلا بها، وقد أحصى المجامع العامة من القرون الأولى للمسيحية إلى سنة ١٨٦٩ فكانت عدتها عشرين مجمعاً، وقد ذكرها جميعاً بالإجمال، وذكر قراراتها بالإشارة، وسنحنو حذوه فى بعضها، وسنترك الإجمال إلى بعض التفصيل فى بعضها الآخر، وخصوصاً فى المجامع التى كانت فى القرون الأولى للمسيحية لأنها هى

التى حددت للأخلاق حدود العقيدة المسيحية فى نظر مقربيها، وهى التى رسمت المسوح والتقاليد الكنسية القائمة فى الكنائس، أو بعضها الكثير إلي الآن، وهى التى فلحت الأرض لتبذر بذور هذه المسيحية التى سادت أفكار المسيحيين في الأجيال من بعد.

ونبدأ بأعظم هذه المجامع، وأبعدها أثراً، وأكبرها شأناً، وأولها وجوداً وأعظمها ذكراً وهو مجمع نيقية.

١- مجمع نيقية سنة ٣٢٥

سبب انعقاده العام الاختلاف بينهم فى شخص المسيح :

٧٩ - اشتد الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأولى، وتباعدت مسافات الخلف تباعداً شديداً. لا يمكن أن يكون معه وفاق، وكان الاختلاف يدور حو ل شخص المسيح، أهو رسول من عند الله فقط، من غير أن تكون له منزلة أكثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقه، أم له بالله صلة خاصة أكبر من رسول، فهو من الله بمنزلة الابن، لأنه خلق من غير أب، ولكن ذلك لا يمنع أنه مخلوق لله، لأنه هو كلمته، ومن قائل أنه ابن الله، له صفة القدم، كما لله تلك الصفة، وهكذا تباينت نحلهم، واختلفت، وكل يزعم أن نحلته هى المسيحية الصحيحة التى جاء بها المسيح عليه السلام، ودعا إليها تلاميذه من بعده، ويظهر أن ذلك الاختلاف، وتلك النحل المتباينة المتضاربة المتنازعة قد ظهرت بعد أن دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين من الرومان، واليونان، والمصريين، فتكون فى المسيحية مزيج غير تام التكوين، غير تام الاتحاد والامتزاج، وكل قد بقى عنده عن عقائده الأولى ما أثر فى تفكيره فى دينه الجديد، وجعله يسير على مقتضى ما اعتنق من القديم من غير أن يشعر أو يريد.

وممن دخل فى ذلك الدين فلاسفة لهم آراء فلسفية أرادوا أن يفهموا ما اعتنقوه جديداً على ضوئها، وعلى مقتضى منطقها وتفكيرها.

ولقد كانت تلك الاختلافات كامنة لا تظهر مدة الاضطهادات الرومانية، لأنهم شغلوا بدفع الأذى، ورد البلاء واستقبال المحن والكوارث، وكانوا يستترون بدينهم ولا يظهرونه، ويخفون عقائدهم، ولا يعلنونها، حتى إذا رزقوا الأمان، ونزلت عليهم سحائب الاطمئنان ظهرت الخلافات الكامنة، وإذا هم لم يكونوا متفقين إلا فى التعلق باسم المسيح،

والاستمساك بالانتساب إليه، من غير أن يتفقوا على شئ فى حقيقته، ولذا لما منحهم قسطنطين عطفه، واعتزم الدخول فى النصرانية، ووجد هذا الاختلاف الشديد، أمر بعقد مجمع نيقية.

الاختلاف الخاص الذى انعقد المجمع بعده :

٨٠ — هذا هو السبب فى عقد مجمع نيقية بشكل عام، ولكن له سبباً خاصاً يتعلق بنوع من هذه الخلافات، وهو ما يسمونه فى تاريخهم بدعة أريوس. كان هذا الرجل فى مصر داعية قوى الدعاية، جريئاً فيها، واسع الحيلة، بالغ الأدب، قد أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من ألوهية المسيح وتدعو إليه، فقام هو محارباً ذلك، مقراً بوحدانية المعبود، منكراً ما جاء فى الأناجيل مما يوهم تلك الألوهية.

كلام أريوس :

وقد قال فى بيان مقالته ابن البطريق : «كان يقول أن الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الآب إذ لم يكن الابن».

ولم يكن بدعاً فى القول بهذه الفكرة بين المسيحيين، بل إنها كانت معروفة مذكورة مشهورة من قبله، كما يقول المسيحيون أنفسهم.

ولقد جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية ما نصه : «الذنب ليس على أريوس بل على فئات أخرى سبقته فى إيجاد هذه البدع، فأخذ هو عنها. ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير أريوس الذى جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية، حتى انتشر هذا التعليم وعم».

انتشار رأى أريوس وطرق محاربته :

ولقد كان لرأى أريوس فى اعتبار المسيح مخلوقاً لله مشايعون كثيرون، فقد كانت الكنيسة فى أسيوط على هذا الرأى ، وعلى رأسها ميليتوس، وكان أنصاره فى الإسكندرية نفسها كثيرين من حيث العدد، أقوياء من حيث المجاهرة بما يعتقدون، كما كان لهذا الرأى مشايعون فى فلسطين ومقدونية، والقسطنطينية.

وقد أراد بطريك الإسكندرية أن يقضى على هذه الفكرة، فلم يعمد إلى المناقشة

والجدل، حتى لا يتسع الخرق على الراقع، وحتى لا يلحن بالحجة عليه أريوس، ولكنه عمد إلى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة.

ويبنى ذلك على أنه رأى المسيح يتبرأ من أريوس ويلعنه، ونفى من الكنيسة مرتين لهذا الرأى، وبحجة تلك الرؤى المنامية، ومن أمثلتهم قول البطريرك بطرس الذى أمر بنفيه : «إن السيد المسيح لعن أريوس هذا فاحذروه، فإنى رأيت المسيح فى النوم مشقوق الثوب، فقلت له : ياسيدى من شق ثوبك؟ فقال لى : أريوس، فاحذروا أن تدخلوه معكم».

ولم يجد النفى وإعلان الرؤى والأحلام فى القضاء على رأى أريوس وجمع الناس حول قوة الكنيسة، حتى إذا ولى أمر الكنيسة البطريرك إسكندر أخذ يعالج المسألة بنوع من الحيلة والصبر، فكتب إلى أريوس وزعماء هذا الرأى يدعوهم إلى رأى كنيسة الإسكندرية، ولكن محاولته لم تجد أيضا، فعقد مجمعاً فى كنيسته بالإسكندرية وحكم على أريوس بالحرمان منها فلم يخضع لهذا ولم يخنع وغادر الإسكندرية إلى فلسطين.

وقد كان مذهب عدم ألوهية المسيح ذائعاً منتشراً، وكان أسقف مقدونية على مذهب أريوس أيضا، ويعظ على أساسه، وفى الحق أننا نجد أن أسقف مقدونية وأسقف فلسطين، وكنيسة أسيوط، كل أولئك على رأى آريوس ، وكنيسة الإسكندرية وحدها هى التى تحاربه، فالخلاف محصور إذن بين أريوس، ومعه أسيوط وفلسطين ومقدونية وبين بطريرك الإسكندرية.

تدخل قسطنطين وجمع مجمع نيقية :

٨١ – وقد تدخل قسطنطين إمبراطور الرومان فى الأمر، فأرسل كتاباً إلى أريوس والإسكندر يدعوهما إلى الوفاق، ثم جمع بينهما، ولكنهما لم يتفقا، فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥.

ويقول ابن البطريق المسيحى فى وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : «بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة والأساقفة، فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة. وكانوا مختلفين فى الآراء والأديان فمنهم من كان يقول أن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون المريميين، ومنهم من كان يقول أن

المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وهى مقالة سابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب، لأن الكلمة دخلت أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهى مقالة إليان وأشياعه».

ومنهم من كان يقول أن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله، ويقولون : الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وأشياعه، وهم البوليقانيون.

ومنهم من كان يقول أنهم ثلاثة آلهة لم تزل. صالح ، وطالح ، وعدل بينهما ، وهى مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهى مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً» أ. هـ. المراد منه.

موقف قسطنطين من المناظرين :

اجتمع أولئك، المختلفون، وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثلها، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من، وأخلى داراً للمناظرة، ولكنه جنح أخيراً إلى رأى بولس، وعقد مجلساً خاصا للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأى وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة.

انحيازه لرأى مؤلهى المسيح مع أنهم ليسوا الكثرة :

ويقول فى ذلك ابن البطريق : «وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيما، وجلس فى وسطهم وأخذ خاتمه، وسيفه، وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتى، لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه، وقالوا له : أظهر دين النصرانية. وذب عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع، منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به».

العقيدة التى فرضها المجمع :

وضع هذا المجمع المحدود من الأساقفة قرارات فى العقيدة والشرائع، ليقيدوا بها المسيحيين، ولا يهمنا إلا بيان العقيدة التى قررها المجمع وفرضها على المسيحيين .

وقد ذكرها صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية، قال عنها ما نصه : «إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لا شئ، أو من يقول أن الابن وجد من مادة أو جوهر غير الآب، وكل من يؤمن أنه خلق، أو من يقول أنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران».

قراراته تؤيد برهبة السلطان :

٨٢ — إذن قرر المجمع ألوهية المسيح، وأنه من جوهر الله، وأنه قديم بقدمه، وأنه لايعتريه تغيير ولا تحول، وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة سلطان قسطنطين، لاعنة كل من يقول غير ذلك، والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ أسقفاً، ويخالفهم فى ذلك نحو سبعمائة ألف أسقف، وإن لم يكونوا متفقين فيما بينهم على نحلة واحدة، فهل ذلك المجمع لم يخل من نقد ؟ إن باب النقد فيه متسع.

النقد الموجه إلى المجمع :

(أ) وأول ما يلاحظه الناقد أن الذين دعوا إليه، وجابوا الأمصار ووصلوا إلى نيقية بدعوة من قسطنطين، ويتفاهم البطارقة فيما بينهم بلغوا ثمانية وأربعين وألفين من الأساتذة، ولكنا نجد العدد ينزل إلى ثمانية عشر وثلاثمائة أسقف، فماهى آراء الباقين؟ ولماذا أهملت كل هذا الإهمال ؟ أكانوا جميعاً مختلفين فى النحل والآراء، حتى أن نحلة لم يصل عددها إلى ٣١٨، فلما تعذر الأخذ بالكثرة المطلقة التى يزيد عددها على النصف، ولو واحداً، اتجهوا إلى الأخذ بالكثرة النسبية، وهو اعتناق الرأى الذى يأخذ به أكبر عدد من الأصوات وإن لم يصل النصف أو يقاربه؟ إن المروى غير ذلك، لأن ابن البطريق يقول : إن قسطنطين هو الذى اختار أن يعقد أولئك الأساقفة الذين يبلغون ٣١٨ مجلساً خاصاً بهم، وحضر هو المجلس، وأعطاهم شارة الملك والسلطان لأنهم أفلجوا على إخوانهم فى زعم ابن البطريق المسيحى التثليثى، ولأن الرواة يقولون أن أريوس لما اجتمع إليهم وألقى بدعوته ونحلته إليهم

انضم إلى آرائه أكثر من سبعمائة أسقف، وذلك العدد هو أكبر عدد ناله نحلة من تلك النحل المختلفة، فلو كانت النصرة بالكثرة النسبية، لكان الواجب إذن أن يكون الغلب لأريوس الذى احتج بما تحت أيديهم من أناجيل، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح قرر تحريفها.

الرغبة والرهبة من السلطان لهما دخل فى القرارات :

ويظهر أن عصا السلطان ورهبة الملك كان لهما دخل فى تكوين رأى الذين رأوا ألوهية المسيح، فلقد يروى أن أولئك الـ ٣١٨ لم يكونوا مجمعين على القول بألوهية المسيح، ولكن تحت سلطان الإغراء بالسلطة الذى قام به قسطنطين بدفعه إليهم شارة ملكه ليتحكموا فى المملكة اجتمعوا. فقد دفعهم حب السلطان إلى أن يوافقوا هوى قسطنطين الذى ظهر فى عقده مجلساً خاصاً بهم دون الباقين، ولاعتقاده إمكان إغرائهم. فأمضى أولئك ذلك القرار تحت سلطان الترهيب أو الترغيب أو هما معاً، وبذلك قرروا ألوهية المسيح، وقسروا الناس عليه بقوة السيف، ورهبة الحكام.

المجمع فرض لنفسه سلطاناً كهنوتياً على الناس :

(ب) أن المجمع فرض نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين، وقرر أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأساً، بل لا بد من تلقيها من أفواه العلماء ورجال الكهنوت، وأن أقوالهم فى ذاتها حجة، سواء أخالفت النصوص أم وافقت، سواء أكانت الصواب، أم جافت الحق، وأن ذلك كان له مابعده فى المسيحية. وهو مخالف كل المخالفة لما جاء فى تعاليم المسيح المنصوص عليها، حتى كتبهم التى يقرءونها ويعترفون بها، فقد جاء فى الإصحاح العشرين من إنجيل متى ما نصه : «رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يسلطون عليهم، فلا يكن فيكم هذا» ولكن العلماء تسلطوا على إخوانهم المسيحيين لما أعطاهم قسطنطين خاتمه وسيفه وقضيبه، وبذلك خالفوا المسيح عليه السلام ليطيعوا قسطنطين.

أمره بتحريق ما يخالفه :

(جـ) أن المجمع أمر بتحريق الكتب التى تخالف رأيه، وتتبعها فى كل مكان وحث الناس على تحريم قراءتها، فهو بهذا يمنع أن يصل إلى الناس علم بأى أمر من الأمور

التى تخالف رأيه، وهو بهذا يحاول التحكم فى القلوب، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ما وافق رأيه، ومنعها منعاً باتاً جازماً من أن تقرأ غيره، ويسد عليها منافذ النور للاهتداء إلى مايخالفه، ولعل المجمع مخطئ فى ذلك التحريم، وآثم فى ذلك التحريف، بل إن المجامع العامة من بعد قد خطأته، فأعادت إلى حظيرة التقديس كتباً حرمها، وأخرجت من البلى كتباً حرفها، قد حرم كتباً من العهد القديم، ولم يعترف بها فاعترفت بها المجامع المسيحية من بعده، وحرم من كتب النصارى المعتبرة الآن رسالة بولس إلى العبرانيين، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، ومشاهدات يوحنا، ولكن المجامع من بعد أقرتها، وأجمعت عليها.

إذن لم يكن المجمع مصيباً من كل الوجوه، وإن أخطأ فى معرفة الصحيح من الكتب، فآراؤه الأخرى أكثر عرضة للخطأ وأكثر استهدافاً للنقد، لعل أشدها صلة بالباطل، وأقربها به رحماً، وأدناه إليه هو ما يتعلق بالعقيدة.

قسطنطين يتدخل ذلك التدخل وهو لم يتنصر :

(د) بقى أمر نشير إليه إشارة خفيفة، وهو مقام قسطنطين فى المسيحية عند انعقاد ذلك المجمع، أكان مسيحياً عالماً بالمسيحية فى ذلك الإبان، حتى ساغ له أن يحكم لبعض المجتمعين، وإن لم يكونوا الكثرة على أى اعتبار كانت الكثرة، أكثرة مطلقة أم كثرة نسبية؟

يقول المؤرخ أبوسيبوس الذى تقدس كلامه الكنيسة، وتسميه سلطان المؤرخين، «إن قسطنطين عمّد حين كان أسير الفراش، وأن الذى عمّده هو ذلك المؤرخ نفسه، وقد كان له صديقاً».

والتعميد إعلان دخول المسيحية، إذن فقسطنطين ماكان مسيحياً فى إبان انعقاد ذلك المجمع، وما كان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء، ويسوغ لنا أن نقول أنه كان له فى هذا أرب خاص، وهو تقريبها من وثنيته أو على الأقل عندما رجح رأى فريق كان يرجح ماهو أقرب إلى وثنيته، وأدنى إلى مايعرفه من عقيدة، فلم تكن الحجة القوية فى جانب ترجيحه على هذا الاعتبار، أو كان متهماً فى ترجيحه بناء على الاعتبار الأول، وسواء أكان هذا أم ذاك، فهو قد رجح ماهو أقرب إلى الوثنية لوثنيته.

تلقى المسيحيين لقرارات المجمع :

٨٣- ولكن هل أمات ذلك الرأى الوحدانية التى كان يجاهر بها أريوس، وهل قضى ذلك المجمع القضاء المبرم عليها؟ إنه لو فرض أبعد الفروض عن الحق، وكانت كثرة المجمع العام على غير رأى أريوس ما انتصروا عليه ولا قضوا على ما يدعو إليه، لأن الآراء لاتنتصر بكثرة العدد بل بقوة الدليل وقوة تصور العقيدة، وقوة الاقتناع بها، وسهولة دخولها إلى العقل، واستساغته لها، ولذلك لم يقض المجمع على فكرة الوحدانية. بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سبباً فى شدة الاستمساك بها، والمبالغة فى المحافظة عليها مما يراد بها.

ولذلك أخذ البطارقة الذين لعنوا لاعتناقها يعملون الحيلة للاحتفاظ بها وحياطتها، واتخذوا الخديعة سبيلا لذلك. فتقربوا من قسطنطين وأظهروا له الإقلاع عما كانوا عليه ليعودوا إلى ماكان لهم من مناصب، ويستطيعوا مناصرة فكرتهم، ولينالوا ثقة قسطنطين، ومن طريق هذه الثقة ينفذون إلى نفسه، ويقنعونه هو بالتوحيد، ليستطيع أن يخدمه بسلطانه وقوته، كما خدم ألوهية المسيح، أو على الأقل ليقف موقف الحياد ويترك الآراء تسير فى مجراها الطبيعى، ولنقص عليك محاولة من محاولات الموحدين.

مجمع صور يرفض بالإجماع قرار مجمع نيقية :

يذكر ابن البطريق أن أوسابيوس أسقف نيقومدية كان موحداً من مناصرى أريوس فى المجمع العام قبل أن تبعده عنه كثرته، ولعن من أجل هذا، وأراد أن يتقرب من قسطنطين، فأظهر أنه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة فأزال عنه اللعنة قسطنطين، وجعله بطريرك القسطنطينية، فما أن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية فى الخفاء، فلما اجتمع المجمع الإقليمى فى صور حضره هو وبطريرك الإسكندرية الذى كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو إليها، وينفرد من بين البطاركة فى المبالغة فى الدعوة إليها، والحث عليها، ولعن كل من يقاومها.

وانتهز أوسابيوس فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة أريوس، ورأيه فى المسيح وإنكار ألوهيته، وكان فى ذلك المجمع كثيرون من الموحدين المستمسكين به، إذ لم يحتاطوا بإبعادهم، كما فعلوا فى المجمع العام بنيقية. واشتد النقاش بين رئيس كنيسة الإسكندرية،

وبين المجتمعين، ولم يكتفوا بالنقاش القولى بل امتدت الأيدى إلى بطريرك الإسكندرية وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها، فضربوه حتى أدموه، وكادوا أن يقتلوه، ولم يخلصه من أيديهم إلا ابن أخت الملك الذى كان حاضراً ذلك الاجتماع، ولكن لما بلغ ذلك قسطنطين كرمه.

ما يستنبط من هذا :

وما سقنا ذلك القصص لرضانا عن تأييد الرأى بالعصا وجمع اليد، ولكن سقناه ليتبين منه القارئ مقدار حماسة الموحدين من أهل المسيحية الأولى لعقيدة التوحيد، وأنهم فى تلك الحماسة لا يأبهون لشئ، ولا يهمهم إغضاب ذوى السلطان أو إرضاؤهم، وسقناه لتعلم أن الموحدين كما يظهر من رواية الكتب المسيحية، وكما يستنبط كانوا الكثرة الغالبة فى المسيحيين، ففى مجمع نيقية كانوا الكثرة، وفى مجمع صور الخاص كانوا الجميع ماعدا رئيس كنيسة الإسكندرية. وإذا كانوا الكثرة فى المؤتمرات خاصة وعامة، فلابد أن يكونوا الكثرة فى جمهور المسيحيين.

وإذن تكون فكرة ألوهية المسيح هى العارضة والأصل هو التوحيد كما يستنبط القارئ من المصادر المسيحية نفسها، وسقناه لتعلم أن قسطنطين كان يشجع دائما المخالفين للتوحيد. وإن كان لايظهر السخط على غيرهم أحياناً. وسقناه لتعلم أن مجمع صور كان يخالف كل المخالفة مجمع الثمانية عشر والثلاثمائة. وأخيراً سقناه لتعلم أن موطن الدعاية لألوهية المسيح كانت كنيسة الإسكندرية وحدها، فهى التى حاربت أريوس، وهى التى لعنته مرتين، ورئيسها هو الذى خالف فى صور، ونال عقاب المخالفة جزاء وفاقاً.

فهل لنا أن نقول أن التثليث الذى اشتملت عليه فلسفة الإسكندرية كان يعلن على ألسنة بطاركتها، وأنهم كانوا يمثلون تلك الفلسفة بآرائهم أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح عليه السلام؟ إن ذلك هو مفتاح التاريخ الصحيح فمن أراد أن يعرف كيف حالت المسيحية من توحيد إلى تأليه للمسيح، فليستعن به.

نشاط الموحدين :

٨٤ — ولم ين الموحدون عن إعلان الاستمساك بعقيدتهم، وتخطئة الذين أعلنوا ألوهية المسيح، ومعهم فى ذلك الكثرة العظمى من المسيحيين، كما يدل على ذلك ما سننقله

من تاريخ ابن البطريق، فلقد حاولوا أن يجذبوا قسطنطين ابن قسطنطين إلى رأيهم بعد أن مات أبوه، فاجتمعوا به. وحسنوا رأى الموحدين له، وبينوا له أنه صميم المسيحية، وأن الأساقفة الذين ناقضوه خالفوا وجه الحق. ولم يكونوا آخذين بتعاليم السيد المسيح التى بشر بها بين الأنام، ولكنه لم يعمل على نصرتهم، ولم يعاونهم فى دعايتهم، مع أن أكثر المسيحيين فى ذلك العصر كانوا موحدين.

يقول ابن البطريق : «فى ذلك العصر غلبت مقالة أريوس على القسطنطينية وأنطاكية وبابل ، والإسكندرية». وأسيوط قد علمت أن كنيستها كانت موحدة.

ويقول فى بيان حال الإسكندرية ومصر بعد الإجمال السابق «فأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين، فغلبوا على كنائس مصر والإسكندرية وأخذوها، ووثبوا على أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ليقتلوه، فهرب منهم واختفى».

وقد كان على كثير من الكنائس رؤساء موحدون يستمسكون بالتوحيد ويحثون على الاستمساك به، وكلما ولى أسقف غير موحد ثاروا به، وهموا بقتله، وهذا ابن البطريق يقص علينا أن بطريق بيت القدس لم يكن موحداً فيثور عليه الموحدون ويهمون بقتله فيهرب منهم، فيقول فى ذلك «وثب أهل بيت المقدس ، من كان منهم أريوسيا على كورلس أسقف بيت المقدس ليقتلوه، فهرب منهم، فصيروا أراقليوس أسقفاً على بيت المقدس وكان أريوسيا».

وهكذا نجد مغالبة قوية بين التوحيد وألوهية المسيح، الأولى تغالب بالكثرة وقوة الإيمان، وسعة الحيلة، والثانية بقوة السلطان، وبقايا الوثنية والذين كانوا متأثرين بها، ووجدوا مواءمة بينها وبين ما يألفون، فابتغوها لقربها مما ألفوا وعرفوا وأمكنته التقاليد من نفوسهم. ولكن قوة السلطان طمست نور المذهب الأول. إذ أنها احتاطت فجعلت كل الأساقفة ممن لم يكونوا موحدين. واحتاطت أشد الاحتياط فى ذلك، وأخذ أولئك يسيطرون على قلوب العامة بالرؤى والأحلام وإلهامات يزعمونها، حتى اختفى المذهب الحق فى لجة التاريخ، ولم يبد على السطح إلا ألوهية المسيح.

٢- المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١

سبب انعقاده :

٨٥- تقرر فى مجمع نيقية أن المسيح إله، وأنه ابن الآب وأنه جوهر قديم من جوهر الآب، ولم يتعرض للروح القدس أهو إله أم روح مخلوق وليس بإله، ولم يكن مجمع نيقية قد أصدر قراراً فى هذا الأمر، لذلك ظهرت أفكار بين المسيحيين لا تعترف بألوهيته، ويظهر أن الإسكندرية التى كانت مهداً للأفلاطونية الحديثة التى تقول بالتثليث وأن المسيطر على العالم ثلاث قوى مؤثرة فيه، قوة المكون الأول، والعقل (الابن) والنفس العامة (الروح القدس) - تريد أن تفرض ذلك فرضاً على المسيحيين، كما كانت العامل القوى فى إعلان ألوهية المسيح.

عدد المجمع والطعن فى كونه عاماً :

أخذ رجل اسمه مقدونيوس يجاهر بأن الروح القدس ليس بإله، ولكنه مخلوق مصنوع، وشاعت مقالته بين الناس، ولم يجدوا فيها نكراً ولا أمراً لا يقره العقل أو تأباه المسيحية. فاجتمع إلى الملك ذوو الأمر من وزرائه وقواده، وبلغوه أن العامة قد فسدوا، فهم مازالوا متأثرين بوحدانية أريوس، واعتنقوا مذهب مقدونيوس فى أن الروح القدس ليس بإله قديم، بل هو مخلوق مصنوع، وحرضوه على أن يجمع جمعاً من الأساقفة يثبتون عقيدة المجمع النيقوى ويدحضون قول مقدونيوس. فاجتمع فى القسطنطينية خمسون ومائة أسقف، وكان المقدم فيها بطريرك الإسكندرية، ويظهر أن ذلك العدد لم يكن ممثلا لكل الكنائس، ولكل الأقاليم، ولذلك كان اعتباره مجمعاً عاماً من الأمور التى ثارت حولها الأقوال.

فيقول فى ذلك صاحب كتاب سوسنة سليمان: «قال الرهبان البندكيتيون أن المجمع الذى لم يكن أربابه إلا مائة وخمسين أسقفاً لا ينظم فى سلك المجامع المسكونية إلا بعد أن تقره جميع الكنائس».

بطريرك الإسكندرية هو الذى يقرر ألوهية روح القدس :

اجتمع هذا المجمع فى القسطنطينية، وتذاكر المجتمعون فيمن هو أولى بالرياسة فقر رأيهم على أن تكون الرياسة لأسقف القسطنطينية، وبذلك نحى عنها رئيس كنيسة

الإسكندرية. وكان لذلك أثره فى نفوس تابعى تلك الكنيسة كما جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية، ولكن مع إبعاد ممثل كنيسة الإسكندرية عن مكان الرياسة، وموضع الزعامة الذى كان لسلفه فى مجمع نيقية كان هو المقدم فى المناقشة، وتقرير الرأى الذى أجمع عليه المؤتمر بعد ذلك، وهذا ما نقله ابن البطريق عنه بنصه : «قال تيموثاوس بطريق الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته. فإذا قلنا أن روح القدس مخلوق، فقد قلنا أن حياته مخلوقة، وإذا قلنا أن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حى، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن».

قرار المجمع يوافق رأى بطريرك الإسكندرية :

واتفقوا على لعن مقدونيوس، فلعنوه هو وأشياعه، ولعنوا البطاركة الذين يكونون بعده، ويقولون بمقالته، إذن كان للإسكندرية فضل الصدارة فى القول، والقيادة فى الرأى العام، وإن لم تكن لها الرياسة.

نظرة فاحصة :

ونريد أن نستطرد استطرادة صغيرة عاجلة، وهى أن ننظر فى تلك السلسلة الفكرية التى ساقها فى شكل دليل شرطى كثرت مقدماته وكثرت تالياته، وأن نظرة سريعة فاحصة إلى الأساس الذى قامت عليه السلسلة ترينا أنه جعل روح القدس هى روح الله، وهذا لا يسلمه له مخالفه. ولا يستطيع هو أن يقيم عليه دليلا.

إن روح القدس خلقه الله، واتخذه ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحيا من خلقه أوأمراً كونياً، فهى ليس روح الله المتعلقة بذاته، وليس عنده من دليل على ماقال، لكن هكذا ساق السلسلة، وهكذا اقتنع سامعوه، وبذلك تم له الثالوث الذى يتشابه تماماً مع فلسفة الإسكندرية، وقد أعلنها بطريرك الإسكندرية، وزادوا بذلك على مجمع نيقية هذا الأقنوم الثالث.

ويقول ابن البطريق فى بيان قرارهم : «زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا فى نيقية الإيمان بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن مسجود له وممجد، وثبتوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة

أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاث خواص، وحدية فى تثليث، وتثليث فى وحدية، كيان واحد فى ثلاثة أقانيم، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة».

إذن تقرر التثليث، وتمت أقانيمه، ولكن مازال للمؤتمرات العامة والمجامع العامة موضع، فإن طبيعة المسيح الإنسانية والإلهية، كيف تجتمعان؟ هذا موضع الخلاف، ولهذا تجتمع المؤتمرات.

٣- مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١

سبب انعقاده :

٨٦ – أول اختلاف بينهم بعد تقرير الثالوث أن بطريرك القسطنطينية نسطور رأى أن هناك أقنوماً وطبيعة، فأقنوم الألوهية مع الآب، وتنسب إليه. وطبيعة الإنسان، وقد ولدت من مريم. فمريم أم الإنسان، وليست أم إله.

ويقول فى المسيح الذى ظهر بين الناس وخاطبهم، كما نقله عنه ابن البطريق : «إن هذا الإنسان الذى يقول أنه المسيح بالمحبة متحد مع الآب، ويقال أنه ابن الله ليس بالحقيقة، ولكن بالموهبة ».

النسطوريون ينكرون ألوهية المسيح :

يظهر من هذا أن المسيح الذى ظهر بين الناس لم يكن إلها بحال من الأحوال، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس.

ولذلك جاء فى تاريخ الأمة القبطية عن نحلته مانصه :

«أما هرطقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف فى عقائد وضعها الآباء والأحبار، بل هى جوهرية تختص بأعظم موضوعات الإيمان والأركان فى الدين المسيحى، ذلك أن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً فى حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً إدا».

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد بألوهية المسيح. وإن كان يعتقد أنه فوق الناس، وليس مثلهم، ولقد جهر بهذا الرأى، ونادى به، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية،

ولها مكانتها، ولكن خالفه غيره من الأساقفة، فكان أسقف روما يعلنه برأيه المخالف له، مع ماعند نسطور فيما رآه من بينات، وأدلة.

ولقد بلغت مقالة نسطور بطريرك الإسكندرية ، وجرت المراسلات بين أسقف الإسكندرية وأساقفة أنطاكية وروما وبيت المقدس، فاتفقوا على عقد مجمع أفسس للنظر فى هذا الرأى، وإعلان صاحبه بالتبرؤ منه، ولعنه إن أصر على رأيه، ودعوه ليسمع حكمهم فى رأيه. ويظهر أنه عرفه قبل أن يجتمع المجمع، وأنهم مصرون على ما أعلنوه، كما أنه مصر على رأيه، فلم يجد كبير فائدة فى المجمع فلم يحضر لاهو ولا بطريرك أنطاكية.

وانعقد المجمع وعدده نحو مائتين من الأساقفة، وقرروا ما نصه كما جاء فى تاريخ ابن البطريق:

«إن مريم العذراء والدة الله، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين ، متوحد فى الأقنوم» ... ولقد لعنوا نسطور.

قرار المجمع والاحتجاج عليه :

فلما بلغ ذلك القرار يوحنا بطريرك أنطاكية غضب، واحتج على المجمع، فاختلف المجتمعون على رأيين، وأصر المشرقيون على الرأى الذى أعلنه المجلس أولا، وكتبوا صحيفة فيها «إن مريم القديسة العذراء ولدت إلهنا وربنا يسوع المسيح الذى مع أبيه فى الطبيعة، ومع الناس فى الناسوت والطبيعة» وأقروا بطبيعتين، ووجه واحد وأقنوم واحد، خالفهم بطريرك الإسكندرية أولا، ولكن يقول ابن البطريق أنه وافق بعد ذلك وكتب إليهم «إن أمانتى التى فى صحيفتكم».

انتشار النسطورية فى الشرق :

ولكن لم يخضع نسطور لذلك القرار، فنفى إلى مصر، ولم يندرس مذهبه بذلك النفى، ولقد وجد أرضاً صالحة لها فى الشرق، فلقد نهضت النسطورية فى نصيبين، ويقول ابن البطريق: «تكاثرت النسطورية فى المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة ».

٤- مجمع خليكدونية سنة ٥٤١

كنيسة الإسكندرية تعلن أن المسيح إله قد اتحد فيه اللاهوت والناسوت وصارا طبيعة واحدة :

٨٧ - ولم يحسم ذلك المجمع الخلاف فى مسألة اجتماع العنصر الإنسانى والعنصر الإلهى فى المسيح، فلم يقض على نحلة نسطور قضاء مبرماً، وإن كان قد نفاه وآذاه، بل نمت نحلته بعد ذلك فى المشرق، وذاعت فى البلاد التى ذكرها ابن البطريق ، ولم يتم الخلاف فى ذلك عند نسطور وأتباعه، بل إن كنيسة الإسكندرية قد خرجت هى الأخرى برأى جديد عرضته على الملأ من الأساقفة وجمعوا له جمعاً قرروه فيه، وذلك الرأى أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت، وانعقد لأجل هذا مجمع أفسس الثانى الذى تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص، وفى هذا المجمع أعلن ذلك الرأى.

فلما عارضه بطريرك القسطنطينية وأعلن انسحابه من المجلس، وعدم احترامه، أمرهم رئيس المجلس بإعلان حرمانه، وحدث خارج المجلس صخب شديد، وضجة كاد أن يقتل فيها رئيس كنيسة القسطنطنية. وقد اشتد الاختلاف بعد ذلك حول هذا المجمع ، أهو صحيح محترم السلطان، أم هو مجمع غير عام لا تلتزم بآرائه الكنائس كلها؟ واشتد الاختلاف فى قرارات الحرمان التى أصدرتها ، أهى محترمة واجبة التنفيذ، أم هى باطلة، لأنها صادرة من غير سلطة؟ حتى جاءت ملكة على الرومان تخالف ذلك الرأى، وتميل لغيره، فلتنفيذ رأيها فى هذا الخلاف الشديد حول مجمع أفسس الثانى وقراراته - أمرت، هى وزوجها، بعقد مؤتمر عام، فاجتمع فى مدينة خليكدونية عشرون وخمسمائة أسقف، وكان الاجتماع تحت إشراف زوج الملكة، واجتمع فى شهر أكتوبر سنة ٤٥١ .

طلب انسحاب بطريرك الإسكندرية ورفض الطلب :

وتقول مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : «وكان أول اقتراح طلبه مندوبو رومية هو انسحاب ديسقورس بطريرك الإسكندرية من المجلس. فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الأسباب التى تلجئ المجمع إلى إخراج هذا البطريرك من قاعته؟ فكان اعتراض هؤلاء أن ديسقورس شكل مجمعاً دون أن يستأذن الكرسى الرسولى، ويقصدون بالكرسى الرسولى بابا القسطنطينية .. فلم يصادق مندوبو الحكومة على هذا الرأى

السقيم، وقرر المجمع بقاء ديسقورس، ولكن على غير كرسى الرياسة، كما كان فى المجمع السابق؛ لأنها أصبحت فى يد رجال الإمبراطورة، وقد حدث ضجيج وصخب ومنازعات فى أثناء الاجتماع مما جعل مندوبي الحكومة يصيحون فيهم قائلين بلسان أحدهم : «إنه لا يجدر بالأساقفة وأئمة الدين أن يأتوا مثل هذه الأعمال الشائنة من صياح، وصراخ، وسب، وقذف وضرب ولكم. بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب فى الهدوء وتسيير الأمور على محور الحكمة والسداد، ولذلك نرجوكم أن تستعملوا البرهان بدل المهاترة، والدليل عوضاً عن القول الهراء، وأميلوا آذانكم إلى سماع ماسيتلى عليكم».

الشغب فى المجمع :

وسارت المناقشة بعد ذلك فى جو عنيف متعصب، وانتهى المجمع إلى أن قرر، أن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة، وأن الألوهية طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحده، التقتا فى المسيح.

قرار المجمع أن المسيح له طبيعتان :

وقد قال ابن البطريق فى بيان قرار المجمع : «قالوا إن مريم العذراء ولدت إلهنا، ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية، ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية، وشهدوا أن المسيح له طبيعتان، وأقنوم واحد، ووجه واحد، ولعنوا نسطورس، ولعنوا ديسقورس، ومن يقول بمقالته، ونفوه، ولعنوا المجمع الثانى الذى كان بأفسس، وقد نفى ديسقورس إلى فلسطين».

الانشقاق ومداه :

٨٨ — هنا نرى انشقاقاً بين المسيحية المثلثة، واختلافاً يكون بعيد المدى فى الأجيال المقبلة، وهو أساس اختلاف الكنائس إلى يومنا الحاضر . فهذا المجمع يرى أن المسيح له طبيعتان إحداهما إنسانية يشارك فيها الناس، والأخرى لاهوتية، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين، وهو بذلك يخالف النسطوريين، لأنهم يقولون : أن أقنوم الابن لم يكن من العنصرين، بل من العنصر الإنسانى وحده، ويخالف قرار أفسس الثانى الذى يقول أن المسيح طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى من الروح القدس، ومن مريم العذراء

مصيِّراً هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين : ومشيئة واحدة، وقد بدت آثار ذلك المجمع سريعة واضحة.

فإن المصريين عندما بلغهم ما نزل برئيس كنيستهم غضبوا ، وأجمعوا أمرهم على عدم الاعتراف بقرارات ذلك المجمع.

عدم اعتراف المصريين بقرار المجمع :

وتقول مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « ولما طرق مسامع المصريين ما لحق ببطريركهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا، واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذى أصدر هذا الحكم، وأعلنوا رضاهم ببقاء بطريركهم رئيساً عليهم، ولو أنه محروم مشجوب، وأن إيمانه ومعتقده هو عين إيمانهم ومعتقدهم، ولو خالفه فيهما جميع أباطرة القسطنطينية، وبطاركة رومية، ولقد اعتبر المصريون أن الحكم الذى صدر ضد بطريركهم ماس بحريتهم الوطنية، مجحف بحقوقهم السياسية، ولو أنه حكم دينى صرف».

ولقد اشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان فثار المصريون وغضبوا عندما رأوا بطريركاً يعين على غير مذهبهم، وعلى غير رغبتهم، واستمروا على غضبهم، فصاروا ينتقصون الحين بعد الحين، كلما لاحت لهم الفرصة، وديسقورس لم يمنعه النفى من أن يدعو المسيحيين إلى اعتقاده فى منفاه.

ويقول ابن البطريق : «لما نفى سار إلى فلسطين وبيت المقدس، فأفسد دين كل من بفلسطين وبيت المقدس، حتى قالوا بمقالته».

المصريون يرفضون تعيين بطريرك على غير مذهبهم :

٨٩ – ولقد كان الاختلاف يشتد كلما عين الرومان بطريركاً، فإن المصريين يرفضونه محتجين بأنه على غير مذهبهم ومن غير جماعتهم، ويجب أن يكون بطريركهم بعد هذا الاختلاف من المذهب الذى ارتضوه ديناً، وباختيارهم، فكان بعض الأباطرة يأخذهم بالعُنف، وأولئك هم الأكثرون، وبعضهم يأخذهم بحسن السياسة ولطف الكياسة، فيترك لهم الحرية فى اختيار بطريركهم، والاطمئنان إلى مذهبهم، وكانت الأيام والسنون هكذا تسير أحياناً على نهج من الهوادة والرفق، وأحياناً كثيرة على شطط وعنف.

يعقوب البرادعى ونسبة المذهب المصرى إليه :

وفى هذه الأثناء يتغلغل فى ربوع الدولة الرومانية الدعاة إلى المذهب المصرى والدعاة إلى المذهب الرومانى، أو مذهب رومية مقر الأباطرة، أو المذهب الملكي كما سماه العرب من بعد.

ولقد ظهر للمذهب المصرى داعية قوى الشكيمة قوى العارضة، بليغ الأثر اسمه يعقوب البرادعى، قد أخذ يجول فى وسط القرن السادس الميلادى فى البلاد الرومانية، يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية، ويبث ذلك المذهب فى نفوسهم، ويدخله فى قلوبهم، وسلك فى سبيل ذلك المخاطرة والجرأة، لايأبه لقوة مهما تكن، ولا لذى خطر مهما يكن شأنه.

وتقول صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية : «قيل أنه رسم ٨٩ أسقفاً، وألوفاً من الكهنة والقسوس، ومن ذلك الحين أطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون إلى أن للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقاً من اسم يعقوب البرادعى زعيم هذا الحزب».

ولكن من الخلط الكبير والخلط الذى يدل على الجهل إطلاق لفظ يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية ، لأن مذهبها نشأ قبله، وهو تبعه، إذ لا علاقة لها بيعقوب ، أما إذا سميت الكنيسة الرومانية بالكنيسة الملكية فأنت مصيب غير مخطئ ، لأن هذا الاسم صار معلماً للكنيسة المذكورة من بعد الفتح الإسلامي. وهو اسم عربى الأصل مشتق من كلمة ملك، ومعناها الذين ينحازون إلى الملك، أو الإمبراطور الرومانى مذهباً وسياسة».

انفصال الكنيسة المصرية نهائياً :

٩٠ – ولقد كان قرار مجمع خليكدونية هو السبب فى انقسام الكنائس، أو بعبارة أدق هو السبب فى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية، ولقد لخص صاحب كتاب (تاريخ المسيحية فى مصر) عقيدة الكنيسة المصرية فقال : «كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس، وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية،

والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثانى، أى أقنوم الابن تجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء فصير هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشيئة واحدة».

هذه هى قرارات تلك الكنيسة، وهى تخالف ما تقرر فى مجمع خليكدونية كما علمنا.

المجامع الباقية

المجامع السابقة تقرر المسيحية الحاضرة :

٩١ - عنينا ببيان المجامع الأربعة السابقة ببعض التفصيل، ولم نضن على القرطاس فيها ببعض الإطناب، لأنها المجامع التى قررت بها العقيدة المسيحية الحاضرة.

فأولها قرر ألوهية المسيح، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله، لا الإنسان فقط، وأن مريم ولدت الاثنين، ورابعها قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين، لا طبيعة واحدة متحدة، والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة تلزم بأحكامها المسيحيين أجمعين، أما المجمع الرابع فهو ليس مجمعاً عاماً فى نظر المصريين، والكنائس تنهج نهج كنيستهم.

والمجامع الآتية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه المسيحيون قاطبة بأنه مجمع عام مسكونى كما يعبرون، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها على كنيسة رومة، أو انشقاق كنيسة روما عليها .

وإنا نشير إلى هذه المجامع إشارة، ولا نعرج عليها بتفصيل لذلك، ولأن قراراتها كانت فى فروع جزئية لا تتصل بلب التثليث إلا فى بعض المجامع، وبقدر يسير، لا يمس الجوهر، ولا يتغلغل فى صميمه، وقد نعرض لهذا بقليل من التفصيل.

ولقد كان المجمع الخامس بالقسطنطينية سنة ٥٥٣، ويسمى المجمع القسطنطينى الثانى.

المجمع القسطنطينى وسبب انعقاده :

ويذكر ابن البطريق أن ذلك المجمع انعقد بسبب أن بعض الأساقفة اعتنق فكرة تناسخ الأرواح، وسار فيها إلى أقصى مداها . حتى لقد قال أنه ليس هناك قيامة، وبسبب أن بعض الأساقفة قد زعموا أن شخص المسيح لم يكن حقيقة، بل كان خيالا، فاجتمع لذلك هذا المجمع، وكانت عدة الحاضرين فيه أربعين ومائة، فقرروا حرمان هؤلاء الأساقفة، ولعنهم وطردهم من زمرة المسيحيين، ولم يكتفوا فى اجتماعهم بإصدار قرارهم فى هذه الأمور، بل ثبتوا قرارات المجامع السابقة، ومنها قرار مجمع خليكدونية، وبذلك ثبتوا عقيدة

كون المسيح ذا طبيعتين، وأكدوا إنكار الطبيعة الواحدة التى اعتنقتها كنيسة مصر. ومن والاها من المسيحيين.

المارونية :

٩٢ – وقد ظهر رجل اسمه يوحنا مارون فى القرن السابع الميلادى سنة ٦٦٧ كان يقول أن المسيح ذو طبيعتين، ولكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد، ولكن يظهر أن هذه المقالة لم ترق فى نظر البطارقة، فأوعزوا إلى الامبراطور أن يجمع جمعاً عاماً فى زعمهم، ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين، وذو مشيئتين، بعد أن استوثقوا من أن الإمبراطور، واسمه يوغاقوس، على رأيهم، بمكاتبات تبادلوها معه.

فقد جاء فى أحد كتبه : «نحن نقر، ونؤمن بطبيعتين، ومشيئتين، وفعلين لسيدنا المسيح، وأقنوم واحد، ونلعن من خالف هذا».

مجمع القسطنطينية الثالث :

اجتمع كذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠م، وقد كان من عمله لعن وطرد كل من يقول بالمشيئة الواحدة. كما لعن وحرم وكفر من قال بالطبيعة الواحدة، وكان مؤلفاً من نحو تسعة وثمانين ومائتى أسقف. وبعد أن قرروا لعن وطرد من يخالفهم كشأنهم دائما. قالوا : «إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذى هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإله فى أقنوم واحد، ووجه واحد، يعرف تماماً بناسوته، تماماً بلاهوته فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين فى أقنوم واحد، وشهدوا كما شهد المجمع الخلقيدونى أن الإله الابن فى آخر الأزمان اتخذ من العذراء السيدة مريم القدسية جسداً إنسانيا بنفس ناطقة عاقلة، وذلك برحمة الله محب البشر، ولم يلحقه فى ذلك اختلاط ولا فساد، ولا فرقة ولا فصل، ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمله فى طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمله فى طبيعته، الذى هو الابن الوحيد، الكلمة الأزلية المتجسدة التى صارت لحقه لحماً كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن تنتقل من مجدها الأزلى وليست بمتغيرة، ولكنها بفعلين، ومشيئتين وطبيعتين إله

وإنسان، وبهما يكمل قول الحق، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها، فتعملان بمشيئتين غير متضادتين».

هذا بعض قرار ذلك المجمع كما جاء في تاريخ ابن البطريق، وقد أطلنا في النقل، ليكون كلام القوم مبيناً لفكرهم كما يريدون، فنقلناه خشية أن نحرف كلامهم عن معناه، أو نحيد به عن مرماه.

ولقد كان من آثار هذا القرار أن خرج من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية طائفة المارونيين، كما خرج من قبلُ الأقباط وكنيستهم، ومعهم الأحباش والأرمن والسريان.

مجمع تحريم اتخاذ الصور :

٩٣ – وقد جاء مجمع غير عام بإقرار انعقد بأمر قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ وفيه جمهور من الأساقفة، وفدوا إليه من جهات مختلفة وقد قرر تحريم اتخاذ الصور (١) والتماثيل في العبادة، وحرم طلب الشفاعة من العذراء، ولأجل هذا انعقد المجمع السابع بأمر الملكة إيريني بمدينة نيقية، ويسمى المجمع النيقاوي الثاني سنة ٧٨٧ وكان أعضاؤه ٣٧٧ أسقفاً، وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسين، لا بعبادتها، وجاء في هذا القرار: «إنا نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة، والملابس الكهنوتية فقط، بل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات، لأننا إن أطلقنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح، ووالدته القديسة والرسل، وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم، والتكريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور، لا العبادة التي لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية». هذا هو المجمع السابع قد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبرته عاماً، وخالفته أخرى، فلم تعتبره كذلك.

---

(١) يقرر الأستاذ المرحوم أمين الخولي في رسالته «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» أن فكرة تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في أماكن العبادة إسلامية، وأن أشد من ظهر بمعاداتها ليون الثالث مكسر الأصنام الذي أقلق الكنيسة واتخذ العنف سبيلا لتنفيذ رأيه له صلة وثيقة بالمسلمين، وينقل عن صاحب كتاب الطرف النيقية قوله : «إن ليون فعل ذلك لأسباب سياسية إذ رغب في التقرب إلى المسلمين بذلك. أو فعل ذلك تقليداً لحركة من هذا النوع قام بها في ذلك العصر المسلمون في ديارهم»، ويقول الأستاذ أمين الخولي : «والحركة الإسلامية التي سمعت خبرها في تحطيم التماثيل هي التي قام بها الخليفة الأموي يزيد ابن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠م (وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦) إذ كتب يزيد إلى حنظلة بن صفوان والي مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل، فكسرت كلها، ومحيت من ديار مصر وغيرها في أيامه».

انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية وسببه :

٩٤ – ولننتقل بعد ذلك إلى المجمع الثامن، وهو أساس انفصال الكنائس الشرقية التى ترأسها كنيسة القسطنطينية عن الكنائس الغربية التى ترأسها كنيسة روما.

وقد علمت أن المجامع الماضية التى انفصلت بسببها فرق مسيحية كان أساس الخلاف فيها طبيعة المسيح، ولم يتعرض أحد للروح القدس، ومن أى شئ انبثق، حتى أثار بطريرك القسطنطينية كيف كان انبثاقه، فحكم بأن انبثاق الروح القدس كان من الآب وحده، فعارضه فى ذلك بطريرك رومة قائلا : «إن انبثاق الروح القدس كان من الآب والابن معاً، ولم يكن من أحدهما، وكل فريق عاضد رأيه بجمع قد جمعه، وكلاهما قد اعتبر هو ومشايعوه مجمعه عاما ملزماً للآخر، ومجمع الآخر خاصاً غير ملزم، وكل لعن الآخر وطرده، واعتبره محروماً مطروداً من حظيرة المسيحية، كشأنهم عند كل اختلاف.

أعلن بطريرك القسطنطينية رأيه، وهو أن الروح القدس انبثق من الآب فقط، وفوق ذلك قد تولى هذا البطريرك كرسيه من غير إرادة رئيس الكنيسة بروما، وبعد أن دس لسلفه ما أبعده عن كرسيه، فاجتمع فى القسطنطينية مجمع بعد عزل البطريرك الذى ناوأ روما سنة ٨٦٩، وأصدر قراراً يتضمن البت فى ثلاثة أمور :

أولها : كون انبثاق الروح القدس من الآب والابن .

ثانيها : أن كل من يريد المحاكمة فى أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى إلى الكنيسة بروما.

ثالثها : أن جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التى يقوم بها رئيس كنيسة روما.

وتلك القرارات كانت مع قرار آخر يعتبر عندهم سنة متبعة، وهو لعن ذلك البطريرك المعزول واسمه فوسيوس، وحرمانه هو وأتباعه.

استطاع فوسيوس هذا أن يعود إلى منصبه، فلما عاد إليه كان أول ما صنعه أن عقد مجمعاً آخر فى القسطنطينية سنة ٨٧٩، ويسمى هذا المجمع الشرقى اليونانى كما

يسمى الأول الغربي اللاتيني، وقد قرر فيه رفض كل ماقرره المجمع الأول، وقرر أن انبثاق الروح القدس من الآب فقط، وقد صار كل مجمع يعتبر عاماً عند مشايعيه، كما يعتبرون الآخر خاصاً، بل باطلا غير ملزم، وكل يكفر الآخر أو يفسقه و «كل حزب بما لديهم فرحون»

٩٥ – كان هذان المجمعان هما السبب في انقسام الكنيسة إلى شرقية يونانية، وغربية لاتينية، ورئيس هذه الكنيسة الغربية هو البابا، وهو مستقل بسياستها وله السلطان على كل الطوائف المنقادة إلى تعاليمها.

الكنيسة الغربية أم الكنائس :

وتسمى الكنيسة البطرسية لكون مشايعيها يعتقدون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول في زعمهم، ويزعمون أنه كبير الحواريين ورئيسهم، ويقولون أنه رأس هذه الكنيسة، والبابوات خلفاؤه من بعده، وتسمى الغربية لكون سلطانها في بلاد الغرب. ويقول صاحب كتاب سوسنة سليمان : «وهي تدعى أنها أم الكنائس، ومعلمتهن، وربما حق لها ذلك لجهة التفاسير التي تبنى عليها أصول التعاليم التقليدية، ونظامات المجامع، وترتيبها، وهي أيضا التي تأمر بها، وتمتد شوكتها على الخصوص في بلاد إيطاليا وبلجيكا، وفرنسا، وأسبانيا، والبرتغال، وشعوبها منتشرة في أقطار الأرض».

وأما الكنيسة اليونانية، ويقال لها أيضاً كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية، فأكثر مشايعيها في الشرق وسلطانها فيه، وهي تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية في كثير من التقاليد المسيحية، ولكنها تخالفها في انبثاق الروح القدس. فتقول أنه من الآب فقط، كما بينا، ولا تعترف إلا بالمجامع السابقة على المجمع الذي أوجد الانفصال، كما لاتعترف لبابا رومة بالسيادة أو الرياسة. ولكن لمرور الزمن، وما أحيط به من تقديس بين مشايعيه، وعند الملوك ولكثرة معتنقي مذهبه – وتتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان، ويليه في الرتبة بطريرك القسطنطينية، والمشايعون لما في بلاد روسيا واليونان والصرب، وكثير من جزر البحر المتوسط وغير هؤلاء.

المجامع اللاحقة كلها غير مسكونية إلا فى نظر الكنيسة الغربية :

٩٦ – قد انفصلت الكنيسة الشرقية عن الغربية كما علمت، والمجامع الآتية كلها مجامع غير عامة فى نظر الكنيسة الشرقية، لأن الأساقفة الذين كانوا يجيبون الدعوة فيها من أتباع الكنيسة الغربية فقط، ولذلك لا تعتبر تلك المجامع عامة إلا فى نظر الكنيسة الغربية.

فالمجمع التاسع انعقد فى رومة سنة ١١٢٣، وأعظم قراراته شأناً الحكم بأن تعيين الأساقفة، ليس من شأن الحكام، بل من عمل البابا وحده.

محاولة تقريب بين الكنيستين :

والمجمع العاشر انعقد فى رومة أيضاً سنة ١١٣٩، وكان أعضاؤه ١٠٠ عضو، وقد حاول هذا المجمع إزالة الفرقة بين الكنيستين فلم ينجح.

والمجمع الحادى عشر الذى انعقد فى رومة سنة ١١٧٩ كان لوضع نظام التأديب الكنسي، وفيه تقرر انتخاب البابوات بثلثى عدد الكرادلة.

وكان فى هذا العصر قد شاع القول باستحالة الخبز والخمر فى العشاء الربانى إلى جسد المسيح ودمه، ولكن لم يقرر ذلك المبدأ.

حتى جاء المجمع الثانى عشر سنة ١٢١٥ وفيه تقرر ذلك المبدأ نهائياً، ومبدأ آخر سيكون له خطر مع سابقه، وهو مبدأ أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء.

وتتوالى بعد ذلك المجامع الكاثوليكية لأغراض عامة أو إقليمية، وفى بعضها تتجدد محاولة توحيد الكنيستين المتصلتين، وفى بعضها يتقرر التنقيب عن القلوب، ومحاربة الخارجين عن التعاليم المسيحية.

وأهم هذه المجامع وأعظمها أثراً، وأقواها عملا، المجمع التاسع عشر الذى انعقد فى تريدنتو والذى دام انعقاده من سنة ١٥٤٢ إلى سنة ١٥٦٤، وفيه الرد على البروتستانتية.

وختام هذه المجامع هو المجمع المتمم للعشرين المنعقد فى روما سنة ١٨٦٩ وقد أثبتوا فيه العصمة للبابا.

وقد قال فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : «وقد نشأ فى ذلك انقسام فى الطوائف

الكاثوليكية ببلاد أوربا والشرق، والذين خالفوا هذه العقيدة من أهالى أوربا سموا أنفسهم الكاثوليكيين القدماء، ونهاية ذلك لم تزل مجهولة».

الفرق المسيحية

٩٧- من البيان الذى سقناه فى المجامع، وما انعقدت بسببه من خلافات يظهر لنا أن المسيحية قد أتى عليها حين من الزمن كان التوحيد هو السائد بين معتنقيها، والغالب على كل نحلة سواه من نحلها. وإنك لترى ذلك واضحاً فيما بيّنّاه من أن أريوس عندما ظهر مقاوماً فكرة ألوهية المسيح، ومنازعاً كنيسة الإسكندرية فى ذلك المبدأ الذى كانت تبثه فى النفوس وهو ألوهية المسيح وتنادى به على رءوس الأشهاد، بينما كان أتباعه فى مصر وفلسطين والقسطنطينية، (وهذه مواطن المسيحية فى ذلك الإبان) أكثر عدداً وأقوى مكانة، فكثير منهم أساقفة ورؤساء كنائس، وكل ذلك مع قسطنطين الإمبراطور الحاكم بأمره الذى لا معقب لحكمه، كان يشايع فكرة ألوهية المسيح ويناصرها، ويحميها ويؤيدها، كما بينا عند الكلام فى مجمع نيقية إذ حمى القائلين أن المسيح فيه ألوهية بحمايته، ووضعهم تحت ظله، وأمدهم بالجاه والسلطان.

وإذا كان قد أتى حين كان فيه التوحيد هو السائد، فصح لنا أن نقسم عصور المسيحية إلى قسمين :

عصر التوحيد : ونجعل نهايته الزمن الذى انعقد فيه مجمع نيقية. أو ما ولى ذلك الزمن بقليل. إذ غالب التوحيد فكرة ألوهية المسيح ردحاً غير قصير من الزمن بعد مجمع نيقية.

والعصر الثانى : عصر تأليه المسيح، وذلك العصر يبتدئ بعد مجمع نيقية، وبعد أن استطاع أباطرة الرومان أن يطمسوا نور التوحيد فى وسط المسيحيين، ويمنعوا الموحدين من نشر دعاياتهم .

وإذن فمن الحق علينا أن نراعى هذا التقسيم عند الكلام فى الفرق القديمة عند المسيحية، فنقسم تلك الفرق إلى قسمين :

فرق ظهرت فى عصر التوحيد، وربما كان وجود بعضها قبل مجمع نيقية إرهاصا لعهد التثليث.

وفرق ظهرت فى عصر تأليه المسيح وعصر التثليث.

ونقصد بالفرق القديمة الفرق التى ظهرت قبل عصر النهضة فى أوربا، أى قبل القرن الثالث عشر الميلادى، ونقصد بالفرق الحديثة الفرق التى ظهرت بعد عصر النهضة، وهى التى ظهرت فى عهد الإصلاح الدينى، وما والاه.

الفرق التى ظهرت فى عصر التوحيد :

٩٨- والفرق التى ظهرت فى عهد التوحيد كثيرة، وبعضها كان مستمسكا بالتوحيد، ومعه الكثرة الغالبة من المسيحيين كما استنبطنا من السياق التاريخى، وكما يستفاد من ثنايا التاريخ، وبعضها كان قد انحرف عن التوحيد، حتى كان وجوده تمهيداً للتثليث أو سيراً ببعض الخطوات فى سبيله.

وأظهر الموحدين أريوس وأتباعه، وقد كانوا كثيرين، فقد شرحنا أنه قد كان يأخذ بمذهبه بطريرك القسطنطينية وغيره من البطاركة، وكان رأيه منتشرا فى مصر والشام ومقدونية، وهى مواطن المسيحية كما علمت.

فرقة أريوس :

يقول ابن حزم فى بيان فرقة أريوس : «والنصارى فرق، منهم أصحاب أريوس، وكان قسيساً بالإسكندرية، ومن قوله التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السماوات والأرض، وكان فى زمن قسطنطين الأول بانى القسطنطينية، وأول من تنصر من ملوك الروم، وكان على مذهب أريوس»

وهذا الكلام يحتاج جزءه الأخير إلى نظر، فهو يزعم أن قسطنطين كان على مذهب أريوس، وقد بينًا عند الكلام فى مجمع نيقية، أنه هو الذى تدخل بنفوذه وسلطانه، فعزل أنصار لاهوت المسيح، واعتبر المجمع مكوناً منهم دون سواهم، وقد كان المجتمعون أول الأمر أكثر من ألفين، فرفض رأى الكثرة، وعقد مجمعاً مؤلفاً من ثمانية عشر وثلاثمائة، بينما يذكر الثقات من المؤرخين أنه قد صرح بنصرة أريوس من المجتمعين أكثر من سبعمائة.

نعم إن الأريوسيين قد حاولوا بعد ذلك جذبه إلى رأيهم، وضمه إلى مذهبهم ليستفيدوا منه قوة وسلطانا، فمال إليهم أخيراً، أو أظهر الميل، وإن كان لم يعمل على مذهبهم، ولم يعقد مجمعاً ليقرر رأيهم، كما فعل بالنسبة لغيره، وأقصى ما عمله أنه رد

المحرومين إلى حظيرة المسيحية، وأعاد المنفيين من منفاهم، ومكنهم من الاستمتاع بنعمة الحرية. ولعل ذلك كان كياسة منه وسياسة، إذ رآهم كثرة المسيحيين الغالبة. وأقوالهم هي الشائعة الرائجة، فأظهر الميل إليهم حتى لا ينقضوا عليه.

أصحاب بولس الشمشاطي :

٩٩ – ومن الموحدين الذين ظهروا أصحاب بولس الشمشاطي، ويقول فيه ابن حزم: «كان بطريركا بأنطاكية، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه. وكان يقول : لا أدري ما الكلمة، ولا روح القدس»

ومن هذا يتبين أن مذهب بولس هذا كان توحيداً خالصاً، وأن عيسى ليس إلا رسولا من رب العالمين. وأنه كان إذا عرض له البحث في كلمة الله، وروح القدس أمسك عن ذلك، ولم يخض فيه، وتوقف واعتصم بذلك.

ويقول ابن البطريق في بيان مذهب بولس هذا : «إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله، ويقولون إن الله جوهر واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس، وهي مقالة بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية، وهم البوليقانيون».

هذا ما قاله ابن البطريق في معتقد بولس الشمشاطي، وهو لا يختلف في جوهره عن كلام ابن حزم الأندلسي فيه، وإن اختلفت العبارات، فالاصطفاء لتخليص الجوهر الإنسي هو ماعبر عنه ابن حزم بالرسالة، والنعمة الإلهية التي حلت فيه هي الوحي، واختياره ليكون رسول الله إلى الناس يهديهم، والنبوة التي جاءت في عبارة ابن البطريق حكاية لقول بولس هذا كناية عن المحبة، ولعل بولس لم يجرها على لسانه، أو لم تجئ في بيانه، ولكن ابن البطريق المسيحي المثلث تكلم عن الموحدين بمنطقه وتعبيره، وإن كان المراد غير موافق للمثلثين.

دخول الوثنية على التوحيد :

١٠٠ – وكان بجوار الموحدين الذين كانت أقوالهم السائدة المنتشرة فى ربوع المسيحيين، وجدت آراء كثيرين ممن دخلوا فى المسيحية وفيهم بقايا الوثنية، ولاتزال رؤوسهم مملوءة بما درسوه، ففهموا المسيحية على ضوء ما عرفوه أولا. واحتضموا المسيحية متمثلة فى نفوسهم بما استكن فى تلك النفوس من آراء ومعتقدات سابقة، وإن ذلك ليشبه من بعض الوجوه تلك النحل المختلفة التى ظهرت فى المسلمين فى إبان الفرقة التى تلت مقتل الخليفة الرابع. وما أدخل من آراء ونحل فى عصر يزيد ومن وليه.

ولكن الإسلام بنور القرآن الكريم وحفظه، وهدى النبى ﷺ ، وما استحفظه عليه المسلمون من كتاب وسنة، وما كلأ الله به هذا الدين المتين – قد نفى عنه الدخل، وذهب الزبد جفاء، وبقى الدين، كما بعث نبيه عليه الصلاة والسلام صافياً من غير رنق ولا تكدر.

أما فى المسيحية فلأن الكتب قد عراها ما بيناه فى الكلام عليها، واختلط فيها الغث والسمين والطيب بالخبيث، وضلت العقول، فلم تستطع أن تميز بين الصحيح وغير الصحيح، وذهب الكوكب السارى الذى يضئ وسط الدجنة الحالكة، وهو كتاب مبين لا يأتيه الباطل، ولا يتطرق إليه الريب، يكون فيصل التفرقة بين المسيحية الحقة، والأساطير الباطلة التى أفسدتها.

أتباع مرقيون :

دخلت تلك الأوهام على المسيحيين الموحدين وبرزت بينهم، كما تبرز رؤوس الشياطين وسط أرض قد كسيت بالسندس الأخضر من الزرع وجاءت على نحل مختلفة، وأهواء متباينة، ونزعات متضاربة، وبأسماء كثيرة.

فمنهم من كان يقول أن هناك آلهة ثلاثة : صالح، وطالح، وعدل بينهما، وهم أتباع مرقيون، ولعل هذه النحلة من آثار المجوس، لأنهم هم الذين يقولون بإله الخير وإله الشر.

ولقد قال ابن البطريق فى هذا النحلة وأصحابها : «وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحورايين ، وأنكروا بطرس» فالمنتحلون لهذه النحلة يزعمون أن مرقيون داعيتها والمنادى بها حوارى من حورايى عيسى عليه السلام، بل كبير الحواريين وشيخهم والمقدم فيهم ورئيسهم.

البربرانية :

ومنهم فرقة تسمى البربرانية كانت تقول أن المسيح وأمه إلهان، ولعل هؤلاء هم الذين ذكرهم الله تعالت كلماته في قوله تعالى مبيناً ما يكون بينه سبحانه وتعالى وعيسى عليه السلام من قول يوم القيامة، قال تعالت كلماته :

«وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب* ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد* إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم».

ولعل فريقاً منهم كان موجوداً عند نزول القرآن الكريم.

نحل أخر :

ويقول ابن البطريق فى بيان بعض فرق كانت موجودة قبل مجمع نيقية : ومنهم من كان يقول أن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية، وهى مقالة بابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول : لم تحبل مريم تسعة أشهر ، وإنما مر فى بطنها، كما يمر الماء فى الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت فى أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته وهى مقالة إليان وأشياعه.

ضياع التوحيد بسبب تحريف الكتب :

١٠١ – هذه هى بعض المقالات والأهواء والنحل التى جاءت فى عصر التوحيد رنقت صفاءه، وكانت نكتا سوداء فى وسط المسيحية الحق النضرة، ولقد كان من الممكن أن تزول تلك الأمور العارضة، ويبقى الأصل سليماً نقياً، لم يتأشبه شئ من المفاسد، ولكن شرط ذلك أن يكون ثمة كتاب محفوظ لا يعتريه الشك من أى جانب، ولا يتطرق إليه الظن والاحتمال، ليكون ميزاناً للحق والباطل، وليكون مقياساً تقاس به الآراء، وليكون مرجعاً يرجع إليه المختلفون.

ولكن الاضطهادات التى نزلت بالمسيحيين، ومصادرة الكتب وتحريفها بأمر الرومان، والأيدى العابثة المفسدة، كل هذا جعل مصادر المسيحية يعتريها الشك والريب، ومن وراء ذلك نفذت الأهواء والأساطير إلى القلوب، وأخذت تنال من المسيحية وصميمها من غير أن يعقب معقب بنص قاطع معتمد، وكتاب ثابت السند.

فكل نحلة تدعى لا تجد رداً لها من نص، وهى تروج لدى العامة لا بقوة الدليل أو النص، بل بقوة الداعى ومقدار لحنه بالحجة الباطلة والصحيحة، ومقدار نشاطه وبيانه وسعة حيلته ودهائه، ودربته على جذب الجماهير.

ولقد كان جمهور المسيحيين يقدس المسيح أبلغ تقديس، فكانت مهارة الدعاة وقوتهم البيانية متجهة إلى هذه الناحية، يزيدون فى تقديس المسيح فيزيدون كلامهم قبولا لدى العامة، ثم انتقلوا من التقديس المعقول إلى الغلو المرذول، فغالوا حتى عدوه إلها.

وهكذا أخذت العقيدة تفسد، وكان العامة بين حبلين قويين، وكل حبل فى يد عصبة من أولى القوة، فحبل التوحيد، ومعه العقل، ومعه الأصل ومعه السيادة للتوحيد، وحبل آخر قد أخذ يجتذب العامة إليه بقوة، وعمل على أخذهم بعاملين : عامل الاستهواء جاء من الناحية التى يحبونها، وأرضى شهوتهم فيها، وهى ناحية تقديس المسيح عليه السلام، وأخذ يلقى تعاليمه فى النفوس، وقد وضعها فى ذلك اللون الشهى، وذلك الطعم المستساغ.

العامل الثانى : عامل السلطان والجاه بتقريب من يقول مقالة تأليه المسيح وإدنائه من ذوى السلطان، وتمكينه من الرقاب، وتغريب من لا يقول هذه المقالة، واضطهاده، وإبعاده عن حظيرة المسيحية، ولعنه وطرده وتصويره للناس بصورة من لا يقدس المسيح، ولا يرجو له وقاراً وإجلالا.

كان العامة بين هذين العاملين مع فقد الكتب المسيحية القاطعة فى الاستدلال والتى تقف المغالين عند حد الاعتدال. وقد كانت كفة التوحيد هى الراجحة حتى بعد مجمع نيقية، ولكن جاءوا بعد ذلك، وأخفتوا صوت المنادين بالتوحيد وحيل بينهم وبين ما يدعون إليه. ولم يمكنوهم من أن تصل دعوتهم إلى العامة فصار العامة بعد ذلك لا يسمعون إلا جانباً واحداً، وخاضعين لعامل واحد، وهو الخروج عن نطاق التوحيد، فتم للحكام والقسيسين ما أرادوا، واختفى دين المسيح عليه السلام. وقام دين البطارقة والقسيسين.

الفرق القديمة فى عهد التثليث

١٠٢ — بعد مجمع نيقية أبعد التوحيد رسمياً عن الديانة المسيحية، وإن كان أتباعه أكثر عدداً، وأعز نفراً، ولم تستطع الحكومة الرومانية أن تقضى على التوحيد بذلك المجمع، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرياسة فى الكنائس، ولا تجعل صوتهم يصل إلى الشعب، بالنفى والتشريد، وكل ذرائع الأذى والاضطهاد، حتى حيل بين العامة وبين سماع صوت التوحيد، وفعل الزمن فعله، وتغلبت الظلمة على النور، وأخفى ظلام الليل نور النهار الساطع. وعندئذ كانت الفرق التى تظهر بعد ذلك فى ظل ألوهية المسيح فى الجملة إن استثنينا مقدونيوس وفرقته.

فرقة مقدونيوس :

وأول فرقة ظهرت فى ذلك العصر فرقة مقدونيوس هذا، فقد أنكرت أن يكون روح القدس إلهاً، وقاومت ما ترمى إليه الكنيسة العامة من فرض تلك الألوهية ودعوة الناس إليها، وحثهم على اعتناقها، ولعل مقدونيوس هذا كان من الموحدين الذين لا يزالون يعتنقون التوحيد، ويتابعون فى ذلك أريوس وسائر الموحدين. وإن كانت الغلبة لغيرهم، فهاله أن يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح ويثنّون بتأليه الروح القدس، فجاهر بإنكار الثانى، لأنه لم يعد فى قوس الصبر منزع.

يقول ابن البطريق : «وفى عشر سنين من ملكه – قسطنطين ابن قسطنطين الثانى – صير مقدونيوس بطريركا على القسطنطينية، وكان يقول : إن روح القدس مخلوق، وأقام عشر سنين ومات».

لكن مقالته لم تمت بموته، بل كان له أشياع وأتباع وخصوصاً من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانية، وإن أصبحوا فى الجملة لا سلطان لهم.

لأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١، وقد ذكرنا بعضاً من قراراته، وكان المقرر والمناظر والمجادل فى هذا المقام بطريرك الإسكندرية مهد الأفلاطونية الحديثة، كما نوهنا آنفاً، ويسمى المقدونيين الأبولنياريين فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان فى بيان المجمع القسطنطينى : «المجمع القسطنطينى المنعقد سنة ٣٨١ بأمر ثيودوس الملك ضد الأبولنياريين، وهم المقدونيون المنكرون للاهوت الروح القدس».

ويعتقد الكنسيون أن إنكار إلهية الروح القدس وليد من مذهب الموحدين، فيقول صاحب تاريخ الكنيسة : «وقد انبعث من جوف هذه الأرطقة (رأى أريوس) أرطقة أخرى لم تكن أقل مناقضة للثالوث الأقدس، فكانت تنكر ألوهية الروح القدس، وكان منشئها مقدونيوس، وهو نصف أريوسى قد اختلس كرسى القسطنطينية واحتجب مدة سنين عديدة تحت رداء المذهب الأريوسى، ولم تكن له شهرة خصوصية فى بهوة الأسجاسى التى أحدثها الأريوسيون»، وهذا زعم له نصيب من الواقع، لأن الذين ينكرون ألوهية المسيح، ويعتقدون التوحيد الصحيح لا يقرون بألوهية الروح القدس.

ولكن يجب أن يلاحظ أنه فى الوقت الذى أنكر فيه مقدونيوس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت فى مجمع عام، وقد يكون موضع حديث البطاركة وتعاليم بعضهم كون الروح القدس إلهاً، فتصدى مقدونيوس لإنكار ذلك، وتلقى الناس كلامه بالقبول، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه إلا بعد أن مات بعدة سنين.

النسطوريون :

١٠٣- هذه النحلة تنسب إلى نسطور، وقد كان بطريرك القسطنطينية ومكث فى هذا المنصب أربع سنين وشهرين، وقد رأى أن مريم العذراء لم تلد إلهاً، بل ولدت الإنسان فقط، وهو بذلك يرى أن الأقنوم الثانى، وهو الابن لم يتجسد وتلده مريم كما يرى غيره من المثلثين، بل كان يرى أن مريم ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثانى، وليس ذلك الاتحاد بالمزج وجعلهما شيئاً واحداً، وذلك الاتحاد ليس اتحاداً حقيقياً، بل اتحاداً مجازياً. لأن الإله منحه المحبة، ووهبه النعمة ، فصار بمنزلة الابن، وهذا التخريج لا شك يؤدى إلى أن المسيح الذى خاطبهم وكلمهم، وحوكم وعوقب فى زعمهم، لم يكن فيه عنصر إلهى قط، فلم يكن إلهاً ولا ابن الإله.

وقد نقلنا فيما مضى عند الكلام على المجمع الثالث أن صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية تقرر أن كلام نسطور معناه، أو يلزم منه حتماً، إنكار ألوهية المسيح.

ولما قال نسطور ذلك القول كاتبه كيرلس بطريرك الإسكندرية، ويوحنا بطريرك أنطاكية فى ذلك الإبان، ليعدل عن رأيه، فلم يصغ إليهما، ولم يجب طلبهما، فانعقد مجمع أفسس سنة ٤٣١، وقرر لعنه وطرده، وإثبات أن مريم العذراء قد ولدت الإنسان والإله.

وقد بينّا ذلك القرار ببعض التفصيل عند الكلام على ذلك المجمع.

ولقد أبعد ذلك نسطور عن منصبه ونفى، فصار إلى مصر وأقام فى أخميم إلى أن مات.

ويقول ابن البطريق : «كانت مقالة نسطور قد اندثرت، فأحياها من بعده بزمان بوصوما مطران نصيبين في عهد قباذ بن فيروز ملك فارس، وثبتها فى الشرق، وخاصة أهل فارس، ولذلك تكاثرت النسطورية فى الشرق، «فى العراق والموصل والجزيرة». ولا يزال إلى الآن فى الأماكن التى يذكرها ابن البطريق نسطوريون ينتحلون هذه النحلة ويأخذون بهذا المذهب.

ويقول صاحب سوسنة سليمان: «إن النسطوريين فى هذا العصر يسمون الكلدان، يسكنون خاصة فيما بين النهرين، والبلاد المجاورة لهما، ولهم تعاليم كثيرة مختصة بهم، غير أنهم يمتازون عن باقي المذاهب باعتقادهم أن نسطوريوس حرمه مجمع أفسس ظلماً. أضف إلى ذلك بأنه لم يكن فى المسيح طبيعتان بل أقنومان أيضاً، وكان يحسب هذا المعتقد فى الزمن القديم ضلالا مبيناً، وأما فى هذا الزمان فيحسبه العلماء، حتى الكاثوليك الرومانيون، غلطاً لفظياً لا معنوياً، لأن هؤلاء الكلدانيين يعتقدون أن فى المسيح أقنومين، كما أن فيه طبيعتين، ويقولون أيضا بأن هذين الأقنومين، وهاتين الطبيعتين قد التصقتا حتى صار منهما رؤية واحدة».

وهذا الكلام يدل على أمرين : أحدهما أن الكنيسة الرومانية التى كانت تشدد فى القرون الخالية فى طرد كل من يخالف معتقدها، وتعده كافراً لا يلج الإيمان قلبه، قد تساهلت فى هذه الأعصر، فوسعت صدرها للمخالفين لها، وتأولت لهم، لتدخلهم فى حظيرتها بعد سابق الحرمان والطرد واللعن والتكفير.

ثانيهما : أن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادئ نسطور، لأن نسطور كما قررت صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية، وكما قرر ابن البطريق، لا يرى أن الأقنوم الثاني مازج المسيح قط، بل هو يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة، واستنبطنا كما استنبط غيرنا أنه يرى أن المسيح خال من العنصر الإلهى خلواً تاماً، وهو يصرح بأن مريم ولدت الإنسان فقط، بينما غيره يقرر أنها ولدت الإله والإنسان، وهذا اختلاف جوهرى فى الحقيقة والمعنى لا فى الشكل واللفظ، وإذا كان النسطوريون فى هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت فى الناسوت كما يقول غيرهم، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور.

والنسطوريون يقيمون كما ذكرنا فى بلادهم، بلاد العراق والموصل، ومنهم طائفة تقيم فى الهند، وأخرى تقيم فى بلاد العجم، وهم جميعاً يلتزمون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به عند غيرهم من الكنسيين، وليس عندهم من تقليد إلا أن أساقفهم يلتزمون التبتل، والامتناع عن الزواج، وذلك منذ سنة ١٨٣٠م، وهذا كما جاء فى كتاب سوسنة سليمان.

اليعقوبيون :

١٠٤ — هم أتباع يعقوب البرادعى، وهم الذين يقولون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت، ونسبة ذلك المذهب إلى يعقوب البرادعى لأنه من أنشط الدعاة إليه، لا لأنه مبتدعه ومنشئه، فإن ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا، فإن أول من أعلنه بطريرك الإسكندرية فى منتصف القرن الخامس الميلادى.

وبسبب ذلك الإعلان انعقد مجمع خليكدونية، وقرر أن المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة، وبسبب ذلك القرار انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية، أما يعقوب فقد وجد فى القرن السادس الميلادى، ويقرر صاحب سوسنة سليمان فى إطلاق اسم اليعقوبيين على أصحاب هذا الرأى «يطلق عليهم اسم يعقوبيين نسبة إلى يعقوب البرادعى الذى أعاد هذه الشيعة، ورتبها فى القرن السادس للتاريخ المسيحى، بعد أن كادت تتلاشى».

وقد فصلنا الكلام فى هذه النحلة والأدوار التى مرت عليها عند الكلام فى مجمع أفسس الثانى الذى تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص، وفى مجمع خليكدونية، فلا نعيد ماذكرناه، حتى لا نقع فى التكرار الممل.

والذين يقولون أن المسيح ذو طبيعة واحدة، ينقسمون إلى آسيويين وأفريقيين، ولكل قسم رياسة دينية خاصة به.

فرئيس الآسيويين هو بطريرك السريان، ومن هؤلاء الآسيويين من اعترفوا برياسة الكنيسة الكاثوليكية، فقبلتهم وإن استمروا على رأيهم.

ورئيس الأفريقيين هو بطريرك القبط المقيم بالقاهرة، ويتبعه فى هذه الرياسة سكان الحبشة المسيحيون، فهم خاضعون لبطريرك الكنيسة القبطية، وهو يعين لهم أسقفاً يسوسهم.

ومن الذين يعتقدون أن المسيح ذو طبيعة واحدة - ويتحدون مع الكنيسة القبطية فى ذلك الاعتقاد، ولكن لهم تقاليد دينية وطقوس، ولهم بطاركة برأسونهم. ولا يندمجون فى كنيسة القبط، ولا كنيسة السريان بآسيا - الأرمن.

المارونية :

١٠٥ - هم أتباع يوحنا مارون، وقد اشتهر يوحنا هذا برأيه سنة ٦٦٧م ودعا إليه وشايعه بعض القسيسين فيه، ومعهم بعض من مسيحيي آسيا، وهو أن المسيح ذو طبيعتين، ولكنه ذو إرادة أو مشيئة واحدة، ومن أجل هذه النحلة الجديدة اجتمع المجمع العام السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ من بعد الميلاد، وقرر حرمان مارون، ولعنه وتكفيره وكل من يذهب مذهبه، وينتحل نحلته، وقد أشرنا إلى ذلك المجمع، ونقلنا لك قراره فى المذهب، فلا نعيد نقله.

ويظهر أن المنتحلين لهذا الرأى لم يكونوا ذوى شوكة وقوة حتى يكونوا بمنجاة من الأذى والاضطهاد، فقد نزلت بهم اضطهادات شديدة لم يكن لهم من يدفعها عنهم إلا الفرار، فلم يجدوا لهم مأمناً يعتصمون به إلا بعض البلاد فى جبل لبنان فاعتصموا بها، وقد استمروا على اعتصامهم وبعدهم، حتى أدنتهم إليها الكنيسة الرومانية وقربتهم منها، وأعملت الحيلة والسياسة، حتى أعلنوا الطاعة للكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها على أن يبقوا على رأيهم، ولقد كان اتحادها مع الكنيسة الرومانية سنة ١١٨٢ بعد الميلاد، وما زالت هذه الطائفة متوطنة بجبل لبنان، ولها بطريرك خاص، وإن كانت تقر بالرياسة لبطريرك روما.

الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

أساس انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية :

١٠٦ – كان فيما ذكرناه أعظم الانقسامات القديمة شأناً، وأبعدها أثراً إن استثنينا الكنيسة القبطية، انقسام الكنيسة إلى يونانية ولاتينية وما يتبع ذلك الانقسام من انشقاق فى المسيحية كلها، وما تفرع عن الأولى من فروع وفرق، وإنا نكتفى بهذا القدر من القول فى الفرق القديمة التى مازال منها بقايا إلى أيامنا الحاضرة، ونختم القول فيها بانقسام الكنيسة إلى يونانية شرقية ولاتينية غربية، وقد نوهنا إلى الانقسام عند الكلام فى المجامع، وأشرنا إلى أسبابه بالإجمال.

وقد تبين من هذا أن أساس الخلاف بين كنيسة القسطنطينية التى آلت إليها رياسة الكنيسة الشرقية اليونانية قاطبة، وكنيسة رومة التى آلت إليها رياسة الكنيسة الغربية اللاتينية أمران :

أحدهما – يتعلق بالاعتقاد – وهو أن كنيسة القسطنطينية ومن والاها من بعدُ، اعتقدوا أن الروح القدس من الآب وحده، لا من الآب والابن، وكنيسة روما ومن والاها قد اعتقدوا أن الروح القدس منبثق من الآب والابن معاً، وعقد كل فريق مجمعاً شايع اعتقاده وتابعه فيما اقتنع به، وكان المجمع المشايع لرومة سنة ٨٦٩ ، والمشايع للأخرى بعده بعشر سنوات سنة ٨٧٩.

ثانيهما – لا يتعلق بالاعتقاد – ولكن يتعلق بالرياسة الكهنوتية، أهى لكنيسة القسطنطينية أم لكنيسة رومة؟ لقد قرر المجمع الذى شايع رومة أن تكون لرومة، فرئيس كنيستها هو الحبر الأعظم، والرئيس الروحى للمجمع، وقرر المجمع الذى شايع القسطنطينية رفض تلك الرياسة وعدم الاعتراف بها، ويعتبرون رئيس القسطنطينية رئيساً عاماً للكنيسة.

ولقد تبع هذا الاختلاف فى هاتين المسألتين الرئيسيتين خلاف فى مسائل أخرى أوجدها تتابع السنين واستمرار الشقاق، فقد كثرت أوجه الاختلاف فى مسائل فرعية منها :

١– استعمال الفطير فى العشاء الربانى بدل الخبز، فإن ذلك أقرته الكنيسة الغربية، ولم تعترف به الكنيسة الشرقية.

٢- أكل الدم والمخنوق ، فإن الكنيسة الغربية أباحته وهو مخالف لمجمع الرسل فى أورشليم الذى انعقد بعد مفارقة المسيح بنحو اثنين وعشرين سنة.

٣- أكل الرهبان دهن الخنزير، فهو مباح عند الكاثوليك دون الكنيسة الشرقية .

٤- لبس الأساقفة الخواتم فى أصابعهم وحلق الكهنة لحاهم.

وجاء فى حاشية لكتاب سوسنة سليمان ما نصه : «يوجد اختلافات غير هذه بين الروم واللاتين لم يصرح بها هؤلاء البطاركة، وربما كان ذلك لكونها ما كانت تحددت وقتئذ كقاعدة دينية فى كنيسة رومة، كالمطهر الذى لم يثبت إلا فى مجمع فلورنسا المنعقد فى سنة ١٤١٩، ثم أوجب قبوله على كل الكنائس الغربية المجمع التريدنتينى فى القرن السادس عشر.

أما الفرق بينه وبين عقالات جهنم التى يقررها الروم، فهو أن المطهر نار مطهرة يتخلص منها الخاطئ بعد أن يقاص فيها بمقدار جرم ذنوبه.

أما عقالات الجحيم، وهى حظيرة حبس يقيم فيها الخطاة إلى يوم الدينونة الذى به ينالون القصاص الأبدى فى جهنم. والصلوات التى يقدمونها لأجل الموتى، يعتقدون أنها تلطف نوعاً أحوال هذا الحبس عليهم تلطيفاً وقتياً فقط.

وكذلك منع الشعب من الاشتراك فى الكأس إذا لم تثبته كنيسة رومية إلا فى مجمع كنستانس سنة ١٤١٥».

تقادم الزمن يوسع الخلاف :

١٠٧- كان كلما تقادم الزمن على النقطة التى ابتدأ منها الخلاف اتسعت فرجاته، وكبرت زاوية الانفراج، وكلتا الكنيستين ذات بأس وقوة، وكانت فى القديم لها دولة تحميها، إذ كانت دولة الرومان منقسمة إلى شرقية وغربية. فكان استقلال كل واحدة من الدولتين وانفصالها عن الأخرى مما أكد الفرقة وقوى الانقسام.

ولقد كان يأتى الفينة بعد الأخرى صوت يدعو إلى الوحدة والالتئام بدل الاستمرار على الفرقة والانقسام، فتعقد لأجل هذا مجامع، وترسل الوفود. ولكن ما أن يتلاقى المتخاصمان، حتى تعاد أسباب النزاع جذعة، إذ كل واحدة ترغب فى أن تنزل الأخرى عن

رأيها، فتلاحى كل واحدة عما تعتقد، فيشتد الجدل، ويحمى وطيس القول، فتفترقان، وقد زادت القطيعة قوة واحتداما.

محاولة إزالة الخلاف :

حاول أحد بطارقة روما فى منتصف القرن الحادى عشر أن يجمع الشتات ، ويلم الشمل، وعرض مبادئ تكون أساساً للمصلحة، رفضها بطريرك القسطنطينية، وأصدر الأول قراراً بحرمان الثانى، فأصدر هذا قراراً بحرمان الوفد الذى عرض عليه الشروط.

وهكذا ازدادت الفرقة بسبب ذلك التلاقى، وأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ويظهر أن السبب فى ذلك ماتعتقده كل واحدة منهما أن الأخرى خارجة على الدين، ورغبة كل واحدة فى أن تجتذب الأخرى إليها كما بينا.

انتقاد مسيحى للكنيسة الغربية :

ويقول فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : «إن الكنيسة الرومانية تدعى أن كل المذاهب المسيحية على وجه الإطلاق هى شيع هرطوقية خارجة منها، ومنفصلة عن شركتها. وهذه الدعوى تصح لأية كنيسة أمكنها أن تثبت لذاتها الأقدمية فى الثبات على المعتقدات الصحيحة الأصلية. أما كنيسة رومة، فليس لها فى هذه الدعوى إلا الاستيلاء على أمانة صندوق التقليدات.

غير أن سلامة الذوق تقتضى بأنه كلما قلّت التقاليد فى كنيسة من الكنائس دل على أقدميتها بالنسبة التى تزيد عليها فيما هو من هذا القبيل، لأن التقاليد على ما يستبين من مجريات رومة قابلة للزيادة، والزيادة إحداث، والإحداث فى الدين لا ريب فى أنه بدعة، والإبداع هو عين ما يسميه المسيحيون هرطقة».

ونرى من هذا أن صاحب هذا الكتاب ينتقد الكنيسة الغربية بكثرة، ولعل السبب فى ذلك النقد ليس مجرد الحق، بل كونه ليس من مذهبها، وإلا كان كل ماتقوله مقدساً لا بدعة فيه.

١٠٨ – وقد بينّا البلاد التى تتبع الكنيسة الغربية، وكانت فيما مضى كل أوربا تقريباً وبعض طوائف فى آسيا.

بطارقة الكنيسة الشرقية :

أما البلاد التى تتبع الكنيسة الشرقية، فأكثرها فى الشرق كما أسلفنا من القول، ولها بطاركة.

أولهم بطريرك القسطنطينية، وهو كبيرهم، ويضيفون إلى لقبه وصف أنه البطريق المسكونى، ويقول صاحب سوسنة سليمان : «إنه ليس إلا لقباً تشريفياً فقط، فليس له تسلط على غيره من البطارقة أو الأساقفة المستقلة بوجه قانونى أصلا».

ويليه فى الرتبة والمكانة الدينية بطريرك الإسكندرية للأروام الأرثوذكس ثم بطريرك أنطاكية، ثم بطريرك أورشليم، ثم المجمع الروسى، ثم عدة مجامع لأسقفيات مستقلة أخرى كأسقفية أثينا، وأسقفية قبرص وغيرهما.

وقد ظهرت فى روسيا التى كانت تسودها هذه الكنيسة شيع وفرق كثيرة بلغ عددها نحو مائتى نحلة، وتعداد أصحاب هذه الفرق الجديدة مجتمعة لا يزيد عن خمسة عشر مليونا.

فمنهم فرقة لا ترى تعميد الأطفال، ومنهم شيعة تحسن للنصرانى أن يقتل نفسه فى حب المسيح، ومنهم شيعة يحرقون أنفسهم لتعمدهم النار، فيتطهروا بها، ومنهم شيعة تلتزم الختان باعتباره كان فى المسيحية الأولى وفى التوراة التى تعتبر النصرانية مجددة لها، وهكذا تختلف النحل وتتباين، وكل واحدة تعتقد أن رأيها هو محض الحق المبين.

الإسلام يظلل الكنائس الشرقية بالحرية الدينية:

١٠٩ – ذكرنا أن العلاقة بين الكنيستين على أشد ما يكون الخلاف، كل تعد الأخرى قد خرجت عن نطاق الدين، وقد كانت الحال من قبل كذلك بين كنيسة القبط بمصر والكنائس الأوربية. ونزل بمصر أشد البلاء، ولم ينقذهم إلا الفتح الإسلامى، فمن وقت حكم المسلمين لمصر والشام إلى الآن شعر المصريون بحريتهم التى لم يستمتعوا بها من قبل، حتى أهداها إليهم الإسلام السمح الكريم.

ولما اختلفت الكنيسة الغربية مع الكنيسة الشرقية كان من المنتظر أن تنزل إحداهما بالأخرى أشد البلاء، ولكن ذلك لم يتم أول الأمر لانقسام الدولة الرومانية إلى شرقية

وغربية، واعتصام كل واحدة منهما بدولة، لذلك لم تتمكن واحدة منهما من رقبة الأخرى، فلم تقبض على ناصيتها.

ولكن لما أخذت الدولة الشرقية في الانحلال، وخلفها المسلمون على بعض أملاكها، وأخذوا يقصونها من أطرافها. أخذت ترجح إحدى الكفتين على الأخرى فقويت الغربية، وصارت لها السيادة. واعترف بطريرك القسطنطينية له بالتقدم عليه في الجلسة، وإن لم يعترف بأنهما على حق فيما يختلفان فيه، وما اختلفا فيه من قبل، والبلاد التي اقتطعها المسلمون كانت تنعم بالحرية الدينية كشأن المسلمين في معاملتهم لغيرهم.

ولما جاءت الحروب الصليبية، استولى الصليبيون على أورشليم التابعة كنيستها للكنيسة الشرقية وغيرها من المدن الإسلامية التي يعيش في ربوعها المسيحيون آمنين مطمئنين، لايزعجهم اضطهاد، ولا يرنق صفاءهم ضغط، ثم ثنى أولئك الصليبيون أتباع الكنيسة الغربية، فاستولوا على دولة الرومان الشرقية نفسها، فأنزلوا بإخوانهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون.

ولنترك الكلمة للمسيحي صاحب سوسنة سليمان، فهو يقول: «حرك البابا أتوسنت الثالث قواد الصليبيين لنزع المملكة الشرقية من يد اليونان، فافتتحوا القسطنطينية سنة ١٢٠٤، وداموا متسلطين عليها إلى سنة ١٢٦١م فاستعملوا ما أمكنهم من البربرية في الأراضي التي امتلكوها من بلاد سورية وفلسطين، ليخضعوا بطارقة أورشليم، وجميع الأكليرس اليوناني بواسطة الحبس، وإقفال الكنائس إلى أن أحوجوهم أن يفضلوا مودة العرب حكام البلاد الأصليين على موادتهم ويختاروا تسلط شعب يرضى بجزية على أن يتسلط عليهم ملك روحي طمعه وطمع قصاده لا يشبعان».

حينئذ أحس أولئك المسيحيون بنعمة الإسلام عليهم، ونعمة حكم المسلمين لهم، فقد سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها الخسف والهوان، ونقّبوا عن قلوبهم، وبحثوا عما تكنه الصدور، ولكن نعمة الإسلام كانت تلاحقهم، فلم ينقض زمن طويل، حتى جاءهم الإسلام في القسطنطينية وأعطاهم الأمن والدعة والقرار والاطمئنان، حتى لقد قالوا كما حكى صاحب السوسنة: «عمامة السلطان محمد الفاتح، ولا تاج البابا المثلث».

وهكذا كان الإسلام رحيماً تسع رحمته المخالفين.

الفرقة الحديثة «البروتستانت»[1]

أو الإصلاح الدينى

حال الكنيسة قبل الإصلاح :

شدة الكنيسة على الناس والعلماء :

١١٠- اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين، وبالغت فى فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو، ولم تسلك فى ذلك سبيل الموعظة الحسنة، والدعوة الصالحة، والإرشاد القويم، ومخاطبة الأرواح والنفوس، وتمكينها من أن تتبعها، وهى حرة مريدة مختارة، بل سلكت سبيل العنف، وركبت متن الشدة، فجعلت كل رأى فى العلوم الكونية يخالف رأيها كفراً، ولا تدعو معتنقيه إلى الهداية، وترشده إلى الرشاد، كما يليق برجال الدين مع من يرونه ضالا، بل تكفر لأوهى الأسباب، وتحرق أو تعذب من تراه كافراً بلا رفق ولا هوادة.

فهذا المجمع الثانى عشر من مجامع الكنيسة هو المجمع المسمى باللاتيرانى الرابع المنعقد سنة ١٢٥١ يقرر استئصال الهراطقة، ويعنون بذلك كل من يرى رأياً مخالفاً للكنيسة، ولو كان رأياً فى الكون أو طبائع الأشياء، ولم تكتف الكنيسة بقتل من يجهرون بآراء تخالف آراءها، بل أخذت تنقب على القلوب وتستكنه خبايا النفوس، وتكشف عن سرائر الناس بما أسماه التاريخ محاكم التفتيش، التى دنست تاريخ الأديان بما ارتكبت من آثام، وما أزهقت من أرواح، وما سفكت من دماء، وما عذبت من أحياء.

وإن جهر رجل من رجال الدين بالدعوة إلى الإصلاح، داعياً رجال الكنيسة إلى أخذ الناس بالرفق، وحاثا رجال الدين على الأخذ بهديه كان عقابه الحرمان والقتل.

حدث فى أوائل القرن الخامس عشر أن أحس أساقفة فرنسا بوجوب إصلاح البابوات، فانعقد لذلك مجمع مؤلف من ١٥٠ أسقفاً، و ١٨٠٠ من رجال الدين، ولكن هذا المجمع انتهى فى قراراته بالأمر بإحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقه جيروم.

---

(١) سمى الذين اعتنقوا مبدأ الإصلاح الكنسى، وخرجوا على الكنيسة الكاثوليكية بروتستنت، لأنهم عندما أريد تنفيذ قرار الحرمان عليهم أعلنوا احتجاجاً يسمى بالإنجليزية برتسنت، فسمى الذين أمضوا القرار بروتستنت، أى المحتجين.

ولقد حرق وعذب في هذا السبيل علماء استشهدوا في سبيل العلم بسبب مظالم تلك الكنيسة، وضيق صدر القوامين عليها.

ومما يذكر في هذا أن أحد العلماء واسمه أبيلارد كان له رأى في تكفير المسيح عن خطيئة آدم، خالف به رأى الكنيسة فقال: ليست حياة المسيح وصلبه وما لاقى في ذلك من تعذيب سبيلا لإرضاء الله وإنزال عفوه عن خطيئة الإنسان، فعفو الله أيسر من ذلك وأقرب، وإنما لاقى المسيح ما لاقى إعلاناً لما يكنه قلبه من حب الله، وعسى أن يثير في الناس عاطفة الشكر وعرفان الجميل، فيعيدهم إلى طاعة الله. ولكنه ما أن قال ذلك القول حتى انعقد مجلس لمحاكمته، فكان نصيب كتبه التحريق، ونصيبه السجن الدائم، حتى وافته منيته.

وجاليليو يرى رأياً في الكون فيسجن لذلك الرأى، مع أن رأيه ليس من أمور الدين في شئ.

فرض سلطانها على الملوك :

١١١- بالغت الكنيسة في شدتها، كما رأيت، ولم ينج حتى الملوك من طغيانها، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية إلى ممالك مختلفة، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية لا تتصل بالأخرى إلا اتصال محبة وسلام، أو حرب وخصام - كان ذلك سبباً في أن صار البابا لاسلطان لأحد من ولاة الأمر عليه، وقد تقرر هذا من بعدُ كما صار تعيين البابوات باختيار المجامع، لا بتعيين ملك أو أمير، مهما تكن قوته وسطوته، وصار البابوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأى نوع من أنواع الخضوع لأى ملك من الملوك، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذى لا يرد على كل مسيحى، مهما تكن مكانته، يستوى في ذلك الأمير والخفير، والراعى والرعية، فليس لأى ملك سلطان على البابا، والبابا له سلطان على كل ملك، لأنه مسيحى، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين، ولأن البابا خليفة لبطرس الرسول، وبطرس الرسول أقامه المسيح رئيساً على الحواريين من بعده، فالبابا على هذا الأساس خليفة للمسيح ينطق باسمه، ويتكلم بخلافته، وينفذ بسلطانه، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طاعة المسيح، وحارب دينه.

قرارات الحرمان تنال الملوك:

وبهذا المنطق فرضوا أوامرهم على الملوك، كما فرضوها على سائر الناس، ولذا لم ينج بعض الملوك من قرارات المجامع بحرمانهم، وطردهم من حظيرة المسيحية، ولعنهم، فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان: «المجمع الثالث عشر انعقد فى ليون من أعمال فرنسا سنة ١٢٤٥ بأمر البابا إينوسنت الرابع لأجل عزل فردريك ملك فرنسا وحرمانه، وهذا المجمع لم تسلم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته أو بسلطانه مطلقاً».

لم ينج إذن الملوك من قرارات الحرمان والطرد، وإن لذلك أثره فى نفوس شعوبهم، كما أنه يحفز الملوك على العمل من جانبهم على حماية أنفسهم، وهم فى ذلك لا يمتنعون عن أن يثيروا القالة فى رجال الكهنوت، ويكبروا صغائرهم، ويروجوا عنهم ما يحط من قداستهم، حتى ينفردوا بالاحترام، ولا يكون سلطان لأحد غيرهم.

١١٢– هذه هى الكنيسة فى معاملتها للناس، عنف وزجر وقسوة، لا إرشاد وهداية وإصلاح، وهى تضرب كل من يعترض طريقها. لا تفرق بين سائس ومسوس، وحاكم ومحكوم، وراع ورعية.

وقد احتكمت لهذا بنوى السلطان، فكان لابد من مغالبة بينهما. ولم يكن الأمر مقصوراً على الأذى البدنى تنزله بمن يخالفها، ولو فيما ليس بينه وبين الدين نسب، ولا يتصل به بسبب. ذلك إلى إرهاق المسيحيين بأتاوات مالية يفرضونها، وضرائب كبيرة يأخذونها، وعلى ذلك صار المسيحيون قاطبة يئنون تحت نير ثقيل، سواء فى ذلك من خالف ومن وافق، فالمخالف بالعذاب يهرأ به جسمه، والموافق بالمال يثقل به، وتفرض عليه ضرائب لأسباب غير معقولة وغير مقبولة أحياناً، وما يجمع من أموال الفقراء والمجدودين التى حصلوا عليها بالكد واللغوب يتوزعه رجال الدين بينهم، وينفقونه إسرافا وبدارا فى سبيل تحقيق رغباتهم، وبذلك كانوا يجمعون المال من غير حله، وينفقونه فى غير حله أيضاً. وبذلك انغمسوا فى شر ما فى هذه الدنيا، وتركوا لب الدين.

استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة :

١١٣– ولقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق فى فهم الكتب المقدسة عندهم، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس، ولا معقب لما تقول فى هذا التفسير، أو فى رأى

تبديه، أو أمر تعلنه، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحى إذا لم يستسغ عقله قولا قالته أو مبدأ دينيا أعلنته أن يروض عقله على قبوله، فإن لم يستطع، فعليه أن يشك فى العقل، ولا يشك فى قول البابا. لأن البابا خليفة لسلسلة الخلافة التى بيّناها.

ولقد كانت تعلن أموراً ما جاء بها الكتاب المقدس عندهم، وما تعرض له المسيحيون الأولون، ولا المجامع الأولى، وهى أمور غريبة جد الغرابة، بعيدة عن القبول فى أحكام العقل جد البعد، وتلزم المسيحيين بها، وتفرضها عليهم فرضا، ومن قال كلمة فيها فالويل له، ينزلونه به فى الدنيا ولا ينتظرون حساب الديان فى الآخرة.

ونذكر القارئ على سبيل المثال بمسألتين كان لهما أثر فى الفكر المسيحى، وبسببهما هما وغيرهما تقدم المصلحون فى جرأة، داعين إلى إصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغير الحسنى. هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة، ومسألة الغفران.

مسألتا الاستحالة والغفران :

١١٤- أما مسألة الاستحالة فالأساس فيها ما علمت فى شرح الشعائر النصرانية، من أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزاً ويشربون خمرا، ويسمون ذلك العشاء الربانى، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه، وذلك أمر غريب فى العقل، لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهولة، بل لايستطيع أن يستسيغه قط. إذ كيف يتحول الخبز لحماً، وكيف يصير لحم شخص معين معروف. وكيف تتحول الخمر دما، وتصير دم شخص معين معروف؟ ذلك غريب بل مستحيل التصور والقبول فى العقل، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلا عرضوا للطرد والحرمان. وهل ورد هذا الأمر فى الكتب المقدسة، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل؟ إنه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وأبدته فى أحد مجامعها، غير معتمدة فى ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم.

ولقد خالفت فى بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية غيرها من الكنائس، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الربانى لا يكون بالفطير، بينما تراه الكنيسة اللاتينية، ووجد من

أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة، ويعتقدون أنها غير ممكنة فى العقل ولا سائغة فى الفكر.

١١٥ – أما المسألة الثانية فهى مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسئ فى الدنيا، فقد قررته الكنيسة حقاً لنفسها فى المجمع الثانى عشر أيضاً.

وقد جاء فى كتاب تاريخ الكنيسة فى بيان قرار المجمع فى هذا الشأن: «أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران» فقال: «إن يسوع المسيح ما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا منذ الأيام الأولى، قد أعلم المجمع المقدس، وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحى، المثبتة بسلطان المجامع».

ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها، غير أنه قد رغب فى أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراس حسب العادة المحفوظة قديماً، والمثبتة فى الكنيسة، لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل.

إفراط الكنيسة فى استعمال حق الغفران:

هذا قرار المجمع، وفيه تمكين للكنيسة من سلطان قوى جبار، وهو سلطان مسح الذنوب، وغفرانها مهما يكن مقدارها، ومهما تكن قد دنست النفس، وأرهقت القلب، ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس، حتى لا يؤدى الإفراط فى منح الغفران إلى ترك التهذيب الدينى، وهجر تعاليم الكنيسة، والعبث بهدى الدين، فهل أخذت الكنيسة بما أعطاها المجمع، وراعت حق الرعاية ما أوصاها به من عدم الإفراط فى الإعطاء والمنح؟ لقد أتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق، أن أفرطوا فى إعطائه إفراطاً شديداً وأنشئوا له صكوكاً تباع وتشترى، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا، ومتعة من متعها، وبذل العصاة فى سبيلها المال، وما كان عليهم من حرج فى أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات، وينالوا ما تهوى الأنفس من معاص.. مادام ذلك يفتدى بمال قل أو جل، وهذا نص صك الغفران الذى يباع بيع السلعة.

صورة من صك الغفران:

«ربنا يسوع المسيح يرحمك يافلان، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات، والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها، وأيضا من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسى الرسولى، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر، وأردك حديثاً إلى الشركة فى أسرار الكنيسة، وأقرنك فى شركة القديسين، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك، حتى أنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتى ساعتك الأخيرة.باسم الآب والابن والروح القدس».

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام، وتغفر ذنوب العاصى ما تقدم منها وما تأخر، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهراً، ثم لا يصير قابلا لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا، ومهما ينغمس فى المعاصى. كأن ذلك الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم، لايعوق حامله عائق، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس.

هذا ما يدل عليه الصك، وهذا ما كانت تحاول الكنيسة أن تلقيه فى روع الناس تمكيناً لسطانها، ورغبة فى نقودهم التى يبذلونها للكنيسة فى سبيل الحصول على ذلك الصك الذى يكون سر الأمان، وطريق الوصول إلى الغاية.

لقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا، ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق فى الغفران، والشخص قوى يستقبل الحياة، ولا يودعها ويقبل على متعها، ولا يدبر عنها، وغالت فجعلت لنفسها غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب، ثم أغرقت فى المغالاة فاتخذها رجال الدين باباً من أبواب الكسب للكنيسة. ثم إنهم ينفقون ما يجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق، وما قد يحرمانه، وبذلك طم السيل، حتى جاوز الحزام الطبيين.

سلوك رجال الدين الشخصي :

١١٦- وهل كان رجال الدين في سلوكهم الشخصي، وفي استمساكهم بعروة الأخلاق، وهدى الدين يستحقون أن يبذل الناس في طاعتهم ما يبذلون ويروضوا أنفسهم على الخضوع لآرائهم، وقبولها بقبول حسن، متهمين العقول إن حاولت التمرد والعصيان، لأن حال رجال الدين بعيدة عن الظنة، منزهة عن الريبة، قد سموا بأنفسهم، حتى ساموا في العلو القديسين والشهداء والصالحين، وجعلوا أنفسهم عنوان العفة، وبخع النفس عن الشر، وافتدوا الفضيلة بأنفسهم، أو عرضوا أنفسهم للفداء. كما كانوا يرون أن المسيح قد فعل من قبل؟ لقد كانت حال رجال الدين تحوطها الريب من كل جانب، وتأخذهم الأنظار المتعقبة من كل ناحية من نواحي الحياة، حرموا على أنفسهم الزواج إذ سادت الرهبانية وسيطرت على نفوسهم، فجعلوا زواجهم حراماً، لينصرفوا لخدمة كنيسة الرب، ويقوموا على سدانتها، ويرعوها حق رعايتها، ولكن ما أن توردت عليهم الأموال، وكثرت أمامهم أسباب النعيم، حتى فكهوا فيها مترفين، وانغمسوا في الملاذ يستطيبون أطيبها، ويطلبون أشدها، ولما مكنوا لأنفسهم من السلطان، اندفع بعضهم في طلبها اندفاعاً، ومنهم من استهتر في سبيلها استهتاراً، وخرجت حال بعض أولئك المنغمسين في الخطايا من السر إلى الجهر، ومن التستر إلى التفحش، ومن الخفية إلى الإعلان، واتصل بعضهم بالنساء اتصال سفاح، بعد أن حرموا على أنفسهم النكاح؟ ولم تتمنع النساء المتصلات بهم من أن يعلن ذلك مفاخرات به، وجاء من ذلك الاتصال الآثم أولاد لاآباء لهم، ولكن لهم حظوة، لأن بعض رجال الدين يعرفون آباءهم، كما يعرفون أبناءهم، فيمكنون لهم بسلطانهم الديني سلطانا دنيوياً.

ولقد كانت تلك الحياة اللاهية العابثة الفاسقة ميزة اختص بها بعض رجال الطبقة العالية الدينية أنفسهم، أما التحوت من رجال الدين ففي فقر مدقع، وفي حياة هي أقرب إلى الدين المسيحي من حياة كبرائهم، وذوي السلطان فيهم وفي الشعب.

ابتداء الإصلاح :

١١٧- هذا سلطان الكنيسة، وتلك حال رجالها، يتدخلون في كل شيء، ينقبون عن القلوب، وقد سترها علام الغيوب، ويرهقون من يتهمونهم بأقسى أنواع العذاب، ويفرضون سلطانهم على الراعي والرعية، حتى يتململ من تحكمهم الملوك والأمراء، وذوو الفكر من

الشعوب ويجبون الأتاوات ويفرضون الضرائب حتى كأنهم الجباة العشارون لارجال الدين المهذبون، ويعطون أنفسهم حق مسح الخطايا بعد اعتراف المذنب فى آخر أيامه فى الدنيا، وأول أيامه فى الآخرة، ثم يغالون، فيمنحون أنفسهم حق غفران الذنوب السابقة واللاحقة للقوى الصحيح، ويكتبون فى ذلك صحوكاً يبيعونها بثمن قليل أو كثير، ثم يقضون أو بعضهم حياة كلها لهو، وحولهم الناس ينظرون.

ولقد بلغ السيل الزبى فى العصر المشهور فى التاريخ الأوربى بعصر النهضة، وفيه نهضت الإرادة الإنسانية، والعقل الإنسانى يفرضون وجودهما، وفيه استطاع الأوربيون أن يروا الله فى الإسلام، والتدين الحقيقى فيما يدعو إليه هذا الدين، إذا اتصل الشرق بالغرب. فيما قبس الغرب من دراسات يلقاها على أساتذة من المسلمين بشكل خاص، ومن الشرقيين بشكل عام، وفيه علم أن لا سلطان لأحد من رجال الدين على القلب، وأن لاوساطة بين الله والعبد، وأن الله قريب ممن يدعوه، ويجيب دعوة الداعى إذا دعاه.

دعوة بعض رجال الدين إلى الإصلاح :

حينئذ أخذت الأنظار المتربصة تحصى على رجال الدين ما يفعلون، ووجد من بينهم من استنكروا حالهم، وأخذوا يدعون زملاءهم إلى إصلاح حالهم، ليردوهم إلى حكم دينهم قبل أن يفوت الوقت، وقبل أن ينفض الناس، وقبل أن يحملهم العامة على الإصلاح.

ولقد جاهر بذلك جيروم وهوس، ولكن كان نصيبهما أن أعدما تحريقاً بالنيران، وكان ذلك بقرار من مجمع كونستانس الذى انعقد من سنة ١٤١٤ إلى سنة ١٤١٨، ولقد قرر ذلك المجمع قتل هذين العالمين حرقاً بالنار، لأنهما دعوا الكنيسة إلى عدم الأخذ بما يسمى سر الاعتراف، مبينين أن الكنيسة ليس لها سلطان فى محو الإثم أو تقريره، وإنما التوبة مع رحمة الله هى التى تمحو الآثام، وتطهر النفس من الخطايا، ولقد تقدم إلى المجمع يوحنا هوس ليدافع عن آرائه، وهذا ما قاله كاتب متعصب للكاثوليك فى ذلك الدفاع.

«لدى دخوله أخذ يعلن غواياته قبل انتظاره حكم المجمع على تعليمه، فقر الرأى على إلقاء القبض عليه، وفوض المجمع إلى بعض أعضائه أن يفحصوا مؤلفاته وألحوا عليه أن يقلع عنها، ولكنهم لم يستفيدوا شيئاً، ووجدوا فى مؤلفاته فصولا كثيرة تتضمن أضاليل، وقد خولوه الحرية ليوضح أقواله فى كل منها، وحرضوه على الخضوع لحكم المجمع،

وعرضوا عليه صورة الرجوع عن ضلاله، فأبى أن يمضيها، وبقى مصراً على غيه، ولم يشأ المجمع أن يتوصل معه إلى المضايقة الأخيرة، بل حاول مراراً أن يرده عن عناده فحكموا أولا على كتبه بالتحريق رجاء أن يخيفوه بذلك، لكنه لبث مصراً على عناده، فحينئذ حطوه عن الدرجات المقدسة حطاً احتفالياً، وأسلموه لحكومته فحكمت عليه بالحرق حياً بمقتضى نواميس المملكة ثم نال جيروم تلميذه وقرينه فى العناد هذا العقاب نفسه.

أما المجمع فلم يطلب قط هذا العقاب بل ترك للقضاء المدنى أن يعمل بموجب شرائع المملكة التى كانت تعطى الملك حقاً فى أن يعاقب من يفسدون النظام المدنى بينهم بتعاليم سيئة تقلق راحة الجمهور».

هذا ما يقوله الكتاب المدافعون عن الكنيسة، ومهما يكن قولهم فى براءتها من دم أولئك الذين حاولوا من رجال الدين إصلاحاً، فمما لاشك فيه أنها لم تصغ إلى أقوالهم، بل عاقبتهم عليها بالحرمان، فسلبتهم المنصب الدينى، ثم عاونت بذلك على قتلهم أفظع قتله، إن لم تكن هى الفاعلة.

ابتداء الإصلاح من غير رجال الدين :

١١٨- كانت إرهاصات الإصلاح تبدو الوقت بعد الآخر، ويظهر به رجال استعدوا للفداء زمناً بعد زمن، وكانت البلاد التى تظهر فيها آراء الإصلاح فى شمال أوربا وإنجلترا، وفرنسا، لأن فرنسا قد ذاق بعض ملوكها أذى الحرمان من الكنيسة. وأحس الفرنسيون بشدتها، وإنجلترا رأت من سلطان البابا عليها تدخلا فى شئونها، ولأن أمم شمال أوربا قد اقترنت حضارتها بالدين فكانت شديدة الغيرة عليه، قوية الرغبة فى فهمه على وجهه، جاعلين قبلتهم الكنيسة ورجالها، فعثروا بما أوتوا من رغبة دينية وعقل فاحص على عيوبهم، فأرادوا أن يصلحوها من غير أن يهدموها، لذلك ظهرت حركات الإصلاح ووجدت آذاناً مصغية فى تلك البقاع، ولم ينبثق فجر القرن السادس عشر حتى انبثقت معه أصوات قوية جريئة تدعو إلى إصلاح الكنيسة، وتنقد حالها وتندد بأعمالها، وتنشر عيوب القوامين عليها، وعساهم يصلحون أمرهم، ويعودون إلى آداب الدين وتهذيبه.

الدعوة الهادئة :

وقد ظهر في فجز القرن السادس في أزمان متقاربة أصوات رجال مصلحين، ومن أشدها ظهورا صوت أرزم، وقد ظهر بالأراضي المنخفضة، وعاش من سنة ١٤٦٥ إلى سنة ١٥٣٦. وقد أخذ يدعو الناس إلى قراءة الكتاب المقدس عندهم، وإلى تهذيب عقولهم، وتنمية مداركهم، ليستطيعوا فهمه، والانتفاع به، وإدراك مراميه وغاياته، وأخذ يدعو إلى إصلاح الكنيسة، وظهر أنه لم يوجه دعوته إلى الشعب، بل وجهها إلى الحكام المستنيرين، وإلى رجال الكنيسة أنفسهم، فقد كان البابا ليو العاشر صديقه، وكان ممن يقدرون آراءه، ويعجبون بتفكيره ويوافقون بالأولى على وجهة نظره، وقد سار في طريق ذلك الإصلاح السلمي مجتهداً الاجتهاد كله في أن يحافظ على مركز البابا وقداسته، حريصاً على ألا ينال أحد منهما، وألا يخلط دعاة الإصلاح بين إصلاح الكنيسة ومراكز رجالها، وما يستحقون من إجلال وتقديس، فهو يرى أن الإصلاح واجب على أن تقوم به الكنيسة في داخلها، أو يعاونها الحكام على إصلاح نفسها، ولذلك عندما رأى ثورة لوثر العنيفة، وما أدت إليه من مس سلطان الكنيسة ونقص ما لها من قداسة، نبذ آراءه ولم يعاونه.

وظهر كذلك في هذا الإبان تومس مور من ١٤٧٨ إلى ١٥٣٥، وقد ظهر في إنجلترا، ودعا إلى إصلاح الكنيسة أيضاً بالطريق السلمي، ولذلك دعا بنفسه إلى وجوب احترام سيادة البابا، وأن يكون له السلطان الديني على الجميع.

النقد العنيف :

١١٩ — ولكن دعوات أولئك السلمية لم تفد فائدتها، ولم تنتج ثمراتها، وإن شئت فقل أن تحول الأفكار وانتقال الفكرة إلى الشعوب، واصطدام الكنيسة بالمفكرين وبعض الأمراء جعل نقد الكنيسة عنيفاً، وجعل خطوات الدعاة أسرع مما يريد أولئك السلميون.

وأشد من ظهر من أولئك تأثيراً وأقواهم نفوذاً: مارتن لوثر، وزونجلي، وكلفن. ولنتكلم عن كل واحد من هؤلاء بكلمة موجزة.

لوثـر :

أما مارتن لوثر، فقد ولد سنة ١٤٨٢ من أبوين فقيرين، ولكن أباه أجهد نفسه، وأراد أن يصل به إلى أقصى درجات الثقافة، ومكن له ليكون قانونياً، فأرسله إلى الجامعة، ولكنه

عجز عن إتمام دراسته القانونية، وعكف على دراسة اللاهوت، وانصرف إليها لأنه أحس بنزعة دينية قوية تدفعه إلى الانقطاع لذلك، وقد كان شديد التورع، مبالغاً فى تقدير سيئاته، قد سيطرت على مشاعره نفسه اللوامة، حتى لقد قال بنفسه أنه لن ينجو من عذاب الجحيم إلا برحمة الرب الرحيم، وكان لهذا الإحساس الدينى الدقيق، وذلك النزوع اللاهوتى موضع رعاية رجال الكنيسة، حتى لقد أوصوا به خيراً أولى الأمر من رجال الدنيا، فعين مدرساً للفلسفة، وظل عاكفاً على هذه الدراسة التى كان يشك فى صلاحيتها، إذ كان يدرس فلسفة أرسطو، وما كان فى نظره إلا من عبدة الأوثان، ويجب أن يلاحظ أن دراسة الفلسفة فى ذلك العصر كانت تحت ظل الدين، وفى خدمته، ويقوم بها رجال الدين أنفسهم، ولذلك لم تكن دراسته الفلسفية مبعدة له عن دراسته الدينية، بل كانت تتميماً لها.

ولقد دفعته نزعته الدينية الخالصة، وإجلاله للكنيسة ورجالها إلى أن يحج إلى روما، ليتيمن بلقاء رجال الدين، ولكى تحل عليه بركات روما موطن المسيحية ومقر الكنيسة المقدسة، ولكنه ما أن وطئت قدماه أرض روما حتى رأى ما صدم حسه، وأزعج نفسه، لقد توقع أن يرى النسك والعبادة والزهادة، فوجد مدينة لاهية عابثة، ووجد رجال الدين قد دنست بعضهم المفاسد، وحاطت بهم الريب، وظنت بهم الظنون، وجد جرأة على الخطايا، واستهانة بأحكام الدين. ووجد الذين تخيلهم قديسين صالحين، وأنهم ملائكة الله تسير على الأرض، قد انغمسوا فى الرذيلة، ورتعوا فى حماها زاعمين أن سحائب الرضوان قد نزلت عليهم، وغفر لهم سابق ذنوبهم ولاحقها، وأن بيدهم مفاتيح الملكوت فى السماوات والأرض وسر التوبة، وأبواب الغفران، ويغفرون لمن شاءوا ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

رأى لوثر كل هذا وهو المرهف الحس الدينى ذو النفس اللوامـــة، الذى يرى أن خطايا الإنسان أكبر من أن يمحوها هو، وأنه لا سبيل لغفرانها إلا أن تسعها رحمة الله.

لذلك شُدِه من هول ما رأى، وتحير بين ما تخيله فى رجال الدين من زهادة، والواقع المستقر الذى صدمه صدمة عنيفة، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى انتقل من الحيرة إلى الاستنكار، لذلك عاد إلى ألمانيا حانقاً مستنكراً بعد أن ذهب راضياً مقدساً.

ولقد أخذ يعلن من ذلك الإبان أن التبرك بالمقدسات، والحج إليها وتكرار الصلاة لايجدى العاصى، ولا يغنيه عن توبة نصوح، وقدم مطهر، ورجاء رحمة الرحيم، وأن أحداً من الخلق مهما تكن قدسيته لا يملك لأحد غفرانا، ولا يستطيع أن يستر ذنباً قد ارتكب.

١٢٠- كان لوثر بعد عودته مأخوذاً بهذه الأفكار، قد استولت على نفسه، وسوغ له كل هذا أنه قد عرا ثقته برجال الدين ضعف وإن لم يعتزم الثورة عليهم أو على آرائهم، ولكن الحوادث كانت تدفعه إلى أن يعلن استنكار آراء رجال الدين، والجهر بذلك. وذلك لأن البابا ليو أراد أن يعيد بناء كنيسة بطرس في روما، وذلك يحتاج إلى مقدار من المال غير يسير، فقرر أن يجمعه من صكوك الغفران ببيعها، فذهب الراهب تنزل إلى ألمانيا، ومعه تلك الصكوك التي نقلنا لك نموذجاً منها فيما أسلفنا من القول، وأخذ يعلى من أمرها. ويبالغ في قدسها وسرها.

عندئذ ثار لوثر الذي لا يعرف أن شيئاً يستر الذنب إلا الندم على ما كان، والإقلاع عنه فيما يكون، ورجاء رحمة الديان، والذي رأى في رجال الدين ما رأى، ثار لوثر على تلك الصكوك وكتب في بطلانها احتجاجا علقه على باب الكنيسة.

ولقد كان لذلك أثره في العامة والخاصة، ولم يكن من المعقول أن تقابل الكنيسة ذلك بالصمت أو الإغضاء، فقد أرسلت إليه تدعوه إلى الحضور لمحاكمته أمام محكمة التفتيش التي كانت تدبيراً اتخذته المجامع ذريعة للقضاء على مخالفيها.

ثورة لوثر على الكنيسة :

وهناك نجد بعض الأمراء يتدخل، فيوصيه بألا يجيب طلبها، فلم ير البابا بداً من أن يصدر قراراً بحرمانه، ويعده زائغاً، وهنا تأخذ الحمية لوثر، ويشتد في دعوته، ويجاهر بالاستهانة بأمر الحرمان، حتى أنه ليحرق في وسط وتنبرج - والجموع حاشدة - حرمان البابا وقرار زيفه، ولم يبق إلا أن تنفذ السلطة المدنية قرار الحرمان، فتحرمه من الحقوق القانونية والمدنية، أثراً لقرار الحرمان الديني، فاجتمع مجمع ورمز سنة ١٥٢١ لمحاكمته، ولكنه طالب البابا بأن يقنعه بخطئه فيما ارتأى، فلم يجب إلى ما طلب، فانفض المجمع من غير نتيجة في هذا، ولكن الإمبراطور أعلن حرمانه من الحقوق المدنية إلا أن أمير سكسونية حماه.

ومن هذا الوقت أخذت تخضع دعوة لوثر لحكم الأحداث السياسية، فيجد سلما من الدولة، إذ كان الإمبراطور مشغولا بحرب، ولا يريد إثارة فتنة. وتجد حرباً إذا خلا الإمبراطور لهم، وفي كلتا الحالتين تزداد الدعوة حدة ويزداد أتباعها عدداً، ويشتد ساعدهم بموالاة أمراء أعزاء في النفرة.

وفى سنة ١٥٢٩ حاول الإمبراطور أن ينفذ قرار الحرمان الصادر سنة ١٥٢١ ولكن أنصار لوثر يحتجون على ذلك، ومن ذلك الحين سموا البروتستنت أى المحتجين، ثم جرت الأمور سلماً فحرباً متداولين، حتى إذا مات لوثر، وكان الإمبراطور قد خلص من كل الحروب التى تشغله أنزل بالبروتستنت أقسى العذاب وأشده بلاء، ثم يعقب ذلك صلح بين الفريقين.

لوثر لم يرد هدم الكنيسة :

١٢١– لم يكن لوثر من الغلاة الذين يرمون إلى هدم الكنيسة، ولا إلى محاربة سلطانها، بوصف كونها مرشدة وواعظة ومبينة للناس شئون دينهم، ولكنه كان يريد إصلاح حال الكنيسة ورجالها، وحملهم على الجادة وإعطاءهم من الحق ما أعطته الكتب المقدسة، ووصايا رسلهم، والمأثور عنهم، وهو لم ينظر إلى البابا على أنه خليفة المسيح لا يخطئ، ولا يأتى الباطل إلى قوله، بل نظر إليه على أنه كبير المرشدين الواعظين.

ولما أراد لهم الصلاح – وكان يائساً من أن يقوموا هم بذلك – دعا الأمراء إلى أن يتدخلوا، وقرر أن لهم عليهم سلطانا، وأن لهم الحق فى عزل رجل الدين إذا لم يقم بما يأمره به الدين، ووجد أن جزءاً من فساد رجال الدين يرجع إلى عدم الزواج.

ورأى أن المنع منه لم يكن فى المسيحية فى عصورها الأولى، فقرر حقهم فى الزواج، وتزوج هو فعلا مع أنه من رجال الدين. وكان زواجه من راهبة.

ووجد أن الكنيسة تحتفظ لنفسها بحق فهم الإنجيل، وذلك من أسباب غلوها وفقدها الرقيب، فجعل لكل مسيحى مثقف الحق فى فهمه، واشتغل بترجمته إلى الألمانية ليقرأه كل ألمانى.

وأنكر أن المسيح يحل فى بدن من يأكل العشاء الربانى. فقد أنكر استحالة الخبز إلى عظام المسيح المكسورة. وأنكر استحالة الخمر إلى دم المسيح، وحلولهما فى جسم الآكل، واكتفى بكون العشاء الربانى تذكيراً لما قام به المسيح من فداء للخليقة فى زعمهم، وأن يعتقد المسيحى أن المسيح معه بجسده عند تناول هذا العشاء.

هذا كله مع إنكاره حق الكنيسة فى الغفران، ذلك الحق الذى كان عود الثقاب الذى أشعل ثورة لوثر، وكانت منها تلك النيران التى لم تستطع الكنيسة لها إطفاء.

زونجلي وأعماله :

١٢٢– وفي الوقت الذي كان يغالب فيه لوثر الكنيسة وأنصارها من ذوي السلطان، كان في سويسرة صوت قوي آخر ينادي بما يقارب ما نادى به لوثر، ذلك هو زونجلي (١٤٨٤ – ١٥٣١) فقد آلمته حال الكنيسة ودعا إلى مثل ما دعا إليه لوثر في مسائل الدين. وقد ابتدأت ثورته بالثورة على صكوك الغفران كما ابتدأ لوثر، وقد مات أثناء صراع وقع بين أنصاره المعتنقين لمبادئه وأنصار الكاثوليك.

وآراؤه في الجملة تتقارب من آراء لوثر، ولقد كان يرى أن العشاء الرباني مناولة تذكارية لموت المسيح وفدائه لخطيئة الخليقة في زعمهم، وأن المسيح يحضر ذلك العشاء بروحه فقط. ويفسر ما جاء خاصاً بالعشاء الرباني في إنجيل متى بمعناه المجازي. وهذا نص ما جاء في ذلك الإنجيل في إصحاحه السادس والعشرين: وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك، وكسر، وأعطى للتلاميذ، وقال: «خذوا، كلوا هذا هو جسدي» وأخذ الكأس وشكر، وأعطاهم قائلا: «اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا».

ودعوة زونجلي هذه، وإن كانت تتلاقى في مبادئها في الجملة مع مبادئ لوثر كانت منفصلة عنها، فلم تتوحد الدعوتان، بل كانت كلتاهما تعمل في محيط إقليمها، بيد أن حركة لوثر كانت أوسع دائرة وأسرع انتشاراً، لسعة الإقليم الذي نشأت فيه، ولرعاية بعض الأمراء لها، بل لاعتناقهم مبادئها، ولأن الأحوال السياسية في ألمانيا كانت تسمح لمثل هذه الدعوة بالذيوع والانتشار.

كلفن وأثره في الإصلاح :

١٢٣– في الوقت الذي كان فيه هذان الرجلان يعملان ويجاهدان كل بطريقته، فلوثر بطريقته السلمية التي خالطها العنف، وزنجلي بطريقة الصراع والمنازلة، حتى مات فيه.

في هذا الوقت كان رجل آخر ظهر في فرنسا وهو كلفن (١٠٥٩ – ١٥٦٤) قد ولد بفرنسا، ونشأ بها، وتثقف ثقافة قانونية، ولكنه مال بعد تخرجه في القانون إلى الدراسات الدينية، وقد كانت حركة لوثر قد ذاعت وشاعت في ربوع أوربا، وما أن أعلن كلفن آراءه

حتى اضطر إلى الفرار بعقيدته إلى جنيف فى سويسرا، وهناك ألف وكتب، وأخذ يعمل على نشر مبادئ المذهب البروتستنتى، وينظمها بعد موت لوثر، فتنظيمها على الشكل الأخير يرجع إلى كلفن أكثر مما يرجع إلى أى رجل آخر، وإن كان باذر البذرة سواه، بل إن بذور ذلك المذهب قد كانت أقدم تاريخياً من لوثر نفسه، وقد نوّهنا إلى بعض هذا الكلام فى المجامع.

ويرى كلفن أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها، وعلى الحاكم المدنى مساعدتها ومعاونتها وحمايتها، وذلك ليكون السلطان الدينى غير خاضع لحكم الحكام. وهو يرى أن المسيح لا يحضر لا بشخصه ولا بروحه فى العشاء الربانى، ويعتبر تناول العناصر المادية رمزاً للإيمان. ويقول كما يقرر صاحب كتاب الأصول والفروع فى العشاء الربانى: «يشير العشاء الربانى أيضاً إلى مجئ المسيح، كما يشير إلى موته، فيكون تذكاراً للماضى والمستقبل، فالعبرة فى العشاء الربانى للذكرى، لا حضور المسيح مادياً أو روحياً».

إنشاء كنائس للمصلحين :

١٢٤ – كانت جهود هؤلاء القادة وأتباعهم، وعيوب الكنيسة، وسوء حالها وحال القوامين عليها، وشدة ضغطهم سبباً فى ذيوع الآراء التى تخالف رأى الكنيسة، وقد ابتدأت الحركة بطلب إصلاح الكنيسة على أن يقوم بالإصلاح رجال الكنيسة أنفسهم، ولكنهم أنغضوا رءوسهم، وأصروا واستكبروا استكباراً، ورفضوا كل دعوة للإصلاح، وقابلوا أصحابها بقرارات الحرمان أحياناً كثيرة، والإهمال أحياناً قليلة، فلما استيأس مريدو الإصلاح من أن يقوم الكنسيون بإصلاح حالهم، وأن يرعوا الديانة حق رعايتها فاتجهوا إلى الحكام طالبين أن يتدخلوا لإصلاح الكنيسة، كما حاول لوثر، فقد أعطى الحكام حق الهيمنة على الكنيسة ليصلحوها، ولكن الحكام تقاعسوا، ومنهم من لم يحاول إصلاح الكنيسة، بل حاول القضاء على طلاب إصلاحها، وأنزل بهم اضطهادات وبلايا وشدائد ومذابح، كما حدث لبروتستنت فرنسا، وكان ذلك إما تعصباً للكنيسة وإما مجاملة، وإما كراهة للمصلحين، لأن منهم من كانت لهم آراء إصلاح نظم الحكم بجوار آرائهم فى إصلاح الكنيسة، وقد كان الحكم استبدادياً مطلقاً، بلا نظام يقيد الحاكم، ويلزم المحكوم.

فلما يئس طلاب الإصلاح من الحكام ويئسوا من رجال الكنيسة اتجهوا إلى أن

يجعلوا لآرائهم جماعة، ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة، وآراؤها غير خاضعة للكنيسة، ورافضة كل ما لها من سلطان، وأنشأوا لهم كنائس ليست معترفة لروما بأى سلطان، وسلطة رجال الدين فيها محدودة، ولرجال الدين من الحقوق ما قرروا من مبادئ، وسميت كنائسهم كنائس إنجيلية [1]. أى أنها لا تخضع إلا لحكم الكتاب المقدس، ويقيد بأحكامه رجل الدين أمام رجل الشعب، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب، وليس لرئيس الكنيسة خلافة تجعل كلامه مقدساً، مساوياً لأحكام الكتاب المقدس فى الرتبة والاعتبار.

وقد انتشر المذهب الجديد فى ألمانيا والدانمرك والنرويج وهولندا وإنجلترا وأمريكا الشمالية وسويسرا، وإن لم تصر كلها على المذهب.

أهم مبادئ الإصلاح:

١٢٥- والآن نلخص المبادئ التى أتى بها ذلك المذهب الجديد، ونكتفى بذكر أصولها التى يرجع إليها غيرها من الفروع، وأعظم تلك الأصول شأنا:

(أ) جعل الخضوع التام الواجب على المسيحى لنصوص الكتاب المقدس وحدها[2] وجعله الحكم وحده الذى لا ترد حكومته، ولا ترفض أوامره، وقياس كل أوامر الكنيسة القديمة وقرارات المجامع على ما نص عليه فى ذلك الكتاب، فما وافقه قبل على أن الكتاب قد ورد به، وما خالفه رفض، ولو كان صدر عن أكثر رجال الكنيسة شأناً فى الماضى أو الحاضر.

---

(١) وتسمى الكنائس الأخرى التى تجعل لرئيس الكنيسة سلطاناً يعتبر فيه خليفة المسيح الكنسى التقليدية وهى كنيسة الكاثوليك، والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والكنيسة الأرثوذكسية المرقسية، وهى كنيسة القبط وغير ذلك.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الشرقية وغيرهما من الكنائس التقليدية لا يعتبرون الكتاب المقدس وحده هو المصدر للدين المسيحى، بل يعتبرون معه الرسائل غير المسطورة فى ذلك، وتعاليم المسيح التى نقلت إلى البابوات خلفاً عن سلف مصدراً أيضاً. ويسمون ذلك المصادر التقليدية.

ويقول فى ذلك صاحب كتاب تاريخ الكنيسة الذى ترجمه يوسف البستانى فى ذكر قرارات المجمع الترنديتى: «إن المجمع الترنديتى المقدس الملتئم بتدبير الروح القدس والمصدر فيه صفات الكرسى الرسولى لاعتباره أن حقائق الإيمان ورسول الآب متضمنة فى الصحف المكتوبة وفى التقليدات المكتوبة، وهى المنقولة عن فم يسوع بواسطة الرسل، أو المنزلة على الرسل أنفسهم بالروح القدس، وقد اتصلت إلينا تسليما اقتفاء بأثر الآباء الأرثوذكسيين قد قبل جميع أسفار العهدين القديم والجديد، ثم التقليدات أيضاً المتعلقة بالإيمان والآداب بما أنها بارزة من فم يسوع المسيح، أو ملقنة من الروح القدس، ومحفوظة فى الكنيسة بالخلافة المتواصلة ويعتنقها بنفس الإكرام والاحترام الذى تعتنق به الكتب المقدسة».

ولذلك يقول صاحب كتاب سوسنة سليمان فى ذلك: «إنهم جميعاً متفقون فى المعتقدات على مجرد ما فى الكتاب المقدس فقط، فلا يخضعون لشئ من التقاليد التى لا يوجد لها فيه رسم أصلا، ولا إلى أحوال أحد من الآباء أو المجامع إلا إذا كان موافقاً لنصوصه لفظاً ومعنى، أما تفسير الآيات الغامضة والتى لم يوضحها الوحى الإلهى، فلا يمارون أحداً فيها إلا إذا كان التفسير ينافى ما كان معناه واضحاً فى غيرها من تعاليم الكتاب».

فهم لا يعترفون بسلطان لغير الكتاب، وقد كان تحكيم الكتاب وحده سبباً فى جعل رجل الدين غير مطاع إلا فيما ورد فى الكتاب.

وقد كان جعل سلطان للكتاب شاملا لرجل الدين ولرجل الشعب، سبباً فى أن حق التفسير والفهم لم يعد مقصوراً على رجال الدين، فأزيل ذلك الحجاب الذى أقيم بين المسيحى وبين كتابه. إذ أقامه رجال الدين ليحتجزوا حق تفسير الكتاب لأنفسهم. وبذلك يكون الدين ما تنطق به أفواههم وليس لأحد أن يعقب على قولهم، لأن باب التفسير قد أقفل دون غيرهم فلا يستطيعون إزالة رتاجه، ولا فتح إغلاقه، فألغى المذهب الجديد ذلك الحجاب وفتح باب التفسير لكل مثقف ذى فهم، وإذا كان ثمة نص لم يفهم توقفوا عن فهمه، فإن أبدى رجل الدين رأياً فى فهمه قبلوه إلا إذا خالف نصاً ظاهراً لا مجال للتأويل فيه.

عدم الرياسة فى الدين :

(ب) ليس لكنائسهم من يترأس عليها رياسة عامة، بل لكل كنيسة رياسة خاصة بها، والرياسة الكنسية التى تستمد الخلافة من أحد الحواريين أو من المسيح نفسه لا وجود لها عندهم، بل إن الكنيسة فى كل مكان ليس لها إلا سلطان الوعظ والإرشاد، والقيام على تأدية الفروض والتكاليف الدينية وبيان الدين لمن لا يستطيع معرفته من تلقاء نفسه، ولم يكن عنده من الثقافة ما يمكنه من ذلك.

ليس لرجل الدين الغفران :

(جـ) وإذا كانت الكنيسة ليس لها سلطان إلا البيان لمن لا يستطيع بياناً والإرشاد لمن لا يستطيع معرفة أوامر الدين من تلقاء نفسه، فليس لها سلطان فى محو الذنب أو ستره. أو تلقى الاعتراف بالذنوب ومسحها سواء أكانت تلك هى المسحة الأخيرة عند

الاحتضار، أم كانت قبل ذلك، فكل ذلك ليس لها فيه سلطان، لأنه من عمل الديان، وقد علمت أن صكوك الغفران وحق الكنيسة فيه كانت الثقاب الذى اندلعت منه الثورة على الكنيسة، وتبعها تقصى عيوبها، وتتبع نقائصها. وقد ذكرنا ببعض التفصيل ما كانت تفعله الكنيسة، وبينا أنها غالت فيما زعمته لنفسها فى ذلك من حق، والأساس فى رفض الكنيسة فى هذا: كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وكما أن ذلك الأساس أدى إلى سلب الكنيسة ما زعمته لنفسها من حق الغفران أدى إلى أمر آخر وهو منع الصلاة لأجل الموتى، واعتبار أن ذلك لا يفيدهم لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سيحاسب عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأدى أيضاً إلى أن طلب شفاعة القديسين لاقيمة له، لأنه لا يغير عمل الشخص من صالح إلى طالح.

وفى الجملة أنهم اعتبروا غفران الذنوب يرجع إلى عمل الشخص وعفو الإله، وتوبة العاصى وندمه على ما فات ولومه نفسه على ما كان، وكل قول يجعل غفران الذنب أساسه غير ذلك رفضوه، ولم يلتفتوا إليه.

عدم الصلاة بلغة غير مفهومة :

(د) ولقد كان ذلك المبدأ الذى يجعل الإنسان يدين بعمله وحده، ومبدأ أن لاسلطان للكنيسة على القلب والعبادة، كان هذان المبدآن سبباً فى أن رفض أولئك المسيحيون الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد، لأن الصلاة دعاء من العابد للمعبود وانصراف القلب إليه، والقيام بالخضوع الكامل له، والنطق بما يدل على الخضوع والالتجاء إلى المعبود، فوجب أن تكون بألفاظ يفهمها العابد ليردد معانيها ويقصد مراميها، وقد كانت صلاة القسيس بلغة لا يفهمها المصلون مقبولة لدى الكاثوليك، لأن أساس ذلك أن عبادة القسيس عبادة لمن هم تحت سلطانه.

رأيهم فى العشاء الربانى :

(هـ) انتهى البروتستنت بالنسبة للعشاء الربانى إلى أنه تذكار بفداء المسيح للخطيئة التى ارتكبها آدم، وتحملت الخليقة من بعده وزرها، وتذكار لمجيئه ليدين الناس، فهو تذكار للماضى والمستقبل كما جاء فى بعض الرسائل، وهم ينكرون أن يتحول الخبز إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه.

والكنيسة قد أصرت على ذلك إصراراً. وهذا قرارها فى المجمع الترنديتى فى ذلك الشأن، فهى تقول بلسان أعضائه.. «لقد اعتقدت كنيسة الله دائماً بأنه بعد التقديس يوجد جسد ربنا الحقيقى ودمه الحقيقى مع نفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر، وإن كلا من الشكلين يحتوى ما يحتوى كلاهما، لأن يسوع المسيح هو بكماله تحت الخبز، وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل، كما أنه هو كله أيضاً تحت شكل الخمر وجميع أجزائه، وقد اعتقدت الكنيسة أيضاً اعتقاداً ثابتاً بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز إلى جوهر جسد ربنا. وكامل جوهر الخمر إلى جوهر دمه تعالى، وهذا التعبير قد دعاه بكل صواب. فيلتزم إذن جميع المؤمنين بأن يعدوا هذا السر المقدس العبادة المستوجبة للإله الحقيقى. لأننا نعتقد بأنه يوجد فيه الله نفسه الذى عبدته الملائكة على أمره تعالى. حينما أتى على العالم، وهو نفسه الذى سجدت له المجوس خارين على أقدامه، وله نفسه سجدت الرسل فى الجليل».

هذه عقيدة الكنيسة فى العشاء الربانى، لم يستسغها لوثر وأشياعه، وخلفاؤه من بعده، وانتهى أمرهم إلى أن رفضوا ذلك التحول الذى تفرضه الكنيسة، وتلتزم به، وإن كان بعيداً عن المعروف المألوف، وبعد أن رفضوا ذلك قر قرارهم الأخير على اعتبار العشاء الربانى تذكاراً بالفداء وتذكاراً للمجئ وفى ذلك عظة واستبصار.

إنكار الرهبنة :

(و) أنكر أولئك المصلحون لزوم الرهبنة التى يأخذ رجال الدين أنفسهم بها ويعتبرونها شريعة لازمة. يفقد رجل الدين صفته الكهنوتية إن تخلى عنها، ولقد رأوا ما أدى إليه ذلك الحظر من كبت للجسد الإنسانى وتعذيب له من غير ضرورة، ولانص من الكتب قديمها وجديدها يفيد ذلك، بل لقد رأوا ما أدى إليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الإنسان فى رجل الدين، فانطلق يكرع اللذة من شقتها الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال، وطفق يغترف من ورد معتكر بالآثام، مرنق بالمفاسد، وترك المنهل العذب الذى حللته الشرائع، ويتفق مع ناموس الاجتماع الإنسانى.

عدم اتخاذ الصور والتماثيل :

(ز) منع البروتستنت اتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس والسجود لها، معتقدين أن ذلك قد نهى عنه فى التوراة، فقد جاء فى سفر التثنية: «لا تصنع لك تمثالا منحوتاً، ولا

صورة مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من أسفل، وما فى الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن ولاتعبدهن لأنى أنا الرب إلهك غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى، وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبى، وحافظى وصاياى».

ولا شك أن ما نهت عنه التوراة يجب الأخذ به ما دام الجميع يؤمنون بالتوراة، وكتب العهد الجديد، وما دام لم يرد عن المسيح أو عن الرسل ما يبطل ما جاء فى التوراة.

ولقد أثبت الأستاذ أمين الخولى بالسند التاريخى أن ذلك التحريم قد قبسه النصارى المصلحون من نور الإسلام.

المسيحيون لم يسيروا فى منطقهم إلى أقصى مداه :

١٢٦- هذه أعظم المسائل التى خالف بها المصلحون فى المسيحية ما عليه الكنيسة، وهى لا شك خلع لسلطان الكنيسة على النفوس وقضاء على سلطان المجامع وإذا كان للحوادث منطق تسير عليه، فهل لنا أن نستنبط منطق تلك الحوادث، وما كان عساه يكشف عنه لو سار فى طريقه إلى أقصى مداه؟ لقد علمت فى سياقنا التاريخى الذى بيّناه عن أدوار المسيحية أن ذلك السياق يعلن فى عباراته وفى فحواها أن تلك الديانة كانت ديانة توحيد، حتى جاءت المجامع، فقررت ألوهية غير الله، وطردت من حظيرة المسيحية المستمسكين بعروة التوحيد الذين رفضوا دعوى ألوهية المسيح، وناصرتهم الشعوب المسيحية فى الإبان.

فإذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا مذهبهم الدينى من الكتب الصحيحة، وقرروا أن يرفضوا سلطان المجامع والكنيسة معاً، فإن المنطق الذى يسيرون عليه كان يوجب عليهم أن يرفضوا أقوال المجامع القديمة، ومنها ألوهية المسيح، وألوهية الروح القدس.

وقد كنا نود أن يدرسوا قرارات هذه المجامع، وينظروا إلى سندها وقوتها فإن لم يروا السند قوياً رفضوا ذلك القرار، ولكنهم لم يسيروا فى منطقهم إلى أقصى مداه، فرفضوا آراء الكنيسة فى أمور، أعظمها شأناً ما بيناه، ولم يتجهوا إلى لب العقيدة، وهو لم يتجاوز أنه قرار مجمع فيدرسوه من جديد على ضوء ما فتحوه لأنفسهم من نور

مبصر، وهو أن يكون لكل شخص له قدرة على فهم الكتاب حق فى تفسيره، واستخراج الأوامر والنواهى منه دون أن يتخذوا الأحبار والقسيسين وسائط فى فهمه، ويحكموا بذلك فى ضمائرهم واعتقاداتهم.

عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح :

١٢٧– ولكنا وقد يئسنا من أن يسير البروتستنت فى طريقهم إلى أقصى مداه وجدنا العقول المسيحية قد تنبهت، والدراسة العلمية والفلسفية قد سارت ونور الإسلام قد انبلج، فوجدنا علماء كثيرين قد صرحوا فى قوة بأن المسيح لم يكن إلا رسولا، وأنه لم يكن أكثر من بشر، قد قبسوا ذلك من الأناجيل نفسها، فهذا رينان قد جهر بذلك فى قوة وجرأة ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الإصرار على رأيه والذود عنه، وهذا تولستوى ينكر على المسيحيين ألوهية المسيح، وتنتهى نتائج بحثه إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح، بل طمسها، والكنيسة زادت تعاليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضاً وإخفاء.

ولنترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف، فهو يقول: «إنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى، كما كان يفهمه هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الطويلة التى شوهت وجه التعليم المسيحى، حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح، بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين، وتعاليم العهد القديم، وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية، كالختان وغيره فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحى فأفسده، ومن عهده ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس، وأما تعليم المسيح الأصلى الحقيقى فخسر صفته الإلهية الكمالية، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحى التى أولها منذ ابتداء العالم، وآخرها فى عصرنا الحالى، والمستمسكة بها جميع الكنائس، وأن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع إلهاً دون أن يقيموا على ذلك الحجة، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار: موسى، والزبور، وأعمال الرسل، ورسائلهم، وتأليف آباء الكنيسة، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله.

هو إذن ينكر ألوهية المسيح، وينكر ألوهية روح القدس، ويعتقد بأن الله واحد أحد فرد صمد، وينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بإلهام، ويعلن فى جرأة أنها حرفت وعراها

التغيير والتبديل، فيقول في صراحة المستمسك بالعروة الوثقى: «إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحي الإلهي، فالمسلمون يعتقدون بنبوة موسى وعيسى - ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانة النصرانية، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء، وأنه قد أوضح في قرآنه تعاليم موسى وعيسى الحقيقية، كما قالاها دون زيادة ولا نقص، وأن كل مسلم أمامه القرآن يقرؤه، ويتمسك به ويسير بموجب أحكامه، ولا يعترف بغيره من الكتب مهما اشتهر واضعوها بالتقوى والصلاح، ويسمي المسلمون ديانتهم بالمحمدية، لأن محمداً وضعها بخلاف الكنيسة المسيحية التي تسير الآن بموجب تأليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من روح القدس، فكان الأحرى بالمسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية».

خاتمة

١٢٨- قد ظهر إذن مسيحيون يدعون إلى التوحيد، وإنك لترى بريق الإسلام يلمع بين السطور التى دونوها والأقوال التى نشروها، ولكن قد طردتهم المسيحية الحاضرة من حظيرتهم، كما فعلت المجامع من قبل، ولقد كان الأمر لا يسترعى النظر لو كان مقصوراً على العلماء. بل إنك لترى المسيحيين الذين تجادلهم أو تخالطهم بالمودة - أن استثنيت رجال الدين منهم - يصرحون فى بهرة المجالس وفى جهر من غير إسرار بأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا المسيح إلا رجلا عظيماً رسولا من عند الله، وليس هو الله، ولا ابن الله، وليس ذا صلة بالألوهية إلا صلة الرسول بمن أرسله.

فهل لنا أن نعتقد أن شيوع هذا على ألسنة أولئك المثقفين يؤدى إلى إصلاح كامل للعقيدة، يكون شاملا للأصل، ولا يكون مقتصراً على الفرع كما فعل الإصلاح السابق واقتصر عليه؟.

إن الأجدر لهذا أن يتجه أولئك المثقفون إلى دراسة دينهم، وأن يتجه الذين يحاولون إرشادهم - إلى بيان الأدوار التاريخية التى مرت بدينهم، وإلى ما أحدثته المجامع من أحداث، وكل حدث فى الدين هو بدعة فيه، فإن دراسة تلك الأدوار تريهم الحقائق عارية، وتكشفها لهم غير مستورة برسوم وطقوس كنسية أو غير كنسية، وقد حاولنا فى أثناء بحثنا أن نبين أن ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس فكرتان عرضتا على العقل المسيحى، ولم تكونا فى المسيحية الأولى، وذكرنا السند التاريخى فى ذلك وأنه لمسيحى خالص، وأنه بهذه المحاولة نريد أن ندعو الذين يهمهم رد العالم المسيحى إلى التوحيد - إلى العناية بدراسة تاريخ المسيحية وإعلانه لأهلها، ونريد أن ندعو الذين يريدون نشر الإسلام بين ربوع المسيحيين إلى إعلان ذلك التاريخ، فإنهم إن دخلوا فى التوحيد، دخلوا فى الإسلام بأيسر مجهود، لأن الخطوة التالية لا تحتاج إلى أكثر من الإعلام، والحمد لله رب العالمين.

(تم بحمد الله وتوفيقه)

ما يشتمل عليه الكتاب

الإنجيل٥٧ – ترجيح صدق التسمية في هذا الإنجيل ،٥٩– قيمة انجيل برنابا من حيث ما اشتمل عليه ، ٥٩– مخالفة إنجيل برنابا لما عليه المسيحيون.

٦٣– رسائل رسلهم

٦٣ – عدد الرسائل وكاتبوها، ٦٤ – ترجمة يعقوب صاحب الرسالة، ٦٤ – ترجمة يهوذا، ٦٥ – ترجمة بولس، ٦٨ – صفات بولس، ٧٠ – كتب العهد القديم والأناجيل والرسائل كتبت بإلهام فى اعتقادهم.

٧١– نظرة فاحصة فى الكتب

٧١– ما يجب أن يكون فى الكتاب الدينى من صفات ليكون حجة،٧٢ – تطبيق هذه الشروط على كتب النصارى، ٧٣ – مناقشة ادعاء الإلهام فى سفر الأعمال، ٧٤ – الرسل غير معروفين، ٧٥ – لوقا صاحب سفر الأعمال لم يكن ملهماً، ٧٦ – دعوى الإلهام ليست محل إجماع المسيحيين، ٧٧ – دعوى الإلهام باطلة ممن يدعيها، ٧٧ – التضارب بين كتب العهد الجديد، ٨٢ – التناقض بينها مبطل لادعاء الإلهام وبيان إنكارهم لبعضها ثم اعترافهم به، ٨٣ – انقطاع السند فى نسبتها لكاتبيها، ٨٤ – موازنة قس بين أحاديث الرسول وكتبهم من حيث الرواية، ٨٥ – بيان ما فى كلامه من زيف، ٨٨ – نظرة فى الوحى فى الإسلام والوحى فى المسيحية ، ٨٩– معنى الوحى.

٩١– النصرانية كما هى عند النصارى وفى كتبهم

٩١– العقيدة، ٩١ – عقيدة التثليث، ٩٢ – التوراة والتثليث، ٩٣ – الابن لا يعنى به الولادة البشرية فى زعمهم، ٩٤ – الثالوث أشخاص متغايرة، وإن كان وجودها متلازماً، ٩٥– لماذا يحاولون الجمع بين الوحدانية والتثليث، ٩٧ – صلب المسيح فداء عن الخليقة، ١٠٠ – المسيح يدين ويحاسب، ١٠١ – تقديس الصليب ومقامه فى المسيحية، ١٠٢ – عبادتهم، ١٠٥ – من شعائر المسيحية، ١٠٥ – التعميد والعشاء الربانى، ١٠٦ – من تنظيم الأسرة، ١٠٨ – منزلة شرائع التوراة فى المسيحية، ١٠٩ – تحليل لحم الخنزير مع تحريمه فى التوراة.

١١٠- المجامع المسيحية

١١٢- مجمع نيقية

١٢٢- المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١

١٢٤- مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١

١٢٦- مجمع خليكدونية سنة ٤٥١

وصارا طبيعة واحدة، ١٢٦ - طلب انسحاب بطريرك الاسكندرية ورفض الطلب، ١٢٧ - الشغب في المجمع، ١٢٧ - قرار المجمع أن المسيح له طبيعتان، ١٢٧ - الانشقاق ومداه، ١٢٨ - عدم اعتراف المصريين بقرار المجمع، ١٢٨ - المصريون يرفضون تعيين بطريرك على غير مذهبهم، ١٢٩ - يعقوب البرادعي ونسبة المذهب المصرى إليه، ١٢٩ - انفصال الكنيسة المصرية نهائياً.

١٣١- المجامع الباقية

١٣١- المجامع السابقة تقرر المسيحية الحاضرة، ١٣١ - المجمع القسطنطيني الثاني وسبب انعقاده، ١٣٢ - المارونية، ١٣٢ - مجمع القسطنطينية الثالث، ١٣٣ - مجمع تحريم اتخاذ الصور، ١٣٤ - انفصال الكنيسة الشرقية الغربية وسببه، ١٣٥ - الكنيسة الغربية أم الكنائس، ١٣٦ - المجامع اللاحقة كلها غير مسكونية إلا في نظر الكنيسة الغربية ، ١٣٦- محاولة تقريب بين الكنيستين.

١٣٧- الفرق المسيحية

١٣٨- الفرق التى ظهرت فى عصر التوحيد، ١٣٨ - فرقة أريوس، ١٣٩ - أصحاب بولس الشمشاطى، ١٤٠ - دخول الوثنية على التوحيد، ١٤٠ - اتباع مرقيون، ١٤١ - البربرانية، ١٤١ - نحل أخر، ١٤١- ضياع التوحيد سببه تحريق الكتب.

١٤٣- الفرق القديمة في عهد التثليث

١٤٣- فرقة مقدونيوس، ١٤٤ - النسطوريون، ١٤٦ - اليعقوبيون، ١٤٧- المارونية.

١٤٨- الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

١٤٨- أساس انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية، ١٤٩ - تقادم الزمن يوسع الخلاف، ١٥٠ - محاولة إزالة الخلاف، ١٥٠ - انتقاد مسيحى للكنيسة الغربية، ١٥١ - بطارقة الكنيسة الشرقية، ١٥١- الإسلام يظلل الكنائس الشرقية بالحرية الدينية.

١٥٣ – الفرقة الحديثة «البروتستانت»

أو الإصلاح الدينى

مؤلفات الإمام الشيخ محمد أبو زهرة

والتى تقوم دار الفكر العربى بالتزام طبعها ونشرها وتوزيعها

* خاتم النبين ﷺ (فى مجلدين).
* المعجزة الكبرى (القرآن).
* أبو حنيفة: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* مالك: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* ابن حنبل: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* الشافعى: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* الإمام زيد: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* ابن تيمية: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* ابن حزم: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* الإمام الصادق: حياته. عصره. آراؤه. فقهه.
* الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى (الجريمة).
* الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى (العقوبة).
* تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان).
* الأحوال الشخصية.
* أحكام التركات والمواريث.
* أصول الفقه.
* الملكية ونظرية العقد.
* شرح قانون الوصية.
* محاضرات فى الوقف.
* محاضرات فى عقد الزواج وآثاره.
* محاضرات فى النصرانية.
* الوحدة الإسلامية.
* الخطابة.
* مقارنات الأديان.

* الدعوة إلى الإسلام.
* تنظيم الإسلام للمجتمع.
* تنظيم الأسرة وتنظيم النسل.
* الولاية على النفس.
* موسوعة الفقه الإسلامى (جزءان) بإشراف الإمام محمد أبو زهرة.
* التكافل الاجتماعى فى الإسلام.
* المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام.
* العقيدة الإسلامية.
* تاريخ الجدل (الطبعة الثانية).
* العلاقات الدولية فى ظل الإسلام.

وتطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

دار الفكر العربى

وتطلب أيضاً من المكتبات الشهيرة

بجميع أنحاء الوطن العربى

الدعوة إلى الإسلام

تاريخها في عهد النبي ﷺ والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة

وما يجب الآن

تعريف بالشيخ الإمام

محمد أبو زهرة

الإمام محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، إذ لا يختلف اثنان على أنه كان إمام عصره بلا منازع، ولكن من حقه علينا، ومن حق قارئه، أن نسطر عنه كلمات ولو فى أسطر قليلة تشير إلى نشأة ذلك الإمام، والجو الذى ولد وعاش فيه، والمواقف الشجاعة فى الإصلاح الاجتماعى والإسلامى، ولو أدى الأمر إلى الوقوف ضد اتجاهات السلطان.

هذا الإمام هو : محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد بن عبد الله، المولود فى عام ١٣١٦هـ، فى التاسع والعشرين من شهر مارس عام ١٨٩٨م. فى المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

وأسرة أبو زهرة ينتهى نسبها إلى الأشراف، ولكنها لا تدعى ذلك كما يفعل الكثيرون، ممن يرفعون بذلك النسب خسيستهم، وإن كانوا فى واقع حالهم لا يستحقون الرفعة.

– بدأ الشيخ حياته التعليمية فى الكتاب. شأن كل أزهرى فى ذلك الوقت، ثم المدرسة الأولية حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم انصرف إلى المدارس الراقية، وبها أتم حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضة والجغرافيا، بالإضافة إلى العلوم العربية، وفى سنة ١٩١٣م التحق بالجامع الأحمدى بطنطا حيث ظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه مما أثار إعجاب المحيطين به من زملاء ومربين. وفى عام ١٩١٦م دخل الإمام محمد أبو زهرة مدرسة القضاء الشرعى بعد أن اجتاز امتحان مسابقة كان أول المتقدمين فيه، رغم فارق السن، وعدد سنوات الدراسة بينه وبينهم.

– وقد تنقل رحمه الله فى عدة مناصب بين كلية أصول الدين، وكلية الحقوق، وتدرج فى مراتب التدريس، من مدرس إلى أستاذ مساعد، إلى أستاذ ذى كرسى، إلى رئيس قسم الشريعة، إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٨م، واختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى فبراير عام ١٩٦٢، وهو المجمع الذى يعتبر بديلا لما كان يسمى فى الماضى هيئة كبار العلماء.

يتحدث عن نفسه، يقول:

- اختلطت حياتى بالحلو والمر، وابتدأت حياتى العلمية بدخول المكتب لحفظ القرآن الكريم، وإذا كان النبات قبل أن يستغلظ سوقه يعيش على الحب المتراكب، وقد يرى بالمجهر سورة النبات في ذلك الحب، فكذلك ينشأ الناشئ منا، وفى حبته الأولى فى الصبا تكمن كل خصائصه فى الكبر، وكنت أشعر وأنا فى المكتب بأمرين ظهرا فى حياتى فيما بعد.

الأمر الأول : اعتزازى بفكرى ونفسى، حتى كان يقال عنى أنى طفل عنيد.

والأمر الثانى : أن نفسى كانت تضيق من السيطرة بغير حق.

وبسبب هذين الأمرين كانت حياة الشيخ أبو زهرة سلسلة من المواقف الشجاعة، يناضل فى سبيل الحق ضد الباطل، ولم يرحل عن دنيانا إلا وقد ترك ثروة* من العلوم الشرعية الإسلامية التى تحيط بكثير من الموضوعات من كل جوانبها. فهو الكنز الذى لاينفد، والنبع الذى لا يزال ينهل منه الظامئون، ولا يضيق بكثرة الناهلين.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير ما يجزى عالما عاملا لم يرد إلا العزة والرفعة للإسلام والمسلمين.

الناشر

محمد محمود الخضرى

---

* المؤلفات الكاملة للإمام محمد أبو زهرة موضحة فى آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الإسلام

١- إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه، ونستغفره من تقصيرنا وسيئاتنا، ونرجو العون منه فيما أقدمنا عليه من قول، ونصلي ونسلم على محمد المبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً، وعلى آله وأصحابه الكرام الذين حملوا الراية من بعده، وقاموا بحق الرسالة، والإعلام بها، حتى عم العلم بها أكثر من يجاورونهم ممن اتصلوا به من الشعوب والأقاليم، رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم، وأثابهم على ما قدموا من بيان للرسالة.

أما بعد، فقد رأى مجمع البحوث الإسلامية أن يكون من بين الموضوعات التى يتدارسها مؤتمره العام لسنة ١٩٧٢ مسألة الدعوة إلى الإسلام، فتكون مبحثا من بحوثه، يتدارسه أعضاؤه، ويتواصون على القيام بحق التبليغ الإسلامى امتداداً للتبليغ المحمدى الذى أمر به منزل الكتاب الكريم على نبيه ومن اتبعه إلى يوم الدين.

وإنا نقدم بعون الله العلى القدير هذا البحث، وقد قسمنا القول فيه إلى عناصر وتمهيد، فيشتمل البحث على :

(أ) تمهيد، نشير فيه إلى نشر الإسلام ابتداء، وكيف كان بعد وفاة صاحب الرسالة.

(ب) وجوب الدعوة الإسلامية ومقامها من التكليفات الشرعية ومدى أمر الله تعالى للأجيال من بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القيام بالدعوة إلى الإسلام، وليست إلا بيانه للكافة فى الشرق والغرب.

(ج) المنهاج الذى سلكه الحواريون من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين عاينوا وشاهدوا، لأنهم اتبعوا سبيل النبى ﷺ وهو سبيل المؤمنين.

(د) كيف انتشر الإسلام بعد الهداة الأولين، ومن الذين عملوا على نشره والدعوة إليه.

(هـ) الحال فى هذا العصر والمنهج الذى يسلك فى الدعوة إليه.

وإنا إذا أوفينا البحث فى هذه الأمور على قدر طاقتنا نكون قد قمنا بتوفيق الله ببعض ما يجب علينا من العهد الذى أخذه الله تعالى علينا وأكده تعالى« لتبيننه للناس ولاتكتمونه[1]».

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

التمهيد

١- إن التبليغ الذى أمر به الله تعالى النبى ﷺ فى قوله تعالى « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[١] » قد حملته أمته من بعده، ولها فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

وإنه إذا كانت الدعوة المحمدية عامة للناس كافة، وأنه لانبى بعده، فإن التبليغ لاينتهى بوفاة صاحب الرسالة، بل إنه يستمر ما دامت السموات والأرض لتحقيقها، ولتعميم العلم بالإسلام، حتى يكون استحقاق الثواب لمن يؤمن، والعذاب على من يكفر، فإن الله تعالى يقول « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[٢] » وقد بعث الرسول الذى هو خاتم النبيين، وعلّم أصحابه، وجعلهم رسلا من قِبَلِه للناس كرسل الحواريين فى عهد عيسى عليه السلام.

لقد ربى النبى ﷺ ذلك الجيل الذى عاصره من الصحابة، وعلم أصحابُه من بعدهم التابعين، وتوارث الناس العلم بالرسالة المحمدية جيلا بعد جيل، وحمل العلماء أمانة التبليغ، كما حمل أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشريعة أمانة تبليغ رسالاتهم، وبيان شرائعهم ونشروها بين الناس، ولذلك قال النبى ﷺ :« علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل». لقد كان الله تعالى يبعث نبيين مبينين لشريعة من سبقوهم من الرسل داعين، كالأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى عليه الصلاة والسلام، مثل داود وسليمان وغيرهما من الذين لم يكونوا أصحاب شريعة، ولكن كانوا مطبقين للشريعة، حاكمين على مقتضاها.

فلما كان النبى ﷺ خاتم النبيين، ولا نبى بعده، ولا وحى ينزل على أحد من خلق الله بعده، كان لابد أن يكون من يقوم ببيان الشريعة، وتبليغها للناس، فكانوا هم العلماء، وكانوا كما قال الرسول ﷺ كأنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشرائع، فكانوا يحق عليهم بيانها وتطبيقها ونشرها بين الذين خوطبوا بها.

٢- ولقد قام المسلمون الأولون من أصحاب رسول الله ﷺ بحق الدعوة، وخلفهم من بعد ذلك التابعون، وكان من الحكام بعد الراشدين من قام بحق الدعوة، كالحاكم العادل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه، وكان من العلماء من اتخذ مبدأ الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه منهاجاً من منهاجهم، فالمعتزلة وغيرهم كانوا ممن حمل الدعوة إلى الإسلام والرد على الزنادقة، والمتهجمين على الحقائق الإسلامية.

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) الإسراء : ١٥

وكان المجاهدون الأولون لايجاهدون للغلب وفرض السلطان، بل كان جهادهم ليشقوا الطريق للدعوة الإسلامية، حتى لا تقف محاجزات دونها، كما سن النبى ﷺ، إذ أنه عندما خاطب برسله هرقل، والمقوقس وغيرهما من حكام الأقاليم، كان يريد أن يفتحوا باب الدعوة لتصل إلى شعوبهم، وإلا يفعلوا فعلى هؤلاء الحكام الذين يحاجزون بين الدعوة والشعوب، إثم هذه الشعوب، كما قال النبى ﷺ فى كتابه لهرقل أسلم تسلم، وإلا فعليك إثم الإريسين.

وما كانت الحرب لحمل الشعوب على الإسلام، بل كانت لفتح الطريق لإعلامهم بالإسلام ومبادئه « فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر[1]» وإنه من بعد ذلك يتحمل وزر إنكاره بعد أن يعلم الإسلام من كل وجوهه، ويعرف ما فيه من خير وما فى اتباعه من هداية وإصلاح فإن كفر بعد ذلك فعن بينة. وإذا آمن فقد سلك سواء السبيل ببرهان ربه، وأنقذه الله من الضلال عن بينة.

ولقد كان عمر بن الخطاب يفرض على الولاة الذين يرسلهم إلى الأقاليم أن يقوموا ببيان الإسلام. والتعريف بحقائقه لمن يحكمونهم مسلمين وذميين، فقد كان يقول لولاته «ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، ولكن لتعلموهم أمور دينهم» وبذلك تتحقق الدعوة الإسلامية، ويقوم أمرها.

وكان من العمال الأتقياء، من يقوم بالدعوة، ويبينها تمكينا للإسلام، ثم كان أمر آخر، لا نذكره على أنه كان مقصوداً من الفتوح الإسلامية، بل نذكره على أنه جاء تابعا لها، ولغلب الحق على الباطل.

ذلك هو ما قرره علماء الاجتماع، وعلى رأسهم أول عالم اجتماعى «ابن خلدون» فلقد قرروا أن الضعيف مأخوذ دائما بتقليد القوى، واتباعه، ذلك أن القوة فى ذاتها دعوة إلى اتباع فضائل من يتحلى بها، ولأن ضعف القلوب يجعله يقتبس من أسباب القوة عند الغالب.

وإن الاحتكاك فى الحروب، يجعل الأخلاق والآداب تسرى بين الشعوب وتعلو الأخلاق القوية على الأخلاق الضعيفة، ويفيض الأعلى على الأدنى كشأن طبائع الأشياء فى الماديات والمعنويات على سواء.

فكانت الحروب معلّمة بالإسلام، ودعوة إليه من غير إكراه، لقد كان شأن المسلمين الأولين فى غزواتهم أن يخيّروا من يحاربونهم بين أمور ثلاثة : أن يسلموا ويبينوا لهم الإسلام، أو يعقدوا معهم العهد، ليأمن كل فريق صاحبه، أو الحرب.

---

(١) الكهف : ٢٩

وإن ذلك يقتضى حتما أن يتعرفوا الإسلام وما اشتمل عليه، ويقابلوا بينه وبين ماعندهم وإنهم بلا ريب سيجدون فيه علواً على ما عندهم، وفى وسط هذا تسرى المبادئ الإسلامية إلى الشعوب، كما يسرى النور فى الظلام، ويزيل كثافة الظلمات.

٣- وإن الأخلاق الإسلامية بجوار قوة المسلمين الحربية والمعنوية، وعدالة الغالب مع المغلوب، كل هذا يكون من شأنه أن يؤثر فى النفس، ويفيض منها ينبوع الخير، وتتفجر من القلوب التى كانت كالحجارة أو أشد قسوة، ينابيع الإيمان القوى العامل.

إن معاملة المغلوبين الحسنة من شأنها أن تفتح قلوب المغلوبين إلى الهداية.

وقد كان الغزاة الأولون فى قلوبهم رحمة ورأفة، وعدالة ووفاء وأخلاق العزة والكرامة التى لا تكذب ولاتنافق، ولاتهن ولاتذل، وإن ذلك؛ بلاشك من شأنه أن يدنى القلوب، ويؤلفها، وإذا دنت القلوب من أهل الإيمان سرى إليها، ولاتقف محاجزات بينها وبينه.

إنه ثبت نفسياً أن التعصب لدين من الأديان ليس منشؤه قوة الإيمان به إنما منشؤه ضعف فى النفوس، وانحياز فكرى، وعدم النظر إلى الأمر من كل نواحيه، ولاشك أنه إذا دنت القلوب بعد اغترابها، ولانت بعد عصبيتها؛ تركت الانحياز إلى الائتلاف، والابتعاد إلى الاقتراب، وعندئذ يدخل نور الإيمان، وتتفتح أمامه المغاليق.

وإن الأخلاق الإسلامية تؤلف ولاتنفر، وتقرب ولاتبعد، فلقد أوصى النبى ﷺ بحسن المعاملة، وروى فى بعض الآثار أن الدين المعاملة.

ولقد أوصى الله تعالى بحسن الجوار، وقال النبى ﷺ : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وحقوق الجار عظيمة من شأنها أن تربط بينهما بالمودة، والحسنى، وقد قال ﷺ: «والله لايؤمن، والله لايؤمن، والله لايؤمن، قالها ثلاثاً، قالوا : من يارسول الله؟ قال : ذلك الذى لايأمن جاره بوائقه».

ولقد كان لعبد الله بن عباس جار يهودى، فكان إذا أحضر لأولاده فاكهة، أعطى منها لأولاد جاره، وكان إذا ذبح شاة أهدى إلى الجار اليهودى منها.

ولقد نص النبي ﷺ على الإحسان إلى الجار المشرك، فروى عنه أنه ﷺ قسم الجيران إلى ثلاثة : جار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الرحم، وحق الإسلام، وجار مسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وجار مشرك له حق الجوار.

ومن هذه الأخلاق التي أوصى بها النبي ﷺ فيها بحسن العشرة، وحسن المعاملة، دخل الإسلام إلى القلوب، وقرب النفوس.

٤- وإن العدالة الإسلامية في الشعوب التي حكمها كانت مرطبة لنفوس المغلوبين مدنية لقلوبهم، فالله تعالى يقول : «ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى»(١).

والنبي ﷺ أوصى بالذميين، وقال : « من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته ».

ولقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على إكرام الذميين، والعدالة فيهم، وحققوا القاعدة الفقهية التي تقول «لهم مالنا، وعليهم ما علينا» من غير وكس ولاشطط.

وإن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وجزاه الله عن الإسلام خيراً، كان يعد المعاملة الطيبة من الولاة للذميين دليلا على عدلهم، فكان إذا لقي الوفود من الأقاليم الإسلامية في موسم الحج كان أول أمر يسأل عنه، معاملتهم الذميين، فإذا تبين له أنهم يعدلون معهم عرف أنهم عدول في ذوات أنفسهم ومع رعيتهم على اختلاف نحلها، فالعدل قربة وتقوى.

وإن المعاملة العادلة تجذب القلوب، وتدنيها، فإذا علموا أنها من الدين الجديد فتحت قلوبهم له، وصغت إليه واستجابت له.

ولنقص عليك قصة وقعت لشاب قبطي، وتصور مدى أثرها الديني في نفوس شعب مصر.

تسابق شاب مصري مع ابن عمرو بن العاص، فسبقه المصري، فعلاه ابن عمرو بالسوط يضربه، ويقول له: أتسبق ابن الأكرمين، فنشط الشاب المصري إلى أمير المؤمنين، وشكا إليه الظلم الذي وقع به، فأبقاه عمر بالمدينة، وأرسل إلى عمرو يستدعيه هو وابنه، فقدما إلى المدينة.

---
(١) المائدة : ٨

واطمأن عمر العادل إلى صدق الدعوى، وأحضر الشاب المصرى، وأعطاه السوط، وقال : اضرب من ضربك، فأخذ يضربه، وكلما استأنى قال له : زد ابن الأكرمين. حتى اشتفى الشاب المصرى القبطى، ثم نحى أمير المؤمنين عمامة عمرو عن رأسه، وقال للشاب اضرب على صلعة عمرو، فباسمه ضربك، فقال الشاب : لقد ضربت من ضربنى يا أمير المؤمنين. فالتفت الفاروق إلى عمرو، وقال له تلك الكلمة النورانية الخالدة التى يترنم بها المسلمون وغير المسلمين إلى اليوم، قال : « منذ كم يا عمرو تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ».

لاشك أن هذه الحادثة سرت أخبارها بين المصريين، ووازنوا بهذا بين حكم الرومان الذى كان يجعلهم عبيداً؛ ولو كانوا نصارى مثلهم؛ وحكم الإسلام العادل الذى يجعلهم أحراراً، أو يحترم حريتهم الفطرية، ولو كان المعتدى أميراً أو ابن أمير، إن ذلك وحده دعوة عملية نافذة إلى الصدور، فلا غرابة أن تدخل مصر بعد ذلك فى الإسلام أفواجاً، طوعاً لاكرهاً وبرغبة لابرهبة.

ولعلهم رأوا عمر بن الخطاب يعيد إقامة حد الشرب على ابنه خشية أن يكون عمرو بن العاص قد حاباه فى إقامته بمصر، وقد رأوا ذلك رأى العيان وأى عدل أعلى من هذا، وهكذا نرى أن العدل فى ذاته دعاية قوية إلى الحق، لاتوجد دعاية أقوى منه بياناً، وأشد برهاناً.

٥- وإن العدالة حتى فى الحرب، والسيوف مشتجرة كانت سائدة واضحة. يحكى تاريخ عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل، أن أهل صفد من أعمال سمرقند شكوا إلى الحاكم العادل عمر هذا أن قتيبة بن مسلم دخل ديارهم فاتحاً، من غير أن يخيرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال، كما هو الشأن فى الحروب الإسلامية.

شكوا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فأرسل إلى القاضى يأمره بأن يجلس ويحقق الشكوى، ويجمع بين الشاكين والقائد العظيم قتيبة بن مسلم، فسمع القاضى إلى الشكاة، وإلى مقالة قتيبة، فتبين له صدق الشكوى، فأمر الجند الفاتح أن يخرج من ديار سمرقند، ويعود إلى ثكناته قبل الفتح، ثم يعود القائد إلى تخييرهم بين الإسلام والعهد والقتال.

لاشك أنهم يختارون العهد ولايختارون القتال، والكثيرون منهم يدخلون فى الإسلام، سواء أرضى أولياء الأمر فيهم أم لم يرضوا.

إن الإسلام كان دين العدل فى وسط عنجهية الحكم الطاغى، والظلم المبين، وكان فيه إنقاذ الرعية من الولاة الظالمين، والظلمة الآثمين.

ولاشك أنهم عرفوا أن الإسلام فى عهوده التى يعقدها مع الحكام ملوكا كانوا أو غير ملوك، كان يشترط عليهم العدل في رعاياهم، فإن لم يعدلوا فقد نكثوا فى أيمانهم ورد إليهم عهدهم، وقام المسلمون بقتالهم لإبعادهم عن ظلم الرعية، ذلك أن الظلم حرام فى الإسلام، جاء بتحريمه القرآن ووصايا النبى ﷺ، وكل شرط يحل حراما أو يحرم حلالا فهو رد على من اشترطه كما قال ﷺ : «المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراما أو حرم حلالا» وإن الظلم حرام بحكم الشرع، وبحكم العقل.

الحال الآن

٦- حالت الأحوال، وتغيرت الأمور، فصار ما يظهر من المؤمنين يخالف مايدعو إليه دينهم، وصار بأسهم بينهم شديداً، والعدل الذى كان داعيتهم اختفى فيما بينهم، فلم يعدلوا فى أنفسهم، ولم يكن العدل أساس علاقتهم بغيرهم، إذ فسد حكامهم، وصار الطغيان هو الذى يسيطر عليهم، ويزعمون أن ذلك حكم الإسلام، واضطربت الأمور، وشغرت الأمة من أن ترى حاكما يحق الحق، ويزهق الباطل، ويعلى معالى الأمور، وحَكَمَ الهوى والشهوة واستمر الظلم فيما بينهم، حتى ضعفوا وهانوا، وبعد أن كانوا الأقوياء الذين يطلب منهم العدل فى أنفسهم وغيرهم صاروا الضعفاء المستجْدين الذين يستجْدون العدل من غيرهم لأن العدل فضيلة القوى، لم يعودوا أقوياء، بل صاروا المستضعفين الذين استخذوا وذلوا، وصار غيرهم يتصرف فى أمورهم، ولا رأى لهم، وإن استشاروهم ظاهراً، فالأمور يبت فيها من ورائهم باطناً، ولاحول ولاقوة إلا بالله تعالى، وهو مصرف الأمور ومقلب القلوب.

ولقد كان التجار المؤمنون يحسبون أن عليهم واجب التبليغ فبلّغوا مع فساد الحكام، وإن شرق أفريقيا كان تجار الحضارمة فى وسط ظلم الحكام وفساد بيوت المال، يقومون بالدعوة فيه حتى فشا الإسلام فى الصومال وزيلع وبرر وصومع وإيرتريا والحبشة، وكانوا الغالبية الساحقة فيها، وإن لم يكن لهم بطش أمام حكامها غير المسلمين المؤيدين من المسيحية العالية التى لاتتمثل فيها روح السيد المسيح عليه السلام.

وأخلاق المسلمين الظاهرة تغيّرت، فلم يكونوا فى هذا الزمان صورة للاستقامة وقوة الإيمان، واستشعار العزة، بل خنعوا وهانوا فى أنفسهم، فهانوا فى نظر غيرهم، ورضوا بالأمور القائمة، وإن كانت تفرض الذل عليهم، وإذا دعاهم داع إلى العزة استهانوا بدعوته، أو وضعوا أصابعهم فى آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وقاوموا وعاندوه، ورضوا أن يكونوا قوما بوراً، وأن يكونوا أذلة للكافرين المتحكمين، والمتغطرسين على المؤمنين، وغيروا وبدلوا فى معانى كتاب الله تعالى الخالد الذى وصف الأولين من المؤمنين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، فبدلوها بأن صاروا أعزة على ضعفائهم أذلة لغيرهم، وبعد أن قال الله فى وصف المؤمنين الصادقين أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، صاروا خانعين للكفار أشداء على أنفسهم، يسومون إخوانهم العسف والهوان، ويطأطئون الرءوس هلعاً وخوفاً أمام غيرهم.

ولقد حكمت الأهواء والشهوات الملوك وسرت إلى الرعية، وهذا وهن من الأمم، ولقد قال ﷺ فيما روته الصحاح:

«تتداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله تعالى من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليرزقنكم الوهن، قالوا: وما الوهن يارسول الله، قال : حب الدنيا وكراهية الموت ».

وهانحن أولاء الآن كذلك فى هذا الزمان، غلبت على حكامنا الأهواء والشهوات، وسرت إلى من حولهم الذين يلفون لفهم، ويدورون حولهم، ويلقفون من مائدتهم ما يبقى منهم، غير ملاحظين ديناً ولاخلقاً، ولامروءة ولاكرامة.

وقد يقول قائل : هل صارت الأمة كلها كذلك، وقد قال النبى ﷺ: «الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة» ونقول فى الإجابة عن ذلك، إنا نرجو أن نكون من أمة واحدة التى قال فيها عليه الصلاة والسلام ذلك.

ولكن نقول إن هذا الأمر البارز الظاهر، وهو تحكم الأهواء والشهوات، والدعوة إلى اللهو والعبث، وسيطرة الترف، والله تعالى يقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً(١) ».

---
(١) الإسراء:١٦

إن فى المسلمين بحمد الله صالحين مؤمنين، ولكن غمرهم الذين أفسدوا المجتمع الإسلامى، وجعلوه مجتمعاً لاهياً لاعباً، فإن لم يكن كذلك كان خانعاً مستسلماً، لايغير ولايبدل، وهو يرى التغيير فى أحكام الله تعالى والتبديل فيها، ولايعلن استنكاره، وإن استنكر فبقلبه، وهو أضعف الإيمان. وبذلك صار المسلمون قوماً بوراً، إذ رأوا الباطل، ولم يعلنوا استنكاره، والظلم ولم يقاوموه، والنبى ﷺ يقول: « لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدى الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلايستجاب لكم» ولقد قال ﷺ « لايسأل العامة ظلم الخاصة حتى يروا الظلم فلا يغيروه ».

نحن نسلم أن المفسدين ليسوا الكثرة، بل ليسوا فى أنفسهم كثيرين، ولكنهم الذين سيطروا على الرأى العام، وشكلوا المجتمع بشكلهم.

وبذلك ضعف المسلمون عن الدعوة إلى الله تعالى والتبليغ الذى حملوه عن النبى ﷺ، فضاعت الدعوة بضياعهم.

٧- هانت الدعوة، ليس عند عامة المسلمين فقط، بل إننا رأينا من العلماء من يزعم أن التبليغ قد تم، وأن غير المسلمين عليهم أن يتعرفوا الإسلام من غير أن نعرفهم، وأنهم مسئولون عن جهلهم بحقائق الإسلام، ولسنا مسئولين عن تعريفهم به، مادام الإسلام قد أعلن ابتداء، وظهر أمره فى الوجود، ولو كان قد ذكر عندهم بغير حقائقه، وبغير أصوله، فعليهم أن يبحثوا، وليس علينا أن نعلمهم بعد الإعلان، ونسوا قول على كرم الله تعالى وجهه: «لايسأل الجهلاء لم لم يتعلموا حتى يسأل العلماء لم لم يعلموا» ولكن تقاصرت الهمم، حتى وصل القصور إلى من تجب عليهم الدعوة.

لقد أهملنا الدعوة والتعريف بالإسلام حتى بين المسلمين، إن فى أطراف البلاد الإسلامية، من لم يعرف من الإسلام إلا الشهادة، والصلاة على انحراف فى أدائها، ففيهم من يجهلون أحكام الزواج ما يحل منها، ومايحرم، ففى أطراف أندونسيا من يبيحون لأنفسهم عن جهل زواج الوثنية بالمسلم وزواج المسلمة بغير المسلم كتابياً أو وثنيا، ولاتقوم جماعة أو آحاد، بتعليمهم مبادئ الإسلام فى تكوين الأسرة، وما يحل فيها، ومايحرم.

وهكذا كان التقاطع، والتدابر من أسباب جهل المسلمين بدينهم فضلا عن أن يوفروا أحكامه لغيرهم، ويبلغوا رسالة نبيهم فى الآفاق.

ولكن مع ذلك استمر الإسلام ينتشر، لأنه فى ذاته حقائق تدعو بذاتها، وفيها برهان صدقها، ودليل العرفان بحقها.

وإن الرجل يقرأ فى التراجم الشائهة، فيلمس فيها النور وسط ظلمات التشويه فيؤمن، مع العوائق التى تحول بينه وبين الإيمان من أحوال المسلمين الظاهرة.

إن المسلمين قد شاعت فيهم عادات وأخلاق قد تكون حجة على الإسلام، وتقف محاجزات بينه وبين من يلتمس الحق فيه، وهو مع ذلك لايزال ينتشر بقرآنه وحقائقه، وسنة نبيه ﷺ، ولا يزال بعض المفكرين يطلبه مع هذا الركام الذى ارتكس فيه المسلمون.

وإننا نجد التبشير النصرانى يحاول أن ينشر النصرانية بين المسلمين جاهدا، ولكنه يرتد خاسئاً وهو حسير، من حيث العقائد الإسلامية والأحكام العملية التى اشتمل عليها.

ولكنه يجئ إلى النفوس التى حلها الهوى، وأفسدتها الشهوة، واستولى عليها تقليد أقوياء هنا، فيحاول أن يخرجها من العمل بحقائق الإسلام، وأحكامها، فيظن الظنون فيما جاء به القرآن، وبذلك نبتت فيه داعية الخروج على الأحكام الإسلامية، فنبتت داعية الدعاة إلى الربا بزعم أن الزمن يطلب التحلل من أحكام الله تعالى القاطعة، وداعية تقليد النصارى فى الطلاق وتعدد الزوجات، وغير ذلك مما بدت أضراره عند النصارى وهو سلامة للمؤمنين، والأسرة الإسلامية أقوى الأسر فى العالم تماسكا، وأقواها نظاما، ولكن هكذا كانت الآفة فى النفوس، ولم تكن فى الإسلام.

ولقد اجتمع مؤتمر فى القدس من نحو بضع عشرات من السنين فقيل لكبيرهم إن النفقات على التبشير كبيرة، ولكن لانجد من يخرجون من الإسلام إلى النصرانية، فذكر أن المبشرين لم ينجحوا فى إدخال المسلمين فى النصرانية، ولكنهم نجحوا فى تهوين الحقائق الإسلامية فى بعض المسلمين، فهل آن أن نعتبر، وندفع الشر، ونحصن أنفسنا منه، وهل آن لنا أن نعرِّف الناس بديننا، والعالم فى حاجة إليه، لأنه الدين الذى يؤمن بالله والرسول، والعقل والعلم، وإنه لابد أن يكون ذلك ولو بعد حين.

وجوب الدعوة بحكم تكليفي

٨- إنه من مكرور القول أن نقول إن الإسلام دين الكافة، فإن رسول الله محمداً ﷺ أرسل إلى الناس كافة كما قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً[١]»، وكما قال تعالى « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً»[٢]

ولقد قال رسول الله ﷺ، «كل نبى بعث إلى قومه وإنما بعثت للأحمر والأسود» فبمقتضى الأثر وتلك الآيات كان الإسلام دين الكافة، والناس جميعاً مطالبون بالاستجابة لما جاء به النبى ﷺ، وسجله القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه فى محكم آياته.

وإنه لانبى بعد النبى ﷺ فهو خاتم النبيين، وقد قال تعالى فى ذلك « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين» [٣] .

وعلى ذلك يكون الإسلام دين الأجيال، فهو دين الجيل الذى بعث فيه محمد ﷺ، ودين الأجيال من بعده، حتى يوم الدين.

وإنه لاتكليف من غير إعلام، ولاثواب ولاعقاب من غير علم بالرسالة ودعوة إليها، فإذا كان الإسلام ديناً عاماً، وديناً خالداً يخاطب الأجيال كلها، فلا بد من معلمين داعين، ولا بد من دعوة دينية مستمرة متجددة يتنقل فيها بين البشر، ليتحقق العلم بهذا الدين الحنيف الذى هو دين الله كما قال تعالت كلماته : « إن الدين عند الله الإسلام » [٤].

وقد تولى النبى ﷺ الدعوة بنفسه، وكانت دعوته إلى التوحيد وما أمر الله تعالى به، وما نهى عنه، بتلاوة القرآن بين ظهرانى المشركين وبيان أحكامه للمؤمنين، كما منَّ الله تعالى بذلك عليهم؛ إذ يقول سبحانه وتعالى :« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم »[٥] .

---

(١) سبأ : ٢٨ (٢) الأعراف : ١٥٨ (٣) الأحزاب : ٤٠
(٤) آل عمران : ١٩ (٥) الجمعة : ٢، ٣

وكانت دعوته لمن يلاقيهم من الأقوام آحاداً وجماعات، وكان يرسل جماعات من أصحابه الذين علموا علم الإسلام، وفقهوا أحكامه إلى الأقوام يهدونهم ويعلمونهم، ومنهم من كان يطلب فقهاء فى الإسلام ليعلموهم فكان النبى ﷺ يرسل، ومن الأعراب من كان يغدر بهم، وينافق فى دعوتهم إلى التفقه، وهم يبيتون الشر، كما قتلوا غدراً ستة من المؤمنين الصادقين، وكما قتلوا سبعين قتلة فاجرة، ولكن النبى ﷺ، كان يريد نشر الدعوة، وما كان يعلم ماتكنه القلوب، ولكنه كان يريدهم أنصاراً كالحواريين، كما قال تعالى: « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة »(١).

ولما سيطر النبى ﷺ على البلاد العربية، وصارت كلمة الله تعالى هى العليا كان يرسل لمن لم يدخل فى الإسلام ممن أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون من يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم وقد أرسل إلى جزء من اليمن أبا موسى الأشعرى، ومعاذ بن جبل دعاة وهداة، وأرسل فى الجزء الثانى خالد بن الوليد، ولكن لم يستجيبوا له، فأرسل إليهم على بن أبى طالب فدعاهم، ثم أمهم من بعد دعوته إلى الصلاة.

قام النبى ﷺ بالتبليغ الكامل استجابة لأمر الله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس »(٢).

ولم يكتف النبى ﷺ فى تبليغه رسالة ربه بالرسل يرسلها إلى الأقاليم، قاصيها ودانيها، سهلها ووعرها، نجدها وسهلها، بل تجاوز فى تبليغه إلى غير العرب، فأرسل إلى هرقل ملك الرومان يدعوه إلى الإسلام، وجاء فى كتابه ..

« من محمد رسول الله إلى هرقل ملك الروم ...

إنى أدعوك بدعاية الله، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، وإن لم تفعل فإن عليك إثم اليريسين، « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »(٣).

---

(١) الصف : ١٤ (٢) المائدة : ٦٧ (٣) آل عمران : ٦٤

وأرسل مثل ذلك إلى المقوقس عظيم مصر، وإلى النجاشى ملك الحبشة، وإلى كسرى فارس، وغير هؤلاء، ومنهم مَنْ ردَّ رداً جميلا، وإن لم يستجب لدعوة الحق، ومنهم من قبح رده، وأخذته العزة بالإثم، وهو كسرى، وقد مزق الله ملكه، إذ مزق كتاب النبى ﷺ ، وبعث من يقتل النبى ﷺ فقتلته رعيته.

وهكذا نجد النبى ﷺ ، قام بحق الدعوة، ودعا بالحكمة لتبليغ رسالة ربه كما قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن »(١).

وكما قال تعالى : « وادع إلى ربك ولاتكونن من المشركين»(٢) وكما قال تعالى : «وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم »(٣).

وإن الدعوة إلى الله هى عمل الأنبياء، كما قال تعالى: «يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »(٤).

وهكذا كانت دعوة النبى ﷺ ماضية قائمة، كان يدعو بنفسه، وبرسله وكتبه حتى بلغ رسالة ربه، وأودع أمانة الدعوة من بعده الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين.

التكليف لمن بعده :

٩- لقد خاطب النبى ﷺ بدعوة التوحيد من عاصروه من العرب ومن جاورهم، وما كان من شأن دين تطالب به الأجيال كلها فى مشارق الأرض ومغاربها، أن يترك مَنْ بَعْدَهُ فى عماء من أمره، ولايعرفون شيئا عن العقيدة التى دعا إليها ذلك الدين، بل لايترك محمد ﷺ، الأمر من بعده من غير تكليف لمن اتبعوه، واهتدوا بهديه أن يقوموا بحق الدعوة ونشرها، لأنه لايمكن أن يكون المخاطبون بهذا الدين، وهم الإنسانية كلها من بعده من غير هاد يدعو، ولامرشد يبين قياساً على قوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(٥) ، وقوله تعالى: «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »(٦)، فالنذير المحذر، والبشير المبشر، لابد من وجودهما فى كل عصر.

---

(١) النحل : ٢٥ (٢) القصص : ٨٧ (٣) الحج : ٦٧
(٤) الأحزاب : ٤٥، ٤٦ (٥) الأسراء : ١٥ (٦) فاطر : ٢٤

وأولئك يقومون مقام الأنبياء فى بنى إسرائيل، كما أشار إلى ذلك قول النبى ﷺ فى قوله . « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل ».

إن الله أرحم بعباده من أن يترك الناس من بعد رسوله خاتم النبيين بوراً لاهادى يهديهم ولا داعى للحق يدعوهم إليه، والعقول وحدها لاتكفى للهداية، وقد ضلت العقول وتاهت الأفهام تحت لجاجة الأهواء والشهوات، وعندئذ يتخذ الناس إلههم هواهم.

لذلك كان تكليف النبى تبليغ دعوته تكليفاً لأمته، وقد صرحت بذلك الآيات البينات من كتاب الله تعالى، فقد قال تعالت كلماته : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »[1].

وقد دلت هذه الآية على أمور ثلاثة :

أولها - أن دعوة المؤمنين إلى الله من اتباع النبى ﷺ، وأنه من تخاذل عن الدعوة لايعد تابعاً للنبى ﷺ .

ثانيها - أن تكليف النبى ﷺ تبليغ رسالة ربه تكليف لأمته، لايتخلى عنه مؤمن ولايتركه أمين .

ثالثها - أن يكون الداعى له بصر بالأمور، يأتيها من طرقها المسلوكة في رفق، لينا في دعوته، يأتى الأمور من مصادرها ومواردها مؤمنا بها على بينة من أمرها، لا تأخذه فى الحق هوادة، وليس للباطل عنده إرادة .

وإن الآية الكريمة فى جملتها تدل على أن الإيمان وحده لايكفى فى اتباع النبى ﷺ بل لابد لكمال الاتباع من الدعوة، بل عليه لأجل الاتباع أن يسلك سبيله فى الدعوة إلى الله، وهو الهادى إلى سواء السبيل، فمن اهتدى من بعد البيان فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما الله يريد ظلما للعباد.

وإن الله تعالى جعل المسلمين شهداء على الناس، وجعل الرسول شاهداً عليهم، وشهادتهم على الناس تقتضى دعوتهم إلى الحق، وشهودهم لحالهم فى إيمانهم وكفرهم، والرسول شهيد عليهم فى أنهم بيّنوا شريعته، ووضحوا رسالته للناس، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بهذه الشهادة القائمة المستمرة فقال تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم، وما جعل عليكم فى الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس»[2] وقال تعالى :

---

(١) يوسف : ١٠٨ (٢) الحج : ٨٧

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً»(١) والمعنى وعلم الحقيقة عند الله أن الله جعل أمة محمد ﷺ هى الأمة المثلى، لأن الوسط معناه الأمثل، وكانت تلك المثالية بأن يكونوا شهداء على الناس يبينون لهم الحق والإيمان، والرسول ﷺ شهيد بأن مايبلغونه هو الحق إن استقاموا على الطريقة.

١٠ – والنصوص قد وردت صريحة مطالبة الأمة بالتبليغ كل على مقدار علمه وطاقته فى التوجيه والإرشاد:

(أ) أن الله تعالى حرض المؤمنين على أن يجيئوا إلى النبى ﷺ، ولمن يخلفه فى أمر أمته، ولمن ينصب نفسه للهداية والدعوة، يجيئون إلى هؤلاء ليعرفوا حقائق الدين، وليتفهموها ويعودوا إلى أقوامهم يعلمونهم ما تعلموا، فقال تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون(٢)»

(ب) وإن الله تعالى أمر بالهجرة فى سبيله، دعاة إلى الحق هداة مرشدين يدعون إلى سبيل الرشاد، فقد قال تعالى فى فضل من يهاجر فى سبيل الله تعالى داعياً إلى دين الله «ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيما»(٣)

فالهجرة كما يبدو من ظاهر الآية هى الفرار من ظلم الشرك، وتتضمن أيضاً إشارتها الهجرة فى سبيل الحق والدعوة إليه.

(جـ) ومن الدعوة إلى الله تعالى قوله جل شأنه : موجباً لها : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون * ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم »(٤)

وإن هذه الآية دلت على أمور ثلاثة :

أولها – وجوب الدعوة إلى الخير، وأى خير أعظم من الدعوة إلى الإسلام، إنه الخير، وهو دين الله تعالى، وهو الحق الذى فيه إصلاح البشر فى معاشهم ومعادهم.

ثانيها – أنه بعد الدعوة إلى الخير يكون العمل على إيجاد جماعة فاضلة بين المسلمين، ترى المعروف فتؤمن به وتدعو إليه، وترى المنكر فتنهى عنه، حتى لايسود الجماعة

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) التوبة : ١٢٢

(٣) النساء : ١٠٠. (٤) آل عمران : ١٠٤و ١٠٥

إلا الخير ، ويختفى من بينها الشر، فيموت فى مكمنه ، ولايرى النور ، فيذبل ويختفى فى الظلام.

ثالثا – أن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى سيادة الشر فى الجماعة، وإذا ساد الشر، تحكمت الأهواء والشهوات، وعندئذ يكون التفرق، ويركب كل امرئ متن هواه، فتتفرق الأمة بعد اجتماعها، وبعد أن جاءتها البينات.

(د) وإن الدعوة إلى الإسلام أخذ بمبدأ الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فلا يوجد معروف تدركه العقول، وتقر به الأفهام أكثر من الدعوة إلى الوحدانية الكاملة، وحدانية الله تعالى فى ذاته وصفاته، وأنه الخالق لكل شئ، وأنه المعبود بحق وحده، وعبادة غيره هى الضلال البعيد، وتحكم الهوى والأوهام فى العقول .

يقول سبحانه وتعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم »(١).

(هـ) ولقد ندد الله تعالى بالذين يكتمون العلم، وخصوصاً علم الكتاب وما أنزله الله تعالى، والله تعالى يقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا، فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم »(٢).

ولاشك أن الذين لايدعون بدعاية الله يكتمون الحق الذى أنزله الله سبحانه وتعالى، ليعم هذا الوجود الإعلام به.

(و) إن من المقررات الشرعية فى الدلالات القرآنية أن كل أمر للنبى ﷺ، هو أمر لأمته، إلا أن يقوم الدليل على تخصيص التكليف بالنبى ﷺ، وقد جاء الأمر بالتبليغ موجهاً للنبى، وبالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان هذا أمراً للناس كافة للقيام بذلك الواجب المقدس، إذ لادليل على أنه خاص بالنبى بل قام الدليل على عموم التكليف فيما تلونا وفيما بينا، وفى الأمر لنا بأن نتخذ رسول الله تعالى أسوة حسنة نتبعه فى هديه، وفى أمره ونهيه، ولقد قال تعالى: «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرا(٣)»

وإنه بمقتضى هذه الأسوة التى تجب على المؤمنين يكون من الحق عليهم أن يقتدوا به فى هديه ودعائه إلى الإيمان، وإعلان ما أعلنه، واتباعه فى كل ما اتجه إليه من وسائل الدعوة إلى الله ورسوله .

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) البقرة : ١٥٩، ١٦٠. (٣) الأحزاب : ٢١

(ز) وإن الله وصف المؤمنين بأنه استخلفهم في الأرض، أي جعلهم خلفاء له ولأنبيائه، وإن مقتضى هذه الخلافة عن الأنبياء أن يقوموا بما كانوا يقومون به من واجب التبليغ والدعوة إلى الله تعالى .

وقد قال تعالت كلماته : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لايشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»[١] .

وإن هذا الأمر يدل على حقيقتين ثابتتين استلزمتهما حقيقة الإيمان والعمل الصالح:

الأولى – أن المؤمنين الصادقين الذين يقومون بالعمل الصالح هم خلفاء الله في الأرض، وخلفاء النبي ذي العزم من الرسل في الدعوة إلى الله تعالى، وألا يشركوا به شيئاً حجراً أو إنساناً، فالمؤمنون برسالة محمد ﷺ خلفاؤه في الدعوة إلى دينه الحكيم ، وبث حكمته وأقواله في قلوب البشر الذين لم تبلغهم رسالته، ولايعرفون حقيقة الدين الذي يدعون إليه فذلك حق عليهم .

الثانية – أن الله تعالى وعد المؤمنين الصادقين بأن يمكّن لهم دينهم الذي ارتضوه، وارتضاه الله تعالى لهم، وليس ذلك التمكين بغير جهد مبذول، ولابغير دعوة مستمرة دائبة لاتفتر ولاتسكن، إنما هو العمل المستمر في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وإن ذلك فوق أنه أداء واجب، هو السبيل لسيادة الأمن، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وأن يكونوا في الأرض سادة لاتتداعى عليهم الأمم تداعي الأكلة على قصعتها، أو تداعى الذئاب عليهم لتفرض عليهم الذلة، ويستعبدوا في أرضهم، وتستغل غلاتهم.

وإن الحروب التي شنها النبي ﷺ حماية للحوزة، وتمكيناً للدعوة، كان يبدأ فيها بالدعوة للإسلام، فكان ﷺ يأمر جنده الذين يرسلهم إلى الأقاليم بأن يدعوهم أولا إلى الإسلام، فإن أسلموا فإخوانهم في الدين، يعلمونهم أحكامه، ويبينون لهم هديه، وإن لم يسلموا عرضوا عليهم العهد، فإن عاهدوا على العدل في الرعية، كان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم فإن لم يفعلوا كان القتال، ولايقاتلونهم، حتى يبدءوا هم، ويقتلوا قتيلا، فيريهم القائد المسلم بأمر محمد أن يقول لهم أما كان خيراً من ذلك أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وكما وردت بالتكليف بالدعوة نصوص قرآنية، فقد وردت أيضاً أحاديث داعية إلى التبليغ، بأن تبلغ ما أمر به النبي ﷺ، وما أعلمه من حقائق إسلامية:

---

(١) النور : ٥٥

(أ) منها أنه ﷺ أمر من شهده من المؤمنين أن يبلغ من غاب عنه، سواء أكان من أهل جيله أم ممن يجيئون بعده من الأجيال، لافرق بين قريب منه، وبعيد عنه، فلقد جاء في خطبته في حجة الوداع، وهو ينادى الأجيال في عرفات ببيان موجز للأحكام الإسلامية « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب» فتلك دعوة عامة لمن شهد من المؤمنين أن يعلم من غاب منهم الناس، والمشاهدة التى توجب الإعلام تشمل من حضر النبى ﷺ، وأشرقت عليه أنواره بلقائه بالحسّ، ومن علم علم القرآن، ويعلمه قد صارت النبوة بين جنبيه، فإنه قد شاهد الرسول بقلبه، وإن لم يشاهده بعينه، فكان عليه التبليغ، لأنه تلقى التكليف عنه وعن الله فيجب أن يبلغ .

(ب) وقد صرح النبى ﷺ بأنه يجب أن يعم قوله، وتعمم هدايته بالرواية عنه، وتبليغ قوله وشرعه، فلقد روى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: « نضَّر الله تعالى عبدا سمع مقالتى، فحفظها، ووعاها، وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لايغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»

وإن هذا يحث على أن ننقل أقوال النبي ﷺ إلى الأجيال من بعده، وإن أقواله ﷺ هى رسالته، وبلاغها وتبليغها، فالله تعالى ينضر وجه الذى يفعل ذلك، ومن ذا الذى لايريد أن ينضر الله وجهه، ولايكون له عنده وسيلة لرضاه.

ثم الحديث يدل مع ذلك على وجوب النصيحة وإخلاص العمل لله تعالى، وأى عمل أجل فى العمل لله تعالى من أن يبلغ رسالة الله، وأن يحمل ما حمل النبيون، ويقوم بما يجب عليهم من التبليغ اتباعاً لهم وأخذاً بهديهم، وسلوكا لسبيلهم، وهو سبيل الله تعالى.

وبهذا نرى الحديث يتضمن فى دلالته القريبة وجوب الدعوة أو الندب لها.

(جـ) وإن النبى ﷺ جعل خيرية الأجيال بمقدار دعوتهم للإسلام، والأخذ بتعاليمه، فقد روى الشافعي أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وقف بالجابية بالشام خطيباً، وقال : إن رسول الله قام فينا كمقامي فيكم، فقال : «أكرموا أصحابى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب، حتى إن الرجل ليحلف، ولايستحلف، ويشهد ولايستشهد، ألا فمن سرته بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن» وفى هذا الحديث بيان أن خير الأمة الذين شاهدوا وعاينوا، وهم أصحابه الذين حملوا رسالته، وبلغوها الناس، ونشروا أمرها في الآفاق، ثم الذين اتبعوهم بإحسان في حمل الدعوة،

وتبليغها، وحملوا علم الصحابة وعلم الرسول إلى جيلهم، ثم الذين يلونهم، وكانت الأفضلية فى نظر الفاروق الذى لم يفر فريه فى الإسلام أحد مثله، على حسب قوة التبليغ وحمل الأحكام الإسلامية وتعريف الناس بها، وإن التبليغ قد أخذ يضعف من بعد حتى ظهر الكذب. والكذب أمارة الضعف النفسى، ومن ضعفت نفسه تخاذلت عن القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن النفوس القوية هى التى تفيض على من دونها، فالخير يجئ من أعلى، وينصب فى الأدنى، ومن هانت نفسه لم يستطع القيام بحق غيره من الإرشاد والتهذيب.

(د) والنبى ﷺ كان يحث المؤمنين على أن يكونوا هداة مرشدين مبينين ويعد هداية النفوس لاتقل عن الجهاد فى سبيل الله فضلا فيقول لبطل الجهاد وإمام الهدى على كرم الله وجهه: « لأن يهدى الله تعالى بك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ».

والجهاد بالحرب، ودفع الأذى هو لقيام الحرية الدينية، وفتح الطريق أمام الهدى المحمدى، فهو وسيلة للدعوة، والغاية هى الدعوة، ومما لاريب فيه أن الغايات هى الصورة المطلوبة بالذات والأصل، والوسائل مطلوبة تبعاً للغايات، والمتبوع دائماً خير من التابع وأفضل، فهى المقصد بالقصد الأول والوسائل مقصودة بالقصد الثانى.

(هـ) وإن الراشدين من الأئمة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى كانوا يرسلون العمال إلى الأقاليم دعاة إلى الإسلام هداة مرشدين، فوق إقامة العدل، ومنع الفساد فى الأرض.

فعمر بن الخطاب، وهو الذى اتسعت فى عهده رقعة الدولة الإسلامية يقول لولاته: «إنى ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، ولكن لتعلموهم أمر دينهم» ومن تعليمهم أمور الدين أن يبينوا لغير المؤمنين حقائق الإسلام، وهم أحرار بعد ذلك فى الدخول فيه « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(١).

ولقد نهج نهج الراشدين عمر بن عبد العزيز، فلقد كان يحثهم على الدعوة إلى الحق، وتعليم الناس أمر دينهم، ونشر الحقائق الإسلامية فى ربوع الذين لم يدخلوا فى الإسلام، واستظلوا بالعلم الإسلامى، ونعموا بالعدالة التى تعم ولاتخص، وعاش فى ظلها البرئ والسقيم، والمسلم وغير المسلم.

ولقد دخل الناس بهذه الدعوات المستمرة، وبالأخلاق الإسلامية أفواجاً وكثروا وكان من أسلم تسقط عنه الجزية، وتجب عليه الزكاة والكفارات، والصدقات المنثورة.

---

(١) الكهف: ٢٩

ولقد خشي والي بيت المال أن يخلو بيت مال الخراج والجزية من المال، فهم بألا تسقط الجزية عمن يسلم، فأرسل إليه الحاكم عمر بن عبد العزيز يلومه على ذلك، وقال له في كتابه الحكيم : « إن الله تعالى أرسل محمد بن عبد الله ﷺ هادياً، ولم يرسله جابياً » .

ومن هذا الكتاب الحكيم يتبين أمران : أحدهما – أن الدعوة إلى الإسلام هي الهداية الكاملة، فهي عمل الرسول، وعمل من يقتدى به .

وثانيهما – أن كل ما ينافيها حرام يمنع، وإنه بذلك يتبين أن الدعوة إلى الإسلام أجمع الصحابة على وجوبها، وأجمع التابعون من بعدهم على ذلك، فهما إجماعان يؤكد أحدهما الآخر، ولاينتقض هذا الإجماع بتقاصر الهمم من بعد ذلك .

نوع الوجوب

١٢- اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة الإسلامية، وكان ذلك الاتفاق إجماعاً انعقد في عصر الصحابة، ثم عصر التابعين، والإجماع لاينقض إذا تخاذل المسلمون عنه، وقعدوا عنه، فلم يقوموا بحقه .

وكون الإسلام كان ينشر نفسه بتعاليمه، ويتعرف بعض الناس به لايمنع من الوجوب، فالدعوة الحق لازمة ووجوبها مستمر دائم، لأنه لابد أن يسأل الناس لم لايعرفونه، قبل أن يعرفهم المؤمنون الصادقون، فلا يسأل الجاهل لم لاتعلم، ولايسأل العالم لم لايعلم .

ولكن هذا الوجوب الخاص بتعليم الناس حقائق الإسلام أهو وجوب على الخاصة، أم هو على الكافة، وبعبارة أدق أهو فرض عين أم فرض كفاية .

إننا إذا رجعنا إلى ما كان يفعله الصحابة ومن بعدهم التابعون، نجد كل من كان يعلم بالإسلام وحقائق الإيمان يعلم غيره من المشركين، وممن يتصلون به بصلة قرابة أو جوار، أو لقاء، فالدعوة كانت عامة، لإحساسهم بمسئولية التعليم لمن لايعلم، ولأنهم يعلمون أن الإسلام هداية إلى الحق فيدعون إليه من يكون في ضلال من أمره، وإنك إذا قرأت لقاء الذين هاجروا إلى الحبشة من الصحابة، فقد تكلموا بالإسلام، وبيان دعوة محمد ﷺ، فلقد وقف جعفر بن أبي طالب يشرح للنجاشي حقيقة الإسلام، « روت أم سلمة، وكانت وزوجها من المهاجرين أن النجاشي دعا المهاجرين إلى الحبشة يسألهم عن الدين الذي أخرجهم قومهم بسببه، قائلا لهم ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه فقال :

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، حتى بعث الله تعالى إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولانشرك به شيئاً، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك، أيها الملك .

قال النجاشي مجيباً عن هذا الكلام المبين بإيجاز لما جاء به محمد ﷺ: هل معك مما جاء به عن الله تعالى شئ ؟

فقال جعفر رضى الله عنه: نعم .

قال: فاقرأه علىّ، فقرأ عليه من سورة كهيعص .

فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، ثم قال : إن هذا والله والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة » .

ونرى من هذا أن جعفرا رضى الله عنه دعا عند طلب بيان الحقيقة فلم يضن بالبيان، وكذلك الشأن فى كل مؤمن يجب عليه البيان عندما يطلب منه، ويجب عليه البيان عندما يجد أذناً مصغية، ويجب عليه عندما يجد إلى ذلك سبيلا من غير غلظة، ولاتقحم، بل يدخل إلى الأمور من أبوابها .

ونرى أن جعفراً بكياسته الهاشمية اختار سورة مريم التى فيها ذكر لميلاد أم المسيح وولادته، لأنه يخاطب رجلا مسيحياً، فكان ذلك أدنى لاستجابته وأقرب لهدايته، وذلك هو طريق الدعوة .

وكذلك كان كل رجل مؤمن ممّن ارتبط معه برابطة صداقة أو قرابة أو جوار أو معرفة يذكر ما هداه الله تعالى إليه، وما كان سبباً لهدايته موازنا بين الحق الذى اعتنقه، والباطل الذى تركه .

والنبى ﷺ كان يرسل الهداة إلى القبائل النائية، كما روينا فى إرساله معاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى، وعلى بن أبى طالب إلى اليمن، وقد أرسل وهو فى مكة بعد بيعتى العقبة مصعب بن عمير، يفقه الأنصار، ويحفظهم القرآن، ويعلمهم الصلاة، ويقيمها بينهم .

١٣ - وننتهى من هذا إلى أن الهدى المحمدى فى العصر النبوى كانت فيه الدعوات الإفرادية، والتى يتولاها بهدى النبى ﷺ كل مؤمن مدرك يعرف الحق ويستطيع أن يؤديه كما يتسع بيانه، وكان النبى ﷺ يتولى الدعوة يبثها بنفسه الطاهرة العالية، ويرسل أصحابه إلى الجماعات وإلى القبائل ممن أوتوا القدرة؛ ولذلك نرى أن الدعوة إلى الإسلام فرض عينى على كل قادر عليها، ووجد الفرصة سانحة لبيانها، فينتهزها، وهى فرض كفاية على الجماعة الإسلامية، إذ يجب ألا يخلو عصر من الدعوة بحيث لو تقاصرت همم الآحاد، أو لم توات لهم الفرصة قام مَنْ عينتهم الدولة، أو تهيأت لهم الأسباب ليقوموا بذلك الواجب المقدس.

وإن لذلك تفصيلا نعرج عليه بالبيان غير مطنبين، ذلك أن الإسلام له إجمال وتفصيل، فأما الإجمال فالدعوة إلى الله تعالى ببيان وحدانيته، وأنه لاشريك له، وأن عبادة من لاينفع ولايضر باطلة، ثم بيان أن الإسلام قام على خمسة أمور هى دعامته : عبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ولابد أن تكون الفاتحة من بين ما يحفظ .

ويبين لهم الصلاة: أركانها وترتيبها والوضوء وأركانه، وغير ذلك مما لابد منه ليعد الشخص مسلماً، ويتمكن من أداء فرائضه .

وإن هذا واجب عينى على كل مسلم يبين الإسلام لمن يأنس بأنه ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولمن تربطه به مودة، ويحب الخير له، كما كان يفعل المؤمنون الأولون، فقد كان كل صحابى داعية لمن يعرف، فأسلم عثمان بدعوة أبى بكر وكان بينهما ود.

ولا ننسى أن المعاملة الطيبة دعوة صالحة، وأن الود يقرب، والعداوة تفرق، وأنه لايجوز سب دينه، ولا التهجم على اعتقاده، فإن التهجم يوجد مقاومة، والمقاومة توجد الانحياز، والانحياز يضع حاجزاً بينه ومن يريد هدايته .

ولايجادل فى الحقائق، فإن المجادلة تستلزم إرادة الغلب من كل من المتجادلين، وإرادة الغلب تمنع وصول الحق؛ وإذا كان لابد من المجادلة فإنها تكون بالتى هى أحسن، ولاتكون بالمعاندة والمغالبة، بل بالاتجاه إلى المعنى الجامع كما قال تعالى : « ولاتجادلوا أهل

الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[1].

وإن المودة تدنى، والمحبة تجعل السبيل إلى الإقناع معبداً، والإسلام دين الألفة، والدعوة بالائتلاف أقرب وأهدى سبيلا، والنبى ﷺ يقول « تآلفوا الناس »، ويقول « بشروا ولاتنفروا، ويسروا ولاتعسروا » ولو جئت إلى مخالفك بما يجمع بينكما مبتدئاً به انتهيت إلى أن يوافقك فيما تختلفان فيه.

ويدخل ذلك كله فى قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[2].

وإن الدعوة الآحادية لمن يكون منك دانياً، وإن هذه سبيل قد أنتجت فى الحاضر إن خلصت النية، واعتزمت، واتجهت، واستجابت لأمر الله تعالى ونهيه .

هذه هى الدعوة الآحادية، وقد كان لها الفضل الأكبر عندما غفل الحكام بعد الراشدين عن الدعوة الإسلامية، وشغلوا عن ذلك بالافتراق الذى أضعف حكمهم، وتحول الافتراق إلى تنازع على السلطان وعلى مقدار ما يسيطر كل واحد على رقعة من الأرض .

وفى هذا الحين كان من الناس من انتدب الدعوة الإسلامية احتساباً، وقام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقام بذلك الجماعات والآحاد من غير ترتيب من ولى الأمر، ولاتنظيم من الحكام .

ولكن يجب اتباعا للهدى المحمدى أن تقوم الدولة الإسلامية بذلك، كما ينبغى لها أن تعهد به إلى جماعة إسلامية تخصص لذلك، إذا كانت تريد القيام بحق الإسلام عليها فى تبليغ الدعوة، وإن ذلك الواجب لايغنى عن عمل الآحاد، ولكن يجب أن يكون بجواره، فإنه منذ عهد الحكم الأموى، وقد وجد فى حواشى الملوك من يثير الشبهات حول الإسلام، وإن الآحاد ربما لايتوافر فيهم المقدرة لدفع الشبهات، فإن ذلك يحتاج إلى فهم دقيق للمأثور عن النبى ﷺ .

لقد أثاروا شبهات حول معنى كلمة الله تعالى، ويحتاج رد ذلك إلى فهم للقرآن الكريم، لايتوافر إلا عند الخاصة من العلماء، وأثاروا شبهات كاذبة حول زواج النبى ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش، وأثاروا كثيراً حول تعدد أزواج النبى ﷺ، وإن ذلك كله يحتاج إلى أن تهيئ الدولة المسلمة الأسباب ليتوافر من المسلمين جماعات دارسة فاحصة تتقدم بالحجج القاطعة المانعة للناس من تصديق هذا القول .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ (٢) النحل : ١٢٥

وفوق ذلك، فإن هناك مسائل تحتاج إلى متفقهين فى الإسلام يبينونها، ويذكرون تفصيلها، كأحكام الزواج والطلاق فى الإسلام والميراث، والحرمات الإسلامية بالتفصيل، فإن ذلك لابد من معرفته بالإجمال، ولابد لكمال الدعوة أن يذهب ناس لهم ثقافة عالية إلى البلاد المختلفة يتقنون لغاتها، ويتعرفون نفوس أهلها، ومن أى طريق يمكن التأثير فيهم، وإن أولئك يجب أن يكون لهم دراسات خاصة تكون للدعاية، ويجب أن يزودوا بعلم النفس الجماعى والنفس الفردية، ومنطق الدين وسلاسة البيان وسياسة الحق والتعرف إلى النفوس، ومداواتها، وعلاج المنحرف منها .

وكل أولئك تربيهم الجماعة الإسلامية، كما تربى المهندسين والأطباء، وكل من يقوم بفرض كفائى، يجب على الجماعة توفير الأسباب لهم ليقوموا بواجبهم الكفائى .

من أجل هذا نقول إنه يجب الواجبان الكفائى والعينى .

النصوص تثبت الوجوبين :

١٥- ذكرنا فى بعض ما ذكرنا من أدلة تدل على وجوب التبليغ على الأمة بعد النبى ﷺ « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(١) وإن هذه الآية تدل على الوجوب على الأمة كلها وجوباً فردياً وجماعياً، والوجوب الفردى قد شرحنا مؤداه، وبينا حدوده، وطاقات من يقومون به، وقد تكون محدودة تعرف أصل الإسلام، ولاتعرف تفصيلات أحكامه، ونريد أن يعرف كل مسلم جديداً أو قديماً أن يعرف ما أمره الله تعالى به وما نهى عنه، يقوم بذلك قوم من الأمة، والآية تومئ إلى الوجوب على الكل، وتخصيص جماعة بالتعرف الكامل لتفصيلات الأحكام، فلايعد المسلم مسلماً إلا إذا أدى كل التكليفات الإسلامية يقوم بتعريف بعضها كل مسلم، ويبين سائرها العلماء بالدراسات الإسلامية، وليس معنى ذلك أن فى الإسلام الكهنوت كالذى عند الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، فليس لعالم أن يقول إلا نقلا عن كتاب أو سنة، أو اتباع الذين شاهدوا وعاينوا، وتلقوا عن الرسول مباشرة، وأدركوا منه معانى التنزيل .

ولنذكر ببعض التفصيل ما ترمى إليه الآية الكريمة « ولتكن منكم أمة »(٢) فمن فى قوله تعالى منكم تدل على أحد معنيين : أحدهما - أن تكون بيانية، والثانية أن تكون للتبعيض، وعلى أنها بيانية يكون المعنى، ولتكونوا أيها المسلمون جميعاً أمة داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، فإن ذلك هو أساس الفلاح، وإن هذا المعنى متلاق مع قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»(٣).

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) آل عمران : ١٠٤ (٣) آل عمران : ١١٠

فالآيتان على أن مِنْ بيانية تكونان دعوة للأمة كلها أن تبلغ الرسالة المحمدية، ولكن ذلك لايمنع أن يتخصص بعض المؤمنين لتفقيه الناس فى دينهم بعد أن يدخلوا فى دين الله تعالى كشأن كل أمر واجب على الجماعة كلها، يقوم كل واحد بما يستطيعه الواحد منفرداً ثم يخصص الجماعة له من يقوم به، ويهدى الناس إليه، وقد كان فى كل جيل بعد النبى من يتعلم ومن يُعلّم، أى من يعرف أصول الإسلام فيقوم بها، ومن يستفتى عنده فى العلم بما يجهله.

وعلى تفسير (من) فى قوله تعالى : منكم، بأنها تبعيضية بمعنى بعض، فالمعنى على هذا ليكن بعضكم متخصصا فى الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويكون هذا متفقا فى مؤداه مع قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »(١).

وإننا نرى أن يكون معنى الآية على أن من بيانية على الأمر بأن تكون الأمة داعية إلى الخير كقول القائل : ليكن منك رجل فاضل يدعو إلى الخير ويهدى إليه، وإن الذى سوغ لنا اختيار ذلك هو قوله من بعد ذلك : (أولئك هم المفلحون) بضمير القصر أى أن الفلاح مقصور عليهم دون غيرهم، وذلك أنسب أن يكون وصفاً للأمة كلها، ولنعد تلاوة الآية الكريمة، فإن معنى العموم يكون واضحاً بيناً، وهذه الآية تعالت كلماتها (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون)(٢).

فالفلاح يكون مختصاً بأمة تدعو إلى الخير، وتفيض بالعلم على الإنسانية كلها تدعوها إلى أعظم خير فى الوجود، وهو دين الله تعالى الحق، وإن الدين عند الله الإسلام .

وهنا قد يسأل سائل، كيف تكون الدعوة عامة، ومع ذلك نقول إنها فرض كفاية وفرض عين معاً، ونقول فى الجواب عن ذلك: إن التكليف عام، بحيث يقوم كلٌّ بكفايته وما آتاه الله تعالى من علم، ولايخلى إنسان نفسه من تبعة الدعوة، والقيام بحقها، بيد أن على الأمة واجبين أحدهما ما يقوم به كل واحد بعينه فى الدعوة إلى الحق هادياً مرشداً .

ثانيهما - أن يخصص ناس لهذه الدعوة من الأمة يكون لهم فضل علم بكتاب الله تعالى وفضل كفاية بيانية، وحكمة وإدراك، كما فعل النبى ﷺ عندما اختار مصعب بن عمير لأهل المدينة معلماً مقرئا للقرآن، وكما اختار بعد فتح مكة لقريش من يعلمهم أحكام الإسلام، ويخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وهديه .

---

(١) التوبة : ١٢٢   (٢) آل عمران : ١٤٠

وبذلك يتبين أنه التقى التكليف العام، وفرض الكفاية، وإن الإمام الشافعى رضى الله تبارك وتعالى عنه، وصف الفروض بأن الخطاب بها عام، ويدخله الخصوص، فالأمة تكون كلها مخاطبة، وهو على العموم، وتركه إثم للجميع، ويجب تخصيص جماعة لذلك، والجميع يستوون فى الإثم عند الترك العلماء وغيرهم، لأنهم جميعاً لم يقوموا بالواجب عليهم، وبتطبيق ذلك على الدعوة إلى الإسلام دعوة الخير الشاملة يكون كل واحد فى الأمة مطالبا أولا بالقيام بالدعوة بقدر طاقته من العلم والكفاية والبيان، ومطالباً ثانياً بالمعاونة على تخصيص طائفة من المؤمنين تكون أقدر بيانا، وأعلم بالأحكام، وتعرف أوجه الحق، والدعوة إليه، ومخاطبة النفوس عارفين بلغات من يدعونهم، ولهم جلد على الضرب فى الأرض، وتحمل مشاق الأسفار فى البر والبحر .

وإنه بمقتضى هذا يتحقق فرض الكفاية، وفرض العين معاً، ويتحقق تخصص الذين يقومون بالدعوة فى كل مكان، ويتحقق الوجوب على الذين يقومون بالدعاية الشخصية، حيثما وجدوا للدعوة سبيلا، وكل مؤمن على ثغرة من ثغور الإسلام يحميه، ويدعو إليه ويحث الناس على اتباع النبى الأمين ﷺ فهو رسول الإنسانية، بعث للإنسانية كلها، لافرق بين أبيض وأسود، ولاعربى وأعجمى، بل الجميع أمام مائدة الهداية المحمدية على السواء، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

١٦ - ومن هذا يتبين وجوب التعاون على الدعوة إلى الإسلام من الآحاد والجماعات، الآحاد عليهم أن يقوموا بما يستطيعون، وعليهم أن يعاونوا الطائفة التى تتفرغ لهذه الدعوة، أو تكون أقدر على نشرها والقيام بحقها، والدولة هى الجامعة لهذا الوعى فى الدولة، عليها تخصص جماعات لها، عليها أن تخصص جماعات من بينها، كما تخصص جماعات للقضاء والهندسة والطب، والقيادة. فكل هذه فروض كفاية، والجماعات الإسلامية ممثلة فى دولها عليها أن تخصص لكل فرض كفائى من يقوم به ويسقط به الحرج على الباقين فى الدعوة التى لايمكن أن يقوم بها إلا الخاصة القادرون على مخاطبة الكافة فى أقاليمها وشعوبها بلغاتهم، ومن الحق فى هذا المقام أن نبين موقف العلماء فى آخر عصر التقليد، ومن جاء بعدهم .

إننا نجدهم تخلفوا، وتركوا الإسلام ينشر نفسه، مع أن حال المسلمين لم تكن داعية، بل كانت منفرة لولا كتاب الله المانع من الضلال، وإن الاستجابة إليه ثابتة وأهله أخذوا يتلونه مترنمين، وحاسبين أن ذلك يكفى لإقامته.

لقد رأينا المقلدين عن غير بينة في كل شئ لا في فروع الأحكام فقط فقد يكون التقليد في فروع الفقه فيه تحصن من الانحراف عن معنى الإسلام واتباع هوى الحكام، ولكنهم قلدوا في الإهمال والترك، ورضوا بأن تهمل دعوة نبيهم، تقليداً لمن أهملوها، وتجنبوا تقليد من أقاموها .

لقد رأينا من العلماء المقلدين من يرون أن أهل أوروبا وأمريكا والوثنيين عليهم أن يؤمنوا وإن لم يدعوا إلى الإيمان، ولم تبين لهم حقيقة الإسلام زاعمين أنه مادام قد أعلن وجود محمد ﷺ ودعوته، فقد وجب على كل عاقل أن يتعرف، وإن لم يكن من يعرفه، ولو كان ما يصل إليه عن الإسلام تشويها لحقائقه، ومن يعلمه يحرفه، والشعوب في جهالة من أمره، ومع ذلك يقول المهملون لأمر الدعوة الإسلامية من العلماء : وإن على غير المسلمين أن يبحثوا ويعرفوا مادام الإسلام قد اشتهر، من غير داع يدعو، ولانذير ينذر ولاهاد يهدى، بل غير المسلمين عليهم، وهم يعدون بأكثر من ١٠٠٠ مليون أن يتعرفوا، يستوى في ذلك القارئ والأمى، والعالم والجاهل .

وإن هذا يجانف للإثم، وهو قصور وتقصير من علماء المسلمين، ومخالفة للإجماع الذى انعقد في عهد الصحابة، ثم كان في عصر التابعين فوق مخالفته لنصوص القرآن التى تلوناها، وأحاديث النبى التى رويناها .

ولكن لماذا كان هذا القصور، أو التقصير؟ لكى نعرف سببه لابد أن نحدد وقته ومتى ابتدأ، وما الذى اقترن به عصر ابتدائه .

(أ) إننا نحسب أن ذلك القصور كان عندما انحلت الدولة العباسية، وتقطعت أجزاؤها متناحرة، يضرب بعضها بعضا، وشغل المسلمون بأمر دنياهم عن دينهم وصار بأسهم بينهم شديداً، يأكل بعضهم بعضا .

فأخذت همة العلماء تضعف، وعزائمهم تنحل، وانصرف الكثيرون منهم إلى أوهام في الحياة والقوة، ولذلك شاعت وسيطرت بدل الحقائق الشعبذة، فانشغلوا بها عن الإسلام الذى هو حكم العقل المستقيم، والمنطق القويم، وحل التواكل، وبعدوا عن كتاب الله تعالى لايدركون مراميه، وإن شغلوا به ففى غير تنفيذه، وكان المفسرون منهم يتعرفون أسراره ولاينفذون فى الدعوة إلى أحكامه، ومنهم من ادّعى أن القرآن المقصد الأول من نزوله هو التعبد بتلاوته والإنصات إليه، وقراءة ما تيسر منه في الصلاة .

وإن تدهور الحكم الإسلامى وفساده ألقى في نفوس الناس يأساً، وإذا حل اليأس

فى قلوب ضعفت الهمم عن أن تقصد قصداً صحيحاً إلى أمر من الأمور، وصار الحكام مشغولين بتوطيد ملكهم، والعلماء فى خدمتهم، ومن لايفعل أبعد وجافوه، فكانت المجالس فى كثير من الأحوال بعيدة عن العلم والعلماء .

(ب) وليس ذلك هو السبب فقط، بل شغل العلماء عن الدعوة إلى الإسلام منازعات، كما شغلت الحكام، وانقسموا فرقا فى مسائل حول أصول الاعتقاد، فتنازع المعتزلة مع الفقهاء والمحدثين أمداً طويلا، وإن كان للمعتزلة مقام فى الدعوة سنذكره ولكن الجهد الأعظم كان فى مغالبتهم للفقهاء والمحدثين ومن ذلك مسألة خلق القرآن التى شغلت علماء المسلمين قرنا كاملا أو يزيد، وأوذى العلماء الذين خالفوا الدولة التى رأت رأى المعتزلة فى عصر الملك العالم عبد الله المأمون بن الرشيد وضرب فيها الأئمة وسجنوا من أمثال الإمام أحمد بن حنبل، والبويطى صاحب الشافعى، وراوى علمه .

(د) ومن هذا يتبين أن منازعة الآراء شغلت العلماء، كما شغلت المنازعات على الأرض الأمراء، فكان العامة والخاصة فى شغل شاغل عن القيام بالفروض وعلى رأسها القيام بالدعوة الإسلامية، وبذلك وهنت الدعوة، ولم يقوموا بحق التبليغ .

(جـ) ومع هذه المنازعات الفكرية والسياسية والحرب دهمتهم من الخارج داهمة الحرب الصليبية التى شنت على المسلمين فى القرن السادس الهجرى، وأخذ الصليبيون بيت المقدس، فشغلت هذه الحملة العاتية النفس الإسلامية، شغلت نفوس العامة، واستغرقت نفوس الخاصة، وأصيب المسلمون بانكسار جعلهم يفكرون فى أرضهم، وكيف يدفعون عنها الاعتداء، ولم يفكروا فى أن يفيضوا على غيرهم بالهداية والدعوة إلى الخير، فشغلوا بأنفسهم عن أن يدعو غيرهم إلى الإيمان، وانقبضت النفوس والعقول عن أن تعمل على تبليغ الرسالة، وقد ظنوا بأنفسهم الظنون، واقترنت هذه الحروب بالحكم الغاشم من الحكام، الذى ارتكست فيه النفس الإسلامية، فى مهاوى الذل، إن لم يكن الأجنبى، فهو من الحكام الغاشمين الظالمين، وهم فى الأذى أشد بأساً، وأكثر إيغالا .

(د) وما إن خف بأس الحملة الصليبية، وأخذ المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس، وأخذ المسلمون يتجهون إلى أرضهم يصلحونها وإلى نفوسهم يقوونها، حتى دهمتهم داهمة التتر فقد جاءوا إليهم من أطراف الصين كالصخرة، فخربوا الديار، وأزالوا من بغداد ما كان يسمى بالخلافة الإسلامية، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى، واستمر إلى الثامن، حتى دخلوا فى الإسلام، وإن لم تنته غاراتهم بانتهائه، بل استمروا فى غواية الحرب والحروب، وصار أمر المسلمين بوراً .

وجاء الحكم العثمانى، فلم يكن تفكيره فى الدعوة إلى الإسلام، بل كان تفكيره متجهاً إلى حرب الغلب، وقد أفاد الأتراك من ذلك غلباً، ولم يستفد الإسلام من ذلك، لأن المسلمين قد ضعفت نفوسهم، وهانوا على أنفسهم، ولادعوة إلى الحق ممن أصاب الهوان نفسه، ولم تكن العثمانية تعمل للإسلام بمقدار عملها للسلطان، ففى عهد سليمان القانونى كانت مدافعه تدك أسوار فينًا فى النمسا دكا، والصليبية فى الأندلس تبيد المسلمين وتنقب القلوب، ويستغيث المسلمون فى الأندلس ولامغيث.

فما كان من المعقول أن يفكر هؤلاء الحكام فى الدعوة إلى الإسلام .

قصور بلا حجة ولامعذرة :

١٧- لاحجة لمن تركوا الدعوة إلى الإسلام، فالبراهين قائمة ثابتة، وليس لهم أن يقولوا «لايكلف الله نفساً إلا وسعها»(١) لأن الطاقة توجدها الهمة والعزيمة، والوسع يتبع قوة الإيمان، فمن كان قوى الإيمان بالحق، كان ذا طاقة تتسع لما يوجبه الإيمان .

وإن العيب يكون لاحقاً لمن كان قادراً، ولكنه يصم نفسه بالعجز، فإن ادعاء العجز ينتهى بالعجز، ولاعذر بالضعف الحربى، لأن الضعف الحربى وليد الضعف النفسى، وإذا كان الأمراء قد تنازعوا، فإن ذلك لاينزع الإيمان من القلوب .

إنه يجب علينا أن نعرف أن الدعوة إلى الإسلام وبيان هدايته فرض كسائر الفرائض، فهو مطلوب حتما كسائر المطلوبات الحتمية، وإذا كان الناس لايستجيبون فى نفوسهم، كما يستجيبون للصلاة فذلك لنقص فى إيمان المؤمن بحق غيره عليه، وإن عدم الإحساس بذلك، فوق أنه نقص فى الإيمان هو دليل على أن المصلى لايقوم بحق الصلاة، لأن إقامة الصلاة على وجهها تقتضى ذكر الله تعالى، ومن ذكر الله تعالى عليه أن يعلن أمر الله تعالى ونهيه، وأن يدعو الناس إلى توحيده، وعبادة الله تعالى وحده لايشرك به شيئاً .

إنه قد ثبت من السياق التاريخى الذى ألمعنا إليه سيطرة الباطل، فالحكام متنازعون لايقومون بحق الحكم، ولايحكمون بالعدل بين الناس، والأمة قد شغرت من الأخلاق، وتوالى هجوم العدو من الشرق والغرب، فالباطل قد استحكم، والظلم قد تحكم .

ونقول هنا: إنه كلما اشتد الفساد، وجب العمل على الإصلاح، وبمقدار قوة الشر تكون العزيمة فى الخير، فلا يشغل الشر عن الخير، وإلا عم الفساد، وضل العباد إلى يوم

(١) البقرة : ٢٨٦

القيامة، ولو كان استحكام الشر داعياً إلى السكون ما أقام رسول من رسل الله تعالى دعوته إلى الحق، ولا رجع محمد بن عبد الله ﷺ بمجرد أن صدمه المشركون بالإنكار، وبادروه بالعداوة والإيذاء، وما كان ليفعل، وقد قال له ربه «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»(١) ففى وسط الباطل يجب النطق بالحق، والدعوة إليه، وبمقدار قوة الباطل تكون قوة الدعوة ، والداعى إلى الحق، فلجاجة الباطل لا يخفت معها صوت الحق، بل يجب أن يعلو عليها .

واليأس من سماع الحق أو الاستجابة لايمنع الدعوة إليه، بل يجب أن يعمل العالم، ولاييئس، فإن اليأس سمة الكافرين بالحقائق غير المؤمنين بها؛ فإن الله تعالى يقول : «إنه لاييئس من روح الله إلا القوم الكافرون »(٢).

إن اليأس لم يصل إلى قلب النبى ﷺ، وقد تحمل الأذى ثلاث عشرة سنة دأباً، فما يئس فيها ساعة من زمان، وما يئس يوم أن رأى شبه إجماع من المشركين على عداوته، وما يئس يوم أن ذهب إلى ثقيف فى الطائف، فأغروا به سفهاءهم، وأدموه، بل قال مقالة الراجى ما عند ربه «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» وقال: «إنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى »، وما يئس ﷺ، ومن معه عندما كان جيش الإيمان قد أثقل بالجراح فى أحد، بل إنه لما علم أن المشركين هموا بأن يعودوا للقضاء على جيش الحق، دعا الجيش الجريح لأن يعود إلى الميدان، بل إلى تتبع آثار المشركين، ولم يدع إلا من ذاق الجرح، وابتلى فى الميدان، فصدق عليهم قول الله تعالى «الذين قال لهم الناس، إن الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»(٣) .

هذا رسول الله ﷺ فى تبليغه الدعوة ما دخل قلبه يأس .

قد يقول قائل هذا مقام النبوة، فهو مؤيد من الله تعالى، والوحى كان ينزل عليه، والله يمده بنصر من عنده، فهو المتبوع فى الحق، فهل يبلغ التابع درجة المتبوع .

ونقول فى الإجابة عن ذلك إن الله عاصم رسوله من الناس، ومانحه التأييد والتثبيت ولكن جعل سبحانه وتعالى عمله بشرياً يخطئ ويصيب وينتصر وينهزم، ويحقق الله تعالى له الغاية بنصره وتأييده، ولكن بسبب من أعماله وقوة إيمانه هو وأصحابه ونصرهم لله تعالى بالعمل الصالح، واتخاذ الأسباب، كما قال تعالى «إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم»(٤).

---

(١) الحجر : ٩٤ — (٢) يوسف : ٨٧

(٣) آل عمران : ٧٣ — (٤) محمد : ٧

ولأن عمل الرسول ﷺ فى أسباب النصر والدعوة بشرى، كان على أصحابه أن يقتدوا به ويسلكوا سبيله، ويتبعوه ليبقى التبليغ موصولا غير مقطوع، ولتبقى كلمة الله عليا دائماً، ولذلك قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »[1].

وإن الدعوة فيما يمكن فيه الأسوة، وهى العمل بمقتضى البشرية، أما الوحى والتثبيت الربانى من الله تعالى، فهو من أوصاف النبوة، لايسمو إليه أحد من العباد .

وننتهى من هذا البيان أن التبليغ واجب على المؤمن على النحو الذى بيناه من حيث إنه واجب كفائى وعينى معاً، وأنه ليس للمسلمين أن يتقاصروا عن أدائه وألا يعذروا لأنفسهم، إذا أصابهم أمر ضعف فى سبيل الله، فالوهن من التقصير فى الدعوة إلى الإسلام، وتبليغ الهدى إلى أهل الأرض جميعاً، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الناس كافة لافرق بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر، إنهم إن استمروا على التبليغ كانوا طالبين للعلو بإعلاء الحق، فلن يهنوا ولايستكينوا ولايراموا بذل أبداً، ويكونون الأعزة، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولن يكونوا طعمة لأهل الشر فى الأرض وطغاتها، ولن يسيّروا فى غمرة التاريخ ولايملكوا من أمرهم شيئاً .

إن العالم يبلغ غير المسلمين فيه أكثر من ألفى مليون أو يزيدون، ونحن مسئولون عن استمرارهم على الكفر، لأننا لم نقدم لهم أى دعاية هادية فيجب أن نتقدم بدعوتهم إلى الهدى ودين الحق كما تقدم النبى ﷺ، ولتكن دعوتنا ابتداء ببيان حقائق الإسلام فى ربوعنا بكتب تكتب، وبكتابات تنشر، وبموازنات علمية دقيقة بين الوحدانية والوثنية، وبيان المبادئ موازنة بما عليه الأقوام من أوهام، والله سبحانه وتعالى عليم خبير .

الدعوة إلى الإسلام فى حياة أصحاب النبى ﷺ

١٨ - انقطع الوحى بوفاة النبى ﷺ ولكن بقى أعظم ماجاء به الوحى، وهو القرآن الكريم الذى نزل على قلب محمد ﷺ، وأقرأه قراءته، وعلمه ترتيله، وقال له، « لاتحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه »[2].

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) القيامة : ١٦

فإذا كان الوحى انقطع فقد بقى أعظم آثاره وثماره، وإذا كان النبى ﷺ قد مضى إلى ربه بعد أن أدى رسالته، فقد أكمل بيانها، ورويت أخباره وأحاديثه أحكامها، ولذا قال النبى ﷺ: « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله تعالى، وسنتى» .

ولقد أدى صحابته الأولون من بعده أمانته، وقد كمل الدين، وقد أعلم الجزيرة العربية كلها بهذا الدين، وتجاوزت أخباره أقطارها، إلى من يجاور العرب من الفرس والروم والشام ومصر والحبشة، وبعض هذه الأخبار سارت بها الركبان، وتسامع العرب ومجاوروهم بأمر الإسلام دين التوحيد والعدل والإخاء الإنسانى والوحدة الإنسانية .

وتولى النبى ﷺ إعلام كل الدول المجاورة بالإسلام بكتب أرسلها، وببعوث بعثها .

١٩- وإن الرعيل الأول من الصحابة أحق من حمل رسالته، وقام على نشرها، والذود عنها .

وقد اختبرهم الله تعالى بالردة بين أكثر الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم: «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله[1]»وقال سبحانه فيهم: «قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم»[2].

فالإسلام إذا كان قد دخل الأرض العربية وما جاورها، وأذعنوا لأحكامه الظاهرة فالإيمان لم تخالط بشاشته قلوب بعضهم، فارتد أكثرهم، ولم يكن ارتدادهم بعد إيمان، لأنهم لم يؤمنوا كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم، وهو أصدق القائلين، لأن من يدخل قلبه الإيمان بالحق لايخرج منه، إنما يرتد إلى الشرك من أسلم بظاهر من القول، ولم يخالط الإيمان قلبه .

ارتد العرب، وحاولوا أن يساوروا المدينة، ولكن عزمة خليفة رسول الله ﷺ ومن معه من أصحاب الرسول الكرام وحوارييه الأطهار، ردوا كيدهم فى نحورهم، وأبو بكر بعزمته القوية أعز الإسلام فى الجولة الأولى، ثم أرادوا وقد عضتهم سيوف الحرب أن يقيموا الصلاة دون الزكاة فرفض إلا أن يدفعوها ويقيموا الصلاة، ورفض قول من يفرق بين الصلاة والزكاة لأن كلتيهما ركن من أركان الإسلام الخمسة، وفوق ذلك فإن الزكاة أمارة الطاعة والانقياد، وقال : سلم مخزية أو حرب مجلية.

---

(١) التوبة : ٩٧ (٢) الحجرات : ١٤

وقد رأى عمر رضى الله عنه أن من الرفق أن يقبل الصلاة وقال لخليفة رسول الله ﷺ: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، كيف تقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم ونفوسهم إلا بحقها، فأجاب الصديق لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، وكأنه يقول : إن من حقها أداء الزكاة ثم عتب على عمر فى موقفه هذا، وقال له :

ويحك يابن الخطاب رجوت نصرتك، وجئتنى بخذلانك !! أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام، إنه انقطع الوحى، وتم الدين، أو ينقص وأنا حى؟ » .

كانت هذه العزمة البكرية منقذة للإسلام، عاونه فيها الصديقون من أصحاب رسول الله ﷺ، فكان على كرم الله وجهه على المدينة بجيش حارس رابط، وإذا كان عمر رضى الله تعالى عنه قد خالفه لم يمنعه ذلك من المعاونة، وكان الفاروق سريع الرجوع إلى الحق إن بدت معالمه بعد خفاء، فسرعان ما خطأ نفسه، ورأى فى عمل الصديق الرأى الصائب النافذ إلى الحق فى صميمه من غير هوادة :

٢٠ - ومع أن هذه الحرب كانت شاغلة للمؤمنين، قد صرفوا فيها جهودهم، فإنه أنفذ أمر النبى ﷺ فى أمر يتعلق بالدعوة ولم يؤجله، وكيف يتردد فى تنفيذ أمر النبى ﷺ، فقد كان النبى ﷺ أمّر أسامة بن زيد على جيش يذهب إلى الشام، وأوصى بذلك، وشدد فى تنفيذ وصيته، وماذهب ذلك الجيش لينتقم من مؤتة، كما ذكر بعض المؤرخين، فقد كانت تبوك رادعة قاطعة مبعدة نفوذ الرومان عن أطراف البلاد العربية، ولكن كان البعث النبوى للدعوة الإسلامية فى أطراف البلاد العربية بين الذين خلعوا ربقة الرومان، وانضموا إلى الجيوش الإسلامية فى غزوة تبوك، ويدل على ذلك أمران :

أحدهما : كان فى وصية النبى ﷺ، أن النبى أوصى بأن يكون فى الجيش أبو بكر وعمر، وهما شيخا المسلمين، ولهما فضل علم بالإسلام فى كلياته وجزئياته، فما كان مثلهما ليرسلا إلى الميدان إلا لحكمة نبوية أرادها نبى الحكمة محمد ﷺ، وهى تعليم تلك القبائل الإسلام، لقد أرسل من قبلُ معاذ بن جبل، وعلى بن أبى طالب، وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن ليعلموهم الإسلام بعد أن يدعوهم إليه، فكان المنطق ألا تحرم القبائل المتاخمة للرومان من الهدى المحمدى والدعوة إلى الإسلام وتعليم أحكامه، لقد كان الإرسال إلى اليمن فى العام العاشر، فكان من منطق الحكمة أن يرسل الشيخين أبا بكر وعمر لمثل ما أرسل إليه العلماء الأولون من الصحابة .

فكانا معلمين فى هذا البعث وليسا محاربين .

الدليل الثانى : أن البعث الذى أوصى به رسول الله ﷺ لم يلاق قتالا وجاء لم ينقص منه أحد، ولم تذكر كتب السيرة أنه لاقى قتالا، فلم يذكر من قتل من الأعداء، كما لم يذكر من لقى، فهو لم يكن بعثاً حربياً، ولكن كان بعثاً هادياً .

ولم يذهب الصديقان فى الجيش، لأن الأمر كان يستدعى بقاء أبى بكر، وقد اختاره المؤمنون خليفة لرسول الله ﷺ، والمدينة يساورها المرتدون، فيكون قد ترك وراءه من العورات أضعاف ما هو سائر إليه، ولذلك استأذن أسامة الذى أمره ﷺ أن يترك له عمر، ليستعين برأيه، ولتكون عصابة الحق كلها معه، فبقى، وكان مستشار أبى بكر، رضى الله تعالى عنهما .

ولقد كان تنفيذ بعثة رسول الله ﷺ ذا شأن فى تخذيل المرتدين، ذلك أنه عندما ذهب إلى مؤتة مجتازاً القبائل فى الجزيرة العربية كان مرهباً للمرتدين، مثبتاً لهم أن الجيش الإسلامى فيه قوة تقاومهم، وترد كيدهم فى نحورهم، ولله الكلمة العليا عليهم، والحق فوقهم، وأنهم لامحالة مخذولون، بعون الله تعالى، فلن يغلب جيش الإيمان .

بعد أن فرغ المؤمنون من الردة، اتجه الصديق إلى الدعوة إلى الإسلام، فقد جمع العرب من بعد النصر، وتصفية العرب من فلول المرتدين، وتوجه بهم إلى الدعوة .

دعوة الصحابة إلى الإسلام

٢٠- يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا، فإن حزب الله هم الغالبون[1] » .

إذا كانت قد ارتدت غالبية الجزيرة العربية أو أكثر من نصفها، فقد كان ذلك إيذاناً بأن يبدل بهم الله خيراً منهم، ولقد قال بعض المفسرين : إن الذين وعد الله تعالى بأن يأتى

(١) المائدة: ٥٤ - ٥٦

بقوم يحبهم ويحبونهم هم الفرس، وقد يكون ذلك القول متفقاً مع السياق التاريخي، لأن من فتح الله على المسلمين أرضهم الفرس، ولكن نقول، إن الذين وعد الله تعالى بهم من الفرس، والشام، ومصر .

مهما يكن من ينطبق عليه النص الكريم من الجماعات والقبائل، فإن وعد الله تعالى هو الصدق الذى لاريب فيه، فقد انبرى الصدِّيقان أبو بكر وعمر من بعد انتهاء أمر الردة إلى الاتجاه إلى من وراء العرب من الفرس والعراق والشام ومصر، وانسابت الجيوش الإسلامية داعية إلى الله وإلى رسوله، وإلى الحق المستقيم، والله تعالى يؤيدهم بنصره لتبليغ رسالته .

أساليب الدعوة فى عهد الصحابة ومن وليهم

٢١- اتجهوا أول ما اتجهوا إلى القرآن الكريم الذى هو سجل الدعوة، وقد كان محفوظاً فى الصدور ومكتوبا بأمر النبى ﷺ، ولكن فى رقاع وقد توزعتها أيدى أصحابه .

وخشى الصحابة بإشارة عمر الفاروق أن يموت من حفظوا القرآن، وجمعوه فى صدورهم وقد رآهم يتهافتون على الحرب لمقاومة الردة، وإخضاع أهلها، تهافت الفراش، فيضيع القرآن، وهو سجل الإسلام، بل سجل النبوات، والرسالات الإلّهية للأنبياء الذين عرفوا فى الشرق العربى وما حوله .

اتجه إلى جمع المتناثر من الرقاع مطابقا لما يحفظون فى صدورهم، ويكون فى مصحف تحقيقاً لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(١).

جمعوا المصحف بجماعة من الحفاظ سلكوا فى جمعه أوثق الطرق، واتخذوا فى ذلك ما يأتى:

(أ) هم حافظون للقرآن الكريم مرتباً ترتيبه المتواتر كل آية فى موضعها بتوقيف من جبريل عن الله تعالى، وحفظه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، كما راجع جبريل روح القدس الأمين، وكل سورة فى ترتيبها، وأعلنوا فى المدينة الطاهرة أن من عنده رقعة كتبت بإملاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقدمها لهذه الجماعة الحافظة، وفيها زيد بن ثابت وأبى بن كعب وغيرهما من الحفاظ.

---

(١) الحجر : ٩.

(ب) من أحضر آية أو آيات لهذه الجماعة الحافظة لا يقبل مايأتى به إلا إذا كان معه اثنان يشهدان بأنه كتب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بإملائه، فإذا جاءت هذه الشهادة الكاملة دون ما جاء به.

جمع المصحف بهذه الطريقة المحكمة، وما كان كتابة جديدة، بل نسخ للمكتوب فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد كتب القرآن كله بلغة قريش فى حياته عليه الصلاة والسلام.

(ج) ولما نسخ ذلك المصحف بما كتب فى حياته الجليلة الكريمة عليه الصلاة والسلام، لم ينقط ولم تضبط حركات الحروف بما يسمى شكلا، وذلك لسببين:

أولهما – أن تكون قراءته بطريق مقرئ يقرئه، لأن القرآن ليس متواتراً بلفظه وحروفه فقط، بل هو متواتر بطريقة قراءته وترتيله، ومده وغنه، كما قال تعالى: «ورتلناه ترتيلا»[1] وكما قال تعالى فيما تلونا من قبل : « لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه* فإذا قرآناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه»[2].

فالقرآن متواتر بلفظه وحروفه وترتيله الذى تلقاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى بتواتر.

ولقد حفظ المصحف الذى كتب فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر فى بيت أم المؤمنين حفصة.

وكان القرآن يتلى فى كل الأمصار التى فتحت، لأنه أعظم داع، ويقرأ فى الأمصار التى أنشأها المسلمون فى عهد أمير المؤمنين عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه وهى البصرة والكوفة.

وكان يقرئه المقرئون فى كل الأمصار لأنه لب الإسلام، ولسان الدعوة إليه، يتلونه ويتدارسونه، وعلماء الصحابه كابن عباس وابن عمر وابن مسعود يعلمون الناس أحكامه.

ولقد اختلف المسلمون فى قراءته ببعض لهجات عربية قد نسخها النبى ﷺ ، وأبقى لغة واحدة هي لغة قريش، وكانت قراءته باللهجات العربية لتتيسر تلاوته، ثم نسخت القراءة باللهجات ماعدا لغة قريش، فكان من الناس من يقرأ ببعض اللهجات غير عالم بنسخها، فاضطرب بعض القراء، وكان اختلاف عَملَ ذو النورين عثمان على حسمه.

---

(١) الفرقان : ٣٢. (٢) القيامة : ١٦ – ١٩.

وفي سبيل ذلك جمع الجماعة التى ألفت فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر، وضم إليها سعيد بن العاص وطلب إليها أن تجمع القرآن مرة ثانية، واتبعت الطريقة التى اتبعتها فى المرة الأولى هى جمع الرقاع التى كتبت فى عهد الرسول، والإشهاد على كتابتها في عهده عليه الصلاة والسلام، وانتهت الجماعة من كتابة المصحف الجديد فى تكوينه، وكان المصحف الأول محفوظا عند أم المؤمنين حفصة، فقابلت الجماعة مع ذى النورين عثمان بينه وبين المصحف الذى كتب، فكان التوافق بينهما كاملا.

وبعد هذا الاستيثاق أقر بأن ينسخ من هذا المصحف الإمام نسخ على قدر عدد الأقاليم وأبقى الأصل فى المدينة.

وأمر رضى الله تعالي عنه بحرق المصحف الذى كان مودعاً عند أم المؤمنين، فحرق وكان بعد وفاتها رضى الله تعالى عنها، ولكن الأمر كان فى عهد عثمان.

والسبب فى أمره بحرقه أنه خشى بعد وفاتها أن يقع تحت يد من يدّعى الاسلام من المشركين أو اليهود أو النصارى، فيجرى فيه تصحيفاً أو تحريفاً، ويدعى أنه المصحف، ويكون الاضطراب، ولا يمكن أن تجرى الأيدى بالتصحيف أو التحريف فى غيره من نسخ المصحف الإمام، لأنه كان محفوظاً بدار الإمارة فى كل بلد عربى إسلامى، وقد حفظته كل الأعصار.

وقد كتب مصحف الإمام، وما نسخ منه غير منقوط، ولا مشكول، لكيلا لا يستطيع أن يقرأه بغير مقرئ يقرأ عليه ليحقق تواتر القرآن محفوظا فى الصدور، وليس مكتوبا فى السطور فقط، فإن ما يدون فى السطور يقبل التحريف والتعديل والتصحيف، أما ما يحفظ فى الصدور، فإنه لا يجرى فيه تحريف، ألم تر إلى اليهود فى عصرنا هذا عندما أرادوا الأعتداء على القرآن حاولوا أن يحذفوا ويغيروا فى المصاحف، ولكن رد محاولاتهم حفظ القرآن فى الصدور.

ولذلك اقترحنا إحباط محاولتهم بأمرين:

أولهما – بإرسال الحفاظ فى البلاد التى حاولوا فيها هذه المحاولة ليقرئوا الناس القرآن، فيحفظ فى صدورهم لكيلا يدخل التحريف عليهم.

وثانيهما – أن ترسل إليهم المصاحف المسجلة التى تتلى عليهم.

ومهما يكن من أمر عداوتهم، ومحاولاتهم، فقد ارتدوا على أدبارهم خاسئين، وعلموا أنه فوق طاقتهم وطاقة البشر أن يحرفوا كتاب الله، وقد ذكر الله تعالى أنه حافظه، ولن يخلف الله وعده «إن الله لا يخلف الميعاد»(١) وقد وعد، فقال كما تلونا من قبل : «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون»(٢).

٢٢ – كان القرآن منار الدعوة، وحصن الدعاة.

فعندما اتجه الدعاة في عصر الصحابة إلى الفرس والعراق ومصر، كان معهم القرآن، يعلمونه للناس ويحفّظون الناس ما تيسر منه، كما كان النبي ﷺ عندما أرسل دعاته إلى يثرب، أرسل معهم القراء يقرئونهم القرآن.

وكان في الأقاليم غير العربية تعلم أحكامه وتحفظ آياته، للدعاية الدينية أولا، ولنشر اللغة العربية ثانيا، فيمكن تدوين الدواوين بها، وقد صارت الإمرة للعرب، والدولة لهم.

أما الدعاية الدينية، فإنه كان يجب على كل مسلم أن يحفظ قدراً من القرآن يؤدى به عبادة الصلاة، وهي عمود كل دين، فلا دين من غير صلاة، كما قرر النبي ﷺ، وفوق ذلك فإنه سجل الأحكام الإسلامية ، وهو المرجع الأول لها ، فلايمكن أن يستغنى عن تعليمه وتحفيظه.

والقرآن بذاته كان دعوة للإسلام، لأنه بما اشتمل عليه من أخبار الأولين، وما فيه من شرائع وأحكام، وعلوم إنسانية، وتوجيه للكون ودراسته، بكل ذلك، وهو بعض مما اشتمل عليه من هدى وتوجيه داعياً للإيمان كان كافياً للدعوة إذا أحسن بيانه.

وإذا كانت الفيدا وهي كتاب عند البراهمة مؤثرة في نفوسهم، فالقرآن، وهو علم وهداية وشفاء لما في الصدور أشد دعاية وأقوى تأثيراً.

وقد عكف العلماء عليه يتدارسونه، ويتعرفون مبادئه وأحكامه، ولم يكن غريباً أن نجد كثيراً من الفرس في صدر الإسلام قد انصرفوا إلى فهم القرآن الكريم، وكان كثيرون من تلاميذ الصحابة الذين لازموهم – من الفرس وغيرهم من الذين دخلوا في الإسلام في عصر الصحابة، ومن جاء بعدهم.

وإن تلاوة الصحابة للقرآن في البلاد التي كانوا يفتحونها، كانت تجذب القلوب إليهم بترتيله، وجمال فواصله، ونغماته العربية، وحلاوته وتلاوته، فالقرآن كان هو وحده داعية للإسلام .

---

(١) آل عمران: ٣ (٢) الحجر: ٩

السنة وسيرة الرسول:

٢٣- أخذ الصحابة يعرفون بالرسول ﷺ، وينشرون ذلك فى وسط البلاد التى يفتحونها، ويذكرون سيرته قبل البعثة، وقد كان الأمين فى قريش، ويذكرون إرهاصات النبوة، وما كان عليه من أخلاق قبل البعثة ولازمته بعدها.

وسيرة النبى ﷺ أعظم دعاية للمسلمين، فلم يكن فى أخلاقه عليه الصلاة والسلام، إلا مايدل على صدقه حتى كان الأعرابى: يؤمن برسالته لمجرد رؤيته، وحتى لقد قال له أعرابى أأنت الذى تقول عنه قريش إنه كذاب، والله ما هذا بوجه كذاب.

ولما سأل هرقل عندما جاءه خبر الدعوة المحمدية بكتاب رسول الله ﷺ، ولقى أبا سفيان كان سؤاله عن سيرة الرسول ﷺ عن شخصه وأخلاقه، قبل أن يسأل عن حجته، وما جاء به.

سأله عن نسبه وعن خلقه وصدقه، وعما يتعلق بأسرته، وعن وفائه وعن أتباعه أهم الأغنياء الأقوياء، أم العبيد الفقراء والضعفاء.

وقد أعلن لمن عنده بيان أبى سفيان المسئول، أن صفاته هى صفات النبيين الصديقين، ولذلك نقول، إن سيرة رسول ﷺ أعظم دعاية للإسلام بعد القرآن.

وإنا نحسب أن سيرة الرسول وكمال عقله وخلقه، واستقامة نفسه، وسلامة مايدعو إليه، كل ذلك فى نفسه دعوة إلى الإسلام فى وسط غياهب الجهالة فى الماضى، وهو لا يزال القوة الداعية إلى الإسلام فى عصرنا الحاضر، وإنا نجد بعض الناس يسلمون إذا علموا السيرة النبوية وأدركوا عقله وبعده عن الأوهام والخرافات التى تسود العامة، وتستهوى تفكير السذبح منهم.

وأما أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته، فإنها نعم الهادى إلى سواء السبيل، وإنه فى عصر الصحابة كان الاتجاه إلى السنة أمراً لابد منه، فقد كانت الحوادث تتوالى ويتعرفون حكمها، وما يقضى به، فكانوا إذا لم يجدوا حكما فى كتاب الله تعالى تعرفوا الحكم من سنته الشريفة غير مدخرين جهداً فى روايتها، وتنافس الثقات فى النقل عنه ﷺ واتخذ الصحابة الكرام تلاميذ لهم من الموالى الذين كانوا من الفرس وغيرهم فكانوا رواة الحديث عن رسول الله ﷺ فنافع مولى عبد الله بن عمر ، والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وغيرهم كثيرون من الموالى الذين أسلموا على أيدى الصحابة بالدعوة الإسلامية

العامة فى الحروب، وخاصة بين الذين جئ بهم أسرى وأقاموا بالمدينة وارتضوا الإسلام، وتعلموا بتعليم الصحابة الكرام فأخذوه ممن شاهدوا وعاينوا، وكانوا من بعدهم كمن شاهدوا وعاينوا، وبذلك استقوا الإسلام من الينبوعين الدافقين الكتاب بما أخذوه من تفسير لمعانى كتاب الله تعالى من القرآن الكريم، وثانيهما ما رأوه من سنة رسول الله ﷺ، وكان الكثيرون منهم من رواة السنة أهل الثقة فيها .

وهكذا كانت الدعوة الإسلامية فى عصر الصحابة متجهة فى بعض نواحيها إلى تعليم الأسرى الذين يجيئون إلى المدينة، يعلمونهم الدين، ويصطفونهم بالمودة الواصلة الهادية، وجعلوا منهم مدرسة علمية، علموها التفسير وعلموها الحديث، وعلموها فقههم، وكان منهم رواة الفقه إلى من جاء بعدهم، وعلّموا بذلك أقوامهم وكان منهم دعاة مخلصون، ومفسرون وحكماء وعلماء نقلوا علم الإسلام إلى من جاءوا فكانوا حملة العلم، وكان لهم فقهه، ثم حملوا إلى بعض من هو أفقه منهم.

وكانت الدعوة متجهة إلى تعليم غير المسلمين فى الجهاد، فقد كانت الدعوة إلى الإسلام هى روح الجهاد، وما كان إلا لحماية الدعوة، لا لإكراه الناس على الإسلام، بل كان لفتح الطريق إلى الدعوة إلى الإسلام وحمايتها، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ومن آمن كان من المسلمين وكان أخاً فى الدين، والمسلم أخو المسلم لايظلمه، ولايسلمه، ولايحقره ولايخذله، فيكون عوناً للمسلمين فى الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى سبيل الله تعالى.

ومن لم يدخل فى الإسلام طوعا واختياراً، ورضى بالإقامة بين المسلمين لايضار فى عقيدته.

الجهاد والدعوة إلى الإسلام

٢٤- لم يكن الجهاد فى الإسلام لغرض الغارات على الجماعات والأمم، ولم يكن فى أصل شرعته للغلب والقهر، فما كان محمد ليكره الناس على الإسلام فقد قال تعالى: «لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى»[1] وقال تعالى: «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»[2] ولم يكن محمد ﷺ ملكا، يفرض سلطانه على الناس بقوة الغلب والحرب ويفرض الحكم على الناس كرها، وإجبارا .

(١) البقرة : ٦ (٢) يونس : ٩٩

ولكن كان محمد ﷺ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكان عليه الصلاة والسلام يجاهد ليفتح الطريق أمام التبشير والإنذار، أى أمام الدعوة إلى الحق والتوحيد الخالص.

وكان لابد من الجهاد، لأنه ﷺ بعث رحمة للعالمين، وكان العالم فى هذه العصور يرزح تحت نير الملوك الذين طغوا في بلادهم، لايهمهم إلا فرض حكمهم رضى الناس أو كرهوا، وكانت الديانات القائمة تفرض لهم الطاعة المطلقة وإن لم يرتضوها سامهم أولئك الهوان والعذاب.

ولذلك ما كانوا ليسمحوا بأن يدخل أرضهم من يدعو شعوبهم إلى عبادة الله وحده لايشركون به شيئا. وفي الديانات التي اعتنقوها بعد أن حرفت وغيرت وبدلت طاعتهم، ففرض سلطانهم بالقهر والغلب والسلطان، وما كانوا ليرتضوا دينا يفرض العبودية لله وحده لا لأحد من الناس أيًا كان وصفه ملكا قاهرا، أو متغلبا عاديا.

وفوق ذلك لقد أتى محمد بمبدأ المساواة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم، والغالب والمغلوب، وأتى محمد بمبدأ العدالة فى كل شعبها، أتى بالعدالة فى تطبيق الشرع، وبالعدالة الاجتماعية، فكان لابد أن يقاومه الملوك بأن يحاجزوا بين هذه الدعوة المحررة للشعوب التى ترزح تحت نير حكمهم العاسف الفاسد.

ولذلك وقفوا دون هذه الدعوة: أرسل النبى ﷺ إلى كسرى، فمزق كتابه، وإلى هرقل فلم يرد، وأرسل إلى المقوقس، فرد رداً حسناً ولم يؤمن، وهكذا ...

ولكن لابد أن يبلغ محمد ﷺ، وأن يتقدم بها وقد وعده الله تعالى بأنه يعصمه من الناس حتى يبلغ دعوة ربه ورسالته إلى خلقه، وقد قال تعالى «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس»[1] فإذا كان الملوك والطغاة لايمكنونه، فلابد أن يتمكن منهم، ويخلو له وجه الناس ليتلقوا دعوة الحق، ولهم الخيار فى أن يتبعوا محمدا ﷺ، أو يختاروا الجبت والطاغوت.

كان القتال إذاً والملوك بادروا بالاعتداء، فكسرى أرسل من يقتل الرسول، وهرقل قتل بعض المؤمنين، وما كان لمحمد وأصحابه من بعد أن يتركوا الطاغوت يتحكم ويحكم، بل لابد من فتح الطريق إلى الحق، ومنع الفساد والظلم والحكم بغير الحق، وبغير ما أنزل الله «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين»[2].

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) البقرة : ٢٥١.

إذن فالقتال كان للدعوة، وليس للإكراه على الإسلام، إنما كان القتال لمنع الإكراه على البقاء على الكفر، ومنع الظلم والعدوان وإرهاق الشعوب من أمرهم عسراً، كما قال تعالى : «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»(١) .

ولم يكن القتال محبوباً للنبى ﷺ، إنما المحبوب المطلوب هو الدعوة إلى الحق مستشهدين فى سبيله، ولذا قال تعالى «كتب عليكم القتال، وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون»(٢).

كان المؤمنون كارهين للقتل وإزهاق الأرواح ولكن كانوا راغبين فى الدعوة إلى التوحيد وأن يخلو وجه الناس للحق والحرية والعدل، والإيمان بالله وحده الذى لاشريك له.

صورة الحرب الاسلامية :

٢٥- كانت تسمية الحرب الإسلامية جهاداً فيها إيماء إلى أنها ليست حرب قتل وغلب، ولكنها دعوة للحق، وحماية له من أن يعتدى عليه، وفتح الطريق ليصل إلى النفوس، وإزالة الحواجز المانعة، ولذلك كان على القائد الذى يقود جيش الإسلام إلى الجهاد، أن يدعو إلى الإسلام فإن أسلم من يدعوهم، فهم إخوان مسلمون علينا حمايتهم ولهم أخوتنا، وإن لم يسلموا عرض عليهم العهد على أساس إقامة الحق، ومنع الملوك من أن يظلموا رعيتهم، وأن يفتحوا الطريق للدعوة الإسلامية، ليتقدم الدعاة المهديون الدعوة إلى الإسلام يجيب من يجيب فيهتدى، ومن لايجيب فهو حر فى اعتقاده «من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها»(٣)

فإذا منع الأمير أو الملك تبليغ الرسالة فقد نقض عهده، فينبذ، ويعد ذلك خيانة، وإذا قام بظلم رعيته وإرهاقهم، فإنه يحل قتاله وينبذ عهده، ويكون خائناً للعهد، والله تعالى يقول «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء»(٤).

وقد اتفق العلماء من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم الفقهاء والمحدثون على أنه إذا اشترط المعاهدون من الملوك والحكام أن يترك أمر الرعية لهم، ولو طغوا وبغوا فإن الشرط يكون باطلا، لقول النبى ﷺ :« كل شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل ولو كان مائة

(١) البقرة : ١٩٣. (٢) البقرة : ٢١٦.
(٣) الأسراء: ١٥ (٤) الأنفال : ٥٨.

شـرط»، وشـرط السكوت على الظلم باطل بحكم القـرآن والسنة، ولقـد قـال النبى ﷺ.
«المسلمـون عند شـروطهم، إلا شـرطاً أحل حـرامـاً أو حـرم حـلالا» والظلم حـرام، فـلايجـوز الاشتراط على أساس حله.

وإذا رفض الذين يحاربون الإسلام العهد بعد عرضه، كان لابد من القتال لمنع ظلم الرعايا أولا، ولمنع الفتنة فى الدين ثانياً، ولفتح الطريق إلى دعوة الحق ثالثاً.

ومع ذلك لايتقدم المؤمنون للقتال قبل أن يبدأهم العدو بالقتال، وإذا بدأ لايتقاتلون حتى يقتلوا قتيلا، فإن قتلوا عرض عليهم الإسلام أخيراً، ثم قاتلوا.

ولنترك الكلمة للسرخسى فى كتابه المبسوط، فهو يقول :

«عن أبى حنيفة عن علقمة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضى الله عنهم كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً أو سرية أوصى صاحبهم بتقوى الله تعالى فى خاصة نفسه. ثم قال: اغزوا باسم الله، قـاتلوا من كفـر بالله، ولاتقـتلوا وليداً، ولاتغلُّوا، ولاتغـدروا، ولاتمثلوا، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، وادعوهم إلى التحول من ديارهم إلى ديار المهاجرين، فإن فعلوا، فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، وإلا فـأخبـروهم أنهم كـأعـراب المسلمين يجـرى عليـهم حكم الله الذى يجـرى على المسلمين، وليس لهم فى الفئ والغنيمة نصيب، فإن أبوا فادعوهم إلى إعطاء الجزية، وهذا هو العهد.

ونرى من هذا ألاَّ يقاتلهم إلا إذا منعوه من الدعوة، وقاتلوه وقتلوا من المسلمين، والنبى ﷺ يقول لعلى إذ أرسله إلى اليمن، ولمعاذ بن جبل :

«ولاتقاتلوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم، فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم، حتى يقتلوا منكم قتيلا، ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم : «هل إلى خير من هذه السبيل فلأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»

ولقـد روى عن النبى ﷺ ألا يقاتلهم إذا امتنعوا عن الإسلام والعهد، بل نتركهم، ويقيم القائد الصلاة مع جيشه، ويبيتهم ليفكروا، فان لم يفعلوا وتعدوا وقاتلوا منا قاتلناهم.

وهذا ما جاء فى مبسوط السرخسى إذ قال : «إنهم يوجبون على القائد إذا أبوا الإسلام أو العهد أو القتال ألا يحارب فور ذلك، بل يذهب إلى الصلاة مع جيشه، حتى إذا

أتم الصلاة عاد فجدد الدعوة، وقالوا إنه يحسن ألا يقاتلهم فور الدعوة والسكوت بل يبيتهم (أى يتركهم يبيتون ليلة)، يتفكرون ويتدبرون ما فيه مصلحتهم»[١].

وإنه يستفاد مما ذكرناه أن الجهاد فى الإسلام للدعوة الحرة، لا للإجبار، ولا للإكراه على الإسلام، بل ليفتح الطريق أمام الدعوة الحرة إلى الإيمان.

ويستفاد أيضاً أنه لا يكون القتال إلا بعد أن يعتدى المخالفون بالفعل، ويقتلوا ليتحقق الاعتداء منهم، ويكون القتال من بعد ذلك لرد الاعتداء الذى ابتدأوه.

ويستفاد مع ذلك أن يستأنى بهم ليتفكروا ويتدبروا».

وإن الجهاد يفتح الطريق أمام دعوة مشروعة من النبيين والصديقين لأن الحق ليس سلبياً صامتاً، بل هو ناطق مبين، ولابد لبيانه أن يصل إلى الناس بحيث يؤمنون عن بينة، وإن كفر من كفر يكفر عن بينة، حتى يتحقق قوله تعالى، «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»[٢] ولايتحقق مغزى بعث الرسول إلا إذا تم التبليغ يحمله المبينون ابتداء، وقد حمله النبى ﷺ، وأوصى من بعده بأن يخلفوه فى حمله، وقد بينا ذلك من قبل.

الدعوة فى أعقاب الحرب:

٢٦- الحروب الإسلامية لاتنتهى بإثارة الأحقاد، فلا يقول الجيش المؤمن المنتصر ويل للمغلوب، ولكن يقول رحمة بالمغلوب، ورفقا به، لأنه لايقاتل الشعوب، إنما يقاتل معسكر السلطان فقط، لأن السلطان هو الذى يحول بين الشعب وبين الدعوة إلى الإسلام، ثم الدخول رغباً لارهباً لمن يريد اعتناقه، واتباع الهدى.

ولأن انتهاء الحرب بفتح باب الدعوة يكون العفو والمعذرة، ويدخل فى الإسلام من أراد، ويبقى على دينه من يريد.

ومن يبقى على دينه يحكم بالعدل والحق لابالسيف والظلم، فالظلم حرام أيًا كان المظلوم والعدل مطلوب أيًا كان من ينتفع به، وتكون من بعده المنازلة بدل المعاندة، وفرض بدل الصغار على المغلوبين، إذ بعد الحرب، لا غالب ولا مغلوب، بل مودة وحسن جوار وعدل، والله تعالى يقول: «وتعاونوا على البر والتقوى، ولاتعاونوا على الإثم والعدوان»[٣] «ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»[٤].

---

(١) الجزء العاشر ص ٦. (٢) الأسراء: ١٥.
(٣) المائدة : ٢ (٤) المائدة : ٨

وإن العدل يكون مع الشعب الذى يكون قد رفع نير الذل والاستعباد والطغيان، وأما معسكر السلطان، فإنه يؤسر منه من يؤسر بعد الإثخان فى الأرض، واليأس من أن تكون لهم كرة وعدم توقعها من جيش الإيمان، ويتحقق قوله تعالى : «حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها»(١).

وإنه كان المتبع فى عهد الراشدين أن يرسل الأسارى إلى المدينة حيث مقر الحاكم، وهنالك يتصرف أمير المؤمنين مع الأسرى بما يراه مصلحة للمسلمين ولهم، فكان يمن على من يرى المن، ويسترق من يرى استرقاقه معاملة بالمثل لأنهم كانوا يسترقون أسرى المؤمنين فكان حقاً على المؤمنين أن يسترقوهم، وقد أمرنا الله تعالى أن نرد الاعتداء بمثله، فقال تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين»(٢).

ويقول تعالى: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»(٣)

ولو أنه جرى عرف الحرب، على ألا يسترق إنسان قط فى حرب أو سلم فإنه لايحل الرق حينئذ، إذ يكون ذلك اعتداء وليس رداً للاعتداء، وينطبق عليه النهى فى قوله تعالى: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين»(٤)

وأولئك الأسرى يعمل المسلمون على ربطهم بالمودة مع المؤمنين يتزوجون نساءهم، ويدخلون عليهن بملك اليمين.

ولقد كان من السبايا نساء من كبار الناس، فى فارس، فلم يتركهم الخلفاء يمتهنَّ بين الأعراب والعرب، بل اختاروهن لكبراء المؤمنين ذوى النسب الرفيع كعلى بن أبى طالب وغيره ليرفعوا من خسيستهن، فيكون بذلك المزج الجنسى، ووراءه الائتلاف النفسى والروحى.

ثم من أولئك الأسرى من اتجهوا إلى المعرفة، ليستعيضوا عن انكسار الحرب، بسلطان العقل حتى كان من أولئك علماء للإسلام، وفقهاء فى أحكامه، ومبينون لشرعه.

ولذلك كان من أكثر التابعين الداعون للإسلام، وورثة علم الصحابة من الموالى، وهم أولئك الذين آمنوا وحسن إيمانهم وانصرفوا إلى فقه الإسلام والدعوة إليه.

---

(١) محمد:٤ (٢) البقرة : ١٩٤

(٣) النحل: ١٢٦ (٤) البقرة: ١٩٠

عمل الموالى فى الفقه وعلوم الإسلام :

٢٧- منع الموالى فى عصر الراشدين والأمويين من أن يتولوا أمرا من أمور السياسة والحكم، وفيهم قوة ذكاء، وعلوم ومعرفة، فاستعاضوا عن سلطان العلم وهوأقوى أثراً، وأبعد ذكراً.

فكان أكثر علماء العصر الأول من الموالى الذين دعوا إلى الإسلام فأجابوا، أيستوى فيهم من جرى عليه الأسر والرق، ومن لم يجر عليهم، فالجميع قد سموا بالموالى، فكان منهم العلماء والهداة والمرشدون، دعوا أقوامهم فأجابوا، ونقلوا العلم الإسلامى إلى كل من يجهله من أهل الأقاليم المختلفة، وكان منهم مع العلم الدعاة.

وأنه فى عصر بنى أمية و العصر العباسى الأول كان العرب متعصبين لعربيتهم ينكرون تفوق الموالى عليهم فى الدعوة إلى الإسلام، وينفسون عليهم علمهم وفقههم.

جاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه «قال لى ابن أبى ليلى، قال لى عيسى بن موسى، وكان ديانا شديد العصبية للعرب: من كان فقيه العراق قلت: الحسن بن أبى الحسن قال: ثم من؟ قلت: ابن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان. قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موال، قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبى نجيح. قال: فمن هؤلاء؟ قلت: موال. فتغير لونه ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأى وابن أبى الزناد. قال: فما هؤلاء ؟ قلت: من الموالى، فاربد وجهه، ثم قال: فمن فقيه اليمن؟قلت: طاووس وابنه وابن منبه، قال فما هؤلاء؟ قلت: من الموالى، فانتفخت أوداجه وانتصب قائما، قال: فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراسانى. قال: فما كان عطاء هذا، قلت مولى، فازداد وجهه تربداً، واسود اسودادا، حتى خفته. ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فتنفس الصعداء، ثم قال: من كان فقيه الكوفة؟ فو الله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة، وعمار بن أبى سليمان، ولكن رأيته فيه الشر، فقلت: إبراهيم النخعى، والشعبى قال: فما كانا؟ قلت عربيان، فقال: الله أكبر، وسكن جأشه».

هذا كلام نقله صاحب العقد الفريد، وهو يدل على أمور ثلاثة:

أولا – أن الصحابة بعد الفتح الإسلامى لفارس وسوريا ومصر والعراق قد قاموا بالدعوة الإسلامية فى البلاد المفتوحة، حتى أسلم أهلها، وكانوا يسمون الموالى فى مقابل العرب من المسلمين، وإنهم حسن إسلامهم، وكان دخولهم فى الإسلام اختياراً وبرغبة، ولذلك درسوه بعد أن وازنوا بينه، وبين ما كانوا عليه من ضلال، واشتروا الهدى بالضلالة فربحت تجارتهم وكانوا مهتدين.

وثانيها– أنهم كانوا تلاميذ الصحابة وتلقوا علمهم ونشروه وعلموه الناس، فكانوا محل الدعاة إلى الإسلام، وخلفوا أساتذتهم من الصحابة، وأحسنوا القيام بها.

وثالثها– أنهم بلغوا فى المكانة العلمية قدرا نفسه عليهم العرب أنفسهم.

حسن الجوار وأثره فى الدعوة :

٢٨– (أ)– إن أخلاق المسلمين الاجتماعية والأخوية التى تربوا عليها فى ظل الإسلام كانت تجلب المحبة لهم، والائتلاف بهم، واتخاذهم قدوة، وإن ذلك يجعل العقيدة تسرى إلى نفوسهم من قلوب محبة ومحبوبة، فما كانوا يشعرونهم بالغلب، بل كانوا يضعون فى نفوسهم أنهم إخوة متحابون، وليسوا غالبين يتحكمون، فكانت هذه الأخلاق مقربة مدنية، وذلك فوق ما فى الحقائق الإسلامية من معانٍ تدركها العقول، وإن البراهين لاتدنى إلى الإيمان وحدها، بل لابد أن يكون معها إلف وائتلاف.

فكان أمام غير المؤمن أو المسلم أمران يجذبانه إلى الإسلام، أولهما تآلف النفوس، وثانيهما براهين العقول، فيدخل الإيمان إلى قلبه من غير تردد ولاعوج.

وإن المؤمنين كانوا متمسكين بأوامر النبى ﷺ فى الرفق بالناس، فلقد كان النبى ﷺ يقول : تألفوا الناس وارفقوا بهم، وكان يقول : يسروا ولاتعسروا وبشروا ولاتنفروا .

(ب) وإن حسن المعاملة والإحسان إلى الجار، وقد أوجد الفتح جواراً بين المسلمين وغير المسلمين سواء أكان أولئك الجيران من العرب، أم ممن دخلوا فى الإسلام من غير العرب، فكانت هذه المعاملة مع العلم بأن الإسلام دعا إليها فى كتابه الكريم، إذ قرن الإحسان بالجار بالإحسان إلى الأقربين، وقرن الإحسان بعبادة الله وحده لايشركون به شيئاً، فقال تعالى: «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذى القربى، واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل، وماملكت أيمانكم، إن الله لايحب من كان مختالا فخوراً»(١).

---

(١) النساء : ٦٣

وإن ذلك بلا ريب يقرب النفوس، ويؤلفها، وإذا تآلفت النفوس سهل وصول الحق إليها، ودخل إلى القلوب من أبوابها، وخصوصاً إذا كان العقل يؤيد ما يدعون إليه، فإن المعاملة الحسنة تدني، والجفوة تبعد، والقول الطيب يهدى، وغيره ينفر، ولقد قال تعالى : «وهدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد»[1] ويأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يقولوا قولا حسناً، فقال تعالى : « وقولوا للناس حسناً »[2].

(حـ) وإن القدوة الصالحة تهدي، وتجعل الجميع يهتدون بأهل الخير، وخصوصاً إذا كان ماهم عليه دينا قويما يؤيده العقل، ويعليه، فما من أمر جاء فى الإسلام إلا كان موافقاً للعقل، جاعلا للعقل سلطاناً في تفكيرهم، وألا يتخذوا إلههم هواهم، فهو يناقض الأهواء الجامحة، ويدعو إلى أتباع العقل، وقد نهى عن الاتباع من غير عقل ولاهدى ولاسلطان مبين، ونعى على المشركين أنهم يقلدون من غير تفكير، واقرأ قوله تعالى : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون »[3].

ومع أن الإسلام كان مقنعاً بذاته، داعياً العقول مخاطباً لها - مع هذا يجب أن نفرض فرضاً آخر، وهو أن الإسلام كان قوياً، وكان المسلمون هم الأقوياء والحكام منهم، فلابد أن يقلدهم المحكومون بهم، وتتحقق نظرية ابن خلدون التى تقرر أن الضعيف مشغوف دائماً بتقليد القوى ويظن أن كل ما فيه من أحوال وصفات من أسباب قوته وسر عزته وعظمته.

وإنه بمقتضى هذه النظرية لذلك الفيلسوف الاجتماعي يفرض أن ناساً من المحكومين ابتغوا الإسلام تقليداً للأقوياء وهم حكام المسلمين، فكانت على هذا قوة المسلمين وسلطانهم من أسباب اتباعهم، ولكنها ليست وحدها السبب، لأن الإسلام لم يدع إلى الخضوع من غير تفكير، بل دعا إلى التفكير، ومن المقررات العلمية أنه لايصح التقليد في الاعتقاد، لأن الاعتقاد يجب أن يكون إذعاناً، وأن يكون نتيجة تفكير وتدبر واتباع للبرهان فإن الإيمان كما يعرفه العلماء هو العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل مع الإذعان والتصديق القلبى، فإذا فرضنا أن ناساً اتبعوا المسلمين مأخوذين بقوتهم، فإنه يجب أن نفرض أن ذلك التقليد جذبهم إلى دراسة الإسلام، ونبذ ما كانوا يعتقدون، وحيث درسوا وجدوا الحق المبين، فآمنوا صادقين فى إيمانهم.

---

(١) الحج : ٢٤ (٢) البقرة ٨٣ (٣) البقرة :١٧٠

ولذا لاتجد أحداً من هؤلاء خرجوا من الإسلام بعد أن دخلوا فيه وذاقوا بشاشته، إلا أن يكون منافقاً، لم يدخل حتى يخرج، ومن هؤلاء الزنادقة الذين ينتمون لأصل فارسى، وأرادوا الكيد للإسلام بادعاء الدخول فيه وهم يريدون إدخال الآراء المشككة المفرقة، ولذلك قرر الفقهاء : أن من يرتد عن دينه يستتاب، فإن تاب قبلت توبته وعمموا ذلك الحكم، ولكن استثنوا الزنادقة، لأن الاستتابة فرصة ينتهزونها ليحققوا ما يرون من إرادتهم التفريق والتشكيك فى الإسلام، ونشر الآراء الباطلة، ودس المفاسد بين المسلمين.

وما كان الزنادقة إلا عدداً ضئيلا جداً، ولايصلون إلى نسبتهم لجماعة المسلمين بمقدار واحد فى كل ألف، بل إنهم دون ذلك بكثير.

وإن استمساك المسلمين من غير العرب بدينهم الذى ارتضوا وهو الإسلام دليل على أنهم اختاروه، وما أجبروا عليه، وما اختاروه لمجرد التفكير واتباع القوى، ولكن اختاروه لأنهم اقتنعوا به، وأدركوا حقائقه، ووازنوا بينه وبين ما كانوا عليه من أوهام انحرفت بها الديانات السماوية عن مواضعها، ورأوا أن كل ما فيه يوافق العقل السليم، ورأوا ما رآه الأعرابى عندما آمن بمحمد، وقد سئل: لم آمنت به ؟ فقال : «ما رأيت محمداً يقول فى أمرٍ افعل، والعقل يقول : لاتفعل، ومارأيت محمداً يقول فى أمرٍ لاتفعل، والعقل يقول افعل»

وبذلك يتبين أن المسلمين فى الأراضى التى فتحها الإسلام ما دخلوا فى الإسلام رهباً، ومادخلوا تقليداً للأقوياء، ولكن دخلوا رغباً واقتناعاً وإدراكا.

العدل ومقامه فى الدعوة

٢٨-م- الإسلام دين العدالة، وإذا كان لكل دين سمة فسمة الإسلام العدالة، فإذا كانت الكلمات المأثورة عند بعض ذوى الأديان تقول : ارحموا أعداءكم، فالإسلام يقول اعدلوا مع أعدائكم، ويقول «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى»(١) وقد تلونا هذا النص السامي من قبل، وإنه شعار الإسلام.

بلغ حكيم العرب أكثم بن صيفي أمر محمد ﷺ ودعوته الحق، فأرسل ولده يسألون النبى ﷺ عما يدعو إليه، فتلا عليهم قوله تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون»(٢) وقد قال العلماء إن هذه الآية أجمع آية لمعانى الإسلام.

---

(١) المائدة : ٨ (٢) النحل : ٩

لما رجع الولد لأبيهم تلوا عليه الآية، فقال الحكيم العربى :« إن هذا إن لم يكن دينا فهو فى أخلاق الناس أمر حسن» وإن العدل فى ذاته نور يهدى، ولايشغف الناس إلى اتباع رجل، كما يشغفون إلى اتباع رجل عادل لأنهم يرون استقامة نفسه ولايرون إلا طيبا فى أمره، ولايظنون فيه الظنون، فيتبع قوله، ويهتدى بهديه.

ولقد جاء الإسلام نوراً في ظلمات الجاهلية، كان الأمر فى البلاد التى تحيط بالبلاد العربية أمر الأمراء والملوك الذين يتوارثون الناس، وأموالهم وأنفسهم، كما يتوارث المالك ما كان يملكه أبوه، فهم إن كانوا أحراراً، وليسوا عبيداً فيما يظهر من عامة أمورهم ليسوا مالكين لأنفسهم، إنما يملكها الملك الذى ورثهم، كما يرث الشخص ما كان يملك أبوه.

فإذا قتل الملك إنساناً من رعيته، فدم المقتول هدر، لا دية له.

فإذا جاء الإسلام، وقرر أن الدماء متساوية، وأنها جميعها حرام، ورأى الذى يعيش فى رعية ملك كهرقل وتحكمه فى الشام ومصر، وكسرى فى فارس أنه لاحق له قبل الملك أو الأمير أو الإمبراطور – وجد ديناً يدعو إلى العدل، ويجعل لنفسه حرمة كحرمة دم الملك، فإنه بلا ريب يختار لنفسه، ويختار الإسلام دين البرية.

اقرأ لغير المسلم قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا، فإن الله كان بما تعلمون خبيرا[1]»

واقرأ لغير المسلم الأعجمي الذى كان يحكمه كسرى أو قيصر قوله تعالي : «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»[2].

هؤلاء المؤمنون الصادقون وهم في ديارهم يرون أنفسهم بين أمرين: أحدهما حكم طُغيانى فرضه الملوك عليهم بحكم أنهم مورثون لهم كما تورث الأشياء، وبين حكم يجعلهم سواء، ويجعلهم أعزة لا استعلاء لأحد عليهم، والدين الجديد رد إليهم كل حق مسلوب، إنهم عقلاء فلابد أن يختاروا العدل، ويتركوا الظلم ولايناصروه، وأن يختاروا العزة ويتركوا الذلة، ويختاروا الحرية، ويتركوا العبودية للجبارين والطغاة.

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) المائدة : ٨

ولم يكن العدل الإسلامي في أول الفتح كلمات تتلى في القرآن، أو تردد على اللسان، بل كان عملا قائماً، وتنفيذاً شاملا، فالصديق خليفة رسول الله ﷺ ينادي في أول توليه: القوي منكم ضعيف حتى آخذ منه الحق والضعيف منكم قوي حتى آخذ الحق له، والفاروق مضرب المثل في العدل يقول في سبيل إقامة الحق لآخذن بصماغ القوى حتى آخذ الحق منه، والفاروق يرى أميراً من أمراء الغساسنة يضرب فتى من فتيان العرب، فيشدد في ضرورة القصاص منه، ويقول في قوة : لقد سوى الإسلام بينهما، فإما أن يعفو المضروب، وإما أن يقتص منك، ولايرضى بغير ذلك بديلا.

والفاروق ذاته يضرب رجلا خطأ فيعطيه الدرة ليضربه أو يعفو عنه.

ولكن الفتى يأبى أن يضرب لمقام إمرة المؤمنين وهيبة للفاروق، ويأبى العفو أيضاً لألم الضرب، والفاروق يبيت ليلتها مهموما محزونا، ويبدو ذلك في وجهه مغبراً مكفهرا في الصباح فيسأله، قائلا : لعل ذلك من أثر ما كان بالأمس، فيقول الرجل الذى لم يَفرِ فَرْيَهُ في الإسلام، نعم، فيقول الشاب: الآن عفوت. أي عدل يصل إلى أعلى من ذلك من بشر؟

ويقول الفاروق لعماله، «ماأرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، والله لا أوتى بعامل ضرب رعيته في غير قصاص إلا أقصصتهم منه، فيقول عمرو بن العاص، أئن ضرب رعيته تأديبا تقتص منه، فيقول الفاروق مشتداً مؤكدا: والله لأقتصه منه.

يرى غير العرب من المسلمين، ذلك ويرى من لم يدخل الإسلام منهم فيوازنون بين ما كانوا عليه من إهدار دمائهم، وإباحة أموالهم، وأنه لاحق لهم أمام حكامهم، كما أنه لاحق للعبد على مالكه في زعمهم، ويرون العدل الإسلامي، ويرون مع ذلك أن الأرقاء لهم حقوق على مالكيهم، وأن المالك إذا قتل عبده قتل به، إذ يقول النبي ﷺ : «من قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه» ويقول عليه الصلاة والسلام «من ضرب عبده فكفارته عتقه».

يرون العدل واضحاً قوياً في القول المأثور عن النبي ﷺ، وفي العمل الذى يرونه، ويعاينونه في غير التواء، ولا اعوجاج.

بل إنهم يرون الكرامات للرعية موفورة، قال عمرو بن العاص لأحد رعيته: يا منافق، فقال له: والله ما نافقت منذ أسلمت. فشكا إلى عمر، فأعطاه الإمام عمر كتابا، قال فيه:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي.

لقد ذكر لى فلان أنك نفقته، وما نافق مذ أسلم، فإذا جاءك كتابى فاجلس مع الملأ، واجعله يضربك أسواطا . فجاء الرجل إلى الملأ فى المسجد قال لهم: من سمع الأمير نفقنى، قالوا: كلنا سمعه، فقرأ عليهم الكتاب.

فقال المنافقون حقا الذين يطوفون حول الحاكم: أو تضرب الأمير؟ فقال الرجل متحديا: ليس لأمير المؤمنين هنا أمر، فطأطأ عمرو بن العاص رأسه، وأعطاه السوط، وقال له اضرب، فهز الرجل السوط بيده، وقال : الآن عفوت.

انظروا إلى العدالة، وتربية العزة فى النفوس والكرامة، وخير له أن يعزل كل يوم والياً بدل أن يتركهم يهينون الكرامات، ويضربون الأبشار.

العدل مع أهل العهد :

٢٩- قد يقول قائل إن ذلك عدل مع العرب، فهل يعم العدل غير العرب لأنهم الغزاة الفاتحون، ولأنهم يجاملون، كما تجامل الأمم الحاضرة الفاتحين من غزاتها، لأنهم عدتها فى الحرب، وقوتها فى الاستيلاء والسلطان، فلهم فضل عدل خاص بهم، وفضل تكريم.

ونقول فى الجواب عن ذلك القول إن العدل يتمتع به البر والسقيم على سواء، فإنه يتمتع بالعدل الإسلامى، المخالف ولو محاربا، والموافق على سواء، وقد تلونا من قبل الآيات الدالة على ذلك، وهى نصوص صريحة لاتقبل ضربا من التأويل ولافساداً فيه تحويل لمعانيها عن مقاصدها، وأفعال الصحابة ، ومن تبعهم بإحسان توضح ذلك وتؤكده.

(أ) فقد سبق أن بيَّنا ولى الأمر إذا عقد اتفاقا مع ملك أو أمير غير مسلم وأجاز له أن يعامل رعيته كما يريد بالعدل أو غير العدل يكون الاتفاق باطلا، وقد أقمنا الدليل على بطلانه فيما أسلفنا من قول، فلا حاجة لتكراره الآن.

(ب) وإن معاملة الذميين تدل على العدالة الكاملة بين المسلمين وغيرهم، حتى إننا نرى أنهم لايحرمون من حقوقهم التى كانت لهم من قبل، بل إنهم يأخذون حقوقاً لم تكن لهم من قبل، وإن الإسلام، وهو دين المساواة بين الناس ومنع الطبقات، لايطفف أحداً من حق له إلا أن يكون قد أخذ ماليس له كالأشراف من الرومان، والرؤساء من الفرس، فإن دين المساواة الذى يقرر المساواة العادلة بين الناس يمنع طغيان طبقة على طبقة، والناس جميعاً أمام القانون العام والخاص سواء.

فالإسلام إذا تدخل وأخذ بعض الحقوق التى يزعمها من كانوا يتحكمون فى الناس، فلأنها ليست حقوقاً، ولكن هى اعتداء، والإسلام العادل يمنع الاعتداء فى كل صوره وأشكاله.

(حـ) والقاعدة المقررة فى الإسلام التى استنبطها الفقهاء من أقوال الرسول ﷺ ونصوص القرآن - هى: لهم مالنا وعليهم ما علينا، لايضارون فى دينهم، ولاتحكم أسرهم بغير دينهم الذى ارتضوا، وآثروا البقاء عليه، لأن الإسلام لايكره أحداً على الدخول فى دين لا يريدون الدخول فيه، فالله تعالى، يقول: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[1]». ولنشر بكلمات موجزات إلى أحكام الذمى، ومنها نرى أنها عادلة لايفرض الإسلام عليهم أمراً فى أسرهم أو اعتقادهم.

الذمى

٣٠- الذمى هو الذى يقيم مع المسلمين على أن يكون له ما لهم وعليه ماعليهم، وهو يقيم مع المسلمين بعقد يقال له عقد الذمة، وهو يعقد مع الفتح الأول لأى إقليم يفتح، يتولاه أمير الحرب يوجب على الدولة واجبات، يتولى ولى الأمر أداءها ويفرض حقوقاً للذمى يجب على الدولة رعاية تنفيذها.

وقد كان يحدث أن ولى الأمر يعقد عقداً عاماً بأن يعلن أن من يرضون بالإقامة بين المسلمين لهم مالهم، وعليهم ماعليهم، بحيث يلتزمون ما يلزم المسلم مما يجب عليه، فيلزم بالمعاملات الشرعية، ويحرم من المعاملات ماحرم الإسلام، وتقام عليه الحدود ويقتص منه إلى آخر الأحكام الشرعية.

وفى نظير هذه المعاملة الحرة العادلة، عليه أن يلتزم باحترام المسلمين، واحترام ما يقدسه المسلمون، فلا يجترح حرمات المساجد، ولايسب النبى ﷺ، ولايسب أحداً من أصحابه ولايطعن فى الأحكام الإسلامية، ولايحاول أن يعتدى على مسلم أو عقيدته.

فإنه إن فعل ذلك نقض عقد ذمته، وصار حربياً يباح دمه، وما بقى على ذمته فهو مصون الحرية، والكرامة، وتجرى عليه الأحكام بالعدل والإنصاف، وقد بينًا مراعاة الأئمة الراشدين لذلك مراعاة تامة، وروينا قول النبى ﷺ : «من آذى ذمياً، فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته».

---

(١) البقرة: ٢٥٦

والذميون خالطوا المسلمين، وعاشروهم، وكان الود موصولا معهم إلا من خرج عن العهد ونبذ الذمة، والله من ورائهم محيط.

الدعوة الإسلامية فى العصر العباسى

(أ) الدعوة بالآحاد:

٣١- إن الدعوة الإسلامية كانت تسير على المنهاج المستقيم فى عصر الصحابة وعصر التابعين، وكان مع الجيوش الإسلامية كتاب الله تعالى، والعدل، والخلق الإسلامى، فكان الفتح، وكانت الدعوة الإسلامية القويمة، وكان دخول الناس فى الإسلام أفواجاً، وكان الناس يؤمنون بالله رغباً لارهباً، بلا إغراء ولا استهواء، كما يفعل بعض النصارى فى مصر فى هذا الزمان، فقد استخدموا فى الماضى الإكراه بكل أساليب التعذيب والتنقيب عن القلوب والآن يتخذون الاستهواء النفسى بما يسمونه غسل المخ، وهو إكراه، بل أشد من الإكراه، وإذا كان المكره كالآلة فى يد من أكرهه، ولاتكون نتيجته إيماناً، فمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان لم يتغير اعتقاده ولم يتغير قلبه، فإن الاستهواء ومسح المخ يجعله آلة طيعة فى يد من استهواه، وغسل مخه، يغير نفسه وكيانه، فيؤمن بالباطل، وهو لايعرف أنه باطل.

وإنه كان للدعوة الإسلامية التى كانت تتجه إلى القلوب من غير استهواء ولاغسل للأفكار، بل كانت بالبرهان والموازنة بين الحق والباطل، بين ما فيه صلاح الناس، وما فيه فسادهم، وبين قضية العقل المدرك، والنفس المؤمنة، وبين الأوهام، وتكشف للحقائق وسترها .

قام آحاد المسلمين بهذا البيان، وذلك بالاختلاط بين المؤمنين وغيرهم من النصارى والمجوس والصابئين، والمشركين، وغيرهم، والقرآن إمام المسلمين، وهو النور الهادى، والحق المبين.

وإذا كانت الجيوش الإسلامية، تفتح الحصون، وتزيل محاجزات الملوك فإن وجه الشعوب يخلو للدعاة للإسلام من المؤمنين، وإذا كان الحكام لايعنون بالدعوة، ولا يرعونها حق رعايتها، فإن المؤمنين من العرب وغيرهم كانوا يعنون بها آحاداً وجماعات كما سنبين، ولكن الآحاد كانوا أبعد أثراً ابتداء، فهم بتخلقهم بأخلاق القرآن، وبائتلافهم مع الناس من غير استعلاء، بل يعاملونهم كإخوان لهم ينشرون الإسلام بالقول والعمل، حتى كانت الفرس وخراسان وما وراءهم من بلاد وراء النهر والديلم من المسلمين بدعوتهم.

وكثرة كبيرة من الهند، كانت مسلمة بالدعاية الآحادية والجماعية، وإذا تركنا الشرق إلى العرب وجدنا دعوة الآحاد وراء الجيوش الإسلامية تدعو، وتبشر الناس بالرسالة المحمدية.

وذلك بطرق ثلاثة :

أولها – الاختلاط والائتلاف، فالأليف يقرب أليفه ويدنيه.

ثانيها– التبيين، وذلك من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع تأليف القلوب والموعظة الحسنة، كما قال تعالى :«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن»(١).

ثالثها– إزالة الأوهام التى تسيطر على الناس فيما يتعلق بالأوثان، وقد كان الوثنيون ولايزالون أسرع استجابة، وأسهل اقتناعا من غيرهم؛ لأن عقولهم على الفطرة والفطرة السليمة أقرب إلى الاستجابة إلى الحق، والإيمان به.

ولذلك نجد الكثرة الكاثرة من الأفريقيين مسلمين مع الدعاية النصرانية الملحة التى تستحل كل شئ، إلا ما يكون حقاً منيرا، وتتذرع بكل الذرائع من طب، وإعانة على الزراعة، وتستعين بطرق غير محللة خلقاً وديناً كالخمر والاستهواء، والإسلام وحده يسير من غير ذرائع، ولامجادلات، وذلك أنه لا أوهام فيه، إنه يدعو إلى الله وحده، فالقلوب والعقول تصل إليه.

ب– التجارة والدعوة الآحادية.

٣٢– كان التجار المؤمنون فى اليمن وحضرموت، يسيرون بمتاجرهم منبعثين من شطر البلاد العربية ميممين شرقى البلاد ومغاربها ومع تجارتهم الدعوة المحمدية.

يعطون بضائع المال، ويأخذون مثلها، ومعها بضائع هى النور وهو الإسلام، وقد جابوا الآفاق على البضاعة المادية والهدى المحمدى.

وكان يسهل الطريق أن الوثنية كانت مسيطرة على الشعوب التى يعاملونها فيهدونها، ثم يتعاملون معها بنور الهداية.

فكانت بضاعة النور رائجة، وبضاعة المادة رائجة أيضاً.

---

(١) النحل : ١٢٥

وبالتجار الحضارمة أمن أكثر شرق أفريقيا، ولاتزال آثارهم باقية فى شرق أفريقيا، فعلى أيديهم أسلمت الحبشة إلا قليلا، وإن كان المسلمون فيها مضطهدين تحت عين المسلمين وبصرهم.

وكذلك الصومال، وسائر شرق أفريقيا، والتجار المسلمون هم الذين نشروا الإسلام فى أندونسيا، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى.

والصين ابتدأ فيها الإسلام بفتح قتيبة بن مسلم لما حولها، وجاء إليها من أندونيسيا وغيرها.

٣٣- والرحالة المسلمون كابن جبير، وابن بطوطة وغيرهما من الذين كانوا يرحلون طلباً للحديث من المحدثين عن النبى ﷺ ابتداء، ثم صارت الرحلة هدفاً مقصوداً يقصدون إليه، يتعرفون فيه أحوال المسلمين، ويبينون الإسلام بين غير المسلمين.

وكان منهم من يعقد دروساً علمية يحضرها المسلمون وغير المسلمين، وفيها بيان الحقائق الإسلامية، والأخلاق الدينية.

وكان للصوفية أثر كبير فى هذه الدروس حتى قيل إن مجلس الدرس لسيدى عبد القادر الجيلانى كان يحضره ألوف من الناس، وفى بعض مجالسه كان يحضره نحو أربعة آلاف، وقد أسلم كثيرون من مجالس عبد القادر الجيلانى كما سنتكلم عن ذلك عند الكلام على المتصوفة وأثرهم فى الدعوة إلى الإسلام.

والقول الجلى أن الدعوة الآحادية كان لها فضل كبير فى نشر الإسلام والدعوة إلى الإسلام.

وفى الحق إن الإسلام انتشر بالدعوة الآحادية، من الذين أخذوا بداعى الوجوب العينى، وقد قلنا أن الدعوة إلى الإسلام، فرض عين، وفرض كفاية تقوم به الجماعة فى ظل الدولة، وتحت رعايتها وتوجيهها.

ولكن من وقت أن ضعفت الخلافة الإسلامية ثم ذهبت ولم تقم الدولة بالفروض الكفائية الخاصة، فلم يعين الخليفة قوماً للدعاية للإسلام، يوجههم، ويزودهم بالمال والعلم، ولم يقم أحد بالفرض الكفائى، وذلك لثلاثة أسباب.

أولها- أنه لم تكن دولة إسلامية جامعة تحمل نفسها تبعات إسلامية، إنما كانت تعلن إسلامها من غير أن يكون لها عمل للإسلام، وإن كان منهم من يشجع بعض العلماء للتأليف،

والبحث والدراسة، فلم يكن منهم فيما نعلم من يؤلف جماعة للدعوة إلى الإسلام ويزودها بالمال في سبيل هذه الدعوة، ويضع لها المناهج التي تسير عليها.

ثانيها- أنهم كانوا في نزاع مستمر للغلب، وأن يكون لكل سلطان حوزة من الأرض أكثر من حوزة الآخرين، وكانت الحرب بينهم مستمرة وحب الغلب هو المسيطر على تفكيرهم، وبذلك كان بأسهم بينهم شديداً.

ثالثها- أن الغارات الصليبية قد شغلتهم كثيرا ثم جاءت بعدها الغارات التترية، واستمرت هذه الغارات عدة قرون وما نجت منها إلا وقد خرجت منهوكة ممزقة، فلم تكن هناك دعوة منظمة يحميها الأفراد ويمدونها بالعون وبالمال والرجال.

لهذه الأمور ما كانت هناك دعوات منظمة تشرف عليها الدولة، لأنه لم تكن دولة قوية، أو دعوة تشرف عليها الإمارات المختلفة لأنها شغلت بنفسها عن دينها ونسيت أنها دول قامت على الإسلام، فله عليها حق الرعاية وإقامته على وجهه.

والعلماء نسوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعكفوا على دراسة فلسفة الإسلام، ووجوبه من غير أن ينفذوه.

ولكن الآحاد كانوا يقومون بذلك طالبين ما عند الله، حتى ابتأست النفوس وقنعت بحكم الحاكمين وظلم الظالمين، فنسيت ما يجب عليها لكي تستمر الدعوة إلى الإسلام موصولة غير مقطوعة إلا من عصم الله.

غير العرب في الدعوة إلى الإسلام :

٣٤- وإنه إذا كانت أحداث الصليبيين والتتار أثرت في العرب من ناحية الدعوة الإسلامية، فإنه إذا كان قد أفل نجم الإسلام بينهم في الدعوة إلى الإسلام، فقد بزغت له نجوم أخرى في غير العرب، في البلاد الإسلامية الأخرى.

وإنه قد ينجم من الشر خير، فإن الشر المحض لاوجود له في الدنيا، كما أن الخير المحض نادر الوجود أيضا، فقد نجم عن غارات التتر والصليبيين أمران جليلان لهما شأن في الإسلام، ورفع مكانته :

أولهما- أن الإسلام انتشر بين التتر، فقد كانوا وثنيين، فلما اختلطوا بالمسلمين بالفتوح ورأوا ما عليه المسلمون من رقي في الفكر والاعتقاد اعتنقوا الإسلام، وكان منهم

مسلمون وإن كانوا لم يتركوا الحرب والنضال والفساد فى الأرض ولكن دخلوا فى الإسلام، وكان منهم مسلمون، وإن كان بعضهم كالأعراب الذين أسلموا، ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم، واختلطوا، ثم صار فيهم إيمان من بعد.

الأمر الثانى – أن الصليبيين تأثروا طريق المسلمين، ونفذ إلى نفوسهم وعقولهم وإن لم يؤمنوا به، ولكنهم تأثروا طريقه، ولذلك كان فيهم بعد ذلك ما يسمى الإصلاح الدينى، وقد قبس من الإسلام كثيراً، وكتاب مارتن لوثر زعيم هذا الإصلاح من يراجعه يجد كثيراً من تعاليم الإسلام، وخصوصاً ما يتعلق بالعقود والمعاملات (راجع كتاب الإسلام وأباطيل خصومه للمرحوم عباس محمود العقاد).

وإنه إذا كانت الدعوات الإسلامية فى الحروب الصليبية والتترية قد ضعفت بين العرب، فقد ظهرت فى الهند، والبلاد الشرقية؛ ظهرت فى باكستان وأندونسيا بعد أن آمنت وظهرت فيها دعوات للإسلام قوية مستمرة. كان يقوم بها مسلمون من الهند يخرجون للدعوة الإسلامية يحملون زادهم على ظهورهم، ويتحملون المشاق الشداد فى الدعوة إلى الإسلام، حتى ظهر المسلمون فى فلبين، وجزر الهند الشرقية وغيرها، وعلى أيديهم أسلم كثيرون من الزنوج الأمريكان، و فشا الإسلام.

وقد وجدنا جماعات فى الهند وباكستان نفرت للدعوة إلى الإسلام، وكانوا يخصصون من جهودهم وأموالهم للدعوة إلى الإسلام عشرها، فالعاملون فى الدولة يقتطعون من أوقات خدماتهم عشرها، وكأنها مقادير زكاتهم بزيادة عن مقادير الزكاة.

ويذهب المؤمن منفرداً يقوم بدعاية الإسلام فى كل أرض مر بها معتمداً على الله لاينى ولايكف، ولقد حضرنا بعض اجتماعات هذه الجماعة فى لاهور سنة ١٩٥٨.

ولقد أسلم الكثيرون من الناس والأقوام على أيدى هؤلاء، وكان الدعاة يقومون بهذا فرادى، والجماعة هى التى توزع الآحاد، وكل وطاقته، وكل وعمله منفرداً.

ولاتزال هذه الجماعات قائمة منبثة فى الهند وباكستان، وأندونسيا، وهم الذين يقومون بأمر الله تعالى ونهيه، ولاينفكون عن الدعوة إليه، وبهذا يتبين أنه إذا كانت الدول التى تسمى

نفسها دولا إسلامية قد قصرت فى حماية دينها أولا، وحماية المسلمين ثانياً، والقيام بحق التبليغ ثالثاً فإن المسلمين آحاداً، وأحياناً بجماعات تنظم وتوجه- كما رأينا فى باكستان - قد قاموا بحق التبليغ فى الجملة، وإن لم يبلغوا الغاية الكاملة، ولكنهم قاربوا بعد أن سددوا، ولهم فضل على القاعدين الذين لم يقوموا بشئ، وخصوصاً أولئك الذين يلبسون لباس العلم الإسلامى، ويظنون أنهم فى الذروة، فهم لايحسون بالواجب عليهم، ومعهم من يقولون إن الإسلام علم فعليهم أن يطلبوه هم، وإن كان العلم شائها، فعلى الذين وكل إليهم شأنها أن يصححوا هم، وليس على القاعدين ممن درسوا العلم أن يصححوا.

الفرق والطوائف

٣٥- قلنا إنه منذ أشرق الإسلام، وأضاءت الأرض بنوره، والتبليغ به قائم، والدعوة مستمرة، وكانت سهلة، لأن أخلاق المسلمين كانت تدعو، وعدالتهم كانت تعم، فيعشو إلى ضوئها الناس، والخلفاء حريصون على أن يكون الإسلام هو المقصد الأول، حتى كثر الدخول فيه، وحتى خشى بعض الذين يدبرون المال، على بيت الخراج والجزية أن يخلوا، فمنهم من فكر فى ألا يرفع الجزية عمن يسلم، فغضب عمر بن عبد العزيز، وقال : «إن اللهَ بعث محمداً هاديا، ولم يبعثه جابيا» ثم نما الإسلام وانتشر بالتبليغ المنظم الهادى.

وإن بعض الفرق الإسلامية عندما نشأت الفرق، وتحقق خبر النبى ﷺ : بأنه تتفرق أمته على ثلاث وسبعين فرقة - كانت تضع من مبادئها الدعوة الإسلامية، وأدخلته فى باب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وهؤلاء هم الذين سموا فى تاريخ الفكر الإسلامى المعتزلة.

المعتزلة والدعوة الإسلامية.

٣٦- كان من مبادئ المعتزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد كانت مبادئهم خمسة : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، وأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، ويصح أن يطلق عليه اسم المسلم، والمبدأ الخامس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد قرروا وجوبهما، والأخذ فى تنفيذ أمر الله فيهما، ومن قصر فقد ارتكب إثما، فعلى المؤمنين

نشر الدعوة الإسلامية، والقيام بتبليغ الرسالة، وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، وكل بما يستطيع، فذو البيان ببيانه، وذو القلم بقلمه، وذو السيف بسيفه؛ لكى يمنع الفتنة فى الدين، ولكى يزيل الحاجزات التى تحول بين الداعى والمدعوين، وتمكين التبليغ، والناس بعد أن يتبين الرشد من الغى، بين أن يتبعوا أو يمتنعوا، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعباد، ولا إكراه فى الدين.

وقد كان عمل المعتزلة فى الدعوة الإسلامية فى ناحيتين :

أولاهما – الدعوة إلى الإسلام، وخصوصاً بين علماء الفرس وغيرهم من غير المسلمين، فإنهم كانوا يتخذون المنطق والعقل سبيلا لتفكيرهم وجدلهم فكانوا يدعونهم إلى الإسلام، ويحلون المشاكل التى تثار، وقد تولى ذلك كبيرهم، فالحسن البصرى، وقد كان ينهج نهجهم، وعدوه منهم، فى الطبقة الثانية.

وكان واصل بن عطاء وهو تلميذ الحسن ينشر الدعوة بلسانه وقلمه، فله كتاب ألف مسألة وكانت دعوته للعلماء.

والناحية الثانية – الرد على أهل الأهواء من الزنادقة وغيرهم الذين كانوا يشككون فى الحقائق الإسلامية، وكانوا أحيانا يدسون ما يثير الريب، ولايظهرون، وأحيانا ينكشف أمرهم ويظهر وإن أرادوا إخفاءه، فيشف ثوبهم عن حالهم، ويظهر أمرهم.

والمعتزلة يتتبعون الآخرين، فهم يجادلون من ينكشف أمره حتى يرجع أو يسكت، ويتتبعون ما يظهر من الآراء الفاسدة، وإن لم يعرف صاحبه.

وقد كان من بعض الرافضة آراء تؤدى إلى الانحراف، وتمكن غير المسلمين من الهجوم على الحقائق الثابتة، فكان المعتزلة يترصدونهم، ويردونهم ويمنعون آراءهم من أن تصل الناس.

وقد فرق واصل تلاميذه فى الآفاق كما قام زميله عمرو بن عبيد بذلك، وكان أطول عمراً، ولقد اشتد أمر الزندقة والزنادقة فى عصر أبى جعفر المنصور، وابنه المهدى، وكانت الفلسفة اليونانية والهندية وغيرهما قد ترجمت، ودرست وجاءت محملة بالعلم وبأوزارها، فجاء السوفسطائية، ونشرت فلسفة الشك وحمل المعتزلة عبء مناهضة هذه الآراء الهدامة لكل حق، ولكل دين.

وأخذ الزنادقة ينشرونها، ويروجونها، وتفاقم أمرهم فى عهد المهدى، وقام رجل هو المقنع الخراسانى يهاجم المسلمين فى الميدان، والزنادقة يبثون فى الشعب روح شك، ويهدمون العقائد هدما.

وقد تجرد المهدى لمقاومة الأمرين فقاتل المقنع الخراسانى حتى هزمه فى ميدان القتال.

وفى الميدان الفكرى جرد المعتزلة لمقاومة الزندقة حتى هزمها هى الأخرى بمجادلات المعتزلة، ودعوتهم إلى الإسلام والدفاع عنه.

وجاء الرشيد بن المهدى، وقد انطفأت إلى حدٍّ فتنة الزندقة والزنادقة، وإن كانت الجرثومة لم تجتث، فأطفئ اللهيب، ولكن مازالت النار مدفونة بالخوف.

وكان يميل إلى الأثر والحديث، ولذا أبعد المعتزلة عن القرب إليه، وسجن منهم من سجن، ولكن النار المدفونة ابتدأت تظهر، والزندقة التى لم تجتث ابتدأت تنتأ رءوسها كرءوس الشياطين فاحتاج إلى من يدفعها، فدعا الفقهاء والمحدثين، ولم يكونوا أهل ذلك الميدان، فبحث عمن يقف فيه، وقيل له هم المعتزلة، فجردهم، وعادوا يحاربونهم، كما ابتدءوا.

هذا موقف المعتزلة من الدعوة الإسلامية، وهو موقف مبنى على ماعندهم من وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويدخل فى عمومه الدعوة إلى الإسلام، ورد شبه الذين تزيغ قلوبهم أو يريدون بث الزيغ فى المؤمنين.

ونحن إذ نذكر المعتزلة فى هذا المقام بالتقدير لانوافقهم فى كل مايعتقدون، بل نوافقهم فيما هو حسن فى ذاته لايقبل جدلا، ومخالفه يعد مخالفاً لأمر عرف من الدين بالضرورة.

الزيدية والدعوة الإسلامية

٣٧- الزيدية فرقة من فرق الشيعة، ولكنها معتدلة ترى أن الإمامة تكون من أولاد على كرم الله تعالى وجهه، سواء أكانوا من ذرية الحسن أم كانوا من ذرية الحسين، ويرون الإمام بعد النبى ﷺ هو على، وهو معرّف بالوصف، وليس معيناً بالاسم، وأنه تكون للأفضل من

ذريته من فاطمة بشرط أن يخرج داعياً لنفسه، ويجيزون إمامة المفضول، ولذلك أجازوا إمامة الشيخين أبى بكر وعمر، وإن كان علىٌّ أفضل فى نظرهم.

وهم أتباع الإمام زيد بن على زين العابدين الذى خرج على طغيان هشام بن عبد الملك، وقتل رضى الله عنه سنة ١٢٢ هجرية بالكوفة بعد أن خذله أهل العراق، كما خذلوا جده الحسين، وقتله الأمويون، وقد قتل بالنبل، كما قتل جده الشهيد ابن الشهيد وأبو الشهداء الحسين رضى اللهّ عنه، ولعن من قتله، ومن كان سبباً فى قتله.

وقد كان أكثر من خرج على العباسيين من بعد الأمويين من الزيديين.

ولذا كان الظاهرون من البيت الزيدى يتتبعهم العباسيون، ويفر هؤلاء من وجوههم، وكانوا يفرون إلى خراسان والديلم وبلاد الجبل.

وكان ممن يقتفى آثارهم، ويتبع أمرهم الناصر الكبير من ذرية الإمام زيد، وقد عاش فى القرن الثالث، وتوفى فى مطلع القرن الرابع سنة ٣٠٤.

قد هاجر الناصر هذا إلى بلاد الديلم والجبل، كما أشرنا وكان أهلها وثنيين، وقد فر بدينه إليهم.

فأخذ يدعوهم إلى الإسلام، ويعلمهم شرائعه وأحكامه، فكان يبشر ويدعو، وأبلى فى ذلك بلاء حسناً، حتى أسلم أكثر الوثنيين بدعايته، وبحكمته فى الدعوة، وحتى دخلوا جميعاً فى الإسلام، وتولى هو الإمرة عليهم، وكان إماماً فى هذه البقعة، وقالوا إنه كان يحيى الإمامة الزيدية من الركود بعد توالي الاضطهاد واستشهاد الكثيرين من آل البيت الزيديين.

ولقد قال فى ذلك الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل :«لم ينتظم أمر الزيدية حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل، فاختفى واعتزل إلى بلاد الديلم والجبل، وهم لم يتحلوا بدين الإسلام، فدعا الناس إلى الإسلام على مذهب زيد بن على، فدانوا له بذلك وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرين، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة، ويلون أمرهم، (انظر الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٢١١).

وإن هذا يفيد أن الزيدية بسبب اضطهاد العباسيين لأئمتهم، وفرارهم من هذا الاضطهاد، قد اتجهوا إلى الدعوة إلى الإسلام أولا، ثم بالمذهب الزيدى ثانياً، فأثمر ذلك

الاضطهاد تلك الثمرة، وعاد الزيديون بخير مافعلوا، وعاد المضطهدون بإثم ما فعلوا، وتلك قسمة عادلة.

لقد أسلم على أيدى الناصر، ومن جاء بعده ملايين من الناس الذين كونوا إقليماً إسلامياً كثير السكان، كثير العلماء، مخلصاً أشد الإخلاص تابعاً لمن دعاه وهداه.

ولايهولنك أن الزيدية كانت المذهب المسيطر، فإن المذهب الزيدى أقرب المذاهب إلى مذاهب الجماعة.

وهو يأخذ بالسنّة كلها، يأخذ بما فى الصحيحين، وغيرهما من كتب السنة ويأخذ بآراء كثيرة من المذاهب الأربعة.

ومن المقرر فى هذا المذهب الزيدى أن مالم يرو فيه شئ عن الإمام زيد يؤخذ فيه برأى الإمام أبى حنيفة، ولذا كانت فيه آراء كثيرة مقتبسة من المذهب الحنفى ثم المذهب الشافعى.

ومهما يكن من الأمر فى المذهب الزيدى، فإن أئمة الزيدى عندما اضطهدوا لم يقضوا أوقاتهم فى خمول المنفيين المضطهدين، ولكن قضوه فى عمل المتقين المهديين فانصرفوا إلى الدعوة إلى الإسلام فى تلك الأراضى الوثنية، وجاء نشر مذهبهم، وليس منحرفا، ولاخارجا على الإسلام، تبعاً لذلك.

ويكفى هداية وتوفيقاً أن أسلم على أيديهم عشرات ألوف الألوف من المسلمين، والمذهبية أخذت تذهب شيئا فشيئا حتى صاروا الآن فى ضمن الحنفية، وقد علمت أن المذهب الحنفى كان مرضياً فى المذهب الزيدى، ثم غلب، فصاروا أحنافا.

الصوفية

٣٨- التصوف أصله من الزهادة، والانصراف للعبادة من غير أن ينقطع عن أسباب الحياة وطلب الرزق، وقد دخل الإسلام من عدة مسالك.

أولها – وجود الزهادة والزهد فى الحياة ومتعها، مكتفياً بالحلال منها، وذلك أعلى الزهد، فقد قال الإمام أحمد رضى اللّه عنه مجيباً من سأله عن الزهد فقال هو طلب الحلال،

والاقتصار عليه، ومن الزاهدين من اتجهوا إلى الحرمان وفهموا أن قطع النفوس عن الملاذ حلال، وحرمانه هو فطم للنفس وهو الزهد، ولكنه الذى نهى النبي والقرآن عنه فقد قال تعالى : «يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم»(١).

وثانيها- فلسفة هندية تقوم على رياضة النفس على التحمل، والانقطاع عن الملاذ.

وثالثها- ما كان يظهر من بعض الديانات من الحرمان، وسرى إلى المسلمين من بقايا الديانات القديمة، ومع أن الإسلام نهى عن الرهبانية لأنها من ابتداع النصارى كما قال تعالى « وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون»(٢).

وقد سرت بعض مبادئ الرهبانية إليهم، بمقتضى الاختلاط، ولبقايا الديانات القديمة في نفوسهم، ولقد قيل إن الصوفية كانت تقليداً أو اتباعاً لأهل الصفة الذين كانوا يعيشون فى مسجد رسول الله ﷺ في عهد الصحابة، لا مأوى لهم غيره، ولا ملجأ لهم سواه.

ومهما يكن مصدر الصوفية، وسبب شيوعها بين المسلمين، فإنا نجد فيها نوعا من التشبه بالرهبنة، وإن لم تكن مماثلة لها من كل الوجوه، فإن أهل التصوف يتزوجون ولاينقطعون عن الدنيا انقطاع الراهبين، ولايموتون موتا حكميا، كما يعبر القانونيون، إذ يعدون الرهبنة موتا حكميا.

ولاشك أن الذين يعكفون فى الخانقاه، ويقيمون فيها يشبهون الرهبان فى الأديرة، وإن كان من سكان الخانقاه من يتزوجون، وينجبون الأولاد.

وفى الحق أن الصوفية لها جانبان : جانب الخير، وهو الاتجاه إلى الله تعالى والاستجابة له، وأن يكون قلب المؤمن عامرا بالإيمان، ذاكر الله تعالى دائما، مشرقاً بنوره يطلب من الدنيا ما يقوى به على عبادة الله تعالى، وطلب ما عنده في الآخرة، فلا ينصرفون عن الدنيا ولكن يطلبونها على أن خيرها مطية الآخرة، وطريقها.

والجانب الثانى وهو ظاهر فى بعض المتصوفة وهو الانقطاع عن الدنيا وذلك وجه لايريده الإسلام، ويظهر ذلك فى الانصراف إلى الذكر الذى يكون معه حركات.

---

(١) المائدة :٨٧ (٢) الحديد : ٢٧

ومهما يكن نوع التصوف، وغايته ونهايته فإنه وجدت جماعات صوفية يرأس كل جماعة شيخ من شيوخ العلم والتصوف، والجهاد فى سبيل الله، فتعددت الطرق الصوفية، وكل واحدة تتبع شيخا جديراً بالاقتداء، وله فى الإسلام والدعوة إليه فضل وذكر، فالشيخ عبد القادر الجيلانى له علم غزير، وإرشاد وتوجيه وحكمة، وإبراهيم الدسوقى له علم مدون، وتوجيهات شديدة فى التقوى والزهادة، وأحمد البدوى له بعض جهاد فى الحروب الصليبية، وله توجيهات محددة، والسيد أحمد الرفاعى من أهل العلم والتوجيه والإرشاد.

وأحمد التيجانى له فضل كبير والسيد محمد بن على السنوسى له فضل علمى وعملى وتوجيهى فى الإسلام، ودعوته إلى الإسلام هو والتيجانى نشرت الإسلام فى غرب إفريقية ووسطها وجنوبها مع ما كان للجيلانية من أثر.

وإذا كان إسلام شرق إفريقيا على يد الحضارمة والتجار، فإنه فى وسط إفريقيا وغربها للجيلانية وللتيجانية والسنوسية فضل عظيم فى نشر الإسلام، ولنذكر ذلك بفضل من القول، ونشير فى إيجاز.

الشعبذة والتصوف

٣٩- لانريد بالتصوف الذى شاع فى عصر المماليك فى مصر والشام والذى كان أهم مظاهره الشعبذة، والصياح والتمايل بما يسمونه الذكر فى المجالس، والخروج بالمواكب والأعلام فى الطرق، واللعب بالثعابين، وابتلاع النيران، وغير ذلك مما كانت تظهر به فرق مختلفة وطوائف تسير فى الطرقات وتضع النار على أجسامها لتنطفئ، زاعمين أن النار لم تحرقهم، وقد طلوا أجسامهم بما يمنع حرقها، وقد ادعوا أنهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعي، ولنترك القلم لابن تيمية يصف حالهم، وإن كنا لا نوافق على نظرته إلى التصوف عامة، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه لهم عندما أرادوا أن يصنعوا أمامه وفى حضرة نائب السلطان ما يصنعون أمام التتار، وقد كانوا جاثمين فى ربوع الشام، وهم يقاومونهم قال : من أراد أن يدخل في النار، فليدخل أولا الحمام، وليغسل جسده غسلا جيدا، ويدلكه بالخل والأشنان ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقاً، فقال شيخهم: نحن إنما تنفق أحوالنا عند التتار، فانكشفت بذلك حالهم، وهو ممالأتهم للتتار فاشتد النكير عليهم لفعالهم،

ومما لأتهم للتتار أعداء الوطن الشامى، بل أعداء الأوطان العربية والإسلامية قاطبة، إذ لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام، وإن أمثال هؤلاء المشعوذين لانزال نطلع على ناس منهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعى وهو منهم براء.

ولكننا إذا قلنا أن الصوفية لهم أثر فى الدعوة إلى الإسلام لانقصد هؤلاء ولا أشباههم، وإنما نقصد الذين اتخذوا العبادة شعاراً للتصوف، ولم يتخذوها للشعبذة، واستدرار أموال الناس، أو العبث بالعوام، وحشو الأمة.

التصوف

٤٠- قبل أن نخوض فى الدعوات الصوفية للإسلام، نذكر بإيجاز حقيقته ليتبين ما فيه فائدة للدين، وما هو خارج عليه، ليمكننا أن ننتفع بالصالح، كما نفع من قبل، ولنرحض الأوساخ الذى علقت به وشوهت اسمه عند كثيرين من الغيورين على الإسلام، وقد أشرنا فى ماضى قولنا إشارة مجملة تكاد تكون مبهمة إلى مداخل الصوفية فى المجتمع، ولكن لابد أن نبين بإيجاز بعض ما أجملنا، ونكشف ما أبهمنا بكلمات موجزة أيضاً، ولانخرج من الإجمال إلى الإسهاب، ولكن نجمل فى بيان مصادر التصوف، فنقول :

نشأ التصوف روحياً، وإن كان عند بعض الناس أخذ مسلكا شكلياً فظهرت الأمور التى أشرنا إليها آنفاً، ولقد نشأ من ينبوعين صافيين :

أولهما – هو انصراف بعض العباد المسلمين إلى الزهد فى الدنيا والانقطاع للعبادة، وقد ابتدأ ذلك فى عصر النبى ﷺ ، فكان من الصحابة من اعتزم أن يقوم الليل متهجداً، ولا ينام، ومنهم من يصوم ولا يفطر، ومنهم من انقطع عن النساء، فلما بلغ أمرهم النبى ﷺ قال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»، ولقد نهى عن الرهبنة، وقال ﷺ: رهبانية أمتي الجهاد.

وبذلك بين النبى ﷺ معنى الزهد، وهو طلب الحلال، وألا يحرم ما أحل الله كما تلونا من قبل آيات الله تعالى فى ذلك.

ولكن بعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومضي عصر الصحابة والتابعين

دخل في الإسلام من كان في نفوسهم أثر من المذاهب القديمة الذين كانوا يحسبون تعذيب الجسم لتقوية الروح نوعا من العبادة.

ولكن مع شيوع هذه الأفكار لفظتها المبادئ الإسلامية، وبقي معنى الزهد الذي قرره الإمام أحمد فيما أسلفنا من قول : « الزهد الاقتصار على الحلال».

وبالجمع بين هدى النبي ﷺ، وما جاء من منازع تحارب الحلال، كان التصوف الإسلامي الذي لايقطع عن الحياة، ويربي الروح والقلب، ويوجهها إلى الله تعالى، وكان المزج الكامل بين متعة الحلال، وفطم النفس عن الشهوات.

هذا الينبوع إسلامي خالص، وما خالطه من منازع أخرى، قد رحضها الإسلام وأبعده العلماء، فكان في دائرته المعقولة.

والينبوع الثاني للتصوف، وهو ليس إسلامياً، وإن تلاقى في بعض نواحيه مع الأخلاق الإسلامية التي دل عليها القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم، وذلك الينبوع هو ما سرى إلى المسلمين من فكرتين: الأولى فلسفية، والثانية من الأديان القديمة كالنصارى وغيرهم ممن انتحلوا نحلا باطلة.

والنظرة الأولى لهذه، تريبنا أنها زندقة نبرئ التصوف الإسلامي منها تبرئة مطلقة، وإذا كانت قد جرت على أقلام أو أقوال بعض من نسب لهم التصوف، فهي زور من القول على الإسلام وأهله.

ولنتكلم عن الفكرة الفلسفية الأولى فهي نبعت بين الإشراقيين من الفلاسفة، وهم يرون أن المعرفة تقذف في النفس بالإشراق الروحي، ومنه تكون الرياضة الروحية والتهذيب النفسي.

وإن هذا بلاريب ينبوع صاف يتجه بالنفس إلى التهذيب الروحي والاتصال بالله، ولكن اختلط بهذا النظر الفلسفي ماجاء عن الديانات السابقة كاليهودية والبرهمية والنصرانية من تعذيب الجسم لتطهير الروح في زعمهم، واختلط بهذا عنصر ثالث، وهو ما سمي بوحدة الوجود، وجاء تبعاً لوحدة الوجود الحلول وهو حلول الله في نفوس بعض المخلوقين وذلك كفر وإلحاد.

ومنهم أو كلهم من غلبت عليه نظرية الإشراق وزال من نفوسهم ماعداها.

ومهما يكن فإن هذه الأفكار تبلورت، ولفظ بعضها بعضاً، فكان التصوف الذى ظهر قوياً فى القرنين الرابع والخامس ومن بعدهما السادس الهجرى، ثم ظهر أشكالا لاروح فيها فى القرن السابع والثامن وتوارثت أجيالنا الأخيرة هذه الأشكال.

والجوهر كان قائما مع الأشكال فى القرون الأولى، وبه كانت الدعوات الدينية المخلصة، واستمر الجوهر قائماً إلى اليوم، وإن اختفى وراء المظاهر، وتريد جماعات إحياءه.

وإنا نعتقد أن مذهب الإشراق الروحى هو الجوهر فى الفلسفة الصوفية الإسلامية فيه، وقد رحض عن جسمه فكرة الحلول، وتعذيب الجسم لتطهير الروح الذى سرى إلى المسلمين من البرهمية والبوذية، والانقطاع عن الحياة الذى سرى إلى التصوف من الرهبانية النصرانية.

ولكن بقى له مع الإشراق ناحية قريبة من وحدة الوجود، وهى ناحية الشوق إلى الله تعالى ومحبته.

ولذا نرى أن صوفية الإسلام يلتقى فيها أمران: أحدهما الإشراق والثانى الشوق إلى الله تعالى ومحبته، والمحبة قدر مشترك بين الصوفية المسلمين أجمعين كالإشراق، وقد راض بعضهم نفسه علي المحبة، واتخذ منها سبيلا للاتصال بالله تعالى، وذلك منزع ليس فيه حلول، وليس فيه ما يسمى بوحدة الوجود، بل هو إشراق النفس بنور الإيمان وامتلاؤها بمحبة الله، ورياضة النفس على محبة الله، حتى يكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، وحتى يكون كل شئ فى نفسه، فلا يتحرك حركة عن حركة إلا فى سبيل رضاه ومحبته، وحتى يحب الشئ لايحبه إلا لله.

التربية الصوفية

٤١- انتهينا من ذلك إلى أن الإشراق الروحى، والشوق إلى الله تعالى ومحبته وامتلاء النفس بهذه المحبة هى سمة التصوف الإسلامى، وهو الجامع بين أهل التصوف، وإن ذلك يجئ بعضه فيضاً من الفيوضات الربانية وبعضه من التربية والرياضات الروحية، ولذا

اتجهوا فى معالجات النفس لتمتلئ بالإشراق والشوق المحب إلى الله تعالى، ولتكون على اتصال دائم بالله تعالى، ويعمر القلب بذكره.

اتجهوا فى معالجة ذلك إلى أمر عام، وأمر خاص، أما الأمر العام فهو قراءة أوراد هى أدعية مقربة إلى الله تعالى، يضرعون فيها إلى الله تعالى، ويحاولون بها أن يقربوا منه بالمداومة على هذه الأوراد.

ومن أعلى الصوفية درجة، وأقربهم بالحق رحماً من يجعل ورده القرآن يتلوه ويتدبر معانيه، وهو أثبت الصوفية قدما، فالقرآن أعظم ما يقرب العبد من ربه، فقد قال تعالى : «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»[1].

وإن الأوراد من كتابة بعض الشيوخ المتبتلين، وأنى يكون كلامهم بجوار كلام الله تعالى، وأنى للصوفية فى هذا العصر إلى أن يكون هذا وردهم الأول والأعلى، وإن تلاوته هى التى تربى الشوق إلى الله، وتلقى فى القلب بمحبته، فإن من يقرؤه، إنما يحدث الله تعالى بكلامه العزيز، وأنه يوجد الإشراق فى النفس، إذ تحف ملائكة الله تعالى عند تلاوته فيشرق العقل والنفس والقلب بنوره.

هذا هو العلاج الأول لتربية النفس وهو علاج عام، أما العلاج الخاص فهو التربية الخاصة بين الشيخ ومريده أو تلميذه، وهى تربية نفس المريد أو التلميذ، لتكون مستعدة للإشراق الروحى، والشوق والمحبة، وقد لزم هذه التربية الخاصة أمران :

أولهما- ملازمة المريد لشيخ يتبعه ويوجهه، ويشرف عليه فى تربية قلبه ونفسه ويقدم له غذاء روحياً، بملازمته فى غدواته وروحاته، وإنهم يعدون تلك الملازمة مع المشاركة الوجدانية أقوى القرائض، وأنه يكون بين الشيخ والمريد استهواء روحى يوجه نفسه، ويقمع حسه، فيعكف على القلب يوجهه، وعلى النفس يهذبها ويهديها، وإذا استقامت النفس أشرقت الحكمة على القلب، وقذف الله تعالى فيه بنور يضئ بين يديه السبيل فى مضطرب الحياة ومتنازع الأهواء.

---

(١) الزمر : ٢٣.

ثانيهما- أن النفوس متى زكت، وامتلأت بالإشراق والمحبة تكشف المستور وتبين بين يديها الخبئ من الأمور.

وإن هذه الطريقة فى تربية النفس وتهذيبها وتقوية اتصالها بالله تعالى قد يحتاج إليها كل مصلح دينى أو خلقى، فإن ملازمة رجل ممتلئ بنور الحكمة وله قوة نفسية، وفيه خلق حكيم وقلب سليم، مما يهذب الشباب، ويجعل من الشذاذ والخارجين على الجماعات من يهتدون ويسلكون الطريق المستقيم.

٤٢- وقبل أن ننهى ذلك الموجز فى التصوف والصوفية نشير إلى أمرين :

أولهما- أن الشيوخ الذين كانوا يروِّضون الناس على المحبة والشوق إلى الله تعالى بدا من عبارتهم أن المحبة إن حققت، فإن العاصى والمطيع يكونان على سواء، مع أنه إذا تحققت المحبة لايكون هناك عاص من المحبين، إذ كيف يحبه ويعصى، إنه إن لم يطع تكليفا أطاع محبة وتقربا، وطلبا للرضوان.

ومع ذلك بدت منهم عبارات يدل ظاهرها على التساوى بين العصيان والطاعة فى أدعيتهم، فيقول المرسى أبو العباس فى دعاء له:

«إلهى، معصيتك تنادينى بالطاعة، وطاعتك تنادينى بالمعصية، ففى أيهما أخافك، وفى أيهما أرجوك، إن كان بالمعصية قابلتنى بفضلك، فلم تدع لى خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك، فلم تدع لى رجاء، فليت شعرى، كيف أرى إحسانى مع إحسانك، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك».

ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى بعض أدعيته :

« إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك، ولك المنة على، وإن ظهرت المساوئ فبعدلك، ولك الحجة علىّ».

هذه نظرات متصوفة صادقين قد وصل بهم القرب من ربهم ومحبته فى قلوبهم إلى أن الله تعالى، الجميع أمامه سواء، ويغالى بعضهم فيقول إنه إذا كانت الشريعة قد فرقت بين المطيع والعاصى، فالحقيقة قد قررت أنه أمام الله تعالى لافرق. ولكن من يصل إلى الحقيقة؟. ولذلك كانت الشريعة أولى بالاتباع، لأن الوصول طريقه واضح المعالم، بيِّن

المسالك، ولأن الله تعالى جعل الطاعة لشريعته ولرسوله، طريق محبته، فقد قال تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»[1].

بل نستطيع أن نقول: إننا لانصل إلى الحقيقة عن طريق الشر.

وإنهم ليقررون أن المعصية ثم الاستغفار منها تقرب ولاتبعد، وإن تقريب الاستغفار أكبر من تبعيد العصيان، ويقولون إنه ورد عن النبى ﷺ أنه قال :

«لو لم تذنبوا فتستغفروا لخلق الله قوما يذنبون فيستغفرون» ويقول ابن عطاء الله السكندرى:إن معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت ذلا وافتخارا.

ثانيهما – أن منهاج العامة من الصوفية ليس على هذا النحو الذى سلكه الخاصة، ذلك أن أتباعهم لم يبلغوا ذلك المبلغ، ولم يدركوا من الحقائق ما أدركوا، فهم فهموا أن لامعصية ولاطاعة، وأنه يكتفى بالمحبة ويدّعونها لأنفسهم، ومنهم من خلع الربقة.

ووجد من ادّعى أنه الشيخ المتبوع فى الصوفية، ولم يمنعه ذلك من أن يتناول الممنوع، ثم اجترع اللذات، ونال من الموبقات من غير حريجة دينية تمنعه، ولانفس لوامة تدافعه، بل اتخذ التصوف ستاراً يستر به مآثمه، ومنهم من كان يدعى مع ذلك الولاية.

ومن العامة من لايعرف من التصوف إلا مظاهره ومن حقائقه إلا أشكالها، ومنهم من كان يشيع أنه يكفى اتباع شيخ من الشيوخ أو ولى من الأولياء، حتى تكون الخوارق، فالنار لاتحرقهم والأفاعى لاتلدغهم، وقاموا بأعمال شعبذة تضل العقول، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

٤٣– هذه هى الصوفية ابتداء، وانتهاء، ونحن إذا قلنا: إن التصوف حمل الدعوة الإسلامية أو كان منهم من حملوها لانقصد العامة، ولا الذين اتخذوها أشكالا ومظاهر ومواكب تخترق الطرقات، إنما نقصد الصفوة المختارة منهم التى صفت نفوسها وربت مريديهم وتلاميذهم على الخير، والعمل، كالشيخ عبد القادر الجيلانى، وأبى الحسن الشاذلى، والمرسى أبى العباس، وابن عطاء الله السكندرى، والشيخ أحمد التجانى، والسيد محمد بن على السنوسى، فأولئك كان لهم مقام فى الدعوة إلى الإسلام.

---

(١) آل عمران ٣١

وإننا إذا تكلمنا فيمن يدعون إلى الإسلام من الصوفية لانقصد الذين قاموا بالشعبذة والتعرض للأفاعي، كما لا نتصور أن منهم الذين يقولون بتساوى الحسنة والسيئة، ولا الذين يقولون إن المطلوب الحقيقة لا الشريعة.

ولكن نتكلم عن أئمة الصوفية الذين تصدوا للوعظ العام والذين لم يترهبنوا، فهؤلاء هم الذين دعوا إلى الإسلام، وانتشر الإسلام فى كثير من نواحى البلاد الإسلامية ببعضهم.

الدعاية الصوفية

٤٤- الدعاية الصوفية كانت تقوم على أمرين :

أحدهما- من القدوة والاختلاط، والأخلاق الاسلامية والتسامح والرفق فى المعاملة، والمثل الطيبة الواضحة فى المعاملة الحسنة.

وذلك ان أئمة الصوفية كالقطب عبد القادر الجيلانى، وأبى الحسن الشاذلى والمرسى أبى العباس، وابن عطاء الله السكندرى، كانوا على أخلاق إسلامية طيبة، وكانوا على سماحة تدنى البعيد، وتثبت القريب.

وبهذه الأخلاق التى سرت إلى بعض مريديهم وأتباعهم كانوا يجذبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين يختلطون بهم، فإن المعاملة الحسنة، والاختلاط الذى يكون بعشرة طيبة يجذب النفوس، وتسرى بها العقائد الفاضلة، فتسرى العقيدة العالية إلى مادونها كما يسرى الماء العذب من المكان المرتفع إلى المكان المنحدر.

وقد كان هؤلاء الآحاد من المتصوفة الذين لا يشعبذون بل يتعبدون ويختلطون بأهل أفريقيا الوثنيين، والمجوس والوثنيين فى آسيا، فيؤثرون بمعاملتهم، وبسعة صدورهم، وعقولهم بأكثر مما يؤثر القول، وقد كانت تقترن بهذه الأخلاق دعوات آحادية أحياناً.

الثانى من الأمور التى كانت تقوم بها الدعاية الصوفية مجالس الوعظ التى كان يعقدها الأئمة من الأقطاب، فقد كانت مجالس عامة يحضرها المسلمون، ويحضر فيها غير المسلمين فيتبعون الشيخ فى مواعظه ثم يعلو الأتباع حتى يتبعوه فى عقيدة الوحدانية، وكان

من هؤلاء من له ثقافة إسلامية واسعة، وعلم بالإسلام أصوله وفروعه كعبد القادر الجيلانى الذى عاش فى القرن الخامس والسادس الهجرى من ٤٧٠ – إلى ٥٦١– فقد كان عالماً بالأصول والفروع، والحديث رواية ودراية قد جلس للوعظ أربعين سنة، فقد ابتدأ واعظاً، من سنة ٥٢١ ومفتياً من سنة ٥٣٦ إلى أن قبضه الله تعالى، وكأن منصب الإفتاء كان فى نظره أعلى من منصب الوعظ، لأنه ما تصدى للإفتاء إلا بعد الستين.

وكانت تعقد مجالس وعظه، وتكون موعظته عامة لايمنع منها أحد ولايمنع فيها من الحضور أحد، فكان يدخل اليهودى والنصرانى، والمجوسى والوثنى، وقيل إن مجلسه كان يحضره نحو أربعة آلاف، وما كان المجلس ينفض إلا على إسلام كثيرين، ومنهم من كان يحضر إليه طالبا الهداية، فيسلم على يديه.

لقد جاء فى كتاب (قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر) «أنه أتاه فى مرة ثلاثة عشر رجلا من النصارى، وأسلموا على يديه فى مجلس وعظه، وقالوا نحن من نصارى العرب وأردنا الإسلام، وترددنا فيمن نقصده لنسلم على يديه، فهتف بنا هاتف نسمع كلامه، ولانرى شخصه : أيها الركب ذو الفلاح ائتوا بغداد وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر، فإنه يوضع فى قلوبكم ببركته مالم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس.

ومع ما كان يفد إليه من الناس بحكم ما نال من سمعة بركته وإخلاصه، كانت مجالسه التى كان يحضرها أحياناً عدة تبلغ أربعة آلاف يحضرها بعض المجوس والمسيحيين وغيرهم من غير المسلمين، وهو يتجه فى دروسه إلى ثلاثة اتجاهات : أولها وأغزرها يتعلق بالقلب وتطهيره من الأرجاس وتربية المحبة فيه، وبعضها يتجه إلى بيان العقيدة الإسلامية بياناً واضحاً بينا لا اعوجاج ولاتعقد، يعتمد على القرآن والحديث فى بيان العقائد، ولا يتعرض لعلم الكلام إلا عند الاضطرار إلى الأدلة المنطقية، وفى كثير يتجه منها إلى بيان الأحكام الفقهية مبيناً أسرار هذه الأحكام، والحكمة فى شرعيتها متجهاً فى بيانها إلى تربية الأخلاق الربانية، لأنه كان ربانيا.

فبهذا البيان الحكيم، وبما حف به من بركات، كان ربانياً فى أخلاقه وبيانه وسلوكه، فكان النصارى والمجوس الذين يحضرون درسه ينجذبون إلى الحقائق الإسلامية انجذابا، وبفضل إخلاصه، واستقامة نفسه وعقائده وحسن أدائه، ومايحف به من بركاته، يسلم الناس من غير دعوة إلى الإسلام، بل إنه بهذا الأسلوب النورانى يفتح القلوب.

فكان القطب عبد القادر الجيلانى مربياً لنفوس مريديه، وداعيا إلى الحق وإلى الهداية، ومن هذه الناحية دخل فى الإسلام على يديه الكثيرون لطهارته وإخلاصه، وحسن دعوته إلى النور من غير تكلف.

الصوفية والإسلام فى إفريقيا

التيجانية:

٤٥- ذكرنا ما كان من أثر فى تصوف الصوفية من أقطابها من أمثال القطب أحمد الرفاعى، والقطب عبد القادر الجيلانى، واخترنا عبد القادر مثلا طيبا للدعوة الإسلامية، وما كان لنا أن نتبع الأقطاب قطبا قطبا، ولكنا اخترنا مثلا صالحا، لمن لم نذكرهم، على أنه واحد منهم، والآن نقفز قفزة مكانية وتاريخية لنجتاز إلى إفريقية فإنه دخلها نور الإسلام بالدعاة الأولين فى شمال أفريقية فى ليبيا وتونس والجزائر، والمغرب الأقصى، ثم اجتاز البحر إلى الأندلس، وذلك بالدعاة الذين حملوا القرآن داعين إلى الإسلام ومزيلين كل الحجزات التى تحول دون الدعوة، حتى أزهر، وكان فى الأندلس حاملا للحضارة التى لم يعرفها أهلها من قبل.

ولكن الإسلام لم يتغلغل فى وسط أفريقيا السوداء فى أول الأمر لأنها كانت مجاهل، وكانت الجهالة تسيطر عليها، ولم يتجه القائمون إليها ابتداء، بل اتجهوا إلى النوبة ثم السودان الذى يسير فيه النيل، وقد عمر أهل الشمال فيه بالعرب الذين آووا إليه من مظالم من اغتصبوا الأمور من الخلافة العباسية، ولذا تجد فى شمال السودان كثيرا من العباسيين الذين هربوا من الاضطهاد عند الغزو التترى.

وإن الحضارمة كان لهم الأثر الواضح فى دخول الإسلام فى شرق السودان، وترى آثارهم واضحة فى ذلك، وكثيرون منهم يقيمون مع إخوانهم الأفريقيين.

أما فى غرب أفريقيا ووسطها فكانت الدعوة إلى الإسلام تجئ من شمال أفريقية قوية واضحة نيرة.

وكان للصوفية فضل كبير في هذا فإن أتباع أبي الحسن الشاذلي، والمرسي أبي العباس، ونشاط ابن عطاء الله السكندري كان لهم دخل بالقدوة والمسلك في أفريقيا، والفضل الواضح الأثر كان للتيجانية والسنوسية في القرون الأخيرة، فقد كانت التيجانية لها عناية شديدة بالدعوة إلى الإسلام، في غرب أفريقيا ووسطها، وكان السيد أحمد التيجاني ١١٥٠ - ١٢٣٠م، ومن جاء بعده لايقتصرون في تعاليمهم على بث التصوف والزهادة والروحية، بل يجتازون إلى أفريقيا السوداء يبثون فيها الإسلام، ويربونهم، كانوا يعلمون الزنوج الإسلام، وينشئون لهم معاهد تدرس الإسلام، ثم يرجعونهم إلى أقوامهم دعاة، ومدرسين في المعاهد التي أنشئوها، وقد استمروا على ذلك حتى انتشر الإسلام في غرب أفريقيا ووسطها، حتى إنك ترى الكثرة الكاثرة في ساحل الذهب وساحل العاج، وغانا وغينيا، والسنغال والكنغو ونيجيريا من المسلمين الأقوياء في تدينهم، وإن كان فيهم جهل يحتاجون معه إلى من يعرفهم بالأحكام الإسلامية بإجمالها وتفصيلها وفروعها وكلياتها.

ولما استعمرت أوربا أفريقية، وأرسلت لها المبشرين فرادى وجماعات، لم تستطع تنصيرهم ولم يستطيعوا أن يهضموا بعقلهم الفطرى المستقيم المعانى التى يدعو إليها نصارى هذا الزمان، فنصرانية اليوم غير مسيحية المسيح عليه السلام.

ولكنهم -أى الأوربيين- جعلوا حكامهم من غير المسلمين، ولايزالون بعد أن خلعوا نير الاستعمار من فوق رقابهم، أولئك الحكام يعملون بجدع أنوفهم ليبقوا على جهالتهم، ولكن النور دخل إلى قلوبهم، فاتجهوا إلى العمل على تولى السلطان، واتجه المتحكمون إلى إبعادهم عن العلم ولكنهم لايقوون على الوقوف ضد التيار، ولذا أخذوا يتملقون ويدهنون ليبقوا فى حكمهم.

والحبشة كثرتها الساحقة مسلمة بالدعوة الحضرمية، ولكن حكامهم يحولون بينهم وبين العلم، ولايمكنون منه إلا من هو نصراني ليميت الجهل المسلمين والإسلام دين العلم.

ومهما يكن فإن المتصوفة من التيجانية لهم دور كبير فى إسلام غرب أفريقيا مع السنوسية والجيلانية.

السنوسية:

٤٥- لن نتكلم فى الدولة التى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بليبيا والتى رأسها ملك من أحفاد السيد السنوسى، الذى كان قائماً بالدعوة إلى الإسلام نقياً من الشوائب، وألف فى ذلك الكتب يدعو فيها إلى تنقية الإسلام مما خالطه من أوشاب الزمان،

وتوالى الأزمنة، إنما نقصد تلك النزعة الفكرية القوية التى نشأت فى الزوايا التى أنشأها محمد بن على السنوسى، وابتدأ بها فى أبى قبيس بمكة، ثم مدينة الرسول ﷺ، ثم أنشأها فى ليبيا والجزائر، والصحراء، حتى وصل إلى بحيرة تشاد فى وسط أفريقيا، والتى كانت تقوم بالدعوة إلى الإسلام، تدعو إليه نقيابين المسلمين، وتربية روح القوة، والأخذ بما هو من أسباب القوة فى العصر الحاضر، وتدعو الوثنيين وبقايا العناصر القديمة إلى الإسلام فى وسط أفريقيا وسواحلها، ودخل استجابة لهذه الدعوة القوية المستمرة عدد لايحصى إلا بالألوف فى نيجيريا وغانة وغينيا والسنغال والكونغو وتشاد، وأوغندا، وروديسيا، وغيرها من وسط أفريقيا، وقد ضايق ذلك المبشرين، وحاولوا أن يتباروا معهم فباءوا بالخسران لسلاسة ما تدعو إليه السنوسية وتعقيد ما يدعو إليه دعاة المسيحية.

وإن الزوايا التى أشرنا إليها، وأنشئت فى الجزائر وتونس وبرقة، وتغلغلت فى الصحراء الغربية حتى وصلت إلى الأراضى الخضراء حول وادى النيل، وغيره من أنهار أفريقيا، وكانت أولى ثمرات هذه الزوايا خصوصاً بين الوثنيين ذيوع الدين الإسلامى فى قلب تلك القارة المظلمة، ونجحت تلك الدعوة السنوسية فى هذه الجهات لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوربية المنبثة فى القارة الأفريقية كلها تجد فى الدعوة إلى الإسلام من السنوسيين خصما عنيداً، ولاقبل لها بالتغلب عليه مع ما أوتيت من مال وقوة دولية، انظر كتاب (السنوسية دين ودولة للدكتور محمود فؤاد شكرى).

كان كبير السنوسيين يرسل الرسل إلى الزوايا، وينقلون القوافل والسائرين فى الصحراء، يدعونهم إلى الله آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر هادين الوثنيين، حتى تكونت من عمل هؤلاء، وعمل من سبقوهم من التيجانية، الذين ينتمون إلى الطريقة الشاذلية مثلهم أن وجدت دول إسلامية الكثرة الكاثرة فيها مسلمون.

ولقد تململ المتعصبون من الأوروبيين من هؤلاء السنوسيين فحاربوا دعوتهم، ودسوا بينهم وبين الدولة العثمانية التى كانت تلك البلاد تابعة لها أو خاضعة لنفوذها.

ولكنهم كانوا ماضين فى بث الإسلام فى نفوس الأفريقيين، وإن ضج منهم المبشرون وضاقوا ذرعا بهم إذ وجدت الإرساليات النصرانية التبشيرية فى السنوسيين خصوما أقوياء أشداء فى عملهم لايملون، ولايقوون على وقف حركاتهم، وقد عطلوا أعمالهم، وأفسدوا عليهم دعاياتهم، وإن التبشير كما هو معلوم لمؤرخى العصور الحديثة نذير الاستعمار يتقدمه، ويقويه.

ولذلك أحست الدول التى باشرت استعمار أفريقية كفرنسا وإيطاليا، بخطر الدعوة الإسلامية ونشرها، على مطامعهم المتعصبة ضد الإسلام، وإن ظهرت بغير ماتخفى، ولذلك حاربت السنوسية أو حاربت فيها الدعوة إلى الإسلام، بكل الطرق المحللة فى قانون الأخلاق والمحرمة على سواء.

وقد اتجهت الدعوة السنوسية إلى جنوب السودان، وكان آخر السنوسيين فى قوة دعوته وإخلاصه السيد أحمد الشريف السنوسى ابن عم من صار ملكا من بعد، كان قد رأى جنوب السودان هو الذى لم تعم دعوته، فأرسل الرسل إليه من السنوسيين، يدعون إلى الإسلام حتى ضاق بهم ذرعا المندوب الإنجليزى إذ ذاك وهو اللورد كتشنر، فأرسل إلى السيد السنوسى يتضرع إليه أن يخفف دعوته.

ولولا حرب الطليان مع السنوسية فى سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ لحول الجنوب السودانى إلى مسلمين، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

الدعوة الإسلامية الآن

٤٧- ذكرنا أن الدعوة الإسلامية واجبة، وأنها تبليغ رسالة النبى ﷺ وأنها فرض على الكافة، فرض كفاية على الجماعة الإسلامية كلها، بحيث يجب على الأمة الإسلامية مجتمعة أن تهيئ جماعة من بينها تكون عندها القدرة على الدعوة الإسلامية ولها مؤهلات علمية، بحيث تكون على علم كامل بالإسلام فى كلياته، ولها علم بالبيان وقدرة عليه، ولها علم بالنفوس الجماعية والآحادية، ولها قدرة جسمية وعقلية، ودربة على الاتصال بالجماعات، والمشاركة الوجدانية بهم، والتغلغل فى نفوسهم. وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين[1]»

وقلنا إن كل واحد من المسلمين عليه واجب خاص، وهو أن يدعو من يعرف، من عشراء وجيران، ودعوته إليهم ببيان الإسلام على قدر ما يعرف، وكذلك كان يفعل الصالحون من المؤمنين فى صدر الإسلام، وماجاء بعده من عصور.

وإن من أقوى الدعوة العامة حال المسلم فى خلقه ودينه، وعقله واستقامة نفسه، فقد ذكرنا أن القدوة كانت أقوى داع إلى الإسلام، ولانقول مثبطين إن حال المسلمين منفرة عنه،

---

(١) النحل : ١٢٥.

مبعدة الدخول فيه، لانقول ذلك، ولكن يجب أن تكون الأخلاق الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة وأعمال السلف الصالح، واضحة فينا، وإذا كنا قد تخلفنا عنها فى الماضى، فإنه يجب علينا أن نزيل غباره فى نفوسنا وأخلاقنا، وأعمالنا، وأن نظهر هادين مرشدين، كما كان أسلافنا رضى الله تبارك وتعالى عنهم.

ولايسوغ لنا أن نظن أن الفقر منفر من الإسلام، وأن الغنى والظهور به مقرب من الإسلام، إنما الأمر أمر النفوس وحسن العشرة، وقد رأينا فى عصرنا، وفى الأيام القريبة أن أصحاب المهن الصغيرة فى الأعين كالحمالين والنساجين، والعمال غير الفنيين تبدو منهم أخلاق فى حسن العشرة والائتلاف مع إخوانهم، والوفاء والفداء ماليس فى غيرهم، وكان منهم، وهم الذين لايعلمون إلا قليلا، يؤدون أركان دينهم من صوم وصلاة، وصدقات من قوتهم – من يجذبون الناس إلى الإسلام، وهم بهذه الحال المتواضعة، وما نقص تواضع من عزة.

وكنت أرى منهم من يذهب إلى المحكمة الشرعية، ومعه صاحب مسيحى، وشاهدان يشهدان بتوثيق الإسلام، فسألت رئيس المحكمة عن ذلك. فقال لى : لا يخلو يوم من مثل هذا، وكان ذلك أيام كانت المحاكم الشرعية توثق الإسلام.

فالاعتبار هو فى النفوس لا فى المظاهر من لباس ورئى.

تنظيم الدعوة

٤٨ – نتكلم فى هذا الموضوع على شعب ثلاث:

(أ) كيف تتكون الجماعة الداعية إلى الإسلام تنفيذاً لفرض الكفاية، وكيف يكون تنفيذ الدعوة الآحادية، أو الفردية.

(ب) أساليب الدعوة

(جـ)مادتها.

الجماعة التى تتولى الدعوة، يجب أن يكون تكوينها عمل الجماعات والأقاليم الإسلامية، وقد أهملنا فى الماضى تكوين تلك الجماعة التى تقوم بهذا الفرض الكفائى، الذى يكون واجباً على الخصوص وعلى العموم كما يقول الإمام الشافعى رضى الله تبارك وتعالى عنه فى رسالته فى علم الأصول.

ووجوبه على الخصوص أى يكون فرضاً عينيا، بالنسبة للجماعة التى تكونت، وحملت عبء الدعوة ووجوبها على العموم من حيث إن جميع المؤمنين عليهم أن يكونوا هذه الجماعة، وكذلك الشأن فى كل الفروض الكفائية، لها جانب خصوص تلزم به الجماعة التى تألفت لذلك الفرض الكفائى، وواجب على العموم من حيث ذلك التأليف كالطب هو فرض عين على الأطباء، وفرض كفاية على العموم من حيث إنه يجب على الجميع أن يعملوا على تربية الأطباء فى فرع من فروعه.

فعلى كل إقليم أن يربى جماعة للدعوة إلى الإسلام، ولعلنا لانكون داعين إلى عجب إذا دعونا فى كل جامعة إسلامية أن يكون فى الدراسات العليا بها دراسة خاصة بالدعوة الإسلامية، تخصص لهذه الدعوة، تدرس علوم القرآن والسنة دراسة خاصة بالدعوة الإسلامية، فتبين فى القرآن أخبار الأنبياء السابقين، وطرق دعايتهم، بدعوة الله تعالى إلى دينهم، وتدرس السنة دراسة يتبين منها طرق دعوة النبى ﷺ إلى الله وطرق تبليغ رسالته، وتدرس الأحاديث الخاصة بهذه الدعاية.

وتدرس بها لغات البلاد التى يراد الدعوة فيها، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والعادات الاجتماعية فى هذه البلاد.

ويدرس بهذا النوع من الدراسة علم النفس من كل جوانبه، وتدرس الخطابة، وطرق الدعوة وأساليبها، وعلم أدب البحث والمناظرة، وغير ذلك مما يحتاج إليه البيان، ويدرس علم مقارنة الأديان.

ويقبل فى هذه الدراسات العليا المتخصصة للدعوة غير طلبة الجامعة الإسلامية المتخصصين للدراسات الإسلامية من تفسير وفقه وحديث، ولغة عربية– طلبة الكليات النظرية والعلمية إذا أرادوا أن يتخصصوا للدعوة الإسلامية.

وإن ذلك له مكانه فى الدعوة الإسلامية، لأنهم يستطيعون أن يكونوا دعاة للإسلام، ويدعون فى طبهم إلى الإسلام بالتبرع بخبرتهم الطبية، وكذلك المهندسون، والتجاريون، والزراعيون، وإنه فى البلاد النصرانية يوجد أطباء ومهندسون وغيرهم من المتخصصين من العلماء من يريدون أن يدعوا إلى ملتهم ويبشروا بها، فيذهبوا إلى كليات اللاهوت، ويدرسوا فيها ولسنا بدعا فى هذا.

ويدرس فى هذا القسم من الدراسات العليا أحوال البلاد التى يذهبون إليها فى الدعوة الإسلامية، وهكذا يحمل المتخصص كل مؤهلات الدعوة إلى الإسلام، وتلك إشارة

معرفة، وعند الاتجاه إلى هذا تفصّل المناهج تفصيلا كاملا لتكون مؤهلة لهذا العمل الذى هو عمل النبيين، وهو تبليغ رسالة سيد المرسلين، وخير الدعاة إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.

وإن من واجب مجمع البحوث الإسلامية ومؤتمره الذى ينعقد كل عام أن يكون منه موجهون لهذه الدراسات، يتبعونها، ويشرفون عليها، ويوجهونه إن كان ذلك فى دائرة الإمكان، ولم تحل الحاجزات الإقليمية دون ذلك.

وإنه بجوار ذلك تكون ثمة مكاتب إسلامية تابعة لمجمع البحوث تتولى الخريجين من هذه الدراسات، وتوجههم إلى الأقاليم والبلاد التى يمكن أن تقوم فيها الدعاية الإسلامية إذ تكون الأرض صالحة، والنفوس مستعدة لمعرفة الحق فى الأديان، وإننا نرى أنه عقب الحرب العالمية الثانية كانت النفوس متقبلة للدعوة الإسلامية فى بلاد الجرمان ولكن لم يكن ثمة دعاة إلا من بعض القاديانيين.

الإشراف على الدعوة:

٤٩- ومع هذه الجماعة التى تتخصص لإقامة الدعوة، وتكون الدعوة فرض عين بالنسبة لها، كما يكون الطب فرض عين على الطبيب، ويكون على المجموع إقامتها.

مع هذه الجماعة توجد دعوات آحادية لايمكن الرقابة على توجيههم ولكن يمكن إرشادهم إلى أمثل الطرق، ولذا يجب على الوعاظ الذين يعظون فى المساجد، وأئمتها أن يبينوا للناس واجبهم فى هذا وأمثل الطرق، ويبينوا أن ذلك قيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن ذلك يكون حسبة فى سبيل اللهّ، وأن العشرة الحسنة والرفق، وأخذ المخالفين بالمعاملة الحسنة، وألا يجافوهم، ويستدنوهم بالمودة الرابطة، وأن يعرفوا أنه لايدنى القلوب كالمعاملة الطيبة والرفق فى القول، وألا يسبوا اللّه بغير علم، فقد قال تعالى: «ولاتسبوا الذين يدعون من دون اللّه فيسبوا اللّه عدواً بغير علم»(١).

وذلك فوق أن سب دينهم، ينفرهم، ولايقربهم، ويوجد العناد فى قلوبهم، وحيث كان العناد كان الجمود، وحيث كانت المودة، كان القرب، وتفتح القلوب ليدخلها نور الإسلام.

وإنه توجد جماعات فى البلاد الإسلامية تخصص نفسها للدعوة الإسلامية وجدناها فى لاهور سنة ١٩٥٨، وهذه الجماعات تخصص جزءا من أعمالها للدعوة إلى الإسلام، فيخصصون عشر أوقاتهم وأموالهم، وجهودهم للدعوة إلى الإسلام.

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٨

ويخرج الواحد منهم مجاهداً فى سبيل الدعوة، لايحمل أى شئ يقوى إلا قوة نفسه، ورغبته فى تبليغ رسالة النبى ﷺ، يذهبون إلى حيث يكون للدعوة مجيب، وقد أسلم على أيديهم أكثر من أسلم من زنوج أمريكا وجزر الهند الشرقية وغيرها كأطراف أندونسيا.

وهؤلاء فيهم من يعلمون حق العلم ويدركون رسالة النبى ﷺ حق الإدراك، وبينهم من يعلمون علماً ابتدائياً، وقد يبلغون من يدعونهم أحياناً تعاليم غير سليمة فى تفصيلات الإسلام، ولذا يجب علي القائمين على الدعوة الإسلامية المتخصصين أن يكونوا على علم بما يقوم به هؤلاء، ويعلموهم، ويتعرفوا حال من استجابوا لهم، ويصححوا لهم ماعرفوا.

وإن كثيرين من هؤلاء يعلمون الإسلام على انحراف فيما يعلمون كالقاديانية، ولهم فى ذلك نشاط بيِّن واضح، وحسبهم أن يدخلوا من أدخلوهم فى الإسلام، وعلينا تصحيح إيمان أولئك الذين دخلوا في الإسلام ليكونوا مؤمنين.

الاتصال بالصوفية:

٥٠ – ذكرنا أن الصوفية فى الماضى كان لهم دور فى الدعوة الإسلامية، وقصصنا لك بعض القصص عن مجالس القطب عبد القادر الجيلانى، ومقام الشاذلية، ومن ساروا على نهجهم فى ذلك.

وانتهينا إلى السنوسية، ومقاومتهم للتبشير النصرانى، وتبرم أولئك هم ومن وراءهم من الفرنسيين والإنجليز والطليان، وغيرهم.

والآن نريد أن نتخذ من الصوفية فى هذا الزمان مادة للدعوة إلى الإسلام، وقد رأينا بعض الدعاة إلي الإسلام من السودانيين يدعون إخوانهم من الجنوب إليه، إذ لا سبيل إلى الوحدة في السودان إلا بإسلام الجنوب، وجدنا أن من الصوفية من اتخذوا منهاجاً لهم الدعوة إلي الإسلام، حتي بالذكر والتمايل ذات اليمين وذات الشمال، فقد كانوا بذلك يجذبون العراة من الوثنيين السودانيين إليهم، فإذا جاءوا كسوهم بعد عرى، وأطعموهم، ودعوهم إلى الإسلام، أو بعبارة أدق علموهم الإسلام، وكانوا يستجيبون لهم أكثر من استجابتهم لمبشر النصارى، وكانوا يقولون للشيخ الصوفى : ياشيخ ، إنك خير من هذا الإنجليزى، وكلامك أطيب، وأحسن.

وكانوا يسيرون بهم سير التدرج، فيعلمونهم الصلاة، فإذا جاء الصوم علموهم الصوم، وهكذا يدخلون الإسلام فى نفوسهم جرعة، جرعة، كما دخل الإسلام فى قلوب العرب متدرجاً، وإذا كان للصوفية تلك القدرة إن سلكوا مسلك أسلافهم، ولم ينقطعوا عن

الناس فى الخوانق أو يحصروا أنفسهم على المواكب بالبيارق، والذكر والتلوى لغير غرض مقصود من وراء أفعالهم.

وإن تنظيم أمورهم ليكونوا للإسلام من الأمور الممكنة، وإن لهم تأثيراً فى العامة، وفى أوساط الناس، وإذا تسربلوا بسربال الزهادة مع الدعوة إلى الإسلام أفادوا كثيراً وعلت مكانتهم، إنهم ينبثون فى كل مكان وفى كل بلد، فلو اتجهنا فى سبيل الدعوة إليهم لكان فى ذلك خير.

إن مشايخ الطرق الصوفية فى كل الأقاليم الإسلامية لو اتجهوا إلى ما اتجه إليه أسلافهم في الماضى ونظموا الدعوة إلى الإسلام فى مجتمعاتهم، لكانوا قوة فى الدعوة إلى الإسلام منتجة مثمرة، إن الزهادة فى الدنيا، أو الانصراف إلى الذكر، ولو كان بالقلوب ليس هو المقصد الأسمى من الإسلام، إنما هو ذكر الله الدائم فى القلوب، والعمل الصالح، وقد كان بدل الأبدال على بن أبى طالب فارس المسلمين، يعود من المعارك وسيفه ينطف دماً، وهو الزاهد الباكي إذا قرأ القرآن، وإذا عرضت له الدنيا قال لها : غرى غيرى.

إن الصوفى الكبير لايكون قطباً ربانياً إلا إذا عمل عملا ربانياً، كما فعل القطب عبد القادر الجيلاني، وكما فعل الأقطاب التيجانى والسنوسى، إنه عند تربية المريدين تهذب قلوبهم، وتعمر بذكر الله، وتمتلئ إيماناً به، فإذا اعترفوا مع ذلك بأنه من قوة الإيمان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى دين الله تعالى، ويعلموا قول النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب :«لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»

إن المتصوف إذا رغب فى التقرب إلى ربه بالصلاة والأوراد، والدعاء ليلا ونهارا يعمل لنفسه فقط وتقواه عائدة عليها وحدها، ولكن إن دعا الناس إلى الخير الذى وفقه الله تعالى إليه كان عاملا لغيره مع نفسه، وأعظم الخير أن تهدى رجلا إلى الإسلام.

وإنه إذا علم المريد ذلك التعليم، كان من المجاهدين المتصوفين، ولقد قال النبى ﷺ «رهبانية أمتي الجهاد» وأول الجهاد الدعوة إلى الإسلام، بل إن الجهاد ما فرض إلا لإزالة المحاجزات التى تحول دون الدعوة إلى الإسلام.

إن البلاد الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها تؤثر فيها الدعوات الصوفية وأعمال الصوفيين، فإذا قاموا بحق الدعوة استجاب الناس لهم، إن كانوا مخلصين. وخلاصة القول أننا نريد أن تتوجه الصوفية إلى الدعوة إلى الإسلام فى ربوع الشعوب الإسلامية كلها، لا فى مصر وحدها.

إنها إن اتجهت إلى ذلك كانت أعلى قربة إلى الله وأنفع للناس، ولاتكون مجرد أعمال قد تتجه بها إلى الشعبذة، نريد تنقيتها، وجعلها نافعة للدين وللناس.

أساليب الدعوة

٥١ - أساليب الدعوة تتكيف بحال العصر من أساليب الدعاية، وقد صارت الآن طرق الإعلام متعددة النواحي، فمنها الكتب المنشورة، والصحف السيارة، والأقوال المذاعة المرئية وغير المرئية، ومنها اللقاء بالجماهير والآحاد :

(أ) ولاشك أن الكتب التى تكتب عن الإسلام ومبادئه وما اشتمل عليه من عقائد سليمة تتفق مع ما يحكم به العقل السليم، والأحكام التكليفية سواء أكانت تتعلق بتهذيب الآحاد أم تتعلق بتنظيم العلاقات فى داخل المجتمع الإسلامى، وعلاقات بنى الإنسان بعضهم مع بعض، وأساسها الوحدة الإنسانية، والأخوة العامة، والتعاون الإنسانى، ومع هذا التعارف التعاون الإنسانى العام الذى يدعو إليه الإسلام، وما دعا إليه الإسلام من عدالة اجتماعية.

وهكذا تكتب الحقائق الإسلامية بكل اللغات الحية، وغير الحية مادامت موضع الدعاية الإسلامية.

إن العالم لايعرف الحقائق الإسلامية إلا عن طريق أعداء لها ينقلونها شائهة كما يحبون، وعلى ما تهوى أنفسهم المعادية التى لاتنظر إلى الإسلام نظرة غير متحيزة أو غير جانبية لايرى بها القرطاس إلا من جانب الهوى المضلل، والكذب المفترى.

والعامة لايعرفون شيئاً عن الإسلام، فمن الخير فى الدعوة الإسلامية أن نكتب رسائل صغيرة فى كل موضوع من موضوعات الإسلام يسهل تناولها، ويسهل هضمها، وتكون الموضوعات التى تشكل الرأى العام، كنظرية العلاقات الإنسانية فى الإسلام، وكنظرية الحرب، والتكافل الاجتماعى، وذلك كله مع بيان العقائد الإسلامية والعبادات الإسلامية السهلة الإدراك التى لا نرى فيها اضطراباً فى فكر، ولا التواء فى اعتقاد.

ويجب أن تتوافر الجماعات التى تتخصص فى هذا؛ لكتابة ما يكون فى الإسلام علاج له فى وسط ذلك المضطرب الإنسانى، وخصوصا فى المسائل التى تثير النزاع فى هذا الوجود الإنسانى.

(ب) ومن بعد هذه الكتب المبينة لحقائق الإسلام، إذاعة هذه الحقائق بالمذياع المرئى

وغير المرئى فى البلاد الإسلامية، وغيرها إن أمكن فتخصص ساعات من الإذاعات الإسلامية بنوعيها لبيان الحقائق الإسلامية الإنسانية والجماعية والآحادية ليكون الناس على علم بالإسلام، أو ليعرفه من يتعرفه، وبالنسبة للعقيدة تذكر آيات القرآن الداعية إليها بأسلوب لايعلو على العامة، ولاتنبو عنه أذواق الخاصة.

وتذكر حياة الرسول ﷺ، وما اقترن بها من معجزات وخوارق للعادة، مع بيان أخلاقه الذاتية، وفضائله المحمدية من وقت مولده إلى أن لقى ربه.

(جـ) والمجلة الإسلامية بدل أن تكتب المقالات المسهبة فى اختلاف العلماء أو تهويل الأحكام الإسلامية، أو تتبع ماهو مستور مما لايعلن ينبغى أن تخصص كل مجلة بابا من أبوابها لبيان الحقائق الإسلامية، فتبين العقيدة، وتبين الأحكام التكليفية، ويكون باب الدعوة مكتوبا باللغة العربية ابتداء، ومترجماً إلى لغة من اللغات الحية أو لغة من اللغات المنتشرة فى العالم، ويعمل على توصيلها إلى كل أجزاء الأرض.

(د) وتنشأ جماعات متخصصة للدعوة فى كل بلد غير إسلامى ما أمكن ذلك، فإن تعسر أو تعذر تكون فى بلد قريب منه يمكن أن تصل الحقائق منه إليه، فتنبث الجماعات الإرشادية التى كونها الفرض الكفائى لهذا الغرض فى طول الأقاليم وعرضها داعية مبينة باللقاء بالذين تدعوهم، وتهديهم إلى الله تعالى، وأن يحسوا بالخير الذى يكون فيه من يتبعون الإسلام حقا وصدقا.

وإن هؤلاء الذين يدعون إلى الإسلام عن قرب، ويلتقون بالمدعوين لايقتصرون على القول، بل يجب أن يكون تأليف القلوب بجوار الدعوة القولية التى تبين الحقائق الإسلامية، فيجب أن يكون بجوار ذلك، وسائل عملية تؤلف ولاتنفر، وتقرب النفوس من غير أن يكون فيها ما ينفر، وذلك بالمعاونات الإنسانية المختلفة، فإنها تدنى القلوب النائية.

فإذا كان الداعى طبيبا عالج المرضى، وطب لذوى الأسقام، وفى سبيل ذلك تقام المصحات الإسلامية فى وسط الأقوام الضعاف لطب أجسامهم، ومن وراء ذلك تأليف قلوبهم. والمبشرون المسيحيون يفعلون ذلك فى البلاد الإسلامية، وإذا كانوا لاينجحون، فلأنهم بين أقوام دينهم أهدى سبيلا، وأقوم دليلا.

وتكون الرعاية الاجتماعية والاقتصادية قائمة على دعائم إنسانية لايبدو فيها أنها شراء للنفوس، ولايكون ذلك مقصداً بأى وجه من الوجوه بل يطعمون الطعام على حبه أولئك المساكين، وإذا كان التأليف غاية من حيث الدعوة، فإنه يجب أن يكون الباعث إنسانياً دينياً

تأليفيا محبباً فى الإسلام وليس اتجاراً، وبيان أن ذلك مقصد جوهرى من مقاصد الإسلام، ويبين لهم فى هذا المقام أن الإسلام يرحم الإنسان ويكرمه لأنه إنسان ولو كان وثنياً أو مجوسياً، ويذكر لهم سيرة السلف الصالح فى ذلك .

وإن الإسلام لاينظر فى التعاطف الإسلامى إلى الاختلاف فى العنصر أو الجنس أو الدين، وإنما الجميع سواء أمام الله تعالى، كما قال تعالى : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(١).

فهذا التبرع بمصحة أو علاج، أو معونة أو هداية إلى أسباب الإنتاج من زراعة وهندسة، واستخراج المياه هو من باب التعاون الذى حث الله تعالى عليه، ودعا إليه، فقد قال تعالى«وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان»(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه» يبث فيهم هذه المعانى عن الإسلام، وهو يمدهم بهذا العون، لكيلا يعلموا أنه ثمن الاتباع.

(هـ) ويجرى معهم بسنة التدرج، لايعطيهم الإسلام جرعة واحدة، كما أشرنا من قبل، بل يتدرج بهم من السهل المقبول الذى لاينفرون منه بمقتضى عاداتهم، وإن كانت آثمة.

يبتدئ معهم، ببيان العقيدة، ويقويها بالصلاة، ويعلمهم الصلاة عملا، ويقول لهم صلوا كما رأيتمونى أصلى، ويسير بهم سيراً إلى الإمام فى بيان الشريعة بالتفصيل يبتدئ بالعبادات، ثم بالمحرمات الأسهل قبولا فالأسهل قبولا حتى يبين لهم الشريعة كاملة فيكونون مثلنا، إن لم يكونوا خيراً منا .

الداعى

٥٢ - لاشك أن شخصية الداعى لها الأثر الأكبر فى الاستجابة، فهو الذى ينفذ إلى نفوسهم فيقربها أو يجئ بمخاشنتهم فينفرها، أويكون فيه جفوة طبع، وغلظة نفس فلا يميل أحد إليه بالفطرة، ولقد قال الله تعالى : «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك»(٣)، وإنه يجب أن يتحلى بالصفات الآتية :

أولا - يجب أن يكون ذا نية حسنة يحتسبها لايدعو رجاء أجر، أو مال أو جاه، إنما يدعو رجاء ما عند الله لأنه يقوم مقام النبيين فى الدعوة إلى ربهم، والاتجاه إلى الناس بقلب سليم، لايطلب إلا ما عند الله تعالى، وإن مافى القلب يصل إلى القلب.

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) المائدة : ٢ (٣) آل عمران : ١٥٩

يروى أن رجلا قال للحسن البصرى كلاما حسناً، فقال له الحسن: إما أن يكون بنا عيب أو بك، إنا لم يؤثر فينا قولك؛ إن ما كان من القلب يصل إلى القلب، إنه يتقدم الداعى إلى الدعوة مؤمنا بوجوبها، ومتسامياً بها، لأنها عمل النبى ﷺ، ولايقوم بها على أنه مأجور يرجو رضا رئيس، أو ترقية إلى منصب.

وثانياً - يجب أن يكون على دربة فى البيان، ومعرفة وجوه القول، ولايشترط أن يكون خطيباً مدرها، بل يكتفى بأن يعرف كيف يخاطب الناس، ويأتى بهم من قبل مايدخل إلى نفوسهم. يأتيهم من قبل ما يألفون، فإن كانوا لايألفون الدعوة الإسلامية يحاول أن يأتيهم مما يقاربها ولاينافرها، ورضى الله عن إمام الهدى على كرم الله وجهه، إذ يقول : إن للقلوب شهوات وإقبالا وإدباراً، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمى.

ثالثاً - أن يكون شخصية نافذة لاتقتحمها الأعين، وتزدريها النفوس، وألا يكون معيباً بعيب نفسى أو خلقى، وأن يكون معروفاً بكمال الخلق، وفيه كمال سمت، يتكلم فى موضع القول، ويصمت فى موضع الصمت، ويكون صمته حكما.

ورابعاً - أن يكون أليفاً موطأ الكنف رفيقا فى المعاملة لينا من غير ضعف متواضعاً فى غير صنعة، حليما رزيناً، يتجه إلى معالى الأمور، ولا ينزل إلى سفسافها، يحسون فى حضرته بأنه منهم، يعلو بهم، فإن طار طاروا معه وإن هبط هبطوا معه.

وخامساً - يجب أن يكون عالما بالكتاب والسنة دارسا معها علم النفوس، وعادات الذين يدعوهم، ليأتيهم من قبلها غير مباعد عنها، إلا أن تكون عادات قبيحة، فإنه يعمل على تغييرها من غير تنفير، ولامباغتة، أو مهاجمة بها قبل تأليفهم نحو الحق، وجذبهم إليه، ولقد قال النبى ﷺ لمن أرسلهم للدعوة إلى الإسلام «يسروا، ولاتعسروا، وبشروا، ولاتنفروا».

وسادسا - لايكون خصما، فلا يدخل فى خصومات مع من يدعوهم، ويكون من عباد الله تعالى الذين قال الله تعالى فيهم : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواما»(١) إلى أن قال تبارك وتعالى : «والذين لايشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراما * والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما»(٢).

(١) الفرقان : ٦٣ - ٧٦ (٢) الفرقان : ٧٣ - ٧٤

وسابعها – ألا يكون فى مظهرهم مخالفة للدين ولأوامره، بل يكونون قدوة لمن يدعونهم بأن تكون الدعوة بعملهم أوضح من الدعوة بأقوالهم، فإن الدعوة بالعمل توجد القدوة والأسوة وذلك أدعى إلى الاتباع من القول، ولقد كان القرآن الكريم يدعو إلى الأسوة بالنبى ﷺ، فقد قال تعالى : «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»(١).

وثامنا – يكون بعيدا عن مواطن الشبهات، فإن إثارة الشبهات حوله تضعف قوة قوله وتوهن دعوته، وإذا وهنت الدعوة، وهنت الإجابة، ولم يجد مجيباً، وهذه الصفات إذ توافرت كان الداعى كاملا.

وإذا نقص بعضها نقص من الدعوة بمقدار النقص، ونحن نذكر الكمال وكل يسعى للوصول إليه، والقيام بحقه.

وعلى الداعى التحلى بكل ما يمكن أن يتحلى به، ومهما يكن فإنه لايصح أن يخلو من التقوى، والقيام بالواجبات الدينية، والبعد عن المعاصى، فيجتنب كبائرها، ولايظهر بصغائرها، والله هو الموفق.

مادة الدعوة

٥٣ – إن الدعوة إلى الإسلام تتكون مادتها وأدلتها مما يأتى :

أولا – العقيدة الإسلامية، وهى عقيدة الوحدانية، وبيانها من القرآن الكريم وبيان أسماء الله الحسنى أو صفات الذات العلية، كما وردت فى القرآن الكريم، من غير سلوك لطريقة علماء الكلام، ومن غير مناقشة للفلاسفة أو غيرهم، فإن المجادلة لهم فى آرائهم، تلقى بالفعل الفطرى فى متاهة يضل سالكها، ولايهتدى.

والرسالة المحمدية جزء من العقيدة الإسلامية، وتؤخذ معانى الرسالة من القرآن الكريم، الذى هو المعجزة الكبرى .

ويبين فى العقيدة الإسلامية أنها دين النبيين أجمعين، ويعرفون بهؤلاء الأنبياء كما يعرفون بالملائكة، وكما يعرفون باليوم الآخر، وما يكون فيه من حساب وعقاب وثواب.

---

(١) الأحزاب : ١٣

ويعلمونهم هذه العقيدة، كما جاء بها القرآن الكريم، ويشددون فى الإيمان بالبعث والغيب، فإن ذلك لب الإيمان، وجوهر الدين، ومن لايؤمن بالغيب والبعث لايؤمن بأى دين.

وفى الجملة يعتمد فى بيان العقيدة على القرآن وحده، وأدلته هى غذاء النفوس وشفاء القلوب.

وثانيا – الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله تعالى، وأنه أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، ويتلى عليهم مرتلا، وتتلى عليهم آيات الإعجاز مبينة موضحة بلغاتهم، فتتلى الآية بنصها العربى، فلا قرآن إلا ما هو بالبيان العربى، وتعرف لهم معانيها، بلغاتهم ويذكرون بالله تعالى فى خلق الكون وما فيه من زرع وثمار، وسماء زينها ربها بالنجوم وما فيها من خلق الكون الذى يدل على الخالق، وكما قلنا تتلى عليهم الآيات كما نزلت، وتبين لهم معانيها بلغتهم.

إن القرآن فيه علم الدين، وفيه الأدلة، وفيه الموعظة الحسنة، فيختار من آياته ما يكتب فيه النص، ويكتب تفسيره بلغتهم على أنه ليس القرآن، بل على أنه بعض مايدل عليه.

وثالثا – السنة تختار لهم أحاديث مما يبث روح التقوى فى القلوب ويهز النفوس وتدرس لهم سيرة رسول الله ﷺ، وينبه إلى مواضع العبرة فى هذه السيرة، مما يدل على أنه صادق ولايمكن أن يكون كاذبا فى الحديث عنه.

رابعا – ذكر السيرة النبوية الطاهرة، وينبه فيها على النواحى التى تدل على الصدق والأمانة، والخلق الكريم.

خامساً – بيان الأهداف الإسلامية فى الآحاد والجماعات مما يدعو إليه الإسلام فى الكرامة الإنسانية، والعدالة فى الحكم بين الناس، والعدالة الاجتماعية والدولية، وما يدعو إليه من مساواة وحرية، وتعاون بين الناس على البر والتقوى، ونهيه عن التعاون على الإثم والعدوان، ومايدعو إليه من محو التفرقة العنصرية، وما يدعو إليه من التعاون الإنسانى.

ويبين ذلك الجزء من القول بالتفصيل والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل ؟

تم بحمد الله وتوفيقه

المحتويات

مؤلفات الإمام الشيخ

محمد أبو زهرة

العالم الجليل الذى أثرى المكتبة الفقهية بموسوعاته، والذى ستبقى ذكراه شعلة وهاجة فى العلم والفقه الإسلامى. تلك المؤلفات الخصبة التى وهبه الله سبحانه وتعالى إياها لتكون منارا يهتدى به العلماء من بعده فى دراسة الفقه الإسلامى.

١ - خاتم النبيين ﷺ (ثلاثة أجزاء فى مجلدين)
٢ - المعجزة الكبرى - القرآن الكريم
٣ - تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان فى مجلد واحد)
٤ - العقوبة فى الفقه الإسلامى
٥ - الجريمة فى الفقه الإسلامى
٦ - الأحوال الشخصية
٧ - أبو حنيفة - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
٨ - مالك - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
٩ - الشافعى - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٠ - ابن حنبل - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١١ - الإمام زيد، حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٢ - ابن تيمية - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٣ - ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٤ - الإمام الصادق - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٥ - أحكام التركات والمواريث
١٦ - علم أصول الفقه
١٧ - محاضرات فى الوقف
١٨ - محاضرات فى عقد الزواج وآثاره
١٩ - الدعوة إلى الإسلام
٢٠ - مقارنات الأديان
٢١ - محاضرات فى النصرانية

٢٢ – تنظيم الإسلام للمجتمع

٢٣ – فى المجتمع الإسلامى

٢٤ – الولاية على النفس

٢٥ – الملكية ونظرية العقد

٢٦ – الخطابة «أصولها . تاريخها فى أزهى عصورها عند العرب»

٢٧ – تاريخ الجدل (الذى مضى على طبعته مايقارب الخمسين عاما).

٢٨ – تنظيم الأسرة وتنظيم النسل

٢٩ – شرح قانون الوصية

٣٠ – الوحدة الإسلامية

٣١ – العلاقات الدولية فى الإسلام

٣٢ – التكافل الاجتماعى فى الإسلام

٣٣ – المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام

٣٤ – الميراث عند الجعفرية

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

مؤسسة

دار الفكر العربى

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى – القاهرة

ص .ب ١٣٠